المُسْتوطنةُ
الأخيرَة

المُسْتوطنةُ الأخيرَة

رواية

سراج منير

إِهْدَاء

إلى شروق وخلود وزياد؛

أنجبتُكم في عالمٍ يوشكُ على التّداعي، لكنّ عذْري الوحيد أنّي أحبّكم أكثرَ من الحياة نفسها.

مقدّمة تاريخية

تقول الحكايةُ التّاريخية- التي يرويها الكثيرون- إنّ هناك جماعةً من إنسان نياندرتال عاشوا في الحوض الشّرقي للبحر المتوسّط منذُ مائة وخمسين ألف عامٍ تقريبًا. كانت لهم حضارةٌ متقدّمة للغاية، مكّنتهم من السّفر عبرَ الكون، واستيطان كوكبٍ آخر سمّوه كوكب أديتيا.

تقول الحكايةُ الدّينية التي يؤمن بها أغلبُهم إنّ تلك الهجرةَ جاءت بناءً على أمرٍ إلهي، وإنّ نفسَ الأمر ينصّ على وجوب عودتِهم إذا جاءَ عليهم زمنٌ أصيب فيه الذكورُ بالعطب. وقد بدأ المواليدُ الذكور بالفعل في الإصابة بعيوبٍ خِلقيّة عديدة منذ مائة عام تقريبًا، وكانت تلك إشارةً للمتديّنين بوجوبِ العودةِ إلى الأرض المقدسة؛ الأرض التي سكنَها أسلافُهم حسب الأسطورة، رغمَ أنّ العلماء أكّدوا أنّ سبب العيوبِ الخلقية هو نقصٌ في كروموسوم واي Y المسئول عن تحديدِ جنس الذكر.

منذُ خمسين عامًا بدأ النياندرتال- الذين يعيشون في أديتيا- مراقبة الأرض، ثمّ بدأوا في اختطافِ أرضيّين لإجراء التّجارب عليهم؛ لمعرفة سلوكهم وكيفية استجابتهم لاحتلالٍ واستيطانٍ خارجي. كان أحدُ هؤلاء رجلًا مصريًّا يُدعى عمر عوض الله، استطاعَ أنْ يهرب هو ورفيقتُه من كوكب أديتيا بمساعدةِ بعض النياندرتال الذين يعارضونَ الهجرة لكوكب الأرض، وقد تواصلَ معه هؤلاء المعارضون بعد ذلك لتحْذيره من أنّ غزو النياندرتال قادمٌ لا محالة، وعليه الاستعداد هو وآخرون لمقاومتهم.

في عام ألفين وثلاثة وثلاثين، وصل النياندرتال للأرض بعتادٍ وعددٍ رهيبين، نقلوهم بواسطةِ أجهزة انتقالٍ آنية عبرَ صدع كوْني يجعلهم يظهرونَ فجأة في الأماكن التي يصلونَ إليها. احتلّ النياندرتالُ في أيام قليلة مساحاتٍ واسعةً من دول عدّة في شرق البحْر المتوسط تمتدّ من مصّرَ جنوبًا لتركيا شمالًا، مرورًا ببلاد الشام كلها.

كانت هناك مقاومةٌ شعبيّة ضدّ الاحتلال تزعّمها في مصر عمر عوض الله، بالتّعاون مع أصدقائه مِن النياندرتال المُعارضين، وكان مثله آخرون في كلّ بلد؛ مقاومون شعبيّون، يقاتلون بنفس الطريقة. كانت هناك- أيضًا- فرق مقاومة مدعومة مِن مخابرات الدول التي احتُلّت أراضيها، كان بينها وبين فرق المقاومة الشعبية تعاونٌ أحيانًا، وصدام أحيانًا أخرى. وسطَ كلّ هؤلاء كان عمر عوض الله هوَ الاسمَ الأبرز، وهو الذي بذلَ المحتلّون ومعاونوهم قصارَى جهدهم للقبض عليه.

استمرّت تلك المقاومةُ ثماني سنوات قبل أن يقبض النياندرتال على عمر عوض الله وبعضٍ من رجاله. وبعدَ عامين من ذلك التاريخ، فكّر قادةُ المخابرات في مصرٍ ودولٍ أخرى في التّفاوض مع النياندرتال لإطلاق سراح عمر مقابلَ آخرين، ثمّ الاستعانة به بعدَ ذلك ليكون واجهةً للمقاومة تمهيدًا لبدْء حربِ تحريرٍ شاملة. ومن هنا تبدأ أحداثُ قصّتنا..

***

القسمُ الأوّل

مقْموعون وقَتلة

«نحنُ نغسل بالدّماء عارَ الاحتلال، ونمْحو بالبشاعةِ قبحَ الاستيطان،
ونرسمُ بجثث القتلى شعارًا لعلَمٍ جديد»

قاتلٌ مجهولُ الاسم

١

«لعنةُ الله على (مَيْساء) وعيونها».. تردّدت تلك الكلماتُ في رأس (معاذ) وهو يرى نقطةَ دم تتساقط تلوَ الأَخرى من جُرحٍ في حاجبه؛ إثرَ ضربة عنيفة وجّهها إليه المحقَّق بعدَ سيلٍ من الأسئلة فشلَ في الإجابة عليها. لم يكن المحقّق من المحتلّين؛ بل مِن أَهل بلده، وهو يعرفُ ممّا تناثرَ من شائعات أنَّ المحقّقين من أهل البلد الأصليّين أكثرُ عنفًا وأحقرُ أسلوبًا.

هوتْ صفعةٌ ثقيلة على وجهِه جعلتِ الأضواء تتناثر أمامَ عينيه، وألمًا مُمضًّا يملأ صدغَه من تلك الناحية بعدَ أن قال: «لا أدري» للمرّة العاشرة في أقلّ من دقيقة. ماذا كانت تريدُ (مَيْساء) منه، وما الذي أعادَها لحياته بعد كلّ تلك السنين، لتؤدّي عودتُها للقبض عليه، والتّحقيقِ معه بتلك الطريقةِ المهينة الموجعة؛ هو الذي أمضى أكثرَ من ستّ سنوات يمشي داخلَ الحائط لا جوارَه، يُتّهَم الآن بالتخريبِ والإرهاب بعدَ أنْ قابل (مَيْساء) لمدّة قصيرة، وكأنّ مجرّد مقابلتها شبهةٌ خطِيرة كامتلاكِ قنبلة أو حيازة سلاح!

دخلَ محقّق آخرُ، لم يكن أرضيًّا هذه المرّة؛ بل من الغُزاة. يسمّون أنفسهم بالأديتيّين، وهي التسميةُ الوحيدة المسموحُ إطلاقها على المحتلّين، كلّ المسميات الأخرى يعتبر استخدامُها جريمةً يُعاقب فاعلُها بإيقافِه لمدّة ثمانٍ وأربعين ساعةً مثبتًا إلى قائمٍ حديديّ، وفوقَه ثلاثةُ صنابير تقطر الماءَ فوق رأسِه ببطء.

المتعلّمون يسمّونهم بالنياندرتال، وهي التّسمية التي أطلقها عليهم العالمُ أجمع خارجَ الأراضي التي احتلّوها حتّى عام ألفين وثلاثة وأربعين. في هذا العام، الذي تلَا الاحتلالَ بتسعةِ أعوام، اعترفتْ أغلبُ دول العالم بدولتِهم، وصارت عضوًا في الأمم المتّحدة، وصار إطلاقُ لفظ نياندرتال عليهم تقليلًا من شأنهم. كانت المسمّيَات الأخرى التي تستدعي العقوبةَ كثيرة، البعضُ أطلق عليهم لقبَ «المساخيط»، والآخر سمّاهم بالقرود، وهكذا.. لكنْ بدأت تلك المسمّياتُ تختفي مع الوقتِ ومعَ تعدّد العقوبات.

قال المحقّق الأديتي بضعَ كلماتٍ للمحقّق المصري جعله يغادرُ معه، ويشير لمساعدِه بفكّ قيود (معاذ) من الطّاولة واقتيادِه لفِراشه. قام المساعدُ- وهو مصري أيضًا- بنقلِه عبرَ ممرّ طويل إلى زنزانته الضّيقة التي تحوي فراشًا على قدْر رقدته فقط، ومرْحاضًا، وقذفَ له بكيسٍ صغير فيه بعضُ الضّمادات ليضعَها على جرح رأسه.

بدأ الغزوُ عامَ ألفين وأربعة وثلاثين، ومعاذ في الخامسة عشرة من عمره؛ في السنة الأولى الثانوية. بدأ الغزو في يوم دراسيّ عادي، بينما يمضي هو وميْساء وقتَ الاستراحة، بدأت تضجّ الهواتفُ بفيديوهات ورسائلَ عن حواجز وبوابات تنبتُ من الفراغ، وعنْ أشخاص مقنّعين ومدرّعات غريبةِ الشّكل تظهر حولها.

عادوا إلى بيوتهم، وبدأت تتواردُ أخبار الغزو، معاركُ تدور بين الغزاة الذين ظهروا من العدم وقوّات الأمن في مدنٍ عدة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط؛ مدن مثل القاهرة وغزّة ودمشق وإزمير وغيرها، سقط فيها

آلافُ الجنود قتلى وأسْرى، سقطت مئاتُ الطّائرات، ودُمّرت آلافُ المعدّات العسكرية، بينما لم يسقطْ قتيلٌ واحد من الغزاة.

كان الغزاةُ محميّين بزيّ مدرّع لا يكشف شيئًا من أجسادهم أو وجوههم يرتدّ عنه الرصاص كأنّه قطعٌ من الحلوى، في المقابل كانت قذائفُهم التي تشبه الحرابَ الصّغيرة تتبع الجنودَ البشريّين وتخترق أجسادهم.

في الأيام الأولى للغزو، هربَ الكثيرون خارجَ مناطق الحواجز التي أنشأها الغزاة، وجعلوها حدودًا لدولتهم، أولئك الذين لهم أهلٌ أو سكن في أيّ مكان جنوب القاهرة أو غرب الإسكندرية لجأوا إليه، أمّا الباقون فظلّوا في بيوتهم آملين أن يقوم العالمُ بنجدتهم كما وعدوا.

أصيبتْ دولُ العالم بالجنون، أرسلوا طائراتهم وأساطيلهم لدحْر الغزاة؛ لكنّ طائرةً واحدة لم تتمكّن من تنفيذ أيّ مهمّة، وأيقن العالمُ أجمع أنّه لا سبيل للوقوف أمامَ هؤلاء الغزاة الذين لم يعرفْ أحدٌ وقتَها مِن أين جاؤوا، ولا كيف ظهروا مِن العدم هكذا؟!

كانت (ميْساء) من اليوم الأوّل تعرفُ كلّ شيء، فقد أنبأها أبواها بأنّهما يعلمَان أنّ ذلك الغزو قادم، وأنّ هؤلاء الغزاة من سلالة البشر الأوائل- إنسان نياندرتال- وقد عادوا من كوكب بعيد اسمُه كوكب أديتيا ليستوطنوا الأراضي التي يدّعون أنّ أسلافَهم عاشوا فيها. كذبّها (معاذ) في البداية، واتّهمها بالجنون، لكنْ لم يمرّ أسبوع حتّى أذاع الغزاة بيانَهم الأوّل، وكان بهذا المعنى.

أرسل إليه المحقّق المصري مرّة أخرى، أخذوه تلك المرّة لغرفةٍ مضيئة، بها مكتبٌ يجلس خلفَه المحقق الأديتي الذي يبدو أنّه يدير مركزَ الاستجواب هذا، وإلى جوارِه يجلس المحققُ المصري. كان الجوّ قيظًا في هذه الأيام، لكنّ تلك الغرفة كانَ جوّهُا مكيّفًا بواحدٍ من تلك الأجهزة التي أحضروها معهم، وهو مكعّب لا يتجاوز ارتفاعُه ربعَ متر، يوضَع في ركنِ الغرفة فيجعل حرارتَها مناسبة تمامًا، ورائحتها مميّزةً، تذكّره برائحة قماشٍ صوفيّ اشْتراه للتّو.

تحدّث الرجلُ ببطء بلغةٍ أديتية يفهمُها معاذ، فقد أجبروا الجميعَ على تعلّمها في السنوات القليلة الماضية، ومنعوا الحديثَ الرّسمي بغيرها، وإنْ سمحوا باستخدام اللّغة الأمّ لكلّ شعبٍ عندَ الحديث فيما بين أفراده، وعندَ ممارسة شعائره الدينية.

قال المحققُ الأديتي بلهجةٍ ودود: «نحن نعرف أنّك لستَ من المخرّبين، وأنّ هناك علاقةً قديمة كانت تربطُك بميْساء، لكنّها انتهت، لكن ما لا تعرفه أنت هو (ميْساء) استغلّتك». ملأتْه الدهشةُ وهو يسأل: «كيف استغلّتني!؟» فتطوّع المصري بالإجابة: «ليس من شأنك، يجبُ فقط أن تعرفَ أنّ (ميْساء) مجرمة خطيرة مثل أبيها تمامًا».

كان يسمعُ الحكاياتِ عن والد ميساء، وكيف أنّه بعد ثلاثة أعوام من الغزو صارَ من رموز المقاومة ضدّ الغزاة. عمّ عمر الذي كان مجرّد ربِّ أسرةٍ هادئ الطّباع يكتب قصصًا لا يقرؤها أحد، ويدير عملًا ناجًحا نوعًا ما، ويعامله بجفاءٍ في كلّ مرّة يراه فيها، على عكس زوجتِه الدّكتورة زهرة التي كانت تحتفي بكلّ زملاء ميْساء؛ ابنتها الوحيدة. لم يكنْ يصدّق أنّ عمّ عمر

هو نفسُه ذلك الرجل الذي أسقط العديدَ من جنود الغزاة، والذي كان يجيدُ التّسلل والتخفّي، لدرجةِ أنّ بعض العجائز لقّبوه بعمر الزيبق.

عمّ عمر الذي اختلف الناسُ حوله، وخاصّة بعد أن أعلنت السلطات الأديتية عنْ عَمالته لمجموعاتٍ تخريبية من كوكبهم الأمّ، وأنّه لا يدافع عن المصريين، وإنّما ينفّذ خططَ هؤلاء المخرّبين مقابلَ امتيازات ووعود بالسلطة. في كلّ بلد تحت الاحتلال كانت هناك مجموعات مقاومة يقودُها رجالٌ مثل عمر، لكنّه دومًا كان الأكثرَ مهارةً، وصاحبَ العمليات الأكثر إيلامًا للغزاة.

سأله إنْ كان يعرف السببَ الذي جعل (ميْساء) تزوره؛ السؤال نفسُه الذي كرّره اليوم كثيرًا تحتَ وقع الضرب والتهديد، يكرّره الآن بلهجةٍ ودود، وكأنّه يظنّ أنّ رأيَ (معاذ) سوف يتغيّر في دقائق. كانت إجابتُه كما قال من قبْل أنّه لا يعرف، وأنّه فوجئ بها على بابِ المتجر الذي يعملُ به، وأنّه صدّقها حين قالت إنّها تبحث عن عمل، وإنّها لجأت لأصدقاء كثيرينَ ولم يساعدْها أحد، لكنْ ما لم يقلْه هو أنّ (ميْساء) طلبت منه أن يتزوّجها.

كان الطلبُ مفاجئًا له، وتلعثم وهو يردّ عليها بكلماتٍ غير مترابطة. لاحظ أنّ وجهَها امتلأ بتعبيرِ يائس حين رأتِ ارْتباكه، وسألته إن كان كفَّ عن حبّها. لم يدرِ كيف يجيبها؛ لا يزالُ في قلبه الكثيرُ من حبّ الطفولة الطاهر، لكنْ مياه كثيرة جرت في النّهر منذُ وقتها. الزّواج بين أرضيّيْن لم يعدْ سهلًا؛ فهو يحتاج إلى إذنٍ مُسبق من السّلطات يستغرق وقتًا للموافقة عليه، وقد يُرفَض. في المقابل، إذا أرادَ أن يتزوج أديتية فسيُعتمَد زواجُهما في الحال معَ صرف معونةٍ كبيرة.

لم يجرؤ على إخبارها بأنّ أباه أجبرَه على التقديم في خدمة للتوفيق في الزّواج بين الشّباب المصريّين والفتياتِ الأديتيات، وأنّه على موعد مع فتاة رشّحتها له الأجهزةُ الأسبوعَ القادم. أحسّ بأنّه سيكون ضئيلًا إذا أخبرها أنه من هؤلاء الشّبان الذين يبيعونَ أجسادهم ونسلَهم للغزاة مقابل وعدٍ بحياة رغدة.

أخبرتْه أنّها آسفة لأنها فرضتْ نفسها عليه بتلك الطريقة، وأنّها كانت ساذجةً حين ظنّت أنّ مشاعرَ المراهقة تلك لا تزال موجودة لليوم. نفى ذلك بشدّة، وقال إنّه لم ينسَ لحظةً واحدة ما كان بينهما. قبلَ أن تمشي أعطتْه عنوانَ مطعم قالت إنها تريدُ أن تقابله لأمر مهمّ لا تستطيع أن تناقشَه معه الآن. كاد يرفضُ لكنّه لم يكن ليتحمّل نظرةَ الأسى في عينيها للمرة الثانية.

بعدَ أن انصرفتْ من عنده بساعةٍ تقريبًا فوجئ بشرطيّين دخلَا المتجر، وقاما بالقبضِ عليه واقتياده لهذا المكان البَغيض الذي كان في يوم من الأيام مقرًّا لإدارة التجنيد. في نهاية الاستجواب الذي صار وديًّا دون مناسبةٍ أمرَ المحقق الأديتي أحدَ الحرّاس بمرافقته لخارج المبنى بعد أنْ طلب منه أنْ يأتي إليهم إذا حاولتْ (ميْساء) أن تتواصلَ معه بأي طريقة.

في خارج المبنى الواقع في شارع ١٣ يوليو (جسر السويس سابقًا)، وقف في المحطة منتظرًا القطارَ الهوائي الذي سيقلّه لبيته، قبل أن يصل القطار فوجئ بمركبةٍ صغيرة نزلَ منها شخصان، رمى أحدُهما قنبلةً دخانية عتّمت المكان بسحابة كثيفة، بينما قام الثاني بغرسِ محْقنٍ في كتفه جعلَ الدنيا تظلم أمامَ عينيه.

٢

كان (سمير) معارضًا لفكرةِ اختطاف (معاذ) مِن أمام مركز الاحتجاز، كان يرى أنّه من الأفضل تركُه يعود إلى بيته، واختطافه من هناك بسهولة، لكنْ رأيُ قادته كان خلافَ ذلك بلا مبرّر واضح.

حدثَ ما كان يتوقّعه، ما إنْ قام هو وضياء زميلُه باختطاف (معاذ) ووضْعه في مَرْكبتهم حتّى اندفعتْ ثلاثُ درّاجات طائرة تطاردهم. انطلقَ سريعًا في مسار متعرّج، أطلقت عليه كلتَا الدّراجتين قذائفَ صغيرة مهمّتُها إطلاقُ شحنة كهربائية تؤدّي إلى اختلال نُظم المركبة، لكنّه تفاداها ببراعةٍ بتعرّجه يمينًا ويسارًا وأعلى وأسفل بقدْر ما تسمح به المركبة.

هذا النوعُ من المرْكبات الطائرة، التي يقودُها سمير، كان مِن صناعة هؤلاء القوم الغزاة- النياندرتال- الذين مَنعوا تدريجيًّا استخدامَ السيارات المعتادة حتّى انتهتْ تمامًا بحلول عام ألفين وتسعة وثلاثين، وجرَى استبدالُها بقطارات هوائية ومرْكَبات كتلكَ تتبَعُ لشركاتٍ تؤجّرها لَمن يحتاجها، ومنعوا امتلاكَ المركبات للأفراد تمامًا.

كانتِ المركباتُ والقطارات تعملُ بنوع من الوقود غيرِ مألوف لدى البشر وهو مركّب معقّد يُستخرَج من طبقاتٍ في باطن الأرض على أعماقٍ تتجاوز المائة كيلومتر، يصدرُ طاقة صافية دونَ أن يلوّث البيئة. هذا الوقود كان هو الورقة الرّابحةَ لدى الغُزاة أمامَ دول العالم، وهو الثمنُ الذي جعل

هذه الدولَ تعترف بشرعيّة غزْوهم واستيطانِهم، وتُعطي دولتَهم مقعدًا في الأمم المتّحدة مثل أي دولة أخرى.

بعدَ مسافة قصيرة، انعطفَ (سمير) في أحدِ الشوارع الجانبية في منطقة الزّيتون، والدّراجتان خلفَه. كان قادةُ تلك الدرّاجات ماهرين بشكل ملحوظ يستطيعونَ المراوغةَ في أضيق الأماكن أكثرَ من قدرته على المُراوغةً بمركبته، لكنْ كان لديه خطّة تستلزم سرقةَ بعض الوقت حتّى يصل إلى مكان محدد.

اقتربتْ منه دراجة بشكلٍ كبير ما مكّن قائدَها من تصويب قذيفته بدقة لتستقرّ في نقطةِ ضعف المركبًة؛ وهي فتحةُ تهوية صغيرة في الجانب الأيمن من مؤخّرتها. ارتجّت السيارة بعنف، ولكن (سمير) ظلّ مُمسكًا بذراع القيادة بقوّة، أخرج ضياء- الذي يجلسُ في المقعد المجاور- أداةً صغيرة ثبّتها في فتحةٍ موجودة في لوحة التحكم امتصّتِ الشّحنات التي أطلقتها القذيفة، وجعلتِ المركبة تكمل انطلاقَها ثانية.

كان الأمرُ لا يحتمل قذيفةً أخرى لأنّها قد تعطّل المركبة تمامًا ما جعل (سمير) يزيدُ من سرعته وينطلقُ في تعرّجات أكثر صعوبة. في النّهاية انعطف في شارع أكثر اتّساعًا، وزادَ من سرعته، وحينَ وصل للتقاطع الثالث دخل يمينًا، ثمّ فجأة هوتْ شبكتان معدنيّتان من إحدى الشّرفات أسقطت إحداها دراجةً مع قائدها واستطاعَ القائدُ الثاني تفاديها بمَهارة؛ بأنْ مالَ بدراجته على جانبها وانزلق بها لأسفل حتّى كادَ يحتكّ جسدُه بالأرض.

منذُ عدّة سنوات كان قائدو تلك الدّراجات يخشون الدخولَ للشوارع الضيقة؛ لأنّ الناس كانوا يقذفونَهم بما تيسّر من متاع بيوتهم ويسقطونهم ويوقعون بهم إصاباتٍ بالغة. قامتِ السّلطات بإرسال مُستشعرات تطيرُ بمرافقة قائدي الدراجات لتحدّد بدقة أماكنَ مَن يعتدي عليهم، ويقومون بعدَها مباشرة بإخلاء البيت من ساكنيه وإرسالهم خارجَ الحدود ليعيشوا في مخيّمات اللاجئين المُتناثرة خارجَ قرى الجيزة وحولَ الفيوم التي صارتِ العاصمةَ المؤقتة الآن.

توقّف بعدَ ذلك اصطيادُهم وصاروا يختالونَ بدراجاتهم في الشوارع كلّها ويُطاردون مَن شاءوا أينما شاءوا. منذُ فترة قصيرة قام زملاءُ (سمير) في فصيله المقاوم المُسمّى بكتائب النصر بزرْع تلك الأفخاخ على أسطح بعضِ البيوت تحسّبًا لموقفٍ كهذا.

لم ييأسْ قائدُ الدّراجة الثانية، واستمرّ في مطاردة (سمير) في الوقت الذي بدأ فيه (معاذ) في التأوّه وهو بينَ اليقظة والنوم. كان (سمير) لا يطيقُه لسببٍ لا يعلمه، رغم أنّه لم يلتقِ به من قبْل، ربّما لأنّ الطريقة التي صدرتْ بها الأوامرُ لإحضاره كانت غريبةً بعضَ الشيء، كان الأمرُ قادمًا من العاصمة من قيادةِ المخابرات المصرية مباشرة.

سمير كان مجنّدًا في الجيش المصري يوم أنْ بدأ الغزو، وكانت كتيبته في شرقِ القاهرة. كانت المعركةُ خاسرة قبلَ أن تبدأ، تساقط زملاؤه وقادتُه واحدًا تلو الآخر، مُستبسلين في الدفاع ضدّ عدوٍّ مجهول مُرعِب، لا أحد يعرف إنْ كانوا إرهابيّين أو جنودًا لدولةٍ ما قرّرت أن تحتلّ مصرَ فجأة.

هربَ إلى قريته في البحيرة، وقبلَ أن يعود للعمل في أرضه فوجئ- كما أهل قريتِه- بأنّ الغزاة قرّروا بناءَ خمسةِ أبراج سكنية ضخمة؛ ليقيم بها أهلُ القرية ليتسنّى لهم هدمُ كلّ البيوت، وجعل القرية قطعةَ أرضٍ زراعية واحدة كبيرة تملكها الدولة، ويعملون هُم فيها برواتبَ شهرية.

كانت كلّ أسرةٍ لا تعمل، أو لا تريد العمل، بالزراعة تُهجَّرُ إلى المدينة أو إلى خارج الدّولة الأديتية ما عدا الذينَ يكلّفون بالأعمال المساعدة والإدارية. حاول الناسُ التذمّر والتّجمهرَ لكنّ الحراسَ المدرّعين المقنعين والمسلّحين بآلات شيطانية لم يرها أحدٌ من قبل تكفّلتْ بإقناعهم. بعدَ شهور قليلة، صدر الأمرُ التّالي الذي ينصّ على أنّ أيّ أسرة تملك أكثرَ من طفلتين من الإناث تُهجَّر خارجَ الدولة، أو يُعطَى الأبوان خيارَ الإبقاء على طفلتين، وإرسال البقيّة للأقارب خارجَ الحدود، وبالطبع لم يقبلْ (سمير) التخلّي عن إحدى بناته، ورُحِّلَ مع أسرته للمخيمات.

بعدَ ما يقارب العامين من الحياة البائسة في مخيّم اللاجئين جاءه مندوب من المُخابرات، وطلب منه أن يتسلّل للدّاخل المحتل، وينضمّ لكتائبُ النصر، وهي المقاومة المدْعومة من الدولة المصرية. مقابلَ ذلك، ستمنح عائلتُه مسكنًا مناسبًا وراتبًا يضمنُ لهم حياة كريمة. كانت المخاطرةُ كبيرة، لكنّ الأمر يستحقّ؛ فالمخيّمات تعجّ بمئات الآلاف من الأُسر التي تعيش حياةً غير آدمية على الإطلاق. بعدَ تدريب قصير هُرِّبَ إلى الدّاخل مع آخرين مع هويّات لهم تمكّنهم من التنقل بحريةٍ داخل الأراضي المحتلة.

لا يزال (سمير) يقاومُ حتّى اليوم، ويقوم بعمليات لا يعرف الهدفَ منها بالضّبط؛ فهو جنديّ ينفّذ الأوامر ولا يسأل، وحين يتملّكه اليأس يتذكّر رفاقه في المقاومة الذين يسقطونَ وهُم يقاتلون متطوّعين لا ينالون راتبًا ولا رعاية لأسرهم، لا يقاتلون إلّا لأنّهم يرفضون أن تمسخَ أرضُهم ويُمحَى تاريخها ويشرّد الملايين من أهلها.

كان لا يزال ينطلقُ بمركبته وقائدُ الدراجة الثانية يتبعُه بإصرار، أطلق ثلاث قذائف اتّجاه المركبة أخطأتْ هدفَها جميعًا، وكان على (سمير) الآن التخلّصُ منه قبل أن ينضمّ إليه آخرون. كان يسلك بالمركبة طريقًا يقودُه إلى حَوارٍ ضيقة في حدائق القبّة، والتي تختبئ فيها مركبةٌ أخرى مجهّزة ليستقلّها بدلًا من تلك التي صارت هدفًا معروفًا.

في أحدِ الشّوارع الجانبية توقّف (سمير) فجأة ليجعل مطاردَه يصطدم به، لكن الدراجة تفادتْه وتجاوزته ثمّ التفّ قائدها وواجَه المركبة وهو يتهيّأ ليطلق قذيفة على مقدّمتها. قبل أن يتمكّن من ذلك أعاد (سمير) الانطلاقَ بالمركبة واصطدم بالدراجة وأوقعَها وقائدَها أرضًا في اللحظة نفسِها التي خرجت فيها القذيفةُ لتعطّل المركبة تمامًا.

***

٣

تسمّرت عيونٌ كثيرة تتطلّع من خلف النوافذ المغلقة على المطاردة الصغيرة التي تدور في ذلك الزقاقِ الضيق. كان بعضُها ينظر بفراغِ صبرٍ ويدعو الله أن يأخذَ هؤلاء المقاومين الذين ينغّصون أيامَهم الهادئة، ويتمتم بالدّعوات ألّا تأتي تلك الطائراتُ الدقيقة التي تظهرُ في تلك المناسبات وتُمطر الزقاق بقذائفها المتنوّعة التي تسبّب الخراب. البعضُ الآخر يدْعو بالنصر للمقاومين بأملٍ ضئيل في الاستجابة، كغريقٍ يتعلّق بقشّة. الصنفُ الثّالث من الناس هُم المستوطنون الجدد، ومَن تزوّجوا مِن نسائهم مِن المصريين، وكوّنوا أُسرًا مختلطة، وهُم لا يسكنون بمثل هذه الأزقّة، وأغلبُهم في تلك المواقف يكونون عونًا إضافيًّا لإرشاد السلطات إذا استطاعَ أحد المقاومين تضليلَ أجهزتهم المتقدمة.

ابتلعَ الغزو لبنان وفلسطين التاريخيةَ بالكامل، فرّت الحكومات للمنفى وعاش الآلافُ من المواطنين لاجئين في مخيّمات في سوريا، التي اقتُطع منها جزء كبير وانتقلتْ عاصمتها إلى الرقّة في الغرب. من المثير للسّخرية المريرة أنّ المخيمَ الواحد كان فيه المستوطنُ الإسرائيلي واللاجئ الفلسطيني والمواطنُ اللبناني؛ كلّهم لاجئون بشكل جديد. احتلّ الغزاة- أيضًا- أجزاءَ من مصر وتركيا اللّتين تكفلتا بمواطنيهما رغمَ أنّهم عاشوا أيضًا في مخيّمات لا تقلّ سوءًا عن الآخرين.

أوّلُ عامين بعد الغزو كانا حافليْن بمشاهد القتل اليومية لَمَن يقاوم أو يتذمر، وكانت الاستغاثاتُ بحكومات العالم تتّخذ أشكالًا كثيرة؛ كتابات، أشعارًا باكية وأغانيَ حزينة، رواياتٍ طويلة ومقاطعَ فيديو دون فائدة. فرضَ العالمُ حصارًا على المناطق المحتلّة لكنّهم اكتشفوا سريعًا أنّهم يساهمون في زيادةِ معاناة البشر دون أن يتأثر النياندرتال. اجتمعتْ حكومات الدول المتضرّرة، واتّفقوا على السماح بإدخال البضائع المهمّة فقط إلى المناطق المُحتلة، ووافقَ الغزاة على وجود مُراقبين إثباتًا لحُسن النوايا بعدَ أن جلس وفدٌ منهم مع وفدٍ من البشر للتفاوض، وسمحوا للعدسات بنقلِه على الهواء، وتحدّث مندوبهم بطريقةٍ أنْبأت الجميعَ أنّهم يعرفون عن البشر وقوانينهم كلّ شيء.

استقرّت الأمورُ تدريجيًّا، وبدأ الناسُ يتعلمون لغة الغزاة لدرجةِ أنّه كان إذا صادفَ عربيّ تركيًّا أو كرديًّا كان يتحدّث معه بالأديتية. بدأوا يعتادون على القوانين الجديدة والمواصلات الجديدة والوظائف المستحدثة والملغية، وإن لم يستطيعوا الاعتيادَ على التمييز بينهم وبينَ النياندرتال ومَن تزوّجوا من نسائهم.

لم تتوقفْ مع ذلك حركاتُ المقاومة، وكانت متعدّدة الأنواع والأيديولوجيات؛ منها الذي يعمل حرًّا، ومنها المدعومُ من الحكومات. كان النياندرتال يردّون على عملياتِ المقاومة التي تتبنّاها الحكوماتُ بعمليات في عمق تلك الدّول، ما جعلهم يدعمونَ المقاومة سرًّا، وفي العلن يقاومون عبرَ الطرق الدبلوماسية فقط.

في عصر ذلك اليوم، كان رجلان من المقاومة (المدْعومة من الحكومة المصرية) في زقاقٍ ضيق، وقد تعطّلت مركبتهما، وعليهما المشيُ مسافة طويلة يجَرْجران أسيرهما النائم للمخبأ الذي تقبعُ فيه مركبة بديلة سيستخدمونها لإكمال رحلتهم إلى مقرّ مجموعتهم، وهي مسافة كفيلة بأن تكشفهم بسهولة. حين ترجّلَا من المركبة كان قائدُ الدّراجة فاقدًا للوعي من أثر سقطتِه القوية. أصرّ (سمير) على أنْ يأخذاه أسيرًا رغمَ تذمّر ضياء، لكنّه كان الأعلى رتبة. اقتربَ (سمير) منه بحذر وأخرجَ من يده أداةً صغيرة لتعطيل المعدّات الموجودة في زيّه، والتي تسهّل تعقب موقعِه.

قبلَ أن يلمسَه انتفضَ النياندرتال واقفًا، ودفعَه في صدره بقوّةٍ أسقطته أرضًا، وهجمَ عليه ودارَ اشتباكٌ بالأيدي بينهما. استطاع النياندرتال طعنَ (سمير) في فخذه بسكينٍ صغير كان مخبّئًا في زيّه، وكادت نتيجةُ المعركة تكون هزيمة لوْلا تدخل (ضياء) الذي ترك (معاذ) على الأرض، واستخدم صاعقًا كهربائيًّا ضرب به نقطة معيّنة في زيّ النياندرتال أسفلَ رقبته جعلته يتصلّب ويفقد الوعي.

استمرَّوا في طريقهم؛ (سمير) يعرجُ بفخذه المصاب، وضياء يحمل "معاذ"، اقتربوا أخيرًا من البيتِ القديم الذي يخفونَ به مركبتَهم. كانت مخبّأة في دكان مُهمَل أسفلَ البيت، له بابٌ من الصّاج العتيق الذي يفتح من أسفل، والذي بطل استخدامه منذُ ما يقرب من نصفِ قرن. كان منظرُه الرّث الصدئ خيرَ تمويهٍ للغرض الذي يستخدَم لأجله.

جثَا (سمير) على ركبتيْه ومسحَ الغبار من جزءٍ من الجدار، ثمّ وضع أصبعَه على كاشفٍ للبصمة. مضتْ ثوانٍ معدودة ارتجّ بعدها الباب وانفتح بصمت لا ينبئ به مظهرُه الصدئ، وانكشفت أمامَهم أخيرًا وسيلةُ انتقالهم الجديدة.

ركبَ (سمير) على عجلة القيادة وهو يحثّ (ضياء) على الإسراع بجرّ حمله ووضعِه في المقعد الخلفي. أغلقت أبوابُ المركبة وانطلقَ بها بسرعة كبيرة في شوارعَ جانبية حتّى وصلَ إلى شارع رمسيس (الذي تركه الغزاةُ على اسمه احترامًا للتّاريخ الفرعوني)، عبَرَه بسرعة وأكملَ في شوارع جانبية حتّى يضطرّه الطريقُ لعبور شارعٍ رئيسي فيمرقُ قاطعًا إيّاه بسرعة كبيرة.

كان يتّجه إلى منشيةِ ناصر في سفح جبلِ المقطم، وحينَ أوشك على عبور طريقِ النصر (اسمُه لا يزال هكذا، لكنّ مدلول النصر اختلف) كادَ يصطدم بالقطار الهوائي لوْلا أنْ أوقف مركبتَه بمهارة منتظرًا عبور القطار. نصفُ دقيقة يأخذها القطارُ ليعبر كانتْ كافية لتكتشفَه إحدى الدراجات وتنطلق مطاردةً إيّاه. عاد أدراجه للخلف، ودخل بينَ المقابر وأسرعَ بسيارته بينها متّخذًا منحنيات سريعة أربكتْ قائد الدّراجة الذي اصطدمَ في النهاية بجدارٍ أفقده توازنَه فسقط، واستمرّ (سمير) في طريقه إلى أنْ عبرَ طريق النصر، وغاصَ بسيارته في أعماق الأزقة الضيقة التي لا يدخلها النياندرتال، ولا يمدّون خدماتهم الحكومية لتصل إليها.

***

٤

جلستْ هيرمين في توتّر مُستسلمة لخبيرةِ التّزيين الأرضية التي تعدها للظّهور على شاشة البي بي سي في لقاءٍ تليفزيوني هو الأوّلُ من نوعه لمسئول رفيع من الدولة الأديتية. كانت غيرَ مُعتادة على تلك المساحيق والألوان الزاهية، ففي كوكبها الأمّ يستخدم النساءُ طرقًا مختلفة للزّينة لا تتضمّن تلك الفجاجة في تغييرِ لون البشرة، أو تحديد ملامح الوجه.

لم يكنْ هذا بالفعل سببَ توتّرها الوحيد؛ فالسببُ كان ذلك الضغط الواقع عليها من حاكم أديتيا الأرض شخصيًّا؛ هو مَن رشّحها لتلك المهمة، وقال إنّه يثق بقدرتها على إظهارِ الجانب الأفضل من الشّعب الأديتي، وجعل مبررات الغزو والاستيطان تبدو مقبولةً أمام الرأي العام العالمي.

دولةُ أديتيا الكبرى تتكوّن من قسمين؛ القسم الأوّل يقع في كوكب أديتيا واسمُه المستوطنة النّقية أو "أديتيا الأصلية"، والقسم الثاني ويقعُ في كوكب الأرض واسمُه المستوطنة الأخيرة أو "أديتيا الأرض"، وكانت هيرمين هي مسئولةَ العلاقات الخارجية في أديتيا الأرض التي تشملُ الأراضي التي احتلّوها واستوطنوها.

جلستْ أمامَ الكاميرات أخيرًا، وأخذَ فريقُ التصوير وقته لإعداد المشهد لتبدو بأبْهى صورة في شكل أقربَ للأرضيّين. خبيرة التّزيين حاولت بطريقتها إظهارَ خدودها أرقّ، وفمِها أقلّ اتّساعًا، وإضافة ظلالٍ على فكّيها

تظهرهما أقل عرضًا وحدّة، لكنّ الشكلَ النهائي كان مريعًا ما جعلها تلغي كلّ ذلك التزيين، وتجعلها تضعُ لمسةً رقيقة لا تغيّر من شكلها.

بعدَ مقدّمة افتتاحية قصيرة من المحاور، بدأ أوّلَ أسئلته طالبًا منها التعريف بنفسِها وشعبها.

"أنا المتحدّثة الرسمية لمؤسّسة الحكم في دولة أديتيا الأرض، نحن أحدث عضوٍ في الأمم المتحدة بعدَ أنِ اعترف العالمُ بحقنا في الحياة في وطننا الأم".

ابتسمَ المحاور بظُرفٍ مُصطنع وهو يقول إنّ الكلّ يعرف ذلك؛ هو يريد قصّةَ شعبهم كيف غادروا الأرضَ، وكيف عادوا؟ ولماذا؟ قصّت عليه من البداية ما يقولُه التاريخ عن أنّهم كانوا يعيشون في الأرض منذ مائة ألف سنة، وأقاموا حضارةً عظيمة، وفرّوا إلى كوكبهم الحالي نتيجةَ أسباب غيرِ واضحة بشكل كامل، ثمّ قرّروا العودة أخيرًا لأنّ نبوءات كتبهم المقدّسة تحتمُ عليهم ذلك.

"لكنّ دينكم وكتبكَم المقدسة شيء يخصّكم وحدكم، ولا يلزم الشعوب التي استوليتُم على أرضها وحكمتموها".

"كتبنا تنبّأت بمعجزة ما؛ أنّ خللًا جينيًّا سيحدُث في الذكور وحينما يحدث فإنّ علينا العودة إلى كوكب الأرض وطنِنا الأصلي.. ما فعلناه من عودتنا إلى هذه الأرض شيء تكرّر عبرَ تاريخكم كثيرًا، وإذا لم تقنعكم أسبابُنا الدينية فدعْني أخبرك أنّنا شعبٌ مهدّد بالانقراض لسبب جينيّ خطير، ومهدّد بكارثة بيئية قادرة على قتل أكثرَ من نصف سكان كوكبنا.. إذا كنّا كذلك، أليس لنا الحقّ في استيطان أرضنا الأصلية"!

قالت آخرَ جُملة لها بحدّة، كانت على وشك أن تصرخَ به قائلة: "إنّ الحقّ يتبع القوّة دومًا؛ وطالما أنّ معهم القوة فمِن حقّهم أن يتصرّفوا طبقًا لمعتقداتهم ومصالحِهم بغضّ النظر عن صالح الآخرين، خاصّة إنْ كان الآخرون كائنات همجيةً متوحّشة تقتل بعضُها بعضًا بالملايين دون أدنى إحساسٍ بالذنب". كادت تقولُ الكثير لوْلا أنّ لديها أوامر مشدّدة بضبط النفس، وإظهار أكبر قدرٍ من الدبلوماسية.

"كيف تردّين على مَن يؤكد أنّ شعبكم لم يعشْ قط في المناطق التي استوطنتموها، وأنّ الحفريات تؤكّد أنّ النياندرتال كانوا في مناطق أخرى بل وتزاوجوا مع بشرٍ عاديّين في تلك المناطق".

ردّت عليه بغضب رافضةً كلمة النياندرتال، ومؤكّدة على أنها تسمية عنصريةٌ، فاعتذر المحاورُ عن استخدام تلك التّسمية طالبًا منها أن تردّ على سؤاله.

"الأسلافُ الذين كانوا يعيشون في المناطق التي اكتشفتم فيها تلك الحفريات كانوا عبارة عن تجمّعاتٍ عشوائية لا تجمعها دولة، وليس لديهم حضارة، مجرّد صيّادين لا يعرفون غيرَ أدواتهم البدائية، أمّا أسلافنا الذين هاجروا من الأرض فقد كانوا أصحابَ حضارة ودينٍ سام، كانوا يحرقون موتاهم في طقوسٍ مَهيبة، ولذا لم يتركوا رفاتًا ليكتشفَهاً حفّارو القبور لديكم، وحينَ هاجروا دمروا كلّ أثر لحضارتهم".

رفعَ المحاور حاجبيْه في غير اقتناع قائلًا: إنّ هناك آراء تؤكّد أنهم اختاروا تلكَ المنطقة لأنّها غنية بمصدر الطاقة الجديد الذي اكتشفوه، والذي كان السبب الرّئيسي في حثّ حكومات الدول الكبرى على الاعتراف بدولتهم.

ابتسمت بسخرية حينَ قال ذلك، وردّت عليه قائلة: "إذًا، أنتَ تتّهم حكوماتكم بأنها مرتشية تبيع مبادئها وحقوقَ أبناء جنسها مقابلَ مصدر للطاقة.. لا أستبعد أن يظنّ الكثيرون منكم ذلك فحكوماتُكم قتلتْ مئات الآلاف عبرَ التاريخ من أجل مصادر الثروة والطاقة، لكنني أؤكّد لك أنّنا شعب متحضّر لا يقبل تلك الفظاعات".

استمرّ الحوار بعد ذلك في مجادلاتٍ حول تلك النقطة أنْهاها المحاور بعرض فيلم قصيرٍ يوثّق للاحتلال، وما ارتكبه في حقّ المواطنين في البلاد التي غزوها. بعدَ نهاية الفيلم نظرَ إليها المحاورُ طالبًا منها التوضيح، وهو يقول بنبرةٍ ساخرة: "يبدو لي أنّ شعبكم المتحضّر يرتكب الفظاعات أيضًا".

اعتدلتْ في جلستها ونقرتْ على الطاولة أمامَها ففتحت شاشة فراغية صغيرة أشارتْ للكاميرا أن تتسلّط عليها. أشار المحاور بأصبعه للمصوّر بعدم اتّباع طلبها قائلًا إنّه يرفض المفاجآت في أثناءِ برنامجه، وأنّه كان من المفترض أن تطلعه على أيّ مادةٍ فيلمية تودّ عرضها قبل بدء اللقاء.

نقرتْ بأصبعها ثانية، فاختفت الشاشة ثمّ قالت: "لا عليك، يبدو أنّك تريد عرضَ الحقائق من وجهةِ نظرٍ واحدة".

نفى المحاورُ عن نفسه تلك التّهمة، فتجاهلته ثمّ أكملت قائلة: "دعني أسألك سؤالًا وأريد إجابتَك من واقع تاريخكم الحديث. لو أنّ دولة غزتْ أخرى واستوطنتها وقمعتْها كما تقولون، كم سيكون نسبة القتلى بين الجانبين!؟".

ردّ عليها المحاورُ مؤكّدًا أنّ هذا خارج عن سياق البرنامج، وأنّ حدوث مَجازر ارتكبها البشرُ في الماضي لا يبرّر أفعالهم. فقالت له بثبات: "لقد قُتل من البشر في الأعوام الثلاثة الأولى من عودتنا نحوَ مائة ألف كلّهم في مواجهات عسكرية، أو إعدامات، بعدَ محاكمات عادلة، وفي المقابل قتل منّا أكثر من عشرين ألفًا أغلبهم ضحايا لعملياتٍ إرهابية قامَ بها مخرّبون من البشر، ومَن يساعدونهم مِن قومنا، وكان بعضُها شديدَ البشاعة كالمثال الذي كنت سأعرضُه لك... خمسة رجال يختطفونَ عشرين امرأة أديتية ويعذّبونهم حتّى الموت بمنتهى البشاعة، ويوثقون فعلتَهم المفزعة، ويشاركونها للعالم أجمع، والمدهش يا سيدي أنّ الملايين هللوا لهم... أدانتهم حكوماتُكم لأنّ البروتوكول يقتضي ذلك، لكنّ أغلب الناس كانوا يستمتعونَ بمشاهدة تلك المجزرة، ويطلقون على مرتكبيها أبطالًا... حدّثني عن الفظاعةِ يا سيدي؛ فأنتم أصحابُ خبراتٍ متراكمة فيها".

أوقف المحاورُ البثّ لفاصلٍ قصير، عادَ بعده السّجالُ الكلامي مرّة أخرى بينَه وبينَ هيرمين، وبدا جليًّا أنّها تفنّد كلامَه بمُنتهى الحرفية لدرجة أنّ أيّ مشاهِد بسيط ليس لديْه خلفية كافية عن الأحداث سيقفُ في صفّها بسهولة، وهنا كان دورُ مفاجأة المحاورِ التّالية حين أعلنَ عن مداخلة من ضيف ما.

امْتقعَ وجهها حين قدّم المحاور ضيفَه الذي يتحدّث عبرَ الأثير، وخفق قلبها بعنفٍ ليس بسببِ ردوده القويّة، ولكنْ لأنّه كان آخرَ شخص تريد ظهوره في تلك اللّحظة. كان المتحدثُ أحدَ رموز المقاومة الأديتية المُناهضة

للهجرة إلى الأرض كان اسمُه ماندريك، وكان قبلَ أن ينضمّ للمقاومة شابًّا لامعًا ذا مستقبل سياسي واعِد، كانت بينهما قصّةُ حبّ تحطّمت حين أعلن ذاتَ يوم تخلّيه عن السياسة وعن العملِ للدّولة، وقرّر التمردَ والمقاومة، واختارت هي العكسَ تمامًا. فرقت بينهما المصالحُ وصارت بينهما عداوةٌ تذكي لهيبَ حبّها القديم أكثر ممّا تطفئه.

"السيدة تتحدّث عن مجزرةٍ واحدة ارتكبَها بضعةُ مجانين، وتنسى أنّ حكومتَها نفّذت أكثرَ من ألف حالةِ إعدام جماعي كان يقتلُ في كلّ واحدةٍ منها عشرة أشخاص على الأقل! اسألها عنْ آخرِ مذبحة ارتكبتها حكومتُهم في مائة وتسعين منٍ أبناءِ وطنهم، أديتيين مُخلصين لا ذنبَ لهم إلّا كراهية الظلم والدفاع عن أصحاب الحقّ".

لم تردّ هيرمين ليس لأنّها لا تجدُ جوابًا؛ بل لأنّ المفاجأة اجتاحتها، وجعلت السياسيّةَ المحنّكة تختفي وتحلّ محلّها الأنثى التي لا يزال العشقُ يوجعها حين تأتي ذكْراه. لم يتوقّف هوَ عن سيْل الهجوم الجارف، وأكمل: "اسألها عنْ علاقتها بتنظيم عائلتِها الإجرامي الذي كان يتاجرُ بالأرضيّين قبلَ الغزو، والذي جاء الكثير من أفرادِه للأرض لممارسةِ جرائم وتجارات غيرِ مشروعة في أيّ قوانين، اسألها عن دوْرها في هذا التنظيم، وعن شقيقِها الذي يديره بعدَ وفاة أبيها".

انتفضتْ غاضبة، واعترضتْ بشدّة على أسلوبه وعلى شخصنةِ الحوار، ما جعل المحاورَ يطلب من ضيفِه التوقّف عن ذلك، ثمّ يطلب منها الردَّ على الاتهامات بالمَجازر: "هذه اتهاماتٌ جزافية لا توجد عليها أيُّ أدلة"

قالت بثباتٍ وقد استعادت رباطةَ جأشها حين استفزّها باتّهامها شخصيًّا، وأكملت: "لا أنكرُ أنّ الأعوام الأولى مِن الهجرة للأرض كانت حافلةً بالعنف والتجاوزات من كلا الطّرفين، وأنّ هناك العديدَ من ضباطنا ارتكبوا جرائمَ تمّت محاسبتهم عليها، لكن كلّ ذلك توقّف الآن بعدَ استقرارِ الأوضاع، أبسطُ مثالٍ على ذلك هو صديقُ ضيفك، والذي يلقّبونه بعمر الزّيبق؛ ذلك الإرهابي الذي ارتكبَ العديدَ من الجرائم في حقّ جنودنا ومواطنينا، وبعد أن قُبض عليه تمّت محاكمته وسجنُه، ولم يعدَمْ لأنّ قوانيننا تمنع إعدامَ مَن تجاوزوا السّتين.. كلّ معركة لها خسائرُها، واليوم انتهت المعارك وبدأنا ننعم بالسّلام، ويمكنك أن تزورَ أديتيا وتلتقي بمَن شئت من الأرضيّين، وستجد أنهم سعيدونَ بحكومتنا أكثرَ من حياتهم السّابقة في ظلّ حكوماتهم الأرضية".

احتدّ ماندريك في ردِّه عليها لدرجة أنّ المحاورَ هدّده بإيقاف الاتصال، فقال بحدّةٍ أكثر: "أنتم تريدونَ تلميعَ صورتهم، لقد استضفتَها لتجعل الرأي العام لديكم يتقبّل فكرةَ الاحتلال والاستيطان، ولإنجاح خططِ حكوماتكم في التعاون معهم، مصدرُ الطّاقة الجديد أسالَ لعابَكم وأعطاكم أملًا في إنقاذِ كوكبكم من الملوّثات، وليذهب المستضعفونَ إلى داهية". صارَ الحوارُ بعد كلامه ذلك شبهَ مستحيل بعد أن ردَّ المحاور عليه، وصار الثلاثة يتكلّمون في وقتٍ واحد؛ ما دفع المحاورَ لأخذ فاصلٍ جديد.

في طريقها للعودة، جاءتها محادثةٌ من الحاكم وهو يشكرُها على قدرتها على إدارةِ تلك المحاورة، ويعدُها بأن يحاول الوصولَ إلى ماندريك الذي لا يزال

هو وجماعتُه صداعًا في رأس حكومته، وصارت قنواتُهم شوكة في خاصرةِ كلّ اتفاق يجري إبرامُه بين أديتيا الأرض وأيّ دولة أخرى في العالم.

كانت طائرةُ هيرمين توشكُ على دخول القاهرة حين جاءَ اتصال من شقيقها. كانت تشعرُ بالضيق الشديد نحوَه ونحوَ دورها في منظمته، ذلك الدورُ الذي لا تستطيعُ التملصَ منه، فتلك المنظّمة أنشأها أبوها وتمكّن شقيقها باتّصالاته وطموحه من إضفاءِ شرعيّة عليها، والتغلغل في أوساط النّخبة الحاكمة، وجعل العديد منهم شركاءَ في استثماراتهم. كانت تحسدُ ماندريك على مثاليّته وقدرته على التضحية بكلّ شيء مقابلَ مبادئه، وهي شَجاعةٌ لم تمتلكْها، وقدرة على التحكم في الذات نأتْ بنفسها عنها منذ زمن.

نزلتْ بها الطائرة في حديقة ڤيلتها في مدينة ميرْفاديل، وهي المدينة التي ضمّت ما كان يُعرف بالسّادس من أكتوبر والشيخ زايد وحدائق الأهرام، والتي صارتْ غالبيّتُها من المستوطنين ومَن تزوّجوا من نسائهم.

كانت مساعدتُها الأولى في انتظارها على باب الڤيلا، وقد بدأت بطنُها في التكوّر بعدَ أن حملت في طفلٍ ذكر من زوجها الأرضي. كانت عيناها مثبّتتان على بطنِ مساعدتها، غير منصتةٍ لسيْل التقارير الذي أمطرتْ به أذنيها وهي تفكّر في جديّةٍ في أن تحذو حذْوها وتقرّر الحملَ من أرضي هي الأخرى.

***

٥

ظلّت (ميْساء) تذرع غرفتَها جيئة وذهابًا في توتّر بعدَ أن تأخر (سمير) وضياء في إحضار معاذ. جلستْ على طرف فراشها تفرُك كفّيها وهي تتمتم بكلمات غير مفهومةٍ تحملُ في طيّاتها الإحساسَ بالحيرة. تهرب من أفكارها إلى تأمل الجدران البالية لغرفتها، والرطوبة التي أكلتْ طلاءها، ويجول بخاطرها كلامٌ عن الحياة غير العادلة التي كانت تجعلُ أناسًا يعيشون بمثلِ تلك البيوت مكدّسين سبعة أو ثمانية في غرفتيْن بمساحةٍ كتلك، في حين كانت تعيشُ هي وأبواها وابنةُ خالتها في شقة فارهة تتعدّى مساحتها الثلاثمائة متر، وكيف أنّ ذلك الغزو ساوَى بين الجميع فصاروا لاجئين أو مذعنين.

هُجِّرُوا من بيوتهم بعدَ الغزو بشهورٍ قليلة كما كلّ سكان التجمع الخامس والقاهرة الجديدة؛ أرسلوهم للعيشِ في دار السّلام؛ وهي منطقة لم تكن قدْ زارتها من قبْل. أسرةُ صديقتها مايا ذهبتْ إلى الوايلي، ومعاذ إلى العتبة، وهكذا. ضمّ الغزاة تلك المناطقَ التي هجّروهم منها، وجعلوها مدينة قائمة بذاتها، وأسموها شونَرْفاديل، وأسكنوا فيها الصفوةَ من مجتمعهم.

انضمّ عمر- أبوها- للمقاومة، وأصرّ أن يعمل مستقلًّا مع أصدقائه من النياندرتال؛ مستقلًّا عن حكومة بلده التي يرى أنّها حكومةٌ مستبدّة لا يجب القتال باسمِها، وكان هذا مثارَ خلافٍ كبير بينهما. كانت تشعرُ بغضب شديد من تصرفات أبيها، لم يكتفِ بالمقاومة؛ وإنّما أصرّ أن يكون واجهةً إعلامية لها، اسمُه يتردّد في كلّ مكان على أنّه البطلُ المقاوم الذي لا يُهادن الغزاة،

ولا يخضع لألاعيبِ السياسة مِن حكّام بلاده والدول الكبرى. أدّتْ تلك الشهرة إلى احتجازها هي وأمّها وسلمى ابنةُ خالتها لأسابيع، والتّحقيق معهم، وانتهى الأمرُ بترحيلهم خارج أديتيا إلى المخيّمات غربَ قرى الجيزة. هاجرتْ سلمى ابنةُ خالتها إلى ألمانيا معَ زوجها في حين قرّرت أمّها زهرة إنشاءَ عيادةٍ صغيرة لخدمة اللاجئين.

بعدَ ثلاثِ سنوات من الغزو، قضتْ نصفَها في حياة كريهة في المخيم، لم تكنْ تلوم أحدًا عليها غيرَ أبيها. زارها رجلٌ عرّف نفسَه باسم إياد، وأخبرها أنه ضابطٌ في المخابرات العامّة المصرية، وأنّهم يريدون ضمّها لوحدة مقاومة تعمل في القاهرة. وافقت بدون تردّد وكأنّها تفعل ذلك نكايةً في أبيها، تدرّبت لمدّة سنة كانت خلالَها تدرس مجموعةً من المقرّرات، ثمّ تخرّجت برتبة ضابطٍ تحت التدريب رغم أنّ عمرها وقتها كان تسعة عشرَ عامًا فقط. ترقّتْ بعدَ بضع سنواتٍ لرتبة ملازم ثمّ صارتْ قائدة لمجموعةٍ صغيرة من المقاومين تضمّ (سمير) و"ضياء"، واثنين من المقاتلين وبعض التقنيّين والمساعدين.

سمعت صوتَ جلبة في الغرفة المجاورة خرجت على إثرها؛ فوجدت (سمير) جالسًا على الأرض مُجهدًا وهو يتألّم مِن جرح فخذه في حين يجرجر زميله أسيرَهما. سقط قلبُها لرؤية إصابة (سمير) فهُرعت نحوه، وأمسكت به تعينُه على القيام وصعودِ السّلم العتيق للدّور الثاني من ذلك المنزل. كان السلمُ ضيقًا بالكاد يتّسع لهما؛ ما جعلها ترتطمُ بفخذ (سمير) المُصابة عدّة مرّات، لكنّها في النهاية أدخلته إلى غرفةٍ نظيفة مجهّزة بأدوات الإسعاف.

قامت بتمزيق بنطالِه بسرعة، وأخرجت أداةً دفعتها في الجرح فتوقف النزيفُ على الفور، ثمّ أخرجت محقنًا دسّته في كتفه، ثمّ بعدها أمسكت بجهاز صغيرٍ عبارة عن شاشةٍ عليها ثلاثةُ أزرار. ضغطت الزرَّ الأوّل ثمّ مرّت بالجهاز على فخذِه لأعلى وأسفل، ثمّ كرّرت العملية مرّتين بعدَ الضغط على الزريْن الآخرين، ثمّ قالت: "الحمدُ لله؛ فخذُك سليم". ابتسم (سمير) وهو يشكرُها ويمسك يدَها ويقبّلها، فقالت مازحة: "لم أفعلْ غيرَ الواجب".

أفلتت يدَها من كفّه، وأخذت في خياطة جرحِه الذي تخدّر بفعل الآلة الأولى التي أوقفتِ النّزيف، وبعد أنِ انتهت ربّتت عليه برفق وهي تعاتبُه على القلق الذي سبّبه لها بتأخّرهم. منذ أنْ بدأ (سمير) العملَ معها في الفصيل الذي تقودُه وجدت نفسها مُنجذبةً إليه من أوّل يوم. بساطتُه وشهامته وقدرتُه على إخراجها من نوبات الكآبة المتكرّرة؛ كانت سجايا تكفي لإيقاعِها في حبّه، إضافة إلى عامليْن مهمّين؛ الأول، الوقتُ الطويل الذي قضتْه بصحبتِه؛ فقد كان (سمير) هو التّالي لها في ترتيب القيادة، وطبيعي أن يمضيَا وقتًا معًا أكثرَ من الآخرين. والثاني، أنّه غيرُ مناسب لها بالمرّة لو نظرنا إلى الأمر من ناحيةٍ اجتماعية محْضة، لكنّها كانت تقول لنفسها إنّها ابنة أمّها؛ جرّاحة الأعصاب التي تزوّجت سبّاكًا، لا بدّ أن تنجبَ فتاة تحبّ فلّاحًا حاصلًا على الإعدادية، ومتزوّجًا من امرأة أخرى. لم يكن الأمرُ يضايقها فهُم صاروا يعيشون في زمن يتّجه فيه أغلبُ الشباب للزواج من فتياتٍ قبيحات من جنس غريب سعيًا للمال والأمان، إضافةً إلى أنّه لا يزور زوجته إلّا نادرًا لأنّ رحلته إليها محفوفةٌ بمخاطرَ جمّة.

تركتْ (سمير) ليستريح، ونزلت للطابق السفلي. كان (ضياء) مع (معاذ) يحاول إفاقتَه ليبدأ استجوابَه بنفسه. (ضياء) كان ضابطَ شرطة قبل أن ينضمّ إليهم، لكن لم يُوضَع ذلك في الاعتبار، وصارَ مرؤوسًا لها لأنّه انضمّ للمقاومة بعدها بسنوات، ولأنّ لديه تاريخًا يمنع تولّيه القيادة في خلايا المقاومة التي تُديرها المخابرات المصرية.

بذلتْ مجهودًا كبيرًا لجعله يكفّ عن التذمّر، ومجادلتها في كلّ شيء، ولم تحاولْ في البداية أن تشكوه للمقدّم إياد- الضّابط المسئول عنهم-، لكنّه في النهاية استفزّها للحدّ الأقصى حين قال: إنّها مجرّد فتاةٍ صغيرة لا تصلح لشيء، وإنّهم ضمّوها للمقاومة فقط لأنّها ابنةُ عمر الزيبق نكايةً فيه، أو سعيًا لاستمالته. عند تلك النّقطة قدّمت تقريرًا كاملًا بكلّ المرّات التي خالف فيها أوامرَها، وأُنِّبَ بشدّة من الرّؤساء في الفيوم، ما جعله يستقيمُ في عمله.

أمرتْه باقتيادِ معاذ- الذي كان لا يزال مخدّرًا- لغرفةٍ مُنفردة لتقوم هي باستجوابِه بنفسها. لم يعجبْ (ضياء) ذلك القرار، وأكّد لها أنّه أقدرُ على استجوابه لأنه ضابطُ شرطة سابق، وله خبرةٌ في التعامل مع المتّهمين وانتزاع المعلومات منهم.

لم توافقْ (ميْساء) وأصرّت على رأيها، ثمّ قالت بلهجةٍ آمرة: "سيد ضياء، قمْ على الفوْر باقتياد المتّهم إلى الغرفة المخصّصة؛ هذا أمر". فقال بضيق: "ولكنْ يا ملازم ميْساء، هذه ليست طريقةُ قيادة، لا بدّ أن تستفيدي من خبرات مرؤوسيك على الأقلّ". كان الجزءُ الثاني من جُملته وتأكيده لها على أنّه مرؤوسها محاولة لتخفيف تشكيكِه في قيادتها؛ محاولة أثارتْ ضيقَه

الشخصي أكثرَ من أمرها له، ومع ذلك كرّرت أمرَها، وأصرّت عليه، ولم يجد بدًّا من الانصياع.

ضياء يَعتبر نفسَه ذا تاريخ طويل من العمل تحتَ إمرةِ الحمقى؛ قبل الغزو كان ضابطًا صغيرًا في قسم شُرطة يرأسه مأمورٌ غبيّ ضعيفُ التصرّف عمل تحته مدّةً طويلة حتّى حدثَ الغزو. في اليوم الرّابع للغزو سيطر النياندرتال على قسم الشّرطة الذي يعمل به في دقائق بعدَ أن قتلوا كلّ مَن قاومهم بقذائفهم الذكية، وأوّلهم المأمور الذي ظنّ نفسه قادرًا على المقاومة.

بعدَ أن ألقى الجميعُ سلاحه، دخل خمسة نياندرتال وأعلنوا أنهم سيتعاونون معَ (ضياء) ورفاقه في قسم الشرطة تحت إمرةِ أحدهم، وأنّ مهمتهم ستكون حفظ الأمن العام والسيطرة على اللصوص والخارجين على القانون.. "نحن نطلب منكم خدمةَ شعبكم والحفاظ على أمنه كالمعتاد". كان ذلك كلامَ قائدهم الذي قال إنّه لن يجبرَ أحدًا على العمل، لكن مَن يرفض سيُرسَل للعمل في مناجم ستُبْنَى لاستخراج مصدر الطاقة الجديد.

عملَ معهم وتنقّل بين عدّة مراكز شرطية في أنحاء تلك الدولة الغريبة. عمل في مدن كالقاهرة وحيفا وأنطاليا، وفي مناطق ريفيّة، وأخرى جبلية في مصر وتركيا وسوريا. بعدَ فترة قصيرة من العمل مُكرهًا صار يحبّ العمل معهم ونظامهم الجيد وتقنياتهم المذْهلة، لكنّه بعدَ عدّة أعوام بدأ يكره حقيقةَ أنّه مجرّد خادم للغزاة يساعدهم في إحكامِ قبضتهم على البلاد التي يستعمرونها.

بعدَ أن استقرّت أمورُ أديتيا الأرض، بعدَ سبع سنوات من الغزو تقريبًا، بدأوا في تجنيد أفرادٍ من الشرطة الذين تزوّجوا من أديتيات وأنجبوا منهن، وبدأوا في السّماح لَمن يريد الاستقالة من الشرطة، وكان هو مِن أوائل المستقيلين. بعد ذلك جاءَه عرضٌ للعمل في المقاومة في كتائب النصر التابعة للمخابرات المصرية، مقابلَ أن يتمّ العفو عن جريمته المتمثّلة في عمله في شرطة الغزاة، ومقابل راتب مُجز، أخبروه أنّه سيبدأ ضابطًا تحتَ الاختبار ثمّ سيترقّى تدريجيًّا إذ أثبت إخلاصه وكفاءته. وافقَ، وقد شعر أنّ العمل في المقاومة سيكون بالفعل التوبةَ المناسبة عن عملِه في خدمة الغزاة.

لا يتحمّل أن يكون مرؤوسًا لمِيْساء؛ الفتاة التي تصغرُه بعشرة أعوام، ومدنية لا خبرةَ لها بشيء. مع ذلك كان يتحمّل أملًا في أن يتمّ العفو عن تاريخه وجعله يترقّى في عمله الجديد، ويتخلّص من رئاسة (مِيْساء) وسمير، أو كما يسمّيهما "الطفلة والعسكري العادة".

***

٦

وقفتْ (ميْساء) تتأمّل وجهها في المرآة وكأنّها تتأكد من أنّ ملامحها صارتْ أكثرَ ملاءمة للقيادة، وأنّ وجهها الطفولي لم يعدْ حجّة يستخدمها (ضياء) في تحديها. كانت تتأمّل نفسَها أيضًا، وتحاول المقارنة بين ملامحها الآن وملامحها منذ عشر سنوات حين كانت مقرّبةً لمعاذ. أخذت نفسًا عميقًا وهي تحاولُ أن تتغلب على التوتّر الذي يعتريها وهي على وشكِ الدّخول عليه، وإخباره بالحقيقة.

كانت الأوامرُ التي صدرتْ لها هي الذّهاب إليه دون تنكّر، والحديث معه، والاتّفاق على موعدٍ آخر لمقابلته في اليوم التالي، وبتكرار تلك المواعيد تمهّد السبيلَ لإحضاره للمقرّ طواعية، وإقناعه بالتّعاون مع المقدم إياد. عارضت الفكرة في البداية، وعارضها (سمير) أيضًا لكنها حين عرفت بالتفاصيل وافقت على الفور وأقنعت (سمير) دون إخباره بتفاصيل إضافية.

الغريبُ أنّ لقاءها الأوّل تمّ معه بمُنتهى البساطة، ولم تلتقطها أيُّ طائرة دقيقة، أو جهازٍ مُستشعر طيلة طريق الذّهاب والعودة بفضل جهاز التشويش الذي تحمله، والذي يُصدِر موجاتٍ تغيّر بثّ المستشعرات.

حينَ ذهبت إلى لقائهما الثاني، وجدتْ كمينًا ينتظرُها في المطعم الذي اتفقت معَ (معاذ) على اللّقاء فيه. كان من المرجّح أنّهم قد التقطوا الحوار الذي دار بينهما بشكلٍ عرَضي، وعرفوا مكانَ لقائهما، أو أنّهم اكتشفوها منذُ

البداية عن طريق أحد الطّائرات الدقيقة، وراقبوها ورَصَدوا حوارَها مع "معاذ"، ثمّ حاولوا تتبّعها للمقرّ، لكنّهم فقدوها عندَ نقطة دخولها لمنشية ناصر؛ حيث هناك أكثرُ من جهاز تشويش قوي.

فتحت البابَ الحديدي لغرفةِ الاحتجاز، فوجدت (معاذ) راقدًا على الفراش الصّغير يحدقُ في سقف الغرفة، ويتمتمُ بكلام غيرِ مفهوم، غير مُنتبهٍ لدخولها. نادت باسمِه فنظرَ إليها مشوّشًا، وقال بلسانٍ مُتلعثم: "ميْساء! يبدو أنّ المخدّر الذي حقنوني به يصيبُ بالهلاوس أيضًا". ابتسمتْ وهي تقول: "إنّها ليست هلاوس، وإنّها أمامَه على الحقيقة". فرَدّ وهو يُطلق ضحكةً عبثية: "كلّ مَن يزورك في أثناء الهلوسة ينكر أنّه جزءٌ من الهلوسة".

أخرجتْ من جيبها محْقنًا صغيرًا، وأفرغته في كتفِه فتأوّه وهو ينظر إليها غيرَ مصدّق. أجلستْه على المكتب المُجاور للفراش وهو يُغلق عينيه ويفتحهما بشكل متكرّر، ثمّ نظرَ إليها وقد زالتْ من رأسه بقايا المخدّر، واندفع سيلٌ من الأسئلة من فمِه الذي زال تلعثمُه. أعطته كوبًا من عصير الليمون وطلبت منه أن يهدأ وسوف تخبره بكلّ شيء.

ارتشفَ العصير بتعجّل وكأنّه حاجزٌ يريد تخطّيه لمعرفة إجابة الأسئلة التي تملأ رأسَه في تلك اللحظة. وتأمّلت هي العصيرَ المتدفّق في فمه وهي تقول في نفسِها إنّها أوْلى بهذا العصير لتزيلَ توتّرها وتعرفَ من أين تبدأ كلامها معه.

مرّات نادرة منذ أنِ انضمّت للمقاومة اضطرّت فيها للقيام بدور المحقق، وكان الأمرُ ثقيلًا على قلبِها في كلّ مرة، وهذه المرّة هي الأصعب؛

فالشخص المُستجوَب كان فتى أحلامها أيامَ المراهقة. بعد أن وضع الكوبَ الفارغ أمامه نظر إليها مستفهماً عن سرِّ سكوتها طالبًا منها أن تبدأ بالحديث.

قامتْ من على كرسيّها بتباطئ، وتحدّثت دون أن تنظرَ في عينيه وأخبرته أنّها تعمل مع المقاومة فعلًا. فهزّ رأسَه متفهّما وهو يقول: "نعم، تكملين مسيرة أبيك بالتّأكيد". هزّت رأسها بقوةٍ نافيةً عنها تلك الصفة وهي تشرح له أنّها تعمل مع المخابرات المصرية، وأنها لم تساعد أباها يومًا ما، بل إنّها غير مقتنعة بطريقته في المقاومة.

"لا يفلّ الحديدَ إلّا الحديد، وهؤلاء الغزاة لن تفلحَ معهم تلك العمليات العشوائية؛ لا بدّ من حرب شاملة يومًا ما تشنّها دولة قوية تستردّ أرضها.. حرب العصابات قد تصلحُ للتفاوض على تحسين الاحتلال أو الاعتراف ببعض الحقوق، أمّا استعادة جزءٍ من الوطن فهي مهمّةُ دولة بأكملها".

أخبرتْه أنّها ذهبت إليه قبلَ يومين لأنّها تريده في أمر مهمّ يخصّ المقاومة، وأنّ واجبه كمصريّ مُخلص يحتّم عليه أن يساعد بلده. ردّ عليها بحدّة قائلًا: "إذًا، لم تريدي العودةَ لي أو الزّواج مني.. كنتِ تكذبين عليَّ"! نظرتْ إلى عينيه بثبات وهي تردّ بهدوءٍ شديد: "كما كذبتَ أنتَ ولم تخبرني أنّك تخطّط للزواج من بنات النياندرتال وأنتَ تعرف أنّ التزاوج معهم خيانة لا يغفرها أنّك مُجبر، أو أن الجميع يفعلونَ ذلك".

امتقعَ وجهه وانعقدَ لسانه، وأحسّت أنّه يشعر الآن بالضآلة أمامها. لم تكن ذكرياتُ الصّغر حاضرة الآن فهي تعلّمت أن أحداثًا كتلك التي

يعيشونها قادرة أن تغيّر أفضلَ النفوس وتهبط بها إلى الحضيض. كانت تتعامل مع رجلٍ مُستهدف في عملها، صادف أنّ لديها معرفة سابقة به تمنحها أفضلية. حاول أن يبرّر قرارَ زواجه من نياندرتال، لكنّها قالت: "إنّ كلّ من يتزاوجون معهم يعرفون أنهم ينفذون خطّة الغزاة، ويساعدون في محْو كلّ أملٍ في عودة الأرض لأصحابها. هُم يخطّطون لما بعدَ ثلاثين عامًا من الآن، حينَ يصبح نصفُ السّكان تقريبًا من الهجناء أبناء أديتيات وذكور أرضيّين فاقدين احترامَهم لأوطانهم مثلك، عندها لن يمكننا محو ذلك الغزو أو التخلص منه"

حاولَ أن يجادلها أكثرَ لكنّها أقفلت الحوارَ حين أمسكت جهازًا صغيرًا وفتحتْ به شاشة فراغية، وبدأت تعرضُ عليه فيديو يظهر خمسة ملثّمين يقيدون مجموعةً من الفتيات الأديتيات، ويقومون بوخزهنّ بالسكاكين في أماكن متفرقة من أجسادهن، ثمّ بعدَ فترة يبدؤون بقتلهنّ واحدةً تلو الأخرى، وهُم يهلّلون، وأحدُهم يردّد شعارات مثل "الدمُ يغسل كلّ عار".

كانت تركّز على تعابير وجهه وهو يشاهدُ الفيديو، وترى كلّ علامات الخزي والألم تتبدّى على محيّاه، لكنّها كانت أكثر وضوحًا حين قام واحدٌ من الشبان بعينه بكشفِ صدرِ إحدى الفتيات وغرسَ سكّينَه ببطء بين ضلوعها، والفتاه تصرخ بقوة، والسكينُ يمتدّ للداخل حتّى صمتتْ فجأة حين مزّق قلبها.

"لم أكن أتوقّع أنّه أنت.. كنت أعرفُ أنّك واحدٌ منهم، لكنّني لم أكن أتخيل أنّك أكثرهم ساديّة ومرضًا". قبلَ أن تريَه الفيديو كانت تظنّ أنّه ذلك

الشاب الذي لم يكنْ يستعمل سكينَه إلّا حين ينهرُه زملاؤه، أو ذلك الشابّ الذي كان يغرس السكين سريعًا، ويُخرجه سريعًا دونَ النّظر إلى الضحية، أمّا أن يكون هو ذلك السادي الذي يتلذّذ برؤية سحاباتِ الألم على وجه ضحيّتِه فلم يردْ ذلك بخاطرها.

كانت تعليماتُ (إياد) لها أن تقومَ هي معه بدور الشرطي الطيب؛ تحاول إقناعَه بأنها في صفّه، وتقول إنّها حين علمت بتورّطِه في ذلك الفعل الشنيع التمست له العذر، وأقنعتِ السّلطات بالعفو عنه إذا وافقَ على مساعدتهم. يأتي بعد ذلك دورُ (إياد) فيستخدمُ التّرهيب ويكيلُ له الاتهامات بالوحشية والإجرام، ويهدّده بأقصى العقاب. كانت تلك هي الخطّة، لكنّها لم تعدْ قادرة على تنفيذها وامتلأت برغبة قوية في صفعِه.

أصيبتْ بالغثيان أوّل مرّة شاهدت الفيديو الذي انتشر في العالم أجمع، وكان الأولَ والأفظعَ من عدّة فيديوهات لجرائمَ فعلها آخرون مبرّرينَ أفعالهم بأنهم يُرعبون الغزاة كي يفرّوا لكوكبهم ثانية. كانت تكره كلّ مَن في الفيديو لكنها بالأخصّ كانت ترغب في تمزيق ذلك السّادي الذي اتّضح الآن أنه هو "معاذ".

أغلقتِ الشّاشة، ونظرت إليه، كان وجهُه مغرورقًا بالدموع غيرَ قادر على النّطق. صرختْ فيه بعنف ليتكلم وهي تشعر أنّها على وشك توجيه لكمةٍ لوجهه. "ستّ سنوات مضتْ على هذا الفيديو" قال وهو يمسح مخاطَه بكمّه ويكمل: "كنت صغيرًا مدفوعًا برغبةٍ قويّة بالانتقام.. كنت عضوًا في مجموعةٍ يديرها رجال كبار لا نعرفهم، طلبوا منّا أن نصوّر الفيديو ونحن

نال (شرف) الانتقام من الغزاة، لم أعرفْ بشاعة ما فعلتُ إلّا بعدها حينَ شاهدت نفسي وأنا أفعلُ ذلك.. يقولون إنّ رؤيةَ الدّم تذهبُ العقل، وتجعل الإنسانَ شَرِهًا لمزيدٍ من الدم.. حسنًا كنت كذلك لم أكنْ أراهن بشرًا، لكن بعد أن شاهدتُ الفيديو أيقنتُ أنّ فعل ذلك هو التوحش حتّى لو كان الضحيةُ ثعبانًا أو ضبعًا حقيرًا؛ لا فتاة مسكينة".

كان الندمُ يقطر من كلماتِه التي كان يقطعها بنشيج يطغي على صوته أحيانًا لكنّه لم يكن كافيًا لإقناعها. "والآن تريدُ أن تكفّرً عن ذنبك بالزواج بواحدةٍ منهن"، قالتْها بسخرية محاولةً أن تتماسك، وأنْ تعود إلى دوْرها كمحقّقٍ متعاطف. قال وهو يحاولُ أن يتوقّف عن البكاء: "صدّقيني، أنا مستعدّ لتلقي العقاب على فعلتي؛ أنا أرى الكوابيسَ كلّ ليلة منذ فعلتها، ستّ سنوات لم تتركني فيها ليلة واحدة".

قبلَ أن تردّ عليه وتخبرَه بالغرض الحقيقي من هذا التّحقيق تصاعد صوتٌ من الميكروفون الداخلي بالغرفة يطلب منها الحضور لمقابلة المقدم (إياد) على الفور. قامت لتلبّي الأمرَ فأمسك (معاذ) بذراعها وهو يهمّ بالتحدث، لكنّها أشارت إليه بالصّمت والانتظار حتّى تعود إليه.

***

٧

"الأهرامات.. ثلاثون ألف عام من التاريخ تقف شامخة في ميرْفاديل عاصمة أديتيا، وتعدكم بالكشف عنْ مزيد من أسرارها التي استطاع علماؤنا الأديتيون اكتشافها". كانت الكاميرا تدورُ بين الأهرام، وتقترب من فتحة أسفل قمة الهرم الأكبر بعشرين مترًا تقريبًا، والمعلّق يكمل بالإنجليزية: "هذه الفتحة تقود إلى غرف مليئةٍ بالأسرار لم تكنْ لتكتشف لولا جهود علمائنا الذين يقدرون التاريخ الإنساني أكثرَ ممّا تتخيلون". تبتعد الكاميرا وتكشف منطقةَ الأهرام بأكملها وتهبط جملة مكتوبة يردّدها المعلق: "زوروا أديتيا؛ حيث تنصهر الحضارات".

توقّف العرض، وضغطت كَمِيرْدا مساعدة هيرمين زرًّا في جهاز التحكم فبدأ عرضُ فيديو آخر يُظهر مدينةَ القدس، يتجوّل بين معالمها وشوارعها القديمة وصوتُ المعلّق نفسه يقول: "القدس صارتْ مدينة السلام، لم تعدْ مدينة الدماء والحروب كما كانت قبلَ أن تعود جزءًا من أديتيا"، تتداخل في الشاشة صورة مصلّين في المدينة من أديانٍ مختلفة، والمعلّق يكمل "أيًّا كان دينك ستنعم بالصلاة هنا في مكانك المقدس بدون حواجز أو حراس مسلحين.. بدون ضغائن أو أصوات كراهية.. في أديتيا صارت القدس حقًّا للجميع، بدون تفرقة"، يظهر في الصورة شيخٌ وحاخام وقس، يقتربون من كاهنٍ يرتدي معطفًا جلديًّا أحمرَ اللون، وقلادة عليها شعارُ ماجوها (شعار دين النياندرتال؛ وهو يد مفرودة ينام في راحتها شخص في وضعيّة الجنين)،

يحيط الجميعُ بالكاهن، وتهبط جملة مكتوبة يردّدها المعلق: "زوروا أديتيا؛ حيث تتعانق الأديان".

أغلقتْ كَمِيرْدا العرض، ونظرت إلى هيرمين تسألها رأيها، فقالت بابتسامة عريضة: "التنفيذُ أكثر من جيد، ويناسب طريقة تفكير الأرضيين.. أحسنت يا كَميردا". تضرّج وجهُها بالحمرة وهي تشكرها بتأدب جمّ، وتقول لها: "أنا فقط نفّذت أفكارك يا سيدتي.. إنّك عبقرية ومُخلصة فليجعلك ماجوها في أعلى الدّرجات". لوّحت هيرمين بكفّها في عدم اكتراث بذلك التكلّف الديني الذي تغرق مساعدتها نفسها فيه.

كانت هيرمين من عائلةٍ غير متديّنة، ولكنّ وضعها السياسي ووجودها في قلبِ الأحداث كواجهةٍ دعائية يحتّم عليها استخدامَ الدّين في الكثير من المناَسبات، بل وارتداءَ دبّوس صدرٍ عليه شعارُ ماجوها في كلّ ظهور إعلامي لها. هذه الحملة الدّعائية كانتً فكرتها، فمِن ناحية كانت تنفّذً توصيات مجلس الحكم بابتكار وسائل تؤدّي إلى تطبيع تدريجي في العلاقات معَ دول العالم، ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ شركاتِ عائلتهاً ستحصلُ على نصيب من الكعكة، القانونية منها وغير القانونية.

كان شقيقُها يجري حملةً دعائية موازية في العالم السّفلي للتسويق لنوع مُختلف من السياحة. الأعشابُ المخدّرة المزروعة في كوكب أديتيا والتي تعطي البشرَ نشوة مختلفة تمامًا عن ما عهدوه، وقد كان يخطّط لجعْل السياح أولَ زبائنها؛ سيتذوّقون نشوتها، ويأخذونَ معهم منها وهُم عائدون لأوطانهم. ستبدأ سمعة المخدّرات الأديتية في الانتشار وسيبدأ تصديرها. هذا بالطبع إضافةً إلى تجارة التّقنيات التي تمنع حكومة أديتيا إعطاءها للبشر.

كان ضيقُ هيرمين من عمل عائلتها غيرِ القانوني يتصاعد باستمرار، خاصّة أنّ موقعها الحالي يسمح لها بتوسيع الأَنشطة القانونية، ولكن يبدو أنّ ممارسة الجريمة جزءٌ من شرف العائلة لا يمكن التخلّي عنه. لم تكن تستطيع الخروج من نشاطِ عائلتها مهْما رفضته فنقودُ الجريمة هي التي أنفقت على تعليمها وهي التي دفعتِ الرّشاوي لإيصالها إلى مراتب عُليا في السلطة. على أيّ حال كانت تتقبل الوضعَ مؤقتًا حتّى تصل إلى منصبٍ أعلى يخوّل لها القضاء على نشاط أخيها أو القضاء عليه شخصيًّا إذا لزم الأمر.

استأذنت كَميرْدا للذّهاب لأنّها تريد الصلاة في المعبد قبل أن تعود إلى جيزافاديل (اسمُ مدينة جديدة تضمّ مناطق الجيزة القريبة من النيل) حيث كان بيتها يقعُ في الحيّ الخامس (المهندسين سابقًا). أذنتْ لها هيرمين قبل أن تترك مكتبها الذي يقع في إحدى الڤيلات إلى بيتها الذي يقع في الڤيلا المجاورة. كانت تمشي الهوينى بين الڤيلتين، وقبل أن تدخلَ بيتها خطرت فكرة ببالها فسألت أحدَ حرّاسها قائلة: "أتعرف (لؤي) الأرضي؛ ضابط البوابة الغربية؟" هزّ الحارس رأسه موافقًا وهو يقول: "نعم يا سيدة هيرمين. هو صديقي". سألته وهي تحكّ أذنها: "هل زواجُه حصري أم مفتوح؟" ابتسمَ الحارس وهو يقول: "بل مفتوح يا سيدتي؛ فهو شديد النشاط مع النّساء من الكوكبين".

تركته وتوجّهت إلى غرفتها وفتحت جهازَ اتّصالها وطلبت من (لؤي) الحضور إلى غرفتها. فتحتْ درجًا صغيرًا جوار فراشها وأخرجت منه محقنًا. حين دخل (لؤي) ووقف أمامها بقامة مشدودة. كان عريضَ الكتفين،

بارزَ الفكّين، خشنَ الملامح، قويّ البنية، كأنّه من النياندرتال لكنّه أطول قامة وأصغر وجهًا. طلبتْ منه أن يستريح في وقفتِه، وسألته بابتسامةٍ عابثة كم امرأة أديتية في حياته وكم أرضية؟. ردّ متلعثمًا "إنّها شائعات يا سيدتي، أنا رجلٌ محدود العلاقات، أحيانًا أطاوعُ شهوتي إذا تحرّكت، لكنّني أحبّ زوجتي، وعلاقاتي القصيرة تحدث لأنّ زواجنا مفتوح".

اقتربتْ منه ووضعت يدَها على صدره وهي تقول: "حسنًا، هل لديك وقت لإشباع رغبتك معَ امرأة أديتية مختلفة عن كلّ مَن عرفت؟" ردّ بارتباك وقد بدأ الدم يتصاعدُ في رأسه: "أمرك سيدتي" ضيّقت عينيها بحدّة وهي تتأمّل أذنيه المحمرّتين وعينيْه اللتين تتحاشيان النظرَ إليها، وغرست المحقنَ في كتفه فجأة وهي تقول: "أحدّثك عن الرغبة فتحدّثني عن الأوامرِ يا أحمق"، تأوّه متألّمًا حين انغرس المحقن في كتفه، لكنّها لم تعبأ وأمسكتْ بتلابيبه، ثمّ جذبته إليها لتبدأ معه طقسًا لم يكن يتخيّل أن يمارسه مع سيدتِه المتغطرسة.

في ذلك الوقت، كانت كميردا تسيرُ بأقصى سرعة يسمح بها حملها الذي وصلَ لشهره السادس وهي تتوجّه إلى المعبد لإقامة صلاتها الأسبوعية، ولاستشارة الكاهن في أمرٍ يقلقها. كانت تريدُ أن تجد وقتًا كافيًا للصّلاة لأنّها يجب أن تذهب لبيتها لتصلَ قبلَ عودة زوجها من عمله. (باسل) الذي تزوّجته خدمة لوطنها ودينها؛ جزءًا من الطقس المفروض على بناتِ جلدتها من الزواج من غرباء للحفاظ على نسلِهم، وعلى بقائهم في الأرض، لكنّها مع الوقت أحبّته، وصارت تسعى لإرضائه بأيّ طريقة.

كانت بدايةُ إعجابها به حين أصرّ أن يكون زواجُهما حصريًّا، وكان ذلك يعني لها أنّه جادّ في الزواج، وأنّه يعتبرها زوجته، وليس كالكثيرين من الأرضيين الذين يعتبرونَ الأديتيات مجرّدَ وعاءٍ عليه أن يملأه لينالَ مميزات معينة، ولا يضيره إنْ كانت له وحدَه أمْ كانت مع آخرين، فهُم يعتبرون الزواج بالأديتيات ليس زواجًا حقيقيًّا.

الأديتيون يعتبرون أنّ العلاقة بين الذكر والأنثى مجرّدُ ممارسة بشرية ممتعة لا يلبسونها أيّ تعقيدات نفسية أو اجتماعية، وينسبون الطفل لأمه التي تتلقى من الدولة راتبًا شهريًّا مقابلَ مجهودها في رعايته. لكن هناك بعض المجتمعات الأديتية تصرّ على أن تكونَ تلك العلاقة حصرًا بينَ شخصين، وهنا يتمّ عقدُ زواج حصري ينتسبُ فيه الأبناء للزّوجين، ويعاقب مَن يخالف العقد، ويدخل في علاقة خارج الزّواج.

حين هاجروا لكوكبِ الأرض الأمّ وضعوا نوعيْن من عقود الزواج بين الأرضيّين والأديتيات، حصري وغير حصري، وكانت كَميردا ترى أنّ الأرضيين الذين يصرّون على حصرية الزواج (وهُم قلّة) هم فقط الجديرون بالاحترام.

دخلتْ من باب المعبد إلى غرفةٍ صغيرة، تخلع فيها ثوبَها المعتاد وترتدي زيًّا مخصوصًا للصّلاة، وتدهن وجهَها بمسحوق مقدّس يهيّئ روحَها للدخول في قدسيّة المكان. دخلت قاعة الصلاة الفسيحة وجلستْ على ركبتيها في مربع فارغ وأمسكتْ بكتاب الصلوات وأخذتْ تقرأ منه بصوتٍ هامس. أحنتْ رأسها حين وصل عندها كاهنُ الصّلوات الذي وضع يديه على

كتفيها وتمتمَ بكلام مسجوع، ثمّ نقل يديْه على رأسها وتمتمَ بكلماتٍ كهنوتية لا يعرف العامّة معناها. حين انتهى جلس هوَ ووقفت هي ووضعتْ يديها على كتفيه، ثمّ قبّلت رأسه ثمّ جلست أمامه ثانية. بعد أنِ انتهت من تلاوةِ كلماتِ إنهاءِ الصّلاة معه في صوت واحد. قالت: "أيها المقدس، كنت أريد أنْ أستشيرك في أمرٍ مهم.. أشعرُ أنّني أغضب ماجوها، ولا أعرف هل أنا على صواب أم خطأً".

وضعَ الرجلُ ظهرَ كفّه اليمنى على خدّها الأيمن وهو يقول: "العزيزة كَميرْدا.. أنتِ تعرفين أنّني كاهن للصّلاة فقط ولستُ مؤهلًا للفتوى". هزت رأسها متفهّمة وهي تقول: "أعرف أيّها المقدس لكنني أطلبُ النصحَ لا الفتوى". ابتسم بودٍّ وهو ينزل يدَه ويمسحها على البساط الأديتي الأحمر الذي يجلسان عليه وقال: "أفضّل أن تسألي الكاهنة الوسطى؛ فهي أفضلُ منّي، ويمكنك أن تقابليها الآن بدلًا من انتظار كاهن المعبد العلوي فجدولُه مزدحم". شكرته ثمّ انحنت تقبّل ركبته قبل أنْ تقوم وتخرجَ من قاعة الصلاة لتتوجّه لغرفة الكاهنة الوسطى.

كانت غرفةً فسيحة مفروشةً بالبساط الأديتي الأحمر، وفي وسطها أريكة صغيرة تجلسُ عليها الكاهنة التي ترتدي عباءةً بنيّة؛ وهو لونُ زيّ الكهنة المتوسّطين. جلست القرفصاءَ أمام الأريكة بعد أن قبّلت الكاهنة على ركبتها وتنحنحتْ قبلَ أن تتكلم بصوتٍ مُضطرب: "سيدتي، أخشى أن أكون مشاركة في عملٍ قد لا يُرضي ماجوها". عقدتِ الكاهنة حاجبيها وهي تسألها بصوتٍ كالفحيح: "وما هو ذلك العمل؟" شرحت لها الحملةَ الدعائية

التي تدعو السياح من أنحاء العالم للمجيء إلى مدينة القدس للصّلاة فيها، ووجهة نظرها من أنّهم يسمحون لأصحاب الدّيانات (الباطلة) بالمجيء لممارسة أديانهم في أرضٍ مقدّسة.

"نحنُ نسمح للموجودين عندنا في دولتنا بممارسة تلك الشعائر، ومنهم زوجك، ما الفارق يا عزيزة؟". كانت الكاهنة تردّ عليها بصوت رتيبٍ مبحوح لم تفهمْ منه إنْ كانت تستنكر سؤالها أم تسخر، فقالت: "هؤلاء نحن مضطرّون للعيش معهم، وديننا متفتّح يسمح لنا بتركِهم على أديانهم، وعدم تقييد حريتهم في ممارستها، أمّا أن نحضرَ آخرين إلى أديتيا ونجعل قطعةً من أرضها المقدسة قبلة لحجيجِهم فهذا أمرٌ مختلف"، أنهت جملتَها وهي تلتقطُ أنفاسها بصعوبة فهي دومًا تضطربُ في حضرة الكهنة الكبار.

انحنتِ الكاهنة عليها، ووضعت ظهرَ يدها اليمنى على خدها الأيمن وهي تطمئنُها بأنّ هذا الفعل يُرضي ماجوها وهوَ ضروري لنشر دينهم بين الأرضيين. تطلّعت إليها بوجهٍ ملؤه الدهشة وهي تسألها: "كيف؟" فقالت الكاهنة وهي تعتدل ثانية: "إنَّ كلّ الأرضيين يظنّون أنّنا شعبٌ متوحش، وأنّنا اغتصبنا دولًا وشردنا شعوبًا، وأنّ ديننا نوعٌ من الخرف.. لا بدّ أن نريهم سماحتنا ونريهم وجهنا الأفضل حتّى يبدؤوا بتقبّلنا... حين يصلي أصحابُ تلك الديانات جوارَ كهنتنا سوف يتساءلون عن عقيدتنا وطريقةِ صلاتنا، وهكذا ستجدينَ منهم مَن يتقبل ديننا ومَن يدينُ به".

تهلّلت أساريرُ كَميردا لوهلة، ثمّ سألت سؤالَها الثاني الذي خطر للتوّ ببالها: "هل يمكن أن يقتنعَ زوجي بديننا يومًا ما.. أنا أحبّه وأخشى أن تتوهَ

روحه في الظّلام بعد أن يموت". ردّت عليها الكاهنة وابتسامتُها تتّسع في حب: "يا إلهي.. لو أنّ نصفَ كهنتنا على تلك الدرجة من التديّن لأصبحنا أفضلَ حالًا بكثير.. العزيزة كَميردا أنتِ مخلوق نوراني، وحبّك لذلك الأرضي سينيرُ روحه ويبعدها عن الظلام حتّى لو ماتَ على دينه".

دمعتْ عيناها من الفرحة وهي تسمعُ هذا الكلام، وهمّت بتقبيل ركبة الكاهنة لكنّها قامت واقفةً واحتضنتها بقوّة؛ وهي علامة على رضا شديدٍ لا يسبغه الكهنة إلّا على أكثر الناس تقًى، ثمّ قالت لها: "أتمنّى أن تظلي على عهدك هكذا، وألّا تتغيري بعدَ أن تصعدي في مناصب عُليا في الدولة". قفزَ قلب كميردا فرحًا من هذه النبوءة وهي تعدُها أنّها لن تتغير أبدًا، ثمّ سألتها بتردّد: "سيدتي المقدسة.. هل زوجي يعتقد أنّ زواجه منّي معصيةٌ لدينه؟ هل يمكن أن يغيّر هذا قلبه؟"

جلستِ الكاهنة ثانية وهي تقول لها بفراغ صبر: "لقد أخذتِ أكثر من وقتك أيّتها العزيزة كَميردا.. القليلُ من المسلمين، وأعتقد أنّ زوجك منهم، يعتقدون بأنّ الزواج من بناتنا صحيح، حتّى وإنِ اعتقدوا أنّه خيانة لوطنهم، لكنّه زواج صحيح، والكثيرُ منهم يظنّون أنّنا وثنيون، والزواج منّا باطل وحرام، وأنا متأكدة أن زوجك يحترمُ زواجكما ويحبّك فعلًا". ختمتْ كلامها بأنْ صفّقت بكفّيها أمام صدرها وهي تقول: "والآن دعيني أبدأ خلوتي، ولا تنسي أن تضعي تبرّعًا لجنينك عند كاهن الصّلاة الخاصّ بك حتّى يكبر مؤمنًا".

***

٨

دخلت (ميْساء) لغرفة الاجتماعات، وهي غرفةٌ صغيرة لا تستحقّ هذا الاسم؛ فمساحتُها لا تزيد عنْ عشرة أمتار مربّعة، بها طاولة صغيرة كطاولات المقاهي وبضعةُ مقاعد خشبية عتيقة. كان المقدّم (إياد) يجلس خلفَ الطاولة ومعه رجلٌ آخر إضافةً إلى (سمير) و"ضياء".

كان (إياد) في منتصف العقدِ الرّابع، خمريّ البشرة، ذا شاربٍ صغير، وشعر مجعّد، يرتدي ملابسَ فقيرة تتماشى مع التّمويه الذي ينبغي له أن يظهرَ فيه، يجلسُ إلى جواره رجلٌ أكبر عمرًا يبْدو عليه الإجهاد. رحلة (إياد) من الفيوم إلى مقرّهم في منشية ناصر رحلةٌ عسيرة. في غالب الأحوال تتطلّب منه أن يترجل قبل حدودِ الأرض المحتلّة بخمسة كيلومترات على الأقل، يحملُ فيها على كتفه حقيبة ثقيلةً تحوي الأجهزةَ اللازمة لفتح ثغرةٍ في جدار الطاقة الذي يفصلُ الأرض المحتلة عنْ خارجها، وأجهزة أخرى للتّشويش حتّى يتمكّن من الوصول إلى وجهته.

طلبَ من (ميْساء) الجلوس، وعرّف الرجل الموجود معه بأنه رئيس العمليات في قطاع القاهرة، وهو رئيس (إياد) المباشر. حضرَ الرجل خصيصًا هذه المرّة لأنّه يريد استجواب (معاذ) بنفسه.

بدأ الرجلُ الحديثَ بصوتٍ معتدل، لكنّه يحمل الكثير من رنّة خطابية: "أنتم مِن خيرة شبابِ مصر الذين يقاومون خلفَ خطوط العدو....".

هزّت (ميْساء) رأسها مُبتسمة، وفي داخلها كانت تتمنّى انتهاءَ تلك المقدمة غيرِ المبررة. بدأ الرجل بشرح الهدف من إحضار "معاذ"، والتحقيق معه؛ وهو الهدف التي كانت (ميْساء) تعرفه وحدَها.

حكّ (ضياء) رأسَه بعدم اقتناع وهو يسأل: "كيف تطلبُ منّا أن نسلمهم، هؤلاء القرود مجموعةٌ من شبابنا مهما كانت الجريمةُ التي قاموا بها! لماذا لا نشحنهم إلى الفيوم ونقوم نحنُ بمحاكمتهم مادمْنا مثاليّين إلى هذه الدرجة؟" ردّ عليه (إياد) بصرامةٍ طالبًا منه عدمَ التّحدث بتلك الطريقة، لكنّ الرجل الأكبر قاطعه وهو يقول: "مِن حقّهم أن يعرفوا كلّ شيء يا "إياد"، فهُم المجموعة التي قبضت على ذلك الأخرق، وهُم مَن سيساعدوننا في تسليم زملائه".

شرحَ الرجل لهم معلوماتٍ قال إنّها سرية للغاية. قال إنّهم سيسلمون هؤلاء الأربعة شركاء (معاذ) في تلك الجريمة مقابلَ إطلاق سراح عمر الزيبق، فالنياندرتال لم يوافقوا على إطلاق سراحه مقابل أسرى منهم، وحين أرسل المصريون إليهم عبرَ وسيطٍ يطلبون منهم تحديدَ المقابل المطلوب لذلك، كان المقابل الوحيدُ الذي طلبوه هو تسليمَ هؤلاء المجرمين، وأكمل قائلًا: "طلبوا ذلك لاعتقادهم أنّ القتلة هاربون عندنا، لكنّنا سنسلمهم هؤلاء الفتيان وهُم على أرضهم لنثبتَ لهم أنّ قدراتنا داخلَ حدودهم تتجاوز قدراتهم".

تنحنحَ (سمير) وهو يطلب الإذنَ بالحديث فأذنَ الرجل له وهو يقول إن الحوارَ مفتوح، ولا داعي للتحفّظ، فقال: "لا أعتقد أنّ السيد عمر سيقبل إطلاق سراحِه بتلك الطريقة". تدخّل (ضياء) في الحديث قائلًا بحدّة:

"يقبل أو لا يقبل، هذا رجلُ يقاومهم خارجَ سلطات الدولة، مجرّد مقاوم عبثيّ يضرّ أكثرَ مما ينفع، ما الفائدة في إطلاق سراحه؟"

اكفهرّ وجهُ (ميْساء) حين تكلّم عن والدها بتلك الطريقة، لكنها ظلت صامتةً وهي تلعنُه في سرّها، رغم أنّ رأيها في مقاومة أبيها مقاربٌ لرأيه. ردّ الرجل قائلًا: "أوّلًا، عمر لن يعرف بأمر تلك الصفقة، ولا بإطلاق سراحه أصلًا، إلّا بعد أن يكون خارجَ حدود الأَرض المحتلّة". تساءل (ضياء) ثانيةً عن أهمية إطلاق سراحِه ظنًّا منه أنّ الرجل قد تجاهل إجابة سؤاله.

كانت إجابةُ الرجل طويلة نوعًا ما.. محاضرة في العلوم السياسية وأهمية أن يقومَ الجنود بطاعةِ الأوامر دون التفكير في العواقب، فالقادة أمامهم حقائقُ كثيرة لا يعرفها المقاتلُ على الأرض. المعلومات المخابراتية تؤكّد وجود أكثر من خمسة آلاف مقاوم متحمّس جاهز للتحرّك بإشارةٍ من "عمر"، ومثلهم كثيرون في دول أخرى يعارضون حكوماتهم الأصلية، ويروْن أنّ المقاومة ينبغي أن تكون للشعب. "عمر" أيضًا له قيمةٌ معنوية كبيرة، إضافة إلى غيره من رموز المقاومة في البلاد الأخرى، وسوف يكون لهم دورٌ مهمّ جدًّا في الفترة المقبلة؛ لأنّ ثمّة حربًا شاملة يجري التحضيرُ لها بمساعدة الدّولِ الكبرى التي سالَ لعابُها على مصدر الطاقة الذي يستخرجُه النياندرتال، وعلى تقنياتهم في استخراجه.

دبّت الحماسةُ في قلوبهم جميعًا على حدّ سواء، لكنّ الرجل- العقيد عماد- طلبَ منهم أن يصبروا، وأنْ يحافظوا على سريّة تلك المعلومات، وأخبرهم أنّ هناك عملًا ضخمًا سيتمّ تحضيرُه لتلك الحرب، وأنّهم سيكونون جزءًا منه.

هنا وقف "عماد" وطلبَ من (ميْساء) أن ترافقه لغرفة (معاذ) الذي كان مقيّدًا إلى كرسيه في تلك اللّحظة. قدّم نفسَه للشاب على أنّه خبيرٌ في الاستجوابِ واستخراج المعلومات، وأنّه لن يخرجَ من تلك الغرفة إلّا بعدَ أن يحصل على كلّ معلومةٍ يعرفها (معاذ) عن شركائه في الجريمة، ووعدَه أنّه سيمنحه حصانة إنْ ساعدَ في إمساك الباقين.

هزّ (معاذ) رأسه رافضًا بقوّة، فأخرج "عماد" أداةً معدنيّة من حقيبة صغيرة معه، ووضعها أمامه وقال: إنّها أداةٌ تستخدم لخلع الأظافر، وأنّها تفرز حامضًا يكوي أسفلها، ويبعث ألمًا لا يمكن تصوّره. دمعتْ عينا "معاذ"، ونظرَ إلى (ميْساء) متوسّلًا، لكنّه وجد وجهَها متيبّسًا خاليًا من التّعبيرات. انهار سريعًا وأرشد عن كلّ مَن يعرفُهم دون الحاجة لتعذيبِه أو لاستخدام الأداةِ التي كانت مجرّدَ قطعة معدنية لا شيء فيها.

صباح اليوم التالي، كان التّقنيون قدِ استطاعوا تحديدَ مكان تواجد الأربعة؛ واحدٌ موجود في منطقةِ السيدة زينب على مقْربة منهم، وآخرُ في إمبابة، وواحدٌ في طنطا، والرّابع هربَ من الأراضي المحتلّة، ومِن مصر كلها.

انتظرَ (سمير) في المقرّ مع (إياد) وتوجّه (ضياء) و"ميساء" لإحضار الهدفِ الموجود في السيدة زينب. كان الهدفُ في الثّامنة والعشرين اسمه "حبيب"، متزوّج من أديتية، وكان يعمل مدرسًا، ويتواجد في منزله من الرّابعة مساء. طرق (ضياء) البابَ، فتحت المرأةُ فسألها عن زوجها، سألته بريبة: "مَن أنت؟ وماذا تريد منه؟" لم يجبْها "ضياء"، دفعها بيدِه ودخل،

نادت على "حبيب" الذي خرج من غرفة نومِه يفرُك عينيه، ويتساءل وزوجتُه تزعق فيه وتطلبُ منه المغادرة.

أخرجَ (ضياء) سلاحَه وطلب من الرجل أن يأتي معه؛ ندّت من المرأة صرخةٌ فأشار لها بأنْ تصمت وإلّا سيقتل زوجَها. اقترب (ضياء) من الرجل وهو يطلبُ منه أن يدخلَ غرفته ويغيّر ملابسه ليأتي معه. ردّ الرجل مذعورًا: "ماذا تريد منّي؟ أنا رجل مُسالم". نهرَه (ضياء) وطلبَ منه أن ينفّذ الأمر فقالت زوجته: "ملابسُه في الداخل، دعْني أحضرها له". أومأ لها بالموافقة فدخلتِ المرأة الغرفة وتركتِ الباب نصفَ مفتوح كما أمرها.

كان يراها وهي داخل الغرفة يتابعها بعينٍ وعينُه الأخرى على "حبيب"، وهمسَ في جهاز الاتّصال بمعصمه: "أنا آتٍ، استعدّي". في تلك اللحظة فوجئ بتمثالٍ معدنيّ يطير من الغرفة، ويرتطم بوجهه، والرجلُ يقفز نحوَه ويحاول استخلاصَ السلاح منه.

استطاع (ضياء) أن يضربَه في معدته بعنف، ثمّ حاول أن يدفعه من فوقه وهو يئنّ متألمًا من ضربةِ وجهه، لكنّه فوجئ بالمرأة تقفزُ عليه وتقيّده بقوة وتختطفُ السلاح من يده، وتُعطيه لزوجها. اعتدلَ الرجل واقفًا وطلبَ منه الجلوس ثمّ طلب من زوجته أن تطلبَ المساعدة.

اضطربَ (ضياء) وأحسّ أنه وقعَ في فخ، وزادَ إحساسه بذلك حين سمع المرأةَ تخاطب شخصًا في جهاز اتّصال وتقول: "هناك رجلٌ مسلّح هنا، ويبدو أنّ له شريكًا موجودًا أسفل المبنى، حاول الإمساك به". بدّل (ضياء) نظره بين الرجل وزوجتِه وهو يسألهم: "مَن أنَتم بالضبط؟!".

اقتربتِ المرأة منه ولكمتْه بقوّة وهي تسأل: "منذُ متى تعمل مع حكومتنا المُجرمة أيّها الخائن؟". نظر إليها (ضياء) غيرَ مستوعب وهو يقول: إنّه لا يعمل معَ الأديتيين؛ بل مع المقاومة. نظرَ "حبيب" له بشكٍّ وهو يقول: "أنتَ في كتائب النّصر، تعمل مع المخابرات المصرية؟". أطبق (ضياء) فمَه دون أن يجيب فقال له: "لا داعي للصّمت أيها الحقير، العملُ مع الحكومة المصرية لا يقلّ خسّة عن العملِ مع الشرطة الأديتية، تريدون طردَ المحتلّين، وتنسون أنّ هذا البلد كان محتلًّا مِن حكومته المستبدّة احتلالًا أسوأ من الغزو الحالي".

نظرَ إليه (ضياء) باحتقارٍ دون أن يجيب، وقال وهو ينظر إلى زوجته بابتسامةٍ ساخرة: "وهل تعرفُ زوجتُك أو زميلتك في المقاومة أنك قمت بتعذيب بناتِ جلدتها، وقتلهن والتّمثيل بهن؟". اضطرب وجهُ الرجل وهو يأمرُه بالصمت لكنّ زوجته تدخّلت وقالت: "أعرفُ ما فعله.. لم يكن خطأ أخلاقيًّا قدر ما كان خطأ تنفيذيًّا، وقد اعترفَ لي به وسامحتُه، أمّا أنت فلي معك شأنٌ آخر، لكن بعد أن نتخلّص من زميلك".

***

٩

حينَ دخلت كميردا غرفةَ نومها كان أوّل ما فعلته أنْ فتحت قناةَ الاتصال بزوجها "باسل"، وجدت أنّه تركَ لها رسالةً يُخبرها فيها بأنّه سيتأخّر اليوم، فهو يُعِدّ كمينًا لمجموعةٍ من المخرّبين يخطّطون لسرقة أجهزة مهمة من إحدى الشركات. كان مقرُّ تلك الشركة في أحدِ الأبراج القروية التي بُنيت كبديلٍ لبيوت القرية رقم خمسة في القليوبية، وهي تضمّ الفلّاحين المتبقّين من سكّانِ ثلاثِ قرى شمالي توخابشيل (طوخ سابقًا).

طلبتْ زوجها لتعلمه بوصولها، وبأنّها ستنتظره على العشاء. ردّ عليها صوتيًّا فقط وهو يقول: "أهلًا يا عزيزة القلب، أنا في مركبتي، وقد أوشكت على الوصول إلى مكانِ الكمين". خفقَ قلبها لسماع كلمة عزيزة القلب كما هو الحال دومًا ولوْ كرّرها للمرّة المليون، وردّت عليه: "باسل عزيز قلبي.. أرجوك عُدْ لي سالمًا". ردّ قائلًا: "أعدُك يا وردتي". همست وهي تطلبُ منه طلبَها المعتاد: "لا تنسَ أنْ تحضر لي خصلةَ شعرٍ من كلّ شرّير تقتله أو تأسره".

أغلقَ الاتصال معها والتفت إلى زميله فوجده مبتسمًا وهو يسأله: "هل طلبتْ منْك خصلات الشّعر كالعادة؟" أومأ (باسل) برأسه موافقًا صديقَه الأديتي برنام الذي يعمل معه في قوّات الشرطة الجوالة منذُ ثلاث سنوات. قال برنام وهو يعدّ دراجته التي يوشك أن يهبطَ بها من المركبة بصحبة "باسل": "ما يثير الدهشةَ أنّ زوجتك ذكيّة، وتعليمها مرتفع، وتعمل معَ عِلية القوم، ومع ذلك تصدّق خرافات أكثر من جدّتي".

ضحكَ (باسل) دون أن يعلق، وانشغل بتثبيتِ خوذته إلى الدّرع الذي يرتديه، ولفّ شريطًا أسودَ من مادة مقاومة على منطقة العنق التي كانت تشكّل نقطة ضعف في ذلك الدّرع قديماً. هذا الدرعُ الذي يتكوّن من طبقة خارجية تقاوم الرصاص والمقْذوفات السريعة عن طريق موْجات كهرومغناطيسية خاصّة بينما طبقته الداخلية تتكون من نسيج مقوّى يجعله مقاومًا للطّعن بالأسلحة اليدوية والمقذوفات متوسطة السرعةً كالسهام.

كان (باسل) قبلَ الاحتلال شابًّا حديثَ التخرج يبدأ مسيرته المهنية في عالم الصّحافة. كان أبوه أستاذًا في العلوم السياسية وكاتبًا شهيرًا معروفًا بمعارضته الشّديدة لأنظمة الحُكم المتعاقبة في مصر، ودخل السجن أكثرَ من مرّة لكنّ الأخيرة كانت القاضية. ماتَ أبوه في السجن وكتبَ هو مقالًا في موقع إلكتروني جلب عليه سخطَ السّلطات أكثر، فأغلقت في وجهه أبوابُ الرزق والسفر.

مرضتْ أمّه وماتت بين يديه وهو عاجزٌ عن علاجها، دخل بعدها في عزلة لشهورٍ لم يفقْ منها إلّا على الغزو. مضى عليه أكثرُ من عامين بعد الغزو لا يكترث لشيءٍ، ويرى على عكس الجميع أنّ الغزوَ في صالح المصريين، وأنّ الحاكم الأجنبي العادل خيرٌ من الوطني الظالم، وأنّ القوانين المُجحفة تحقق العدل حين يُلتَزم بها أكثر من القوانين المثالية التي يضرب بها عرض الحائط.

التقنياتُ المذهلة، والتنظيم الشديد والمعرفةُ الغريبة بأدقّ التفاصيل عن البشر، كلها أمورٌ أثارت إعجابَه القوي بالنياندرتال. كان مؤمنًا بدولتهم الوليدة التي تساوي بينَ جميع البشر، حتّى وإن أعطتِ النياندرتال بعض

الميزات الإضافية، إلّا أنّهم كانوا يؤكدون أنّ تلك الفروق ستزول معَ الوقت بعد أن تستقرّ الأوضاع. كان يكتبُ عن ذلك في مدوّنة إلكترونية أثارت كراهيةَ الكثيرين ضدّه وصلت إلى حدّ تهديدِه بالقتل. حين فتحت السلطاتُ الأديتية الباب للأرضيين للعمل في الشرطة، كان أوّلَ المتطوعين، كانت اختباراتُ القبول صعبة لكنّه اجتازها وصار فردًا في الشرطة، وكان أشدَّ قسوة على المقاومين من الأديتيين أنفسهم.

"كلّ الثورات مارستْ أنواعًا من التعسّف في البداية". كان يقول ذلك لضميره حين يلومه على الطريقة التي يعامل بها أسْراه من المقاومين المصريين أو الأدَيتيين الذين يساعدونهم، وكان لا يجدُ غضاضة في تسمية ذلك الغزو ثورة، فقد كان يراه كذلك، ويرى أنّ أديتيا يمكن أن تكون المدينة الفاضلة لو فقط اختفى هؤلاء "المجرمون" منها.

هبطَ هو وبرنام بدراجتيْهما وعبرَا مدخل مجمع الأبراج ثمّ انحرفا يمينًا عكسَ الاتجاه الذي يقودُ للبرج المستهدف، وتركا الدراجتين في مخبأ معدّ لهما ثمّ سارَا في اتجاه البرج. كانت الطائراتُ الدقيقة تقوم بدورياتها المعتادة وكان يمكن لهما الحصولُ على صورةٍ من كاميراتها، لكنّ المشكلة أنّ المقاومين يشوّشون عليها ويقومون بتغذيتها بصورٍ كاذبة، ولذلك كان لا بدّ من وجودهم على الأرض في كثير من الأحيان.

كَمَنَ (باسل) مقابلَ المدخل الرئيسي للمبنى، ووقف زميله على مقربة من المدْخل الجانبي. كان كلّ منهم يمسك منظارًا بشاشةٍ صغيرة مزوّد بتقنية للتعرف على الأشخاص باستخدام بنيةِ الجسم وطريقة المشي ودرجة كثافة

العضلات والعظام لرصدِ المقاومين لحظة وصولهم لأنّهم يستخدمون تنكّرًا يخدع تقنية كشف الوجوه.

أزّ جهازُ الاتصال في معصمه ثلاثَ مرّاتٍ متقطعة، وكانت تلك هي الإشارة المتّفق عليها حين يرى أحدُهما أحد المخربين. تسلّل بخفّة اتجاه الباب الذي يقف عندَه زميله، وقبل أن يصلَ إليه فوجئ بإحدى الطائرات الدقيقة تهاجمُه هو وكأنّ مسًّا أصابها.

لم يسمحْ للدهشة بأن تكبّله فقد أخرج سلاحَه وأطلق قذيفة دمرتها بسرعة لكنّه فوجئ بواحدةٍ أخرى تهاجمه. أطلقَ قذيفة ثانية أخطأت الطائرة التي اقتربت منها وأطلقت عدّة دفعاتٍ من القذائف لم تؤثّر في زيّه، لكنّها آلمته وعطلت تقدّمه اتّجاه زميله.

جلسَ على الأرض واستجمع تركيزَه وأطلق عليها عدة قذائف متتالية فأسقطَها وهو يسبّها ويسبّ ذلك المخربَ الذي استطاع أن يعبث ببرنامج تشغيلها. ضغطَ زرًّا في جهازه يطلب توجيهَ الطائرات إلى مقرّه هو وزميله في الحال لمساعدتهم في التخلّص من المهاجمين أو تشتيت تركيزهم على الأقل.

رأى برنام يشتبكُ بالأيدي مع رجليْن، وفهمَ خطتهما وهي دخول المبنى من الباب الجانبي وتفخيخ الطريق المُفضي إليه بطائرات كتلك، لكنّه متأكد من أن هناك شريكًا لهما يحرّك تلك الطائرات. جرى اتّجاه زميله الذي كان يبلي بلاءً حسنًا مع خصميْه حتّى الآن على الأقل، لكنّه فوجئ بشخص يقفز عليه ويشتبك معه.

كان الاشتباك بالأيدي وسيلةَ المقاومين لمحاربتهم في ظلّ وجود تلك الأزياء المدرّعة التي يرتدونها، وكانوا يهاجمون الشريطَ الذي يحمي الرقبة ويحاولون انتزاعَه وقتلَ الشرطي عن طريق طعنِه في رقبته. ماتَ بين يديه زملاء سابقون بتلك الطريقة، وكانت تدريباتهم تركّز دومًا على تفادي ذلك الهجوم.

ضربَ مهاجمه بعنف لكنّه كان صلبًا وقويَّ التحمل واستطاع انتزاع شريط رقبتِه بالفعل، وحاول أن يطعنه في شريانه السباتي. أمسك (باسل) بذراع مهاجمه وهو يحاول إبعادَ السكين عن رقبته وإدارتها في الاتجاه المعاكس. استطاع غريمُه أن يقتربَ بالسكين من رقبته في اللّحظة التي اقتربت فيها إحدى الطائرات وأطلقت قذائفَها نحوهما. أصيبَ مهاجمُه ووقع على الأرض متألّمًا فهجم (باسل) عليه ثانية وأخذَ سكّينه وغرسَه في عنقه قبلَ أن ينزعه ويقطع به خصلةً من شعره ويضعها في جيبه.

التفتَ إلى برنام فوجدَه لا يزال مشتبكًا مع مهاجميه فتوجّه نحوه لمساعدته واشتبكَ مع أحدِ المهاجمين. كانت معركةً حاميةَ الوطيس. حين بدأت تميلُ لهما، رنّ جهازُ معصم (باسل) وانطلقَ منه صوتٌ معدني قائلًا: "تحذير؛ لقد رصدتِ المُستشعرات فرارَ شخصيْن بحملٍ كبير من الأجهزة".

استشاط غضبُ (باسل) الذي كان يأخذ عملَه دومًا على محْمل شخصي وكأنّ سرقةَ تلك الأجهزة سبّةٌ في عرْضه. كان في تلك اللحظة يقيّد مهاجمه ويضغط على رقبتِه بساعده بقوّة، لكنّه لم يكنْ ذا بأس يمكّنه من كسر عنقه. جذبه إلى الوراء وأسقطَ نفسه أرضًا إلى جوار السكين ثمّ مدّ يده الحرّة ببطء

حتّى أمسك السكينَ ودفعَها بقوّة في خاصرة الرجل، ثمّ تركه مرميًّا على الأرض وهجمَ على غريم "برنام" وغرسَ السكين في عينه ثمّ أخرجها وضربَه بها في صدره. كان متعجلًا بشدّة فلم يكلفْ نفسه عناءَ أخذ خصْلتين من شعريهما لزوجته، وأشار لصديقه بأن يتبعَه متجهًا إلى مخبأ الدراجات ليلاحق الباقين.

***

١٠

"ليس في الحياة حقيقةٌ واحدة مطلقة، ولا زيف مطلق، لكنّك تجتهدين في إيجادِ قاعدة ترتكزينَ عليها تكون أقرب إلى الحقيقة قدرَ الإمكان، وأبعدَ عن الزيف أطولَ مسافة، وأنا يا بنيّتي استخرتُ قلبي ووضعني في تلك النقطة بين الحقيقة والزّيف، وضميري مرتاح تمامًا.. قد لا توافقينني يا (ميْساء) لكن أن أحارب الطاغيةَ بسيف خشبيّ خيرٌ لي من أن أستعيرَ سيفَ طاغية آخر أحارب تحت رايته". كان ذلك آخرَ كلام قاله "عمر" لابنته (ميْساء) يومَ أن زارها وأمّها في المخيّم قبل أن يعود للأرض المحتلّة ويُكمل كفاحه العبثي من وجهةِ نظرها. كانت توافقُه في أنْ لا حقيقة مطلقة لكنّها كانت تراه أقربَ إلى الزيف، أو لنقلْ تأدّبًا أقرب إلى الغفلة أو قلّة البصيرة، وكانت ترى المتحمّسين له وحلفاءهم من النياندرتال غارقينَ في الزيف لا قريبين منه.

كانت تستطيع فهمَ دوافع المقاومين الأرضيّين السائرين على خطى أبيها (وإنْ كانت تستنكرها)، وكانت تتفهّم دوافعَ النياندرتال الذين يبيعون التقنيات والمعلومات لحكوماتٍ أرضية (ومن ضمْنها مصر)، فعبيدُ المال هنا وهناك لكنّها لم تفهمْ قطّ هؤلاءِ الثّائرين النياندرتال الذين يكرهونَ قومهم ويساعدون في قتلهم بحجة أنّهم يدافعونَ عن البشر "المساكين" ويرفضون الهجرةَ من كوكبهم الأمّ إلى كوكب الأرض.

كانت قدِ انتهت للتّو من مواجهة واحدٍ منهم، النياندرتال الذين يساعدون المَقاومين المصريّين ضدّ حكومتهم. كان الرجلُ قويًّا، وكان ظهورُه أمامها مفاجئًا لكنّها استطاعت أن تتغلّب على عنصر المفاجأة وتشلّه

بصاعقٍ كهربائي معها أسقطَه أرضًا بعد أن ضربَها في البداية وتسبّب في كدمةٍ قويةٍ في وجهها.

دقّت الباب ففتحَه حبيب الذي كان يتوقّع زميله لكنّه فوجئ بميساء تركلُه بقوّة في صدْره فتسقطُه للخلف، حاولت زوجتُه الأديتية أن تطلق سلاحها على (ميْساء) لكنّ (ضياء) استغلّ الموقف وأسقطَ نفسَه أرضًا محاولًا التملّص من الكرسي المقيد عليه. ارتبكتِ المرأة لحظةً وهو ما جعل (ميْساء) تقفزُ عليها وتسقط السلاح من يدِها ثمّ تشتبكُ معها في عراك بالأيدي انتهى عندما استطاع (ضياء) الإمساكَ بالسلاح الواقع جواره وإطلاقَ النار على المرأة.

أصيبَ "حبيب" بالصدمة ونسيَ وجود (ضياء) و"ميساء"، وقفزَ نحو زوجته مُلتاعًا وهو يحاول أن يسعفَها. وضع يدَه على صدرها محاولًا أن يمنع اندفاع الدم مِن مكان الإصابة لكنّ المشكلة كانت أنّها تحاول التقاطَ أنفاسها بصعوبة وهي تحاولُ أن تقول كلمةً من بين أنفاسها الضّائعة بدون جدوى.

أخذ يقبّل وجهها ويضغط على جرحها ويعتذرُ وهو يبكي، وهي تحاول التنفسَ، ووجهها يزدادُ زرقةً، وأوردة رقبتها تزداد انتفاخًا، حتّى همدت مرّة واحدة. حين فرغَ كانت (ميْساء) قد فكّت قيودَ (ضياء) الذي نظر إليها في امتنان وقال "يبدو أنّني مخطئ في تقدير مهاراتك القتالية والقيادية يا سيادة الملازم"

جلسَ "حبيب" على الأرض مستسلمًا لا يتكلّم بعد أن يأس من امرأته، وأيقن أنّها ماتت. أمسكه (ضياء) من ذراعه وأوقفَه على قدميه ووضع

سلاحَه على رأسه وهو يطلب منه مرافقتَهم. تقدّم "حبيب" خطوتين لكنّه استدار فجأةً وأمسك (ضياء) مِن حنجرته وقبلَ أن يعتصرها بيديْه ضربته (ميْساء) على رأسه بعنفٍ فسقط على الأرض مغشيًّا عليه، ثمّ قالت لضياء: "يبدو أنّك ستعتاد على قيامي بإنقاذ حياتكَ".

حمله (ضياء) على كتفه، وبدأ بنزول السّلم ببطء، و"ميساء" معه شاهرة سلاحَها المسدس المُعتاد الكاتم للصوت، فقد كانت تكره ذلك السلاحَ الأديتي الذي يرتديه الواحدُ كقبضة معدنية. كانا يهبطان بحذرٍ خوفًا من ظهور شركاء لحبيب. كان سلم العمارة رخاميًّا فسيحًا، وفي كلّ طابقٍ كانت توجدُ أربعة أبواب لشقق سكنية، كانت تنظر لكلّ باب وكأنّ قذيفة ستخرج منه. مرّت الدقائق التي هبطا فيها السّلالم كالدهر، لكنّها مرّت بسلام، بعدها خرجَا من باب البناية، ومشيَا أقلّ من عشرة أمتار نحوَ المركبة في موكبٍ لافت للنّظر يزيد من احتمالية كشفهما.

فكّرت (ميْساء) أن تقلّل المخاطرة؛ فطلبت من (ضياء) البقاءَ في مدخل البِناية على أن تذهبَ هي لإحضار المركبة. وضعتِ المسدس في حزامها ومشتْ في اتّجاه المركبة متصنّعةً عدمَ الاكتراث، كانت الشمسُ تميل للمغيب، وقد أنارتْ بعضُ المحالّ أضواءها. مشتْ بمحاذاة المبنى ودخلتْ أوّل شارع جانبي بعد ناصية يحتلّها مطعمٌ للمأكولات الأديتية، وقد كُتبت تحتَ اسمه جملة؛ "مكوّناتنا نجلبها يوميًّا من كوكب أديتيا". كان فرعًا لمطعم آخرَ كبيرٍ في المهندسين مشهور بأنّه مكان للّقاءات الأولى بين الشباب الأرضّيين والفتيات الأديتيات.

قبلَ أن تصل إلى المركبة، وقفت طائرةٌ دقيقة في مواجهتها على مدخل الشّارع الجانبي. تسمّرت أمامها بهدوء، والطائرة تتفحّص وجهها وعينيها، ثمّ رنّ صوتٌ أنثوي قائلًا: "تمّ التحققُ من الهوية، هناك مخالفة واحدة"، ثمّ خرج سهمٌ صغير من المركبة وطار لجزءٍ من الثانية قبل أن ينغرز في عنقها.

تألّمت حين شكّها السهم، لكنّها ظلّت واقفة والسهمُ يفرغ مادة ما في رقبتها ثمّ وقعَ على الأرض، وقال الصوتُ الأنثوي: "تمّ حقنُ الأمصال الوقائية، عليك سدادُ غرامة التكاسل عن التّطعيم خلالَ يومين، وإلّا ستعاقبين بالجزاء رقم ١١ ب". تنفّست الصعداءَ حين انصرفت الطائرة، وعدت الأمتار الباقية نحو المركبة وطارت بها نحوَ مدخل البناية، وأخذت (ضياء) وحمولته واتّجهَا عائدين نحو المقر.

كانت تقود المركبة وتحسّس رقبتَها من جرعة المصل التي تلقتها والتي تسبّب احمرارًا وألمًا يدوم بضعَ ساعات. أحستْ أنّها على وشك أن تفرغ ما في جوفِها فطلبتْ من (ضياء) استلامَ القيادة خشية أن يحدثَ طارئ وهي منشغلة بمعدتِها المقلوبة. حسبَ السلطات الأديتية، هناك نوعان من الأمصال؛ نوعٌ يعطى للبشر، ونوعٌ يعطى للنياندرتال، وذلك للتّخفيف من حدّة الأمراض التي قد تنتقل بين الصّنفين، وتُكرر الجرعة كلّ عامين إجباريًّا، وتكون أحيانًا- وليس دائمًا- مصحوبة بألمٍ أو حكّة وقيء، ونادرًا حمى.

طلبت المقرّ، ردّ عليها (سمير) ودونَ أن تشعر تبادلتْ معه في البداية حديثًا مشْحونًا بالعاطفة، ما جعل (ضياء) يزفر في نفادِ صبْر، ويقول:

"بلّغيه بتمام المهمة، والقتيلة التي تركناها، وأغلقي قبل أن يُرصَد الاتصال". نظرتْ نحوه شذرًا وهي تذكّره أنّها أنقذت حياته للتّو، وتحذّره ألّا ينسى أنها رئيسته. "الرئيس لا يذكّر مرؤسيه بسلطاته، بل يتصرّف كقائد ويتحمل مسئولياته" قال متبرّمًا، لكنّها تجاهلته وعادت لمكالمة (سمير) واطمأنّت منه أنّ الاثنين الآخرين قد تمّ إحضارهما ولم يتبقّ غير واحد فقط.

كانت المركبة تسيرُ ببطء في شوارعَ جانبية من السيدة زينب للدرب الأحمر ثمّ تعبر شارعَ الأزهر للجمالية فالدراسة، ثمّ تعبرُ الشوارع الأكبر بسرعة عالية لكي لا تكتشف. كان الليلُ قد حلّ عندما وصل للمقرّ الثاني، والمُعَدّ لاحتجاز الثلاثة المقبوض عليهم انتظارًا للرّابع، قبل أن يعطي (إياد) أوامرَه بطريقة وكيفية تسليمهم.

كان "حبيب" قد أفاق حين دخلت غرفتَه لتحقق معه، وتأخذ منه اعترافًا مفصّلًا بما فعل؛ ذرًّا للرّماد في وجوه المعارضين الذين سيتهمون الحكومة التي سلّمتهم للنياندرتال بالخيانة والظلم. كان مقرُّ الاحتجاز تحتَ الأرض في مكان بيوت مهْجورة في الدويقة في سفح جبل المقطم.

ضغطتْ زرًّا في الجدار فانبعثتْ إضاءة مركّزة بالأساس على وجهه، وبدأت بالحديث بشكلٍ رسمي وهي تقول له: إنّ ذلك التحقيق مسجّل، والغرض منه توثيق اعترافه. كان ينظرُ إليها ووجهُه جامد، وثمّة دمعة متجمّدة في ركن عينه تفكر في النّزول. سألته عن اسمِه وعمره، ومن أين، لم يجبْها فقالت: "سأتلو بياناتك وإنْ كان فيها شيء مُختلف عليك الاعتراض".

تلتْ إجابة أسئلتها ولم يحرّك ساكنًا بالإيجاب أو بالرفض ثمّ سألته: "أنت متّهمٌ بقتل فتيات أديتيات بعدَ تعليقهن على أعمدة، وتعذيبهن لساعات، بالاشتراك مع آخرين، فما قولك؟" لم يردّ عليها فسألته بحدّةٍ مرّة ثانية وقالت: "إنّ صمتك يعني موافقتك، فنوعُ التحقيق هذا لا يعطي المتّهمَ الحقَّ في الصمت، بل إنّ الصمتَ يفسَّر أنّه إقرار".

"لقد قتلتمُ الحياة في عيني". قال والدمعةُ المتجمّدة تتغلب عليه وتسيل على خدّه، فقالت: "لا تخرج عن نطاقِ السؤال". فقالَ لها: "لقد كانت حبيبتي، كانت هي إجابةَ السؤال، وبعدَ قتلها لم يعدْ هناك مغزى من أيّ سؤال أو جواب".

قال وهو ينظر بعيدًا عن الضّوء، محاولًا تمالك دموعِه: "كانت هي مَن علّمني أنْ أسامح نفسي، كنت محطَّمًا يقتلني الإحساس بالذنب، حاولت أن أكفّر عن ذنبي بالانضمام إلى المقاومة معَ عمر الزيبق. تعرّفت عليها، حاربنا جنبًا إلى جنب، وكان إحساسي بالذنب يمنعُ اقترابي منها حتّى احتوتني في ليلةٍ جعلتني أَخُر باكيًا على صدرها، لم تسألني لماذا، قالت إنّها تحبّني مهما كان السبب الذي يجعلني أعيشُ بين الناس كالغريب، وقالت إنّها لا تبالي حين أكون على صدرها وعيناي هائمتان في الفراغ تفكّران في شيء تجهله. اعترفتُ لها بكلّ شيء، وطلبت منها المغفرة، فقالت إنّها لا تملك صكَّ مغفرة، لكن مَن يجب أن يغفر لي هو أنا.. هل تصدّقين هذا! كانت تقول إنّ مرورَ سنوات من إحساسي بالذنب تجاه هؤلاء المسْكينات يكفي، وأنّنا لا نقاتل دفاعًا عن

الأرضيين فقط؛ بل عن الأديتيين الفقراء الذين يساقون بحجج كاذبة لهجرةِ ديارهم والعيش في أرض مُغتصَبة تكرههم ويكرههم أهلها".

اختلجتْ أجفانُ (ميْساء) لكنّها تماسكت وسألته كأنها لم تسمعه: "كلامك يحملُ اعترافًا ضمنيًّا بالجريمة". نظرَ إليها متجهّمًا وصمت لوهلة ثمّ قال: "بالمناسبة، الصخرةُ الرابضة بالقرب من هذا المقرّ اسمُها صخرة الدويقة، هل تعرفينَ قصّتها؟". لم تردّ على كلامه وكرّرت جملتها ثانية فتجاهلها وأكمل: "هذه واحدةٌ من قصص الدّولة التي تدافعين عنها، الدولة التي ألجأت أهلها للعيش في جحورٍ كتلك التي تختبئون فيها الآن، وهذه الصخرةُ بالذات انفصلت عن الجبل منذ أربعينَ عامًا، ودفنت أسفلها ما يقارب المائة... تعاقبتِ الحكومات بعدها طيلة ثلاثين عامًا ولم يحرّك حاكمٌ ساكنًا لإصلاح حال هؤلاء الناس. الحكومةُ التي تحاربين من أجلِها كمرتزقة كانت تديرُ هذا البلد بشكل أسوأ ممّا يفعل النياندرتال".

فقدتْ صبرها حين نعتَها بالمرتزقة، فصفعتْه بقوّة وهي تسبّه وتطلب منه الإجابةَ على قدْر السؤال، والكفّ عن التفلسف والتنظير. كانت تريد الدفاع عن نفسها وتقول إنّها ليست مرتزقة، وإنّها ضابط مجنّد برتبة ملازم في جيش بلدها، وإنّها لو ماتت وهي تقاتل فستموتُ وهي متيقّنة من صحّة ما تفعله، وإنها إن ضحت بنفسِها ستكون شهيدةً يطلق اسمُها على ميدان أو مدرسة في القاهرة بعد طرد الغزاة، وتدرَّس قصّتُها للتلاميذ، وتحكي الجدات عنها لأحفادهنّ حكاية قبل النوم؛ عنْ (ميْساء) التي هزمت الأشرارَ وطردتهم

من بلادها، وأعادت لمصر لقب مقبرة الغزاة. كانت تريد أنْ تدافع عن نفسها لكنّها تعلمت أنّ ذلك من المحرمات في الاسْتجواب، وأنها ينبغي أن تظلّ متحكّمة في المتهم، وألّا تعطيه فرصة لاستفزازها وجعلها في وضع مَن يبرر أفعاله.

***

١١

انطلقت دراجةُ (باسل) تطارد مركبةً بها ثلاثةٌ من المقاومين بين الأبراج السكنية. أطلق (باسل) قذائفه وأطلقَ زميله قذائف أخرى، صدرت أصوات قرقعة من المركبة، وبدأت تهتزّ بشدّة، و"باسل" وبرنام يقفان حولها وتكمل الحصار معهما بضعُ طائرات دقيقة. كان من السّهل أن يفجّر المركبة بمَن فيها، ولكنّه كان يحتاج على الأقلّ أسيرًا واحدًا على قيد الحياة.

انفتحتْ أبواب المركبة وترجّل منها ثلاثة؛ واحد من النياندرتال وأرضيان.. تحفّز (باسل) وهو يتوقّع الأسوأ ففصائل المقاومة التي يكون فيها أفراد من النياندرتال عادةً ما تكون معهم أكثرُ التقنيات تطوّرًا من الكوكب الأم.

كان كلّ واحدٍ من الثلاثة يحمل حقيبةً على كتفه، يبدو أنّ فيها غنيمة اختطفها من الدّاخل من شركة حكومية يفترض أنّها سرية؛ يختبئ مخزنها وسط أبراج ريفيّة. فكّر، وهو يصوبُ سلاحه نحوهم محذّرًا من أيّ حركة مفاجئة، أنّه لا بدّ من وجودِ عُملاء لهم بينَ سكّان القرية، وسيكون من الأسهل معرفةُ أسمائهم من هؤلاء الثلاثة.

أمرَهم بإلقاء حقائبهم ببطء، ثمّ النزول على الأرض، وعدم الإتيان بحركة مفاجئة، ونفّذ الثلاثة الأمرَ وهم ينظرون بتوجّس نحو الشرطيين. ما إن أفلت النياندرتال المقاومُ حقيبته حتّى رفع يدَه أمام وجهه وبها أسطوانةٌ معدنية صغيرة مهدّدًا بتفعيلها.

كان على عكس زميليْه يرتدي ثيابًا تكشف كتفيْه العريضين وذراعيه المَفتولين، وأعلى صدره المشْعر المكتظّ بالعضلات التي تشبه لاعبي كمال الأجسام، يقف في المنتصف بينَ الأرضيين وسط شارع بين البرجين الأخيرين وخلفَه امتدّت زراعاتُ القمح الأديتي الذي يتميز بارتفاع أعوادِه مترين أو ثلاثة. "بالطبع تعرفان ما هذا" علتِ الدّهشة وجهَ الضابطين؛ دهشة مختلطة بالقلق؛ فالأداة في يدِه كانت قنبلةً متطوّرةً تقوم عند تفعيلها بشلّ كلّ الأجهزة في نطاق ثلاثة كيلومترات بما في ذلك زيّهم المدرع الذي لن يكون مقاومًا للرصاص بكفاءة.

"اتركانا نذهبُ في طريقنا وإلّا سأطلقها، وساعتها سيكون قتالنا بالأيدي، وسأكون قادرًا على سحْق رأسيكما". تجاهل برنام تهديدَه وطلب منه بهدوء أن يترك القنبلةَ من يده مقابلَ أن يتركه يعيش. لم يظهر على الرجل أيّ بادرة للاستسلام، بل رفعَ يديه ببطء مُمعنًا في تهديده بإطلاق القنبلة. حاول (باسل) أن يغيّر المعادلة فأطلقَ فجأة قذيفةً على قلب النياندرتال الذي حاولَ أن يتفاداها لكنها انغرست في مفْصَل كتفه الأيمن، ما جعله يضغط كفَّه اليمنى بألم مُعتصرًا القنبلة ومطلقًا إياها.

شعرَ الخمسة بهبّةٍ إلكترونات خفيفة تشبه موجةً من الكهرباء الإستاتيكية تعطي وخزةً سريعة، وتوقّف الشعر ثمّ تنتهي. سقطتِ الطائرات الدقيقة على الأرض، وانطفأت الأنوارُ في كلّ المباني، وصمتتِ الدّراجات. كان ضوء القمر خافتًا يمنح رؤية ليلية تكفي ليبصر الواحدُ غريمَه دون أن يتبين ملامحه. صرخ النياندرتال بزميليْه الأرضيّين "اهربا" وهو يهجمُ على (باسل) وزميله في غضب عارمٍ، فقابله برنام أوّلًا واشتبك معه.

اختطفَ المقاومان حقيبتيهما وجريَا سريعًا نحو المزروعات. وقف (باسل) حائرًا للحظة.. هل يطاردهما أم يساعدُ زميله على التغلب على ذلك الوحش، لكنه حسمَ قرارَه حين هتف به برنام بحزم: "اذهب خلفهما؛ أنا كفيل به".

كان (باسل) يحبّ ذلك النوع من القمح الذي استحدث الأديتيون زراعته في مصر، والذي حقّق مخزونًا غذائيًّا كافيًا لكلّ أديتيا الأرض من القاهرة جنوبًا حتّى إزمير شمالًا، ومع ذلك ينقلبُ الحب بغضًا حين يضطرّ لمطاردة أحدٍ في حقل من حقولِ القمح الذي كان يُخفي مَن يطاردهم، ويجعل الإمساك بهم عسيرًا.

تفرّق الرجلان، كلاهما اتّجه شمالًا لكنّه ابتعد عن رفيقه فصارت بينهما مسافةٌ لا تقلّ عن خمسين مترًا. اختار (باسل) أحدهما وجدّ في الجري خلفه بما أوتيَ من قوّة، غير عابئ بالسّنابل الناشئة التي تخمش وجهَه، والأعواد التي يتعثر في بعضها أحيانًا. اقتربَ من المقاوم في وقتٍ قصير، فقد كان طريقه أسهلَ لأنّ المقاوم الذي يتقدّمه يعبّد له الطريق نوعًا ما.

حينَ شعر المقاومُ بدنوّ (باسل) منه كثيرًا استدار فجأةً وجرى في اتجاهه وضربَه بحقيبته في وجهه بكلّ عنف. سقط (باسل) على الأرض وهجمَ الشابّ عليه وتمكّن من أن يكيلَ له لكماتٍ متتابعة في صدغِه الأيمن. شعر بألمٍ شديد في رأسه مِن توالي الضربات، وبدوخةٍ بدأتْ تتسلل إلى وعيه، لكنّه استجمع قواه وضرب مهاجمَه في صدره بكعب سلاحِه المعطّل، فتأوّه الرجل في ألمٍ وقد أوجعت الضربة ضلعَه بشدّة، لكنّه أمسك برقبة (باسل) وحاولَ اعتصارها في غيظ وهو يهتف بسبابٍ عربيّ فلسطيني اللهجة.

أحسّ (باسل) بأنفاسه تختنق، وبألمٍ يجتاح قصبتَه الهوائية، فكوّر قبضته بشدّة على كعبِ سلاحه وضربَه بقوّة في الموضع نفسه مرّاتٍ متتالية حتّى سمع صوت ضلع ينكسر، والرجل يصرخُ من الألم، ويرخي قبضتَه من على رقبته. نام الرجلُ على الأرض وهو يتنفّس بصعوبة من ألمِ ضلعِه المكسور، هجمَ (باسل) عليه فضربَه الرجل بقدمِه، واستمرّ عراكهما قليلًا حتّى تغلّب (باسل) عليه في النهاية وبحثَ عن شيء يقيّده به فلم يجدْ إلّا الشريط الذي يحمي به رقبته.

"أنتَ فلسطيني؟" سأل (باسل) باستنكار فلم يجبْه الرجلُ فأمره (باسل) بالرد على السّؤال وهو يضربه بقسوةٍ على ضلعه المكسور ما جعله يصرخُ في ألم وهو يردّ بالإيجاب. ضربَه (باسل) ثانية وهو يقول: "هذه لأنّك حقيرٌ، ناكر للجميل". كان يعتبرُ أنّ أيّ فلسطيني يقاوم النياندرتال غبيّ جاحدٌ فقد ساوتِ الحكومة الأديتية بينهم وبينَ الإسرائيليين، وأعطتْهم الفرصةَ للعيش بسلام دون حواجز ودون اضطهاد ومصادرة أراض وبيوت. الحقيقة أنّ النياندرتال صادروا جميعَ الأراضي الصالحة للزّراعة، وهدموا البيوت، فقد جعلوا الفلاحين يعيشون في أبراج حديثة، ويزرعون أرضَهم (التي صارت ملكًا للدولة) برواتبَ مُجزية، وجعلت أهل المدن يعيشون بسلامٍ لا فرق بين فلسطيني أو يهودي أو أديتي.

"أيّ جميلٍ أيها الخائن! وهل يعتبر الحرّ استعباده جميلًا... نحن أحرارٌ، وكما لم نقبلِ احتلالَ الصهاينة فنحن لن نقبل احتلالَ النياندرتال". قال الرجل بحدة لكن بصوتٍ مكتوم من ألمِ ضلعِه المكسور. صفعَه (باسل) وهو يطلب منه أن يكفّ عن إطلاقِ تلك الشّعارات الجوفاء التي يعلم يقينًا أنّها مثل مقاومته الساذجة لن تقدم ولن تؤخّر.

وقفَ ناصبًا قامتَه ونظر حوله فلم يرَ إلّا أعواد القمح التي تتراقص بهدوء في نسيم المساء الناعم. أرهف السمعَ لعلّه يحدّد اتجاه المقاوم الثاني؛ لكنه لم يسمع شيئًا فمِن الغالب أنّه قد استطاع الفرارَ بمسافة كافية. رفسَ الرجلُ المكوم على الأرض بعنفٍ طالبًا منه الوقوف، فردّ الرجلُ بصوت مكتوم: "لا أستطيع". رفسه ثانية بالقرب من ضلعِه المكسور وهو يقول بحسْم: "ستقوم معي أو سأقتلك وأتركك تتعفّن هنا، هيّا".

سارَ الرجل متثاقلًا، وخلفَه (باسل) يلكزُه بين الفينة والأخرى يحثّه على التقدّم. التقط سنبلةً بيدِه من أحد أعواد القمح الغليظة المرتفعة وأخذ يفرط حباتها متأمّلًا حجمها الكبير وهو يفكّر في أنّ مستقبلًا طيبًا تنتظره هذه البلاد، وأنّ الأرض بأكملها ستستفيدُ من وجود النياندرتال فيها ثانية؛ سيحافظون على موارد هذا الكوكب، وسيسمح مصدرُ الطاقة النظيف التي استحدثوه بالتقليل من الانبعاثات الضّارة، ويعدلون المناخَ الذي تدهور كثيرًا. كلّ هذا ويأتي أحمقُ مثل الذي يترنّح أمامَه ويتشدّق بالحرية وبمقاومة الغزاة.. إنْ كان الغزاة عادلون ويجلبون الخير معهم فمرحبًا بهم، واللعنة كلّ اللعنة على ابنِ الوطن الذي ينهبُ بني وطنه ويسومهم خسفًا.

قال له أحدُ الشّيوخ ذات مرة: "حين كان تيمور لنك المغولي يحكم بلادَ المسلمين أفتى كثيرٌ من علماء الدين بأنّ الحاكم الكافر إذا كان عادلًا فيجب طاعتُه والاعتراف بشرعيّته، وتيمور لنك كان كافرًا وغريبًا مثل هؤلاء القوم تمامًا". وحين قرأ التاريخ عرفَ أنّ تيمور لنك كان سفّاحًا، ولم يكن عادلًا، ومع ذلك وافقَ الكثيرون على الانْصياع له، والأخذ بفتوى هؤلاء العلماء.

وصلَ إلى حيث تركَ زميله فوجد برنام جالسًا على ركبتيه يسندُ بيده اليسرى كتفَه الأيمن الذي كان يبدو مخلوعًا، ورأى غريمَه جثّة هامدة غارقة في بركة من الدّماء. كان وجهُ برنام متورّمًا مزرقًّا، وعينه اليسرى مُقفَلة جرّاء كدمة كبيرة، فقال يمازحه: "يبدو أنّك صارعت ثورًا هائجًا". ضحكَ برنام ثمّ فردَ جسده على الأرض وهو يقول: "دعني أنام، ولا توقظني إلّا بعدَ ساعتين" وكان هذا هو الوقتَ المطلوب لزوال أثرِ القنبلة الموجيّة وعودة الأجهزة للعمل.

رمى (باسل) أسيرَه على الأرض، وقال له: "سوف تخبرني بكلّ ما تعرف، أو سأضطرّ لتعذيبك حتّى تأتي المركباتُ التي ستعيدنا". بصقَ الرجل وهو يسبّه ويقول إنّه لن ينطقَ بكلمة، فما كان من (باسل) إلّا أنه طرحه أرضًا وأمسك بخصلة من شَعْره وشدّها بعنف حتّى اقتلعَها من جذورها وأسالَ الدمَ من فروة رأسه وهو يقول بهدوء: "هذه من أجْل زوجتي.. أمّا بالنسبة لي فأنا سأقتلعُ أصابعك بأسناني واحدًا تلوَ الآخر حتّى تخبرني بكلّ شيء".

***

القِسْمُ الثّاني

مقاومة هجينة

”ينبغي ألّا تُنسينا نشوةُ القتال أنّ الكفاحَ المسلّح ليس غاية، وأنّ الاستشهاد ليس الهدف؛ إنّما الغاية هي أن تحصلَ على أكبر قدرٍ من المكاسب لشعبك، بما لا يتصادم مع العدالة المنشودة“

ماندريك أندام

١٢

على أريكةٍ قديمة مُهترئة كان يجلس (سمير) مُنتظرًا عودة (ميْساء) بعد أن أنهتْ تحقيقها مع الرجلِ الذي قبضتْ عليه. كانت الغرفةُ أشبه بغرفة معيشة يجلسونَ بها حين لا يكون وراءهم شيئًا يفعلونه. (ضياء) ذهب إلى منزله في مصر الجديدة ليستريح الليلة وغدًا، والآخرونَ خلدوا للنوم، وبقي هو منتظرًا حبيبته.

قبلَ أن يعرف (ميْساء) لم يكن يؤمنُ بالحبّ، أو يفكر فيه، كان يعتبر أن زوجتَه هي نصيبُه من الدنيا، وأنّ مهمّته في الحياة رعايتُها هي وبناته قبل أن يأتي الغزو، وتفرّق الدنيا بينهم، وتضع في طريقه امرأةً مثل "ميساء"؛ فتاة من بنات الأحياء الغنيّة التي كان يشاهدهنّ في التلفاز، ولا يظنّ أنهنّ موجودات أصلًا. فتاة ترتدي ثيابًا عصرية، تتحدّث بلهجةٍ قاهرية رقيقة تخالطها أحيانًا كلماتٌ أجنبية لا يفهمُ معناها إلّا مِن سياق الكلام، ومِن تعبيرات عينيها العسليتين الساحرتين، تسدل شعرَها الأملس على ظهرها أحيانًا، وأحيانًا تربطه كذيلِ الحصان إنْ كان لذيل الحصان أنْ يشبه شلالًا من العسل.

كانت المقارنةُ بينها وبينَ زوجته غيرَ منصفة، لكنه كان يشعرُ أنهما وجهان لعملةٍ واحدة لا تصحّ العملة إلّا باكتمالهما. "سمر" زوجتُه الأنثى المطيعة التي تشاكسُ فقط فيما يخصّ الأبناء ودخْل البيت وغيابه الذي يتعبُها، و"ميساء" المرأة المستقلّة المعتدّة بنفسها، المحاربة التي لا تدرك الفارقَ بين الرجل والمرأة، وتعامله معاملةَ النّد، حتّى في الحبّ فمشاعرُها لا تظهر إلّا

حين يظهر هو أيضًا مشاعرَ مُماثلة. لا تفرِط في كلمات الحبّ إلّا حين تراه يقول مثلها أو أكثر، إذا وضعت رأسها على كتفه ولم يستجبْ خلالَ ثانيتين بأن يربّت عليها في المقابل تبعدُ رأسها وتجلسُ قبالته وتخاطبه في أيّ موضوع جاد.

قامَ ليحضر لنفسه كوبَ ماء وهو يجرّب ساقه التي بدأت في التعافي بفعل الدّهان الأديتي الذي يستخدمونه لعلاج الإصابات. عادَ وفردَ ظهره على الأريكة، فتحَ برنامجًا صوتيًّا يتلو عليه واحدًا من الكتب المقرّر عليه دراستها، كجزء من المنهج التعليمي الذي تفرضه إدارةُ المخابرات على كلّ المقاتلين التابعين لها. كتب عنِ التاريخ والسياسة والأدب... كفاح طيبة لنجيب محفوظ، الرفاعي لجمال الغيطاني، وا إسلاماه لعلي أحمد باكثير، وغيرها من الروايات التي تسجّل نقاطًا في تاريخ كفاح المصريّين ضدّ المحتل. مئاتٌ من المحاضرات التي يجب عليهم الاستماع إليها في العلوم العسكرية وتكتيكات القتال وحرب العصابات وتاريخ الغزو.

كانت إحدى المُحاضرات تبدأ بتقرير قاعدة أنّك لا بدّ أن تفهم مدى قوة عدوّك، وتقدّر مميزاته لتتمكّن من التغلب عليه، ويؤكد المحاضرُ في بدايتها أن الغرضَ ليس مدحَ الأعداء بقدْر دراسة نقاط قوتهم وقدرتهم على التخطيط.

أوّلُ يوم في الغزو بدأوا بمهاجمةِ التجمعات العسكرية في الوقت نفسه الذي ظهرتْ فيها البوّابات التي تصدر موجاتِ الحماية التي تمنع حتّى الذباب من المرور. حين تغلبوا على جيوش دولٍ بأكملها في أيام قليلة بثّوا

الرعب في قلوب الكثيرين، وأعطوا الانطباعَ أنّهم عدوّ لا يقهر، وبدأوا من اليوم الرابع السيطرة على المنشآت الشرطية، أجبروا ضباطَ الشرطة على العمل معهم للتحكّم في الشارع والسيطرة على الهلعِ الجماعي، ومنع انتشار الفوضى والسلب والنهب.

هاجمتهم أساطيلُ وطائراتٌ من كلّ الدول الكبرى تقريبًا، كانوا يسقطون الطّائرات ويغرقون المدمرات قبلَ أن تقترب منهم بأي شكل حتّى الصواريخ الباليستية كانت تنفجّر قبل أن تصل إلى حدودهم بأكثرَ من ألف كيلومتر.

"غيرَ أنّ التقنية المتقدمة لم تكنْ هي نقطة التفوق الأهمّ لدى النياندرتال بل العمل الجماعي". يقول المحاضر وكأنّه يُرسي قاعدة من قواعد الكون الأزلية. يستطردُ في شرح وجهةِ نظره مستدلًّا بأنّ النياندرتال كانوا يحمون أسوارًا على حدودِ مستعمرتهم على امتداد آلاف الكيلومترات في الوقت نفسه، ويتحكمون في الدّاخل عن طريق إدارة آلاف النقاطِ الشّرطية في تزامن مثير للإعجاب. عمل جماعيّ مُدهش قدّرت هيئات البحث في الأمم المتحدة عددً المشاركين فيه بأكثر من ثلاثةِ ملايين شخص يعملونَ في تناغم كامل. ينهي شرحَه في هذه النقطة وينهي المحاضرة بقوله: "إذا أردْنا أن نهزمهم فعلينا أن نقوم بالعمل الجماعي نفسه، ننسى كلّ خلافات الماضي وحروبه، ننسى أحقادَنا العرقية والدينية والقومية، نحاربهم كفريقٍ واحد، البشر ضدّ النياندرتال.. التّقنية يسهل سرقتُها وتقليدها والتغلب عليها، أمّا تلك الروح المتوحّدة فهي نقطةُ التحول التي ستفرق في لحظات الحسم".

دخلتْ عليه "ميساء"، كان وجهها مغمومًا، سألته عن حال جرحِه فأجاب أنّه بخير. سألها عن المهمّة، وهل قابلتها صعوباتٌ، فردّت باقتضاب، ثمّ صمتت كانت تشعرُ أنها لا تريد الحديثَ عن أي شيء، لا مشاعرها ولا أحداث يومها، ولا أي شيء. كان شعورُها مريعًا بعدَ التحقيق مع "حبيب". كانت مؤمنة بقضيتها، وأنّها على الجانب الصحيح، لكنّها لا تستطيع أن تمنعَ نفسها من تجريد الموقف من كلّ أبعادِه. لقد قُتلت زوجته وقُبض عليه، ولم تعطِه فرصة حتّى للحزن على حبيبة عمره التي ماتتْ بين يديه؛ بل حقّقت معه بعنف، وصفعتْه أكثر من مرّة، كانت تشعر أنّها ذلك المحقّقُ الحقير في الأفلام القديمة الذي لا يهتمّ بحياة الناس قدر اهتمامِه بإتمام عمله.

سألها (سمير) ثانيةً وهو يمسك بيدها ويربّت عليها فلم تجب، ليس لديها نصفُ ذلك اليقين الذي يتمتع به (سمير) أو "ضياء"، أحيانًا تشعر أن سبب قلق روحِها هو أنّها الأنثى الوحيدة بينهم، وأنّه لو كان ثمّة نساء أخريات فلا بدّ أنّهن كن سيشاركنَها القلق والهواجس نفسها. فاجأها (سمير) بقوله: "نحن أهلُ الحق يا "ميساء"، لا تنسي ذلك". نظرتْ إليه بدهشةِ مَن ينظر إلى عرّاف يقرأ الأفكار، فأكملَ قائلًا: "أصعبُ مواجهة في مجال عملنا هي مواجهة أبناء بلدنا الذين يقاتلون على هواهم، والذين يظنّون أنّ المقاومة هي الغاية، وليست مجرّد وسيلة لهدف أسمى".

ضربَ لها الأمثلة من كتابٍ أنهى قراءته منذ أيام قليلة، ويبدو أنّ واضعيه كانوا يُعالجون مسألة الشّك هذه. لقد قاومَ السوفييت جنود النازية وهُم تحتَ نيْر حكم أبشع ما يكون، ولم ينشقّ منهم جيشٌ ويقول ندافعُ عن بلادنا

بعيدًا عن حكم ستالين. حاربَ المصريون جميعًا أيامَ الاستنزاف، وكان من الجنود مَن لا يحبّ عبد الناصر ولا يعترفُ بشرعية ثورة يوليو، وحارب الكلّ في أكتوبر وحرّروا سيناء، وكان فيهم مَن يمقت السادات بل إنّ الكتاب ضربَ أمثالًا لجنودٍ اقتحموا الأهوال وفجّروا أنفسَهم في الأعداء رغم أنّ أهلهم كانوا مُعتقلين في سجون الدولة.

نظرتْ إليه بعين دامعة وهي تقول: "وما رأيُك في ما نضطرّ لفعله بمصريّين مثلنا.. ما رأيُك في قتل مصريّ مقاوم لمجرّد أنه لا يتبع تعليمات الدولة، أو تسليم مصريّ مثلك للأعداء ليقوموا بإعدامه". فردّ عليها وهو يقترب منها أكثر: "المقاوم نحترمُ كفاحه حتّى لو لم يكنْ تحت لوائنا، لكن إذا قام بفعل شنيع كهذا فينبغي عقابُه، وإذا استخدم سلاحَ مقاومته ضدّ جنودنا فعلينا إيقافه أو قتله".

ضمّها في تلك اللحظة فانفجرتْ في البكاء، وربّت هو على ظهرها حتّى هدأت. اعتصرتْه بذراعيها هي الأخرى وهي تشعر أنّه الجدار الوحيد الذي تستند إليه في هذا العالم، إنّه لا يكفّ عن إدهاشها كلّ يوم بشجاعته وطيبة قلبه وقدرته على الاحتواء، بل وبالثقافة التي يكتسبها يومًا بعد يوم. تفكّر أحيانًا في الأوقات التي يذهبُ فيها لزوجته، وتقول لنفسها إنّها تضعُ رأسها على ذات الصّدر بأريحية أكثر. زوجتُه تضع رأسَها على ذلك الصدر بدون حواجز، وهي تخجل من نفسها حين تفعلُ ذلك، ترى هل ستتزوّجه يومًا ما وتتقاسمُ الجدار نفسَه مع امرأة أخرى بدلًا من اختلاسَه بين حين وآخر؟.

"أنتظر لقاءَ عمّ "عمر" بفارغ الصبر، فلي معه كلامٌ كثير". أبعدت رأسها عنْ صدره وهي تحدّق فيه وتسأله: "أيّ كلام... لن تستطيع تغيير أفكاره وإقناعه بالعمل معنا مهْما حاولت". ضحكَ (سمير) بصوت عال وهو يقول: "أريده في حديثِ رجال... حديث خاطبٍ لوالد المرأة التي يريدُ خطبتها". ابتعدت عنه وهي تسأله باستنكار: "في أيِّ عام تظنّنا! كيف تفكّر في مفاتحة أبي بهذا الأمر دونَ أن تسألني عن رأيي".

كان استنكارُها يخالطه إعجابٌ لا يتّسق معه، سببُه أنّها وجدته يقرأ أفكارها للمرّة الثانية خلال أقلّ من ساعة؛ يجيب تساؤلًا في رأسها دون أن تسأله. ارتبك لردّ فعلِها، وأجاب بتلعْثم: "أنا كنت أظنّ أنّنا متفقيْن ضمنيًّا على ذلك... مادمت قلت أحبّك فهي تعني في عُرفي أريد أن أتزوّجك هكذا ببساطة، ولكنّني أريد أن أطلبك مِن والدك كما اعتدْنا قبل الغزو... لا أعتقدُ أنّ النياندرتال قد جرّدونا من معرفتنا بالأصول".

احمرّ وجهها خجلًا وقد أحسّت أنّ منطقَه أفضلُ من منطقها، لكنّها كالعادة لم تقبلْ أن تقرّ بخطئها بتلك السهولة. جلستْ وهي تفكر في الردّ عليه، لكنها قامت كالملْدوغة وهي تلعنُ ذلك الكرسي المُهترئ الذي تنغرس زُنبرُكاته[1] في لحم مؤخّرة مَن يخطئ، ويجلس عليه دونَ أن يضع حشوة إضافية؛ "من الغبي الذَي أخذ الحشوة من على الكرسي؟" ضحك (سمير) وهو يشيرُ إلى الأريكة التي كان يجلسُ عليها فوجدتِ الحشوة على المسند الذي يضع رأسه عليه.

---

(١) الزّنْبُرُك أو الرفاص: سلكُ ملويّ بشكل حلزوني، يتّخذ في مُختلف الآلات ومَراتب الأسِرَّة، وغيرها.

نظرتْ إليه بخجل وتأسّفت، فردّ عليها بحبور: "لا عليك.. المهمّ أفاتح عمّ (عمر)، أم تريدين تأجيلَ هذا الموضوع لما بعدَ الحرب الشاملة؟". صمتتْ وهي تفكّر في احتمالات كثيرة وتعقيداتٍ أكثر، وفي نظرة أبيها وأمّها حين تقرّر الزواج من رجلٍ متزوّج، وردّ فعْل زوجته الأولى. هل ستحدُث الحرب حقًّا؟ ومتى؟ وهل سيخرجان منها على قيد الحياة؟. تفكّر في عرض زواج يواجه حربيْن؛ حربًا عائلية وحربًا عسكرية، ولا تدري أيُّ الحربين ستقتل تلك الزيجة قبلَ أن تحدث!.

***

١٣

أنهتْ كَميردا حمّامها المعطّر المُجهّز بمواد خاصّة تحافظ على حيوية بشرتها، وتساعد جلدَها على الاحتفاظ بمرونته ليعود طبيعيًّا بعد انتهاء حملها، ووقفتْ أمام مرآة تحتلّ جدارًا كاملًا من الحمّام. تأمّلت بطنها المكور وثدييْها المنتفخيْن بمزيج من الفخر لحمْل ذكر هجين يباركه ماجوها، والقلق من أن يقلل تغيّر شكلها من رغبة (باسل) بها.

كانت قبلَ الحمّام مُنخرطة في محادثة جماعيّة مع صديقتين لها من أيام الطفولة، يتذكّرنَ أيامهن القديمة، ويتكلّمنَ عن آخر مستجدات حياتهن. كان الثلاث يدرسْنَ في المعهد نفسه في مدينة صغيرة في كوكبهم أديتيا، مدينة أغلبُ سكّانها من المُزارعين والموظّفين البسطاء. كميردا كان أبوها كاهنَ المدينة، وكانت تربيتها دينيّة صرْفة على عكس صديقتيْها اللّتين تنتميان إلى عائلات غير متدينة، وكانتا تداعبانِها، وتسمّيانها الكاهنة كَميردا غيرَ أنّها على خلاف المتوقع اجتهدت في دراستِها، واستطاعت الالتحاقَ بوظيفة في هيئة التحضير للعودة ومنها صارت الآن من أهمّ مُساعدات السيدة هيرمين مسئولة العلاقات الخارجية في الحكومة.

صديقتُها الأولى تعيش على البحر في سانيشا- فَديل (مدينة كبيرة على البحر تمتدّ من ما كان يعرف بدمياط الجديدة حتّى مصبّ النيل شرق رأس البر)،

صارت مركزًا سياحيًّا وتجاريًّا مهمًّا في دولة أديتيا. تزوّجت أرضيًّا تعمل معه في إدارة المدينة، وأنجبت منه ولديْن وبنتًا، وتعيش في رغدٍ من العيش جرّاء المكافأة التي تتلقّاها من الدولة لقاءَ إنجاب الولدين الهجينيْن. حياتها لا تخلو من الهمّ فزوجها لم يكنْ مثل (باسل) بأيّ حال، كان لا يبادلها أيّ مشاعر، ولا يعتبرها موجودة أصلًا، وعرفتْ أنّه على علاقة بأرضية رغم أنّ زواجهما حصري، ودار النقاش بين الثّلاث عن غرابة الأرضيّين الذين يروْن الرجلَ الذي يعاشر أكثر من امرأة رجلًا عاديًّا، أمّا المرأة التي تعاشر أكثرَ من رجل فهي محتقرة ومذمومة.

أمّا صديقتها الثانية فقدْ كانت تعيش حياتها بدون أطفال، وبدون التزام تجاه رجلٍ بعينه. كان لها زوجٌ أديتي، متزوّج منها زواجًا غيرَ حصري، ومع ذلك لم يعرفْ أحدهما علاقة خارج الزّواج قبل الهجرة إلى الأرض. أمّا بعدها، فقد وجدت زوجَها مُنجذبًا إلى الأرضيّات بشكل غريب جعلها هي الأخرى تنخرط في علاقات معَ أرضيّين لمجرّد أنْ تعامله معاملةَ النّد. كانت ترفض إنجابَ هجينٍ لأنّها كانت مِن معارضي الفكرة مِن أساسها، وهاجرت فقط لأنّ أحوالها المعيشية كانت سيئة للغاية في كوكبِها الأم، ومعَ الوعد بحياةٍ رغْدة على الأرض، هاجرت مع زوجها وأنجبتْ منه طفلةً واحدة، ولا تزال ترفض الإنجابَ من أرضي رغم إلحاح زوجها الذي يرى في ذلك فرصةً لزيادة دخلهم كأسرة.

تصرّ كميردا في كلّ محادثة تجمعهنّ على التأكيد على أنّ سببَ تميز حياتها عنهما هو رضا ماجوها عنها، وكانتا تمزحان معها وتقولان إنّ ماجوها نفسه

لا يمتلك حظًّا طيبًا مثلها، وإنّ الكون أحيانًا يرتّب نفسه للأنقياء ليجزيهم الخير حقّ نقائهم.

حاولتْ كميردا بعدَ انتهاء حمّامها أن تشغل نفسَها بأيّ شيء لتمضية الوقت حتّى يعود زوجُها، ولتبعد عن ذهنها أشباحَ القلق. جلست على مقعد وثير وسط غرفةِ نومها، وفتحت شاشة تلفاز تحتلّ نصفَ الجدار المقابل بأمر صوتي وأخذت تأمرُ الشّاشة بفتح قناةٍ تلو الأخرى بمللٍ حقيقي، وبقلق لا يفارق أنفاسها.

سمعت صوتَ الباب الخارجي يفتَح، فقامت مُبتهجة مسرعة نحو حضنه الذي وجدته مفتوحًا بالذّراع اليمنى بينما كانت الذراع اليسرى مُمسكة بحقيبة كبيرة. قبّلته بعمق، قبلةً أفرغت فيها قلقَها عليه ولهفتها لرؤيته وهي لهفة لا تفارقها منذ ارتبطَا. قبّلها بدوره ثمّ أجلسَها على كرسيها وفتح حقيبته وأخرج علبة صغيرة، فتحتْها فوجدت فيها أربعَ خصلاتِ شَعْر مغلّفة بعناية، قبّلته على خدّه حين رأتها ثمّ سألته: "قتلتهم أم أسَرْتهم؟" فردّ عليها: "الخصلة المختلطة بدم هذه لأسير، أمّا الباقون فقد قتلتهم".

قامت بسعادةٍ تفتح دولابًا صغيرًا تناولتْ منه لوحًا من البلاستيك المبطن، ملصق عليه الكثيرُ من خصلات الشّعر، وألصقت عليه الخصلةَ المأخوذة من الأسير وهي تتمتم. تناولتْ من الدولاب نفسِه وعاءً يشبه المبخرة مزيّنًا بنقوش أديتية تشبه الطلاسمَ إلى حدّ كبير، أزالت غطاءَ الوعاء ثمّ لمست جزءًا من جداره فتوهّج داخله بلهب مزرقّ اللون، رمتْ فيه الخصلات تباعًا وهي تردّد تمتماتها وتشكّل أصابعَ يدها اليمنى بتشكيلاتٍ

مُختلفة حتّى أنهتْ مهمّتها، و(باسل) يتأمّلها مُبتسمًا كمَن يتأمل طفلًا صغيرًا يعدّد ألعابه بحرص كأنها كنوز ثمينة.

اقتربتْ منه ببطء وهي تقول في دلال: "عزيز القلب، ماذا تريد من أجل العشاء؟". اقتربَ منها بدوره وهو يلثمُ شفتيها ويقول: "أريدُك أنت، ولكن دعيني أغسلُ جسدي من آثار المطاردة". كان يريدُها بنهم حقيقي غير مصطنع، وكانت تشعرُ به، قالت وهي تضمّه بقوّة: "أنا أريدُ لغبارِ المعركة أن يكون جزءًا من لقائنا، أريد أن أشعرَ ببقايا أرواح قتلاك وهي تنسحقُ ثانية بيننا".

كان معتادًا على مزاجها الغريب ذلك، وكان يراه جزءًا من كينونتها التي تعتبر قتال المقاومين واجبًا دينيًّا، وأنّ الجزء الأكبر من أرواحهم يكون حبيسًا في تلك الخصلات التي تحرقها، وتعتقد أنّ طقوس حرقها تلك تأخذ القوة الباقية من تلك الأرواح وتودِعُها في جسد (باسل) حبيبها الذي خلّص العالم من شرورهم.

لم تكنْ أوّل امرأةٍ في حياته؛ عرف قبلَها نساء أخريات، وكان في بداية زواجِها غيرَ مستوعب لوجود امرأة من كوكب آخر، وعرْقٍ آخر معه في بيتٍ واحد؛ بل إنّه أحيانًا كان يجفل حين يراها ليلًا والأضواءُ خافتة تنعكس على ملامح وجهها غير المعتادة.

مضتْ شهورٌ تلو الأخرى من زواجهما وهو نافرٌ منها، يتعامل معها كأنها مهمّة مفروضة عليه، ليحتفظَ بموقعه بين النياندرتال، خاصّة أنّها تعمل في وظيفة مهمّة. كانت تشعر به دونَ أن تخبره، تصبر على جفائه، يحرّكها إعجابها به، وأمنيتُها أن يرغب بها يومًا ما حقًّا لا تصنّعًا. اعتادها مع الوقت واستطاعت أن تجدَ لنفسها مكانًا في قلبه تمتلكه، وما سهّل الأمرَ هو أنه كان خاليًا بالأساس.

شيئًا فشيئًا أحبّها، وحين وقع الحملُ أحبّ فكرة أن يكون له طفلٌ منها لأنها حبيبته وليس لأنّ الطفل الهجين سيعزّز موقفه في المجتمع الأديتي الناشئ. كانت تضايقُه طقوسُها الدينية الكثيرة، وأثارَ دهشته اهتمامُها بطقوسه هو؛ كانت تُذَكره بمواعيدِ صلاته، وتصوم معه في أثناءِ اليوم في رمضان، واحتفلت معه يوم العيد، وتمنّت لو أنّ له عائلة يتزاورون معهم في هذه الأيام.

يومًا سألها كيف تكون مؤمنةً بدينها بهذا العمق، وترى أنّه هو الحقيقة المُطلقة، وأنّ أصحاب الديانات الأخرى ستضلّ أرواحهم في الظلمات، ومع ذلك تساعدُه على الالتزام بدينه، فقالت: "أنا لا أساعدُك على الالتزام بدينك، أنا أحترم دينك وطقوسه لأنّني أحبّك، وأحيانًا أطلبُ من ماجوها أن ينير روحَك ويغفر لك اعتناقَك لدين آخر". ضحكَ يومها وقال لها: "اشكري ماجوها بالنّيابة عنّي، وقولي له أنْ يتركني في حالي".

لم يكنِ اختلافُ الدين يقلقه، حتّى في بداية زواجهما، لكن الطقوس الدينية الكثيرة كانت تضايقه دومًا؛ فهو وإنْ كان مسلمًا من عائلة مسلمة إلّا أنّها لم تكن عائلةً ملتزمة أو متحفّظة، كانت أمُّه غيرَ محجبة، وأبوه رجلًا متحرّرَ الفكر، ناقدًا بقوّة للمتشدّدين دينيًّا وناقدًا للالتزام "الديني الكلاسيكي" على حدّ تعبيره. ربما كانت تربيتُه تلك هي سببَ ضيقه من التزامها الشديد بدينها، فقد كان قبل الغزو ينتقد المسْرفين في الالتزام الإسلامي من معارفه. لم يكنْ يشغل باله أيُّ دين سيتبعه ابنه القادمُ بقدر ما كان يقلقه أحيانًا أنّها قد تغرس فيه ذلك الالتزامَ الديني المبالغ فيه.

بعدَ أن نامت على ذراعه في النهاية قامَ من الفراش بعد أن سحب ذراعه من تحتِ رأسها بكلّ هدوء، وذهب إلى المطبخ فتناولَ لقيمات بسيطة ونصف تفاحة، ثمّ جلسَ أمام جهاز الأرشفة الخاصّ به ليسجّل تقريره عن عمليات اليوم ونتائج تحقيقه مع الأسير.

***

١٤

أخذتْ (ميْساء) نفسًا عميقًا وهي تدخلُ الغرفة التي أحضروا فيها (معاذ) لتتحدّث معه. كانت تلك المقابلةُ طلبًا شخصيًّا منها نجحتْ بصعوبة في إقناع العقيد (عماد) بالموافقة عليه. فتحتِ الباب الخشبي المُفضي للغرفة العتيقة التي تكسو أرضيّتَها بلاطاتٌ تعود إلى ثمانينيّات القرن الماضي، تملؤها الشروخ والقطع المفقودة.

كان جالسًا على بساط قديم من الكليم، ومستندًا بظهره إلى الحائط ذي الدهان الجيري. جلستْ أمامه مُتجاهلة الكراسي الخشبيّة الموجودة بالغرفة، نظر إليها وفي عينيْه عتابٌ عميق دون أن يتكلّم؛ نظرة شعرتْ بها تخترق دماغَها وترفع صوت تدفّق الدم داخله، وتربك ترتيبَها للكلمات التي هي على وشك قولها، فذلك العتاب الحزين الذي يملأ عينيْه ناتجٌ عن فعل أقلّ بكثير من ما هي على وشك فعله.

حينَ استدعاها العقيد (عماد) صبيحةَ اليوم- وهو اليوم الثامن منذ اختطاف (معاذ)- أخبرَها بأنّهم فشلوا في إحضار المتّهم الرابع، وأنّهم مُجبرون على تسليم (معاذ) للنياندرتال معَ الثلاثة الآخرين، وإلّا لن تتمّ الموافقةُ على إطلاق سراح والدها. كان يخبرُها لأنّه يعلم أنّها تشعر بالذنب تجاهَ اختطاف (معاذ)، ومن الطبيعي أنْ يكون شعورُها بالذنب أفظعَ كثيرًا، وهو ما لا يريده منها في المرحلة القادمة، فهُم يعوّلون عليها كثيرًا في إقناع والدها بالانْضواء تحت لواء الدولة المصرية ومقاومة الغزاة كمقاتلٍ في جيش بلده، وليس كمقاوم عبثيّ يضرب هنا وهناك بدون جدوى.

"ما سأخبرك به أمرٌ لا يعرفه إلّا الصفوة في قيادة الجيش والمخابرات لكنني مضطرّ لإثقالِ كاهلك بذلك السر". قال لها وحاجباه مُنعقدان في جديّة شديدة، وصوتُه ينخفض إلى مستوى تسمعُه بالكاد. بدأ كلامَه بمقدّمة عن عبء الحرب وعن تضحياتها، وأنّ الدولة لا يمكن أن تقفَ مكتوفة الأيدي وأرضُها مغتصبة وأبناؤها مشرّدوين، أو تحت حكمٍ مُحتل، وأنّ الحربَ لا مفرّ منها مهْما كان العدو وقدراته.

تنهّدت في فراغ صبرٍ محاولةً أن تحافظ على ملامح وجهها ثابتة وهي تنتظرُ ذلك السّر الذي سيغيّر وجهةَ نظرها في تسليم (معاذ) بعدَ أن وعدوه بإطلاق سراحِه. "في منتصف الصيفِ القادم حين تكون درجاتُ الحرارة في أعلى معدلاتها سوف نبدأ الهجوم.. ستقومون أنتم ومَن سينضمّون إلينا مِن تابعي والدك وأصدقائه من النياندرتال مُناهضي الغزو بالتمهيد له".

كانت الخطةُ تقتضي تعطيلَ نحْو ثلاث آلاف محطّة شديدة الحراسة في وقت واحد، وهي المحطاتُ التي تحرس جدارَ الحماية المحيط بالأراضي المحتلة، وبعدها مباشرة يتمّ هجومٌ برّي في كلّ البلاد على عدّة محاور تشارك فيه قوات من الدول المحتلّة، ومن عدّة دولٍ كبرى. أضافَ وهو يتأمل تعبيراتِ الإثارة على وجهها: "لا أقول إنّ دولَ العالم كلها تنتظرُ الإفراج عن أبيك لتسهيل تلك الحرب، لكنّه ترسٌ مهمّ في آلة كبيرة، كما أنّنا كمصريّين أصحاب أكبر تعداد من الناس في الأراضي المحتلّة، ونريد أن يكون هناك مصريّ في واجهة مقاومي الداخل المحتل".

أخبرها- أيضًا- أنّ الدولة المصرية تريد الانتصارَ بالشعب، ونسب الانتصار له، وأنّ الموجودين في مراكزِ صنع القرار لا يهتمّون بمكسبٍ

سياسي قدرَ اهتمامهم بإعادةِ مصر كما كانت منذُ فجر التاريخ؛ دولةً واحدة كاملة الأرض. سألته: "معذرة سيّدي، وهل تسليمُ أبنائنا للعدوّ مبرّرٌ بهذه الطريقة". سألها هو في المقابل عن عدد مَن ماتوا حتّى الآن، والمقاومين زملائها الذين ضحّوا بأرواحهم، وعن عشرات الآلاف من الجنود الذين سيضحّون بأرواحهم في الحرب الكبرى، ثمّ قال: "ورغم كلّ ذلك فإننا اتّفقنا معهم على أنْ يخضعوا لمحاكمةٍ عادلة، وعلى وجود قاضٍ منّا يراقب المحاكمة ويتأكّد من نزاهتها".

لم تكنْ تقدر على إخبار (معاذ) بكلّ شيء، ولكنّها على الأقلّ أخبرته بموضوع المحاكمة العادلة والقاضي المصري المراقب. العجيب أنّ (معاذ) لم يصدرْ أيّ ردّ فعل، فقط تلك النظرة المُعاتبة في عينيه، نظرةٌ جامدة لم تتغير طوال حديثها. "بالله عليك تكلّم" قالت له بلهجةٍ أقربَ إلى التوسّل دون مراعاة لموقعها وموقعِه في تلك المحاورة. ردّ عليها بهدوء وهو يمسح دمعةً خانتْه: "لقد أجرمت يا (ميْساء)، وأنا أستحقّ ما سيحدث لي أيًّا يكن.. ما أحزنني فقط هو أنّك استغللت ماضيًا طاهرًا بريئًا لاسْتدراجي هنا؛ أنا أستحقّ أقسى عقاب على ما فعلت لكن اغتيال ذكريات طفولتي ليس من حقّ أيّ إنسان".

لم يزدْ كلامه من شعورها بالذّنب، بل إنّ مسحة من الارتياح خالطت قلبها حينَ قال إنه يتقبل أيَّ عقاب يوقّع عليه، وأنّه يستحقّه. اعتذرت له عن كذبتها وقالت إنّها مجرّد جندية تطيع أوامرَ قادتها، وإنّها رأت غيرها يقومون بتضحياتٍ أكثر كثيرًا من مجرّد الكذب على حبيب قديمٍ ضلّ طريقه.

خرجتْ من عنده وهي تتنفّس الصعداء، وقفت في الصالة الصغيرة التي تطلّ على ثلاث غرف، وقرّرت بدلًا من أن تعود إلى غرفتها، أن تدخل إلى المطبخ لتعدّ لنفسِها كوبًا من القهوة. كان المطبخ ضيقًا من خشبٍ قديم تفوح منه رائحة رطبة طولَ الوقت، وأدواتُه تعود إلى ما قبل عشرين عامًا. لم يكن مسموحًا لهم إحضار تجْهيزات في تلك البيوت تلفتُ نظرَ أحد، ورغم أنهم يحضرون تقنيات متقدمة لمَخابئهم كلّ فترة قصيرة إلّا أنّ إدخال الأثاث الجديد ممنوعٌ بحجّة أنه لافت لنظر الجيران أكثر. الجيرانُ المساكين الذين قال عنهم (حبيب) إنّه لم تخلق حكومة تبحث عن حلٍّ لتحسين أوضاعهم. ساءتِ الأمور بالاحتلال الذي أحاط كلّ عشوائيات المدن الكبرى بسياج من طائرات المراقبة فقط دون أيّ اهتمام بإدخال خدمات لها سوى حفظً الأمن الذي يتمّ عن طريق الطائرات التي تطلق قذائفها على أي شخص يرتكبُ فعلًا مُشتبهًا به. قذائفُ تطلق تيارًا كهربائيًّا يشلّ الجسمَ لبضع ساعات ويُصدر ألمًا لا يُطاق يستمرّ اليوم بطوله.

كانوا يتعاملون مع تلك المناطق بإهمال، ومع القاطنين بها بشكّ، وتظلّ فرصُهم ضئيلةً في العمل خارجَ مناطقهم. كانوا يعتبرون تلك المناطق قنبلة موقوتة ينبغي التعاملُ معها، ووردَ لعلمها أنّهم فكّروا أكثرَ من مرّة في تهجير سكانها خارج الأراضي المحتلّة، وتسويتها بالأرض، لكنّهم لم يفعلوا للآن لسبب لا تعلمه.

دخلَ (سمير) عليها ووجهُه يلمع بغضب تراه أولَ مرّة، وبادرها قائلًا: "لماذا كنتِ تتكلّمين مع المتّهم بتلك الطريقة"؟ فاجأها السؤال فردّتْ بارتباك:

"ماذا تقصد؟" أمسكها من كتفِها وهو يقولُ بغلظة: "أنتِ تعرفين ما أقصد، هل كان ذلك إشفاقًا عليه، أم مشاعرَ قديمة تحرّكت نحوه؟". رفعت حاجبيها وحدقت فيه غير مصدّقة لَما تسمعه، كان أحيانًا يُصدر تعليقات تنمّ عن غيرته كأن يطلب منها ألّا تتباسَط في الكلام مع زملائها، وكانت تردّ بابتسامة هادئة، وتنسى تعليقَه، وتفسره بأنّه مجرّد غيرةِ مُحبّ بسيطة يمكن التغاضي عنها، لكنّه الآن يتدخل في عملها ويتّهمها بأنها تخلطُ العملَ بمشاعر سابقة، ويشكّك في مشاعرها تجاهه وهوَ ما لا تقبله.

سألتْ بجفاء وهي تزيح يدَه من على كتفها: "هل تسألني بصفتك زميلًا أم بصفتِك الأخرى؟". ردّ عليها بأنه لا فارقَ بين الحالين، فأجابت: "إذا كنت تسأل كزميلِ عملٍ فأنت تشكّك في مهنيتي ومصداقيتي، وهذا كلامٌ يستوجب منك أن تقوله بشكلٍ رسمي لأردّ عليك بشكل رسمي، أمّا إذا كان بصفتك حبيبًا فأنا لا أقبل أن أردّ عليك أساسًا". كانت القهوةُ قد فارت وأطفأت النارَ، فأغلقت الموقدَ وصبّت القهوة وخرجتْ دون أن تُعير بقيّة كلامه اهتمامًا.

مرّ بقيةُ اليوم دون أن تتكلّم معه كلمةً واحدة، وكلّما صادف أحدهما الآخر تبادلَا النّظرات الغاضبة بدون كلام. كان ذلك يثيرُ حفيظتها أكثر وهي تتخيّل أن ردَّ فعلها قد أظهرَ له مدى حمقِه، وفجاجة كلامه، لكنْ يبدو لها أنّه ليس من النوع الذي يستوعبُ تلك الأمور بسرعة.

في صبيحة اليوم التالي، استُدْعوا إلى اجتماع عاجل. كان المقدّم (إياد) جالسًا وهُم على يمينه ويساره؛ هي وأحد المجندين الجدد في ناحية،

وسمير وضياء ومجندٌ آخر في ناحيةٍ أخرى، وفي مواجهته اثنان من التّقنيين. بدأ بشرح خطة العملية القادمة؛ وهي وضعُ الأربعة في أحدِ البيوت الآمنة، ثمّ تصويرهم وإرسال الصور لشرطةِ النياندرتال مرفقةً باعترافاتهم المفصّلة، وبعد أن يقوموا بتسليم عمر لمصر يتمّ إعطاؤهم إحداثيات المنزل الموجود به الأربعة.

"ولماذا لا نهرّبهم عبر الحدود، وتتمّ عملية التسليم عند معبر حلوان". سأل (ضياء) فأجاب (إياد) بأنّ تهريب أربعة عبر الحدود ضدّ رغبتهم أمر عسير؛ لأنّ المساحة قبلَ الحدود مكشوفة، وتتطلّب من الهارب أن يكون متنكرًا وقادرًا على مراوغةِ المستشعرات، ومن الصّعب إقناع المتهمين بذلك. والسببُ الثاني هو إظهار قدرةِ المخابرات المصرية على العمل داخل الأرض المحتلة، وقدرتها على خداع أجهزتهم الأمنية، وتنفيذ عمليات بحثٍ وتحرٍّ وأسْرٍ داخل مناطق سيطرتهم، وتصوير كلّ ذلك في دعايةٍ تبثّ الثّقة في قلوبِ المقاومين والمواطنين، وتحثّ المقاومين المتردّدين في الانضواء تحتَ لواء حكومتهم على اتخاذ القرار الصحيح.

***

١٥

مضى عليه عامان منذُ أودع ذلك السجن. لحُسن حظّ الغزاة أن حدود دولتهم التي قرّروها كانت جنوبي سجن طرة مباشرة، ممّا أهدى لهم مساحة كبيرة لوضع سجنائهم الجدد بعدَ أن رحّلوا كلّ قاطني ذلك السجن خارج الأرض المحتلة. غيّروا في أنظمة الحراسة والمراقبة، والتي صار أكثرُها آليًّا، فالشعار طائرة دقيقة لكلّ سجين، ولكي لا يرهقوا ميزانيتهم كانت هناك أنواعٌ مبتكرة من العقوبات في قوانينِهم تحتاج من الشّخص الوجود في السجن أقلّ من أسبوع فقط.

عُمَر الزيبق؛ واسمُه الحقيقي عمر عوض الله بدأت قصّتُه مع النياندرتال من قبْل الغزو بعقدٍ ونصف حينَ استيقظ ذاتَ يوم فوجد نفسَه مختَطَفًا في مكان غريب على كوكبٍ آخر. في ذلك الوقت، كان النياندرتال يختطفون بشرًا من الأرض ويُجْرون عليهم تجاربًا ليكتشفوا قدرةَ البشر على التكيف لظروف القهر والإجبار وحيلهم للتغلب عليها. كانت شريكته في تلك التجربة طبيبةً من عمره تقريبًا، تمكنَا معًا من إثبات أنّ الشخص العادي تمامًا يمكنه أن يقاوم القهرَ مهما بلغ مداه. في النّهاية استطاع النياندرتال المقاومون لحكومتهم من تهريبهما وإعادتهما إلى كوكب الأرض.

بعدَ عودتهما تزوّج عمر وزهرة وأنجبا (ميْساء) وتواصلَ المقاومون معهم وأعلموهما أنّ الغزو قادم. بعد أنْ حدث الغزو اشتركَ (عمر) معهم في تأسيس قاعدةٍ كبيرة من المقاومين من المصريّين والأديتيين المعارضين

وتمكنوا معًا من تحقيقِ عمليات موجِعة لحكومة أديتيا الأرض، وبعد ثمان سنوات من الكفاح قُبِض عليه وسُجن.

كانت جرائمُه التخريب والقتلَ ونشر الفوضى، وإدارة جماعات مسلحة بهدفِ تقويض النظام، إلى آخر تلك التّهم، وكانت عقوبتُه هي الإعدام، ولكن قانون أديتيا يمنع إعدامَ مَن جاوز الستين، ويبدله بعقوبةِ السجن مدى الحياة. سجونهم لا تسمحُ بالزيارة، ولا التواصل مع العالم الخارجي، والتواصل مع بقية السجناء يكون ثلاثَ مرّات أسبوعيًّا فقط، فالسجنُ في أديتيا ليس للتهذيب والإصلاح بل للعقوبة فقط، وأصعبُ شيء فيه أنّ حارسك طائرة دقيقة ترافقك كظلّك، ولا يمكن رشوتها بسيجارةٍ أو قليل من المال.

بعدَ غفوة مسائية، فتحَ عينيه ونظر نحوَ طائرته الدقيقة الواقفة في الهواء في ركنِ الغرفة البعيد أمام الباب. "مساء الخير يا زقلة.. أين الغداء؟". سأل طائرته التي كانت رفيقَه الوحيد في السجن، والتي كان يناديها بهذا الاسم لإضفاء نوع من الحميميّة على (العلاقة) بينهما. ردّت عليه طائرته "الغداء موجودٌ علىً الأرض جوارَ سريرك يا عمر". نظر إليها وهو يُعطيها ابتسامتَه المرحة التي تثير حفيظةَ الحرّاس الذين يراقبونه من خلال كاميراتها.

جلسَ على طرف سريره، وتناول علبةَ الغداء التي تصلُه من فتحة أعلى الغرفة، فتلتقطها طائرتُه وتضعها على الأرض جوارَه. كانت تحوي شطيرة وعلبة عصير وموزتيْن. أنهى شطيرتَه ووضع بقيّة العلبة جوارَ فراشه، فقالت طائرته: "إنّهً غداؤك يا عمر، وتخلّص من النفايات". فردَ ظهرَه على الفراش غير عابئ بتكرارها للأمر؛ بل إنّه كان يتعمّد ذلك أحيانًا ليخفف من ملله.

انفتحَ بابُ غرفته فجأة، ودخل عليه اثنان من الحرّاس من النياندرتال، وطلبَا منه الوقوفَ ساكنًا. استجابَ للأمر وهو يتأمّلهما بزيّهما المختلف عن زيّ حراس السجن، وهمَا يقيّدان ذراعيه وقدميه. اقتاداه خارجَ غرفته إلى فناء السجن؛ حيث كانت هناك مركبةٌ تنتظر، وهي أوّل مركبة يراها منذ المركبة التي أتت به إلى هنا منذ عامين.

بدأ يشعرُ بالارتياب وهو يفكّر في ماهية تلك الخطوة وإلى أين سيأخذونه، هل سيغيّرون مكانه لسجن أسوأ؟ أم أنّهم قرّروا أخيرًا أن يتجاوزوا قانونهم ويعدموه؟ أم أنّ أبطاله في المقاومة استطاعوا بطريقةٍ ما أن يخترقوا كلّ تلك الإجراءات ويقومون بتهريبه؟! ساعدوه في دخولِ المركبة ثمّ ثبتوا غطاء على رأسه يُغمي عينيه فورَ أن تحرّكت المركبة وتجاوزت أبواب السجن. لم يرد أحدُ الحراس الجالسين على أسئلته، ولم يصدر أحدُهم صوتًا ردًّا على مزاحه، ما جعله يستبعد احتمالَ أن يكونوا من المقاومة.

هل سيسمحونَ له برؤية زهرة وميْساء قبل أن يعدموه إنْ كانوا قرروا ذلك... ماذا سيقول لزهرة وهو يتركها ويتوجّه إلى منصة الإعدام؛ حيث سيطلقون عليه حربةً صغيرة في قلبه وهو مثبّت إلى قائم معدنيّ يتركونه عليه لمدة يومين بعد وفاته. لم يكنِ الموت يُخيفه قدرَ ما يخيفه انفطارُ قلب زهرة وهي تشاهد جثته معلقة هكذا، والألمُ الذي سيسيطر على (ميْساء)، والغضب الذي سيقلّل من حرصها وهي تحاربُ الغزاة ويضعها في قلب الخطر.

طوالَ سنوات عمره التي جاوزت الستينَ لم يشعر بذاته إلّا في حالتين حين كان على الجزيرة يواجهُ الموت ويدافعُ عن زهرة، وحين كان يقاوم

الغزاة ويملأ اسمُه السمعَ والبصر. روايته التي كتبَها عن تجربته في الجزيرة لم تحقق نجاحًا ملْحوظًا بعدَ نشرها، لكن بعد أنْ حدث الغزو انتشرتْ كالنار في الهشيم وتُرجمت إلى كلّ اللغات، وعرفَ العالمُ أنّ الغزو كان يتمّ التحضير له منذ نصف قرن تقريبًا.

كانت تلك الشّهرةُ هي الدافعَ الذي جعل المقاومين من البشر والنياندرتال يصْدرون صورته للمشهدِ الثّوري. فقد كانت فكرة أنّ رجلًا قاوم الغزاة على كوكبهم يقودُ المقاومة على الأرض ضدّهم فكرة تلقَى الرّواج بسهولة، وساعدها بتلك البَراعة التي أظهرَها في العمليات التي قادها ضدّ الغزاة في مواقع كثيرة. فكرة غريبة حقًّا أنّ لديك موهبة دفينة، أنْ تبرع في شيء لا تعلمه طيلة خمسين عامًا من عُمرك، ثمّ حين تضعك الظروفُ في موقفٍ ما تتفجر الموهبة المختبئة وتظهر براعتُك للجميع.

لم يكنْ كاتبًا موهوبًا، ولا حتّى سباكًا أو تاجرًا ماهرًا؛ بل كان محظوظًا، وأبوابُ الرزق تنفتحُ له لسبب لا يعلمه. موهبتُه الحقيقية كانت في حرب العصابات والمقاومة؛ موهبة كانت ستدفَن معه لولا حدوث الغزو.

غيرَ أنّ للشهرة ثمنًا فادحًا دفعَه حين قبضوا على عائلته ثمّ رحلوهم للمخيّمات. (زهرة) تفهّمت أنّ ما فعله كان محتومًا، وأنّ الاحتلال دمر حياتهم، بغضّ النظر عن انضمام زوجها للمقاومة من عدمه، لكن (ميْساء) لم تتفهم وظلّت غاضبةً منه، حتّى فاجأته أنّها انضمّت لكتائب النصر؛ وهي قوات مقاومة تدعمها الدّولة، ويرفض هو وزملاؤه الانضمامَ إليها مفضّلين أن يكونوا مقاومين مستقلين مِن أجل الشعب، لا مِن أجل النّخبة التي تحكمه.

الفكرةُ نفسها هي ما يحفز المقاومين من النياندرتال على القتال إلى جوارهم ضدّ بني جلدتهم في كتائب الحرية. كان يقول دومًا: "كلٌّ يسمّي كتائبه حسبَ غايته؛ نحن نريد الحرية، والحكومة تبحث عن النصر وتكره الحرية".

عمر وماندريك، صديقه النياندرتال (أو الأديتي كما يفضلون أن يطلق عليهم)، كانَا وجْهَي المقاومة الأشهر؛ واحدٌ أرضي وواحد أديتي، يظهران بالتبادل في لقاءاتٍ وأفلام قصيرة تلهبُ حماس الجميع، وبعدَ أسْر (عمر) كان ماندريك هو الوجهَ الأساسي للمقاومة، ويتبادل معه الكثيرُ من الأرضيين في الظهور بدلًا من (عمر). أمضى مع ماندريك سبعَ سنوات يحاربان فيها معًا جعلته أقربَ أصدقائه وجعلتْه يتمنّى رؤيته ولو مرّة واحدة قبل أن يموت.

شعرَ بالمركبة تتوقف بعدَ نصف ساعة ثمّ تحركت ثانية. كان موقفه في تلك المرْكبة يذكره بأوّل مركبة اختطفته مع (زهرة) في كوكب أديتيا. آه.. كم يفتقد (زهرة)، المرأة النادرة التي راهنَ الجميع في أول زواجهما على أن انفصالهما محتوم، وأنّ حبّهما مجرّدُ افتتان وقتيّ، لكن حبهما انتصرَ على كلّ الظروف، وساعدَه ازدهار عمله على شراء بيتٍ لها في حيّ راقٍ جعل منتقدي زهرة يباركون زيجتَها أخيرًا. بعدَ الغزو كان يزورها كلّ فترة يقضي في حديقة عشقها يومًا أو يوميْن، ثمّ يعود لسلاحه ثانية مودّعًا إياها وسط نهرٍ من الدموع المتبادلة.

توقّفت المركبة تمامًا، انفتح بابها، نفذَ ضوءُ النهار من عصابة عينه، أنزلوه من المركبة بهدوء، ثمّ امتدّت يدٌ تنزع الغطاء من فوق رأسه. بهره ضوء الشمس في البداية فلم يرَ شيئًا، أغلقَ عينيه وفتحهما عدّة مراتٍ فرأى

شمسًا أخرى أكثر بهاءً من شمس النهار؛ كانت (زهرة). لم يفكّر كيف وأين ولماذا!؟ لم يلفت نظره الفناءُ الواسع الذي تقف به، ولا الرجالُ الذين يرتدون الملابس الرسمية ويحيطون بها، ولم يسمع صوتَ المركبة وهي تغادر بعد أنْ أنزلته لم يرَ غير (زهرة).. هي وكفى!

احتضنَها وأفرغ مخزونًا كاملًا من دموع الشوق على كتفيها وهو يتمتم بكلام كثيرٍ عنها وعنه وعنْ شوقه وحبّه وأسفه. لم ينتبه إلّا على يدٍ تخبط على كتفه وصوتٍ مألوف يقول: "حمدًا لله على السلامة". التفت فرأى (ميْساء) ابنته واقفة ترتدي قميصًا وبنطالًا وقد عقصتْ شعرَها البني الفاتح، واحمرّ وجهها، ودمعت عيناها من فرط التأثر.

"أين أنا؟" أجابه أحدُ الرجال الذين يرتدون الملابس الرسمية: "أنت في الحوامدية يا سيد (عمر)، مرحبًا بك بين أهلك وإخوتك". نظرَ إلى الرجل والأسئلة تملأ محيّاه، وقبلَ أن ينطق قالت (ميساء): "لقد أطلقنا سراحَك يا أبي، والآن أنت بيننا، وهذا ما يهم". عقدَ حاجبيه وهو ينظر إليها وقد زالت سكرةُ لقائه بزهرة وشغلَ باله الآن كيف تركوه! فالتفتَ وسأل الرجل ذا الزيّ الرسمي قائلًا: "أريد أن أعرفَ الآن كيف جئتم بي إلى هنا؟ ما الصّفقة بالضبط؟ وكيفـ...." قاطعته زهرة وهي تقول بلهجة متوسّلة: "أرجوك يا عمر... دعْنا نستريح أولًا؛ دعنا نشبع منك"، ثمّ ضغطت بكفّها على كتفه وقالت هامسة: "دعني أشبعُ منك".

كانت لهجتُها المتوسّلة تنزل على قلبه كأمر إلهيّ لا يجوز مخالفته، وكانت نظرةُ عينيها المشتاقة جرعةً إضافية من خمْر الحبّ أدخلته في سكْرة جديدة،

وأنسته- مؤقتًا- دوامةَ الأسئلة التي تدور في رأسه. دخلوا معًا إلى مبنى يحتل الجهةَ الشرقية من الفناءِ الذي وصل فيه، وصعدوا إلى الطابق الثاني على الأقدام. أوقفته (ميْساء) ثمّ ضمّته وهي تقول: إنّ لديها عملًا ستنهيه ثمّ تعود إليه بعد ساعة على الأكثر، "غرفتكما في آخرِ الممرّ على اليسار، سأحاول ألّا أتأخر"، ثمّ انصرفت دون أنْ تنتظر ردّهما.

***

١٦

علَا صوتُ طرقتيْن على الباب، تبعه صوتُ أمر من هيرمين بالدخول. ظهرتْ من الباب نصف المفتوح طاولةٌ ذات عجلات، عليها أطباق متعددة، وظهرت بعدَها الخادمةُ الأديتية التي تدفع العربة وهي تلقي تحية الصباح بأدب على سيدتها التي لا تزال تفركُ في عينيها بيدها اليسرى، وتنكز الرجل الراقد إلى جوارها باليد الأخرى.

اعتدلتْ هيرمين في جلستها، والخادمة تناولها شرابًا أخضرَ مشوبًا بالحمرة يعدّ خصّيصًا للراغبات في إنجابِ الذكور. قالت بلهجة حازمة وهي توقظ الرجل النائمَ إلى جوارها: "لؤي، استيقظ لتعدّ لي الموكب"، ثمّ أردفت وهي تدفعه بقوة أكبرَ "هيّا". قفز الرجل من الفراش إلى الحوض الموجود بالغرفة فغسل وجهه على عجل، ثمّ بدأ بارتداء ملابسه. نظرتِ الخادمة إلى جسده الممشوق بإعجاب وهي تهمس لسيدتها: "يبدو أنّ جيناته ممتازة يا سيدتي، وسيهبك طفلًا قويًّا". ابتسمت هيرمين دون أن تردّ على خادمتها التي تعمل لديها منذ ربع قرن تقريبًا.

كان (لؤي) قد غادر الغرفة حين قامت لتجلس في حوض الاستحمام الذي يحتلّ مُنتصف غرفتها، والذي يشبه أحواض استحمام ملوك العصور الوسطى بقوائمه الخشبية المذهبة، إلّا أنّه كان قطعة من التكنولوجيا المتقدمة التي تعطي الجلوسَ فيه متعة قصوى. وقفت الخادمة جوارَ الحوض، وأمامها طاولة صغيرة عليها المناشف والثياب منتظرة انتهاء سيدتها.

كان اجتماعُها مع الحاكم بالأمس مشحونًا أطلعته فيه على تفاصيل زيارتها للصين، والتي أجرت فيها مقابلات ووقعت بالنيابة عنه اتفاقات مهمة، واستطاعت إقناعَ الصينيين بافتتاح سفارة لهم في أديتيا الأرض لتكون أول دولة تتبادل التمثيل الدبلوماسي معهم، وهي على يقين من أن تلك الخطوة ستدفع الأمريكيين لفعل المثل رغمَ ضغوط اليهود داخلها، والتي تجعل أمريكا أكثر تشددًا مع أديتيا. اليوم كان لديها موعدُ اجتماع هيئة الحكم، ذي جدول الأعمال المزدحم جدًّا، والذي كان على رأسه موضوعان مُهمّان جدًّا؛ أولهما تحديد جدول زمني لافتتاح قناة السويس، والثاني تفاصيل محاكمة المتهمين الأربعة بتعذيب وقتل فتيات أديتيات.

كان الموكب في الخارج جاهزًا؛ مركبتها الفاخرة التي يرافقها فيها حارسها الشخصي (لؤي) المعيّن حديثًا في ذلك المنصب، ومساعدتها كميردا، وأربعة دراجات طائرة تحيطُ بالمركبة من الجهات الأربع، ومركبتان لكشف أيّ تهديد مُحتمل؛ واحدة في الأمام والأخرى في الأعلى.

في مركبتها جلست كميردا معها في المقعد الخلفي يفصلهما زجاج عازلُ عن (لؤي)، والسائق في الأمام. قالت كميردا وهي تفتح شاشة أمامها: "هذه هي قائمة الدول التي أعطت موافقة مبدئية على افتتاح بعثات دبلوماسية لها عندنا، و..."، قاطعتْها هرمين في ضجر وهي تطلب منها أن تطبع لها تلك القائمة وهي سوف تراجعها لاحقًا، ثمّ صمتت قليلًا وقالت: "اسمعي.. رتّبي هذه الدول أنتِ بعد مراجعة التقارير، ثمّ رتبي لي زيارات لأهم ثلاثٍ منها خلال الأسبوعين القادمين".

تحمّست كميردا للمهمة، وكادت تبدأ فيها من تلك اللحظة لكنها تذكرت نقاطًا أخرى مهمّة تريد عرضَها على رئيستها قبل الاجتماع. خبطت هيرمين على فخذها في نفادِ صبر وهي تتأمل بطنَ مساعدتها التي يزداد حجمها يوميًّا ثمّ سألتها عن الوقت المتبقي على الوصول، فقالت لها: "عشرون دقيقة تقريبًا"، فردّت هيرمين وهي تفتح الحاجزَ المعتم بينها وبين السائق.. "خذي مكان (لؤي) جوار السائق وهاتيه هنا؛ فأنا أريد استغلال ذلك الوقت في شيء أفضل من التقارير".

ابتسمتْ كميردا بسعادة وهي تغادر مقعدَها بصعوبة وتقول: "أسأل ماجوها أنْ يهبك طفلًا يصير ذا شأن كأمّه". كانت تدرك بالطبع أن هيرمين تمرّ بأيام التبويض؛ وهي أيام تختلف في النساء الأديتيات عن الأرضيات. الأديتية في أيام تبويضها تكون مثل القطة التي تتوق إلى التزاوج لأسباب لا تتعلق بالحب أو الرغبة وإنّما مجرد الاستجابة الغريزية الصرفة لهرموناتها؛ شيء يثير استغراب الأرضيين الذين يتزوجون من أديتيات لكنهم يعتادونه مع الوقت.

دخل (لؤي) جوارها، وأغلقت الحاجز عليهما، ثمّ بعد دقيقة تقريبًا ارتجّت المركبة فجأة بصوت انفجار في الخارج. صرخت هيرمين فزعة وهي تدفع (لؤي) وتطلب منه استطلاعَ ما يحدث خارج المركبة. في حالة تعرض الموكب لهجوم من المفترض أن تندفع المركبة الرئيسية بقوة محاولة الخروج من بؤرة الحدث وترك المركبات الأخرى تشتبك مع المهاجمين، ويكون وظيفة الحارس الشخصي هو تفعيل الأسلحة الدفاعية والهجومية للمركبة.

فتح (لؤي)" الحاجز، وجلس على كرسيه بسرعة، وفي خضم حركته دفع كميردا بقوة فسقطت للخلف. ساعدتها هيرمين وأجلستها جوارها وهي تتطلع بقلق للشاشة التي أظهرت ما يبدو أنّه هجومٌ كاسح على موكبها. أكثر من خمس دراجات ومركبتين يشتبكون مع حراسة موكبها وقائد مركبتها يحاول تعديل وضعه ليتمكن من الفرار وسط المقذوفات المتبادلة.

أطلق (لؤي) قذيفتين متتاليتين على المركبة التي تقف في مواجهته أصابت إحداهما إصابة مباشرة جعلت المركبة المهاجمة يختلّ توازنها وتهبط للأسفل في مستوى أقلّ من مستوى مركبة هيرمين. استغل السائق تلك الثغرة سريعًا ومرقَ بالمركبة من منطقة التراشق، متجهًا بسرعة في طريقه لمجلس الحكم.

تنفّست هيرمين الصعداء وهي ترى ساحة الصراع المشتعلة تتضاءل صورتها على الشاشة مؤذنةً بابتعادها عنها. نظرت يمينها فوجدت كميردا دامعة وهي مازالت تنظر للشاشة فربتت عليها بنفاد صبر وهي تسألها عن سبب ذلك البكاء، فقالت بصوت خفيض: "لقد رأيت القذيفة الأولى وهي تفتت الحارس الذي كان على يميننا هو ودراجته لماذا يسكن كلّ هذا الشر في قلوب هؤلاء المخربين". ابتسمت هيرمين وهي تربّت على كتفها مواسية ومندهشة من أن تجمع امرأة بين ذلك القلب الطفولي الساذج مع العقل اللامع الذي يهتم بكلّ تفاصيل العمل.

يدهش هيرمين عدم قدرة كميردا على رؤية المساحات الرمادية الشاسعة بين الأبيض والأسود، ولا تستطيع فهم عقلية الأشخاص الذين يرون فقط

أن العالم خيّرون وأشرار؛ الخيرون هم مَن ننتمي إليهم، والأشرار هم من يكرهوننا. تراها دومًا تصنف كلّ شيء في حياتها على ذلك الأساس، ولن يخطر ببالها أبدًا أن أساليبَ الحلفاء والأعداء قد تكون واحدة ولا يفرق بينهما غير اختلاف الغاية.

لم يدمْ شعورُها بالارتياح طويلًا فقدْ فوجئت بستّ دراجات تظهر فجأة من العدم وتطلقُ قذائف معطّلة على مركبتها قبلَ أن يحرّك (لؤي) ساكنًا. هبطت المركبة على الأرض وحولَها الدراجات الستة، وترجّل أحد قائدي الدراجات ونزع خوذتَه فوجدتْه ماندريك بشحمِه ولحمِه.

كانت المركبة مدرّعةً بقوّة يستحيل فتحُها من الخارج، وبدَا لها أن الغرض من ذلك الهجوم كان اختطافَها وليس قتلها. أشارَ ماندريك لها لتفتح جزءًا من الزّجاج يسمح بنفاذِ صوته للداخل ثمّ بدأ بالحديث: "هيرمين.. أعرف أنّك بالداخل تَفَضّلي بالخروج، فنحن لا نريد قتلَ الموجودين معك خاصّة مساعدتك الحبلى.. كلّ ما نريدُه هو استضافتك معنا بضعةَ أيام معزّزة مُكرمة في مقرنا".

أدركتِ الفخّ الذي سارت إليه حين هربَ السائق بها، وبدَا جليًّا أن الهجوم الأوّل كان الغرضُ منه استدراجها إلى هذا المكان بعيدًا عن حراستها لاختطافها. كانت لا تخشى من الاختطاف على يده، فهي تعلم يقينًا أنّه سيحسن معاملتها لكن الموت أهونُ عليها من أن تُساق ذليلة بين رجاله، ويجري تصويرها على الشاشات ثمّ مبادلتها ببعض الأسرى، وبعد عودتها ستصير ورقةً محترقة، ويموت مستقبلها السياسي.

غالبًا لا يعرف ماندريك أنّ هناك دومًا خطة طارئة لمثل تلك المواقف، ويتخيّل أنّ القذائف المُعطلة قد أوقفت أيَّ اتصال للطوارئ، وعطلت أجهزة التتبع في المركبة. ضغطتْ على زرّ الطوارئ في جهاز معصمها ثمّ بدأت تحدثه لتسرق الوقت: "هل كنت تتخيّل في صغرنا أنْ تختطفني بهذه الطريقة يا ماندريك؟" ضحك بصوتٍ عال وهو يقول لها: "وهل كنت تتخيّلين أنْ تصيري بكلّ هذا الفساد والشرّ يا هيرمين؟! لا تحاولي أن تسرقي الوقتَ فنحن نشوّش على أجهزة معصمك ومعصم حارسك الوسيم الذي يصرُّ أصدقائي الأرضيّين هنا على تلقينه درسًا يجعله يندمُ على خيانته لبلده وخدمتِه للمحتلين". تمتمتْ كميردا بكلمات تستنكر حديثه عن الخيانة وهوَ يخون كوكبه ووطنَه وماجوها بأفعاله المُخزية تلك. رفضت هيرمين الانصياعَ لأمره وهي تقول: إنّه لن يقدر على اقتحام مركبتها مهْما فعل، فردّ عليها في تحدٍّ: "صدّقيني، قدراتنا في المقاومة أكثر ممّا تتخيلون".

لم يكدْ يُكمل جملته حتّى انهالتِ القذائف على موقعه من مركبتين ظهرتا فجأة، وترجّل منها عدّةُ رجال مدرّعين واشتبكوا مع المقاومين. اتّجه منهم اثنان نحو المركبة وأزالوا القذائف المعطّلة من سطحها فعادت للعمل وجاءهم من جهاز الاتصال صوتٌ مألوف يقول: "سيدة هيرمين، هل أنت بخير؟" ردّت كميردا وهي تكادُ تطير من الفرح والفخر: "نحن بخيرٍ يا عزيزَ القلب". كان المتحدث هو زوجها (باسل) والذي كان يتّجه بصحبة قائده نحو مجلس الحكم، ورأى حصار الدراجات لمركبةِ هيرمين المميّزة بشعار قسم العلاقات الخارجية؛ فقرّر التدخل.

"انطلقوا فِي طريقكم وسنلحقكم.. صحبتك السلامة يا عزيزة القلب". أنهى الاتصالَ وعاد لمساعدة زملائه في الاشتباك مع المقاومين. انطلقت المركبة بسرعة في طريقها، وكميردا تقول لهيرمين: "أرأيت يا سيدتي.. صلواتي لا تخيب أبدًا". أومأت إليها هيرمين برأسها والقلقُ يعصف بروحها وهي تتمنّى أن يستطيع ماندريك النجاةَ من هذا المأزق الذي وضعَ نفسه فيه بحمقه وإصراره على نطح الصّخر وهوَ يعلم أنْ لا جدوى من ذلك.

***

١٧

سكنتْ إليه وسكنَ بها، استظلّت في فيئه ونام في ظلها بعد عامين من القيظ والقفْر وعَطَش القلب. مضى ربعُ قرن منذ جمع بينهما القدرُ دون موعد في أرض غريبة، وتحتَ سماء يسكنها قمران، ومن يومها لم يفترقا مدّة كتلك. في كلّ علاقة حبّ هناك مُنحنيات صعود وهبوط، وكانا كذلك، لكنّ موجة الهبوط عندهما كانت أعلى من موجةِ الصّعود عند غيرهما من المحبين.

انغلقَ الباب عليهما واختفتِ الدّنيا بأسرها ولم يبقَ منها إلّا عاشقان يتبادلان كؤوس الحب، فترتوي أرواحٌ ظمأى. قالت: "افْتقدتك". فقال لها: "وأنا افتقدتني يا أنا". ضحك قلبُها فقبّلته، فتبسّمت شفتها، فأفسدت القبلة، فاستبدلتها بعناق لخّص ملايينَ الكلمات التي تجول في خاطريهما. لم يخطرْ ببال سجّاني (عمر) أنّ سجنه الحقيقي هو حبسُه عن زهرة، وأنّ حبسَه منفردًا أو في جماعة لم يكن ليختلف. كان يستعيدُ خيالها كلّ يوم ليهربَ به من قسوة سجنه ويحكي كلّ يوم فصلًا من قصة حبّهما للطائرة التي تراقبه.

بعدَ الغزو، وبعدَ أن اشتهر أمرُه، ورُحِّلَت هي وابنتهما خارج الأرض المُحتلة استقرّ بها المقامُ في مخيم للاجئين شرقي قرى الصف بالجيزة. كان أهل المخيّم يعيشون على المساعدات التي ترسلها الحكومة والمنظمات الإنسانية، وأهالي القرى القريبة الذين لم يمنعهم الفقرُ من مساعدة أهل بلدهم المنكوبين. تواصلت مع المنظّمات الإنسانية، وأنشأت مستشفى صغيرًا تخدمُ به أهلَ المخيم وتطوع للعمل معها أطباءٌ آخرون من الهاربين من الأرض المحتلة ومِن المتطوعين الآخرين.

كانا يكافحان في الوقتِ نفسه؛ هو يقاتل الغزاة وهي تحاول التقليل من أثر الغزْو على المساكين المهجّرين من أرضهم. كان يزورها مرة كلّ أسبوع على الأقل حتّى أُسرَ، وكانت (ميْساء) تكبرُ ويزداد جموحها ورفضها لطريقته وأفكاره، وعلى عَكس المُعتاد كان الأبُ الكهل ثوريًّا، والابنة الشابّة ترى الثورية عبثًا، والأم تحاول التوسّط بينهما بدون جدوى.

عاشتْ (زهرة) عامين في سجنٍ لا يقلّ صعوبة عن سجن عمر؛ سجن بُعْده عنها وبُعْد ابنتها، وانقطاع اتّصالات (سلمى) ربيبتها وابنة شقيقتها بعد أن استقرّ الحالُ بها في الخارج. حين ظهرت (ميْساء) على عتبة دارها وأخبرتها أنها استطاعتْ إخراج (عمر) من السجن كانت تتقافز فرحة كطفلة رغم تجاوزها الستين وأخذتْ تستعدّ للقائه كمراهقة خارجة للقاء فتى أحلامها.

سألها وهو يزيحُ خصلة شعْر رمادية نزلتْ على عينها: "ما أخبار ميساء؟" ردّت عليه بغيظ: "تريد الزواجَ من رجل متواضع التعليم، ومتزوج". ضحك (عمر) بصوتٍ عالٍ فرفعتْ حاجبيها بدهشة مَن أخبرَك عن زلزال فاستجبت بإنكار وجود الزلازل. استمرّ ضحكُه حين رأى تعبيرَ وجهها وهو يراها كأيّ أمّ عادية لا تفكر إلّا في زواج ابنتها من عريسٍ يناسب طموحها، وتنسى أنّ ابنتها تحمل السلاح كلّ يوم وتنخرطُ في معاركَ تهدّد حياتها كلها. ردّت عليه بارتباك: "عندك حقّ، ولكنها تحاربُ منذ سنين، لكنّها لم تخبرني عن عريسِ الغَبرة ذاك إلّا من أسبوعين فقط، ومن ساعتها وأنا لا يغمض لي جفنٌ من القهر".

في الوقت نفسه، كانت (ميْساء) جالسة مع (سمير) و(إياد) وآخرين يتحدثون وهي شاردةٌ تفكّر في ردّ فعل أبيها المُحتمل. قامت خارجةً من الغرفة بعد أن استأذنت، وتبعها (سمير). حاول أن يبدأ معها حوارًا ولكنّ توتره جعله يُخرِج كلامًا غيرَ مترابط. وقفتْ مُستندة على حاجز خشبي يطلّ على بهو المبنى فاستندَ عليه بدوْره واقفًا في مواجهتِها، وقال بارتباكٍ: "ميساء.. أريدُ أن أفاتح الأستاذ (عمر) في موضوعنا". حدّقت فيه بغضب وهي تراه يتجاهل خلافَهما الأخير الذي لم يُحل بعْد، وقالت وهي تضغط حروفها: "لقد جعلتني أشعرُ كأنّي لا أعرفك، وهذا يضايقني ويحيّرني". اعتذرَ لها وهو يمسك يدَها، ويقسم أغلظَ الأيمان أنه لم يعنِ ما قال، وأنّ الغيرة سبقته.

"أقسم أنّك حياتي، وأنّ غيابك منها معناه أنّي سأموت.. أنا بالفعل أموت حين تغيبينَ عنّي وحين تغضبين منّي". نظرت إليه وكأنها تريد أن تقرأ مسارَ كلماته في تلافيفِ مخّه، وترى هل صدرتْ من منطقة الصدق أم من منطقة الكذب. أكمل كلامَه وتحدث كثيرًا عن لواعج أشواقه، وعنِ استعداده أنْ يأتي إليها بنجوم السماء لو طلبتها. في النهاية استسلمت لطوفانِ مشاعره الجياشة واعتذاراته المتوسّلة ثمّ قالت: "دعنا نرى أبي أولًا، فأنا أخشى من ردّ فعله على طريقة تحريره".

تركتْه وتوجّهت إلى غرفة والديها، كان المبنى استراحة مُعدة لكبار الضباط وعائلاتهم، والذين يعملون بالقربِ من الحدود مع الأراضي المحتلة. طرقت الباب ووقفتْ بعيدًا مُنتظرة الاستجابة، فتح أبوها البابَ فقالت، وهي تأخذ نفسًا عميقًا: "لديْك اجتماع مهمّ بعد ربع ساعة مع شخصيات مهمّة". نظر أبوها بدهشة، وقال: "ادخلي يا (ميْساء) ألم تفتقدي أباك؟" ضمّها بين ذراعيه

بقوة ثمّ أدخلها وتبادل معها أطرافَ الحديث، ثمّ سألها عن كيفية إطلاق سراحه فردّت بارتباك: "غير مصرحٍ لي بالحديث عن تلك الأمور". ضحكَ وهو يقبّلها بين عينيها، ثمّ قال: "إذًا، أخبريني عنِ العريس، أم أنّه لم يصرح لك بالحديث أيضًا". نظرت لأمّها بعتاب فقد كانت تريدُ أن تخبره بنفسها.

قصّت عليه حكايتها مع (سمير)، وقبل أن يتكلم ويقول رأيَه تعالى صوت طرقاتٍ على الباب. كان شابٌ ثلاثيني يدعوه إلى القدوم إلى غرفة الاجتماعات.

في غرفة لم يدخلْ مثلها من قبل، كانت هناك طاولة اجتماعات، جلس إليها خمسةُ رجال وامرأة واحدة، اثنان يرتديان أزياء عسكرية مزدانة برتب كبرى. قدّموا إليه أنفسهم من الجيش والمخابرات ورئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية. بدأ رجلُ المخابرات بالحديث عن كيفية إطلاقِ سراحه وكيف أنّهم بادلوه بالشبان الذين قاموا بجريمة شنعاء منذ عدةِ سنوات.

علَا الغضبُ وجه (عمر) وتحدّث عن استنكاره لتلك الفعلة، وأنه كان يفضّل البقاءَ في السجن على تحريره بتلك الطريقة المُخزية. حاول الرجل التهدئة من غضبه، وأكّد له أنهم يستحقون العقوبة، وأن أيَّ قاضٍ مُنصف في مصر قد يحكم عليهم بالسجن المؤبّد أو حتّى بالإعدام. "لقد قلتَها أنت، "قاض مصري".. لا يعقل أن تقبضَ على مصريّين، ثمّ تسلّمهم للأعداء بحجة تحرير شخص أيًّا كان".

ردّ عليه مندوبُ رئاسة الجمهورية وهو كان قاضيًا فيما سبق: "سيد عمر، هؤلاء الشبان سيخضعونَ لمحاكمة عادلة يراقبها قاضٍ مصري لا غبارَ عليه،

ولن يسكتَ على أيّ ظلم لهم، وسيحضرها أيضًا مندوبٌ عن الأمم المتحدة". سكت (عمر) وهو يقلّب الأمرَ في رأسه فتكلّم رجلُ المخابرات بحزم: "كم شابًّا مات معك وأنتَ تقاتل الغزاة يا سيد عمر! دعني أجيبك فنحنُ لا ننسى أبناءنا.. ألف وثلاثمائة شابّ مصري طاهر يقاتل لتحرير بلدهِ ماتوا تحتَ قيادتك على مدى سبع سنواتٍ تقريبًا، فكّر معي لو قام شبابُ كتائب الحرية التابعين لك بمحاولة عنترية لتحريرك كم سيموت منهم؟" ردّ (عمر) وهو يفكر: "ليس أقلّ من عشرين، لكن ذلك لم يحدث فكيفَ تطلب منّي أن أضحي بأربعة!".

ردّت مندوبةُ الخارجية عليه بلغةٍ دبلوماسية، وأقنعته أنهم مجرمون، وسيحاكَمون بشكلٍ عادل، ولا داعيَ للقلق. فردّ (عمر) متحدّيًا: "وإن خالفوا ذلك الشرطَ وحكموا عليهم من أوّل يوم بالإعدام بإحدى الوسائل البشعة التي لديهم!؟". فردّ عليه مندوبُ المخابرات حاسمًا تلك النقطة: "ساعتها، سنساعدك في تحريرهم وسنمدّك بفريقٍ من أفرادنا لمساعدتك، وعلى رأسهم (ميْساء) ابنتك صاحبة الفضل الأوّلَ في القبض عليهم". عقد (عمر) حاجبيه غير مصدّق، وخالط قلبه شعور الغضبِ من ابنته لفعلها بشعور الفخر لأنّها صارت على هذا القدر من المهارة والخبرة رغم صغر سنّها.

قالتْ مندوبة وزارة الخارجية: "سيد عمر، دعْنا ننتقل للنقطة الأهمّ، فلم نرتّب لهذا الاجتماع ونتكفّل عناءَ تحريرك من أجل ذلك الجدل!". قال مندوب المخابرات: "نريدُ أن نوحّد جهودنا جميعًا في حرب شاملة واحدة لتحرير الأراضي المحتلة". ردّ عليه (عمر) بهدوء: "ما الذي سيجعلني أغيّر رأيي الآن، وحتى لو غيّرته أنا فسأفقدُ مصداقيتي بين رجالي".

فتحَ الرجلُ شاشة أمامه، وبدأ يعرض على (عمر) تفاصيل الوضع الحالي عنْ عدد الناس في الأراضي المحتلة، وعدد المستوطنين، وعدد الزيجات المختلطة، والأطفال الهجائن، وتقديرات لما سيحدث بعد ثلاثين عامًا سيصير فيها جيلًا كاملًا يتعدّى الملايين من أبناء الجنسين، وهم سيكونون الأغلبية في الأراضي المحتلة التي سيصيرُ كونها دولة واحدة أمرًا لا فرار منه، ولا عودة للخلف.

"أنا أعرف السببَ الرئيسي الذي يقلقك أنت وزملاؤك يا سيد عمر". قالت مندوبةُ الخارجية بعد أنِ انتهى العرض، فنظر لها (عمر) منتظرًا أن تكمل فقالت: "أنتَ تخشى أن تستغلّ الدولة النصرَ على الغزاة سياسيًّا ويكون ذلك حجة لزيادة قبضةِ الدولة وقمْع الحريات". ردّ عليها (عمر): "وهل هناك سبب يدعو للاطمئنان؟" ردّ مندوب الرئاسة بصوتٍ وقور: "سيد عمر، كوْن مصر دولة نظامها سلطويّ هو محلّ خلاف؛ نحن دولة مؤسّسات، دولة عميقة الجذور ذات نظام راسخ بغضّ النظر عن مَن يحكمها، إنْ كانت ظروفنا أحيانًا تحتّم أن يكون هناك بعض التّجاوز لكنْ مهما كان التجاوزُ فإنّه لا يوازي تفتيت مصر، إذا كان البديل حتّى لدولة قمعية".

لم تعجب (عمر) تلك الحجّة. فقالت مندوبة الخارجية: "الحرب هذه المرّة ستكون حربًا عالمية، نحن ستُّ دول محتلة كليًّا أو جزئيًّا، ومعنا خمس دول كبرى ستدخلُ معنا الحرب، حجّتهم الظاهرة أنهم يساعدوننا ويتخلصون من تهديد محتمل، ونحنُ نعلم أنّهم يطمعون في تقنيات الطاقة الجديدة". تناولت رشفةً من كوب ماء أمامَها، ثمّ فتحت شاشةَ عرضٍ وشرحت له

كلّ أركان التحالف المشاركة في الخطة القادمة، والتنازلات التي ستقدمها بعضُ جبهات المقاومة في دول أخرى، وضربت مثالًا بفلسطين؛ المقاومون الفلسطينيون واليهود سيقاتلون جنبًا إلى جنب بعد الاتفاق على حلّ الدولتين، وخاصّة أنّ المستوطنات في الضفة الغربية يسكنها النياندرتال الآنَ بعد أن أخلوا المستوطنينَ اليهود منها. ابتسم (عمر) وهو يقول: "أكان من الضّروري أن يحدث غزوٌ فضائي لكي تستقلّ فلسطين ويخرج المستوطنون منها؟" ابتسمتِ المرأة ثمّ قالت: "حتّى الأكراد حصلوا على وعدٍ من سوريا وتركيا بحكم ذاتيّ بمميزات أفضل، وذلك كلّه تحت ضغط من الدول الكبرى الصين وأمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا".

قال (عمر) وهو يخبط كفّيه: "ألا يمكن أن تضغط تلك الدول أيضًا على حكومةِ مصر لتحسين الوضع السياسي!" ردّ عليه ذو الرتبة العسكرية الأكبر: "مصرُ لا تحتاج إلى ضغطٍ لتفعل الصّالح يا سيد عمر، سوف يكون لك ولقادتك دورٌ كبير في المرحلة القادمة، ستتصدّرون المشهد في المقاومة، ولن نستثنيكم ببساطة من معادلة الحكم بعد التحرير".

انتهى الاجتماعُ بعد نقاشات مطوّلة شعرَ فيها (عمر) كمّ الأهمية التي صارت له ولرجاله ولحلفائهم من النياندرتال المقاومين. كانت خاتمة الاجتماع هي الاتفاق على أن يتشاور (عمر) مع رفاقه لاتّخاذ القرار المناسب على وعد باجتماع قريب يكونون فيه حاضرينَ للاتفاق على كلّ شيء، ولاختيار مندوب دائمٍ لهم لدى التّحالف الدولي لطرد النياندرتال.

***

١٨

خمسةُ أيام مرّت على (معاذ) كأنها خمسة قرون أو أكثر منذ تسليمه والمتّهمين الآخرين إلى النياندرتال. تركهم المقاومون مقيّدين في منزل في وسط القاهرة، ولم تمضِ ساعة حتّى حضرتِ الشرطة وألقت القبضَ عليهم وأخذتهم إلى مركزِ احتجاز لا يعرفون مكانه. خمسة أيام يُلقَّنُ الإجابات التي سيقولها في المحاكمة.

وضعَ المحقّق في اليوم الأول شريحةً صغيرة في مؤخّرة فخذه اليمنى وفتح شاشةً أمامه، وقال: "هذه الشريحةُ ستساعدك على حفظ إجابات الأسئلة التي سيسألها القاضي"، ثمّ فتح مربّعًا في الشاشة، فظهرت أسئلةٌ باللون الأحمر وأجوبةٌ باللون الأزرق. كان جرمُه واضحًا، وكان معترفًا به؛ لكنّ طريقة إجابة الأسئلة تظهر بشاعةً في تفكيره، واعتلالًا في نفسيته؛ إجابات مستفزّة تفقده تعاطفَ أيّ أحد، والأهمّ أنّها تنفي وجودَ أيّ شركاء غيرهم الأربعة.

تكلّم بتوسّلٍ يرجو أن يسمحَ له المحققُ بتغيير تلك الطريقة في الإجابة. مطّ المحقق شفتيه وهزّ كتفيْه كأنّه يقول إن ما سيحدث لاحقًا هو اختيارك. أحسّ فجأة بتيارٍ كهربائي حارقٍ يسْري في فخذِه اليمنى يمتدّ لأسفل حتّى قدمه، وللأعلى حتّى فقراتِ ظهره السفلى. صرخَ من الألم فقال المحقق: "سآتي لك في صباح الغد، وكلّ كلمة تخطئ بها ستجربُ جرعة كتلك تتزايد معَ تزايد أخطائك.. صدقني الجرعات الأعلى من ذلك الألم تجعل فكرة الموت أشبه بنزهة".

كان الألم مفزعًا، ولم يكنْ يريد أن يتخيّل شكلَ الجرعة الأكبر من هذا الألم، ولذلك بدأ بحفْظ الإجابات كما هي. لم تكنْ مهمة سهلة رغمَ قلّة عدد الكلمات فالخوفُ وإحساسه بدنوّ الأجل كانا يشتّتان تفكيره. على مدى الأيام الأربعة التالية حفظَ إجاباته عنْ ظهر قلب، وجرّبَ إحساس الألم مرّتين؛ منها واحدة بالجرعة الأعلى. كان الألمُ يجمعُ بين الإحساس بالتيار الحارق والإحساس بتقلّصات داخل أحشائه كأنّ مائة زائدةٍ دودية انفجرت في بطنِه في آن واحد.

قبلَ المحاكمة بعدّة ساعات أجلسهم كبيرُ المحقّقين وقال لهم: إنّ المحاكمة يجب أن تمرّ بدون مشاكل، وإنّ الخروج على النص لن يضرَّ غير صاحبه الذي سيُعاني من ألم رهيب فترةً طويلة سيتمنّى معها الموت ولن يجده إلّا وقت أن يقرّروا هُمْ. قام أحدُ الضباط بغرسِ شريحة دقيقة في رأس كلّ واحدٍ منهم بمسدس خاصّ مصمّمةٍ لتلامس قشرةَ المخ، وتتحكم في استجابات الشخص المَحْقون بها.

"الآن، سنُجري تجربة توضّح لكم ما سيحدث إنْ خرجتم عن النص". قال كبيرُ المحقّقين، وأشار إلى أحدِ رجاله، فجرَّ كرسيًّا واحدًا من المتهمين ليجلس قبالة زملائه، ثمّ ضغطَ على زرّ صغير في يده. نظرَ المتهمون إلى زميلهم كان ينقل عينيْه بينهم دونَ أن يحرّك ساكنًا، لكنّ نظرته كان تشي بمزيج من الألم والرجاء. ضغطَ المحقّق زرًّا آخر فانطلقتْ صرخة عالية من الرجلِ، وتقلّص وجهه وتلوّى جسدُه وهو يرْجو منهم التوقف.

”الشريحةُ في رؤوسكم تتحكّم في الاستجابة الجسدية للألم فتجعل الضحية تعاني من ألم متضاعف دونَ أن يظهر على وجهه أنه يتألم“. قال كبيرُ المحققين قبل أنْ يشيرَ إلى أحد الضباط ويقول: ”التالي“، وكان الدورُ على (معاذ) الذي أخذ يبكي متوسّلًا ويقول.. إنّه استوعبَ الدرس، وإنّه لن يغير أقواله، لكنّ توسلاته كانت بدون جدوى. جلسَ قبالة الجميع، وفجأة تصاعد عمودُ النار في فخذه، وامتدّ سريعًا إلى ظهره، ثمّ رأسه ثمّ بدأ ذلك الألم في فكّيْه كأنّ شخصًا كسر عظامَه، وأخذ يحكّ الأجزاءَ المكسورة ببعضها.

عدمُ قدرته على الصّراخ والتلوّي، أوْ لمس مكان الألم، كانت موجعة أكثر من الألم نفسه. أنفاسُه طبيعية وجسدُه ساكن، لكنّ روحه تتقلّب على جمر، نظراته تتجوّل بين عيون زملائه التي يملؤها الهلعُ وبينَ عيون المحقق الجامدة كعيون تمثال حجري. أخيرًا، وجدَ نفسه يصرخ بقوّة، ويتلوّى من الألم، وشعورٌ بالارتياح يخالط شعورَه بالألم بشكل عجيب.

في منتصف اليوم، كانوا جالسينَ في قاعة فسيحة على كَرَاسٍ جلدية مُتقاربين في مواجهة منصّة جلسَ عليها أربعة من النياندرتال يبدو لهم أنّهم قضاة تلك الجلسة. على يمينهم جلس رجلٌ مصري كبيرُ السّن، مرتديًا الروب المميز للقضاة، وأمامه أوراقٌ يدوّن فيها ملحوظاته وهو يتفحّصهم كأنه يستطلع إن كانوا تحتَ تأثير التعذيب أم لا.

ليس في قانون النياندرتال وجودٌ لوظيفة المحامي، بل يتولى المتّهم أو المُتقاضي الحديثَ عن نفسه، وفي الجرائم البشعة كتلك إذا كان المتّهم مُقرًّا

بذنبه يقوم المتهمُ بالحديث فقط عنْ شعوره بالذنب، وتوسّله لتخفيف العقاب، وبناء عليه قد يصدرُ القضاة حكمًا مخفّفًا بالسجن المؤبد أو بالإعدام السريع رميًا بمقذوف في القلب، أو لا يقتنعون بندمِ الجاني فيُصدرون حكمًا بالإعدام البطيء المؤلم.

سألهم كبيرُ القضاة عن إقرارهم بالذنب بعد أنْ قرأ عليهم الاتهام فأقرّوا، واحدًا تلوَ الآخر. سأل القاضي عن وجودِ شركاء لهم خارج قاعة المحكمة، فبدأ (معاذ) بالرّد قائلًا: "واحد فقط وهو هاربٌ خارج أديتيا، ولا أعرف عنه شيئًا". وردّ الباقون بالطريقة نفسها. صمتَ الجميع، فأشار القاضي المصري ليتحدّث، فأذن له كبيرُ القضاة فسألهم: "هل لدى أحدكم أيّ إضافة عن شخصٍ حرّضكم أو ساعدكم".

تبادلوا النظرات، ثمّ قال حبيب: "في الحقيقة..." صمتَ ولم يكملَ وتوقع (معاذ) أنّه يتعرّض الآن لألم مُبرح لا يقدر على التعبير عنه. التقطَ (حبيب) نفسًا عميقًا ثمّ قال: "هناكَ بعض الحـ..." أوقفَ كلامه ثانية ثمّ تدخل (معاذ) مشفقًا عليه وقال: "هو يريد أن يقول إنّ زميلنا الهارب هو مَن كان يدير العملية، وإن كان هناك دعمٌ من آخرين فهوَ الوحيد الذي يمكن أن يعرف، لكنّنا جميعًا كنا نتصرف من تلقاء أنفسنا، ولم يخطر ببالنا أنّ هناك غيرنا".

أمعنَ القاضي المصري النظرَ لوجه (حبيب) محاولًا أن يستشفّ شيئًا كان يودّ قولَه، أو تعبيرًا على وجهه يوحي بأنّه تحت الضغط؛ لكنه لم يستطع تحديد شيء. سألهم كبيرُ القضاة عن شعورهم بالندم والخزي جرّاء ما فعلوا،

فأجابوا إجاباتٍ مختلفة، كلّها تحمل الإصرارَ على الذنب وعدمَ الندم عليه، وقال أحدهم إنّه لو عادَ به الزمن سيكررها ثانية.

”حكمتْ عليكم عدالة أديتيا بالإعدام البطيء بالتعليق، وينفّذ الحكم عند شروق شمسِ الغد.. قضيَ الأمر“. ثمّ قام هو وزملاؤه وسطَ احتجاج من القاضي المصري الذي يرى لأوّل مرةٍ محاكمة ينفّذ حكمها بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة، ومن أوّل جلسة، ودون حقّ لاستئناف الحكم. ردّ عليه أحد القضاة قائلًا: ”نحن نحكم بقوانين أديتيا، وأنتَ هنا مراقبٌ فقط“. لم يردّ عليه، وانصرف غاضبًا وهو ينعي العدالة التي سحقتْ تحت الأقدام اليوم.

في الصباح التالي، أخذوا معاذ ومعه رفاقُه نحوَ مقرّ تنفيذ الحكم؛ وهو ميدان واسع يطلّ عليه سورُ القاهرة الفاطمية. كانت على أرض الميدان أربعة أعمدة تقف مُنتصبة يبلغ ارتفاعُ الواحد منها متريْن وأربع طاولات، وضعوه على واحدة منها . شعرَ بآلاتٍ حادّة تخترقه وتثبت جسده بالكامل في لوحٍ معدنيّ كبير عن طريق عشراتِ المسامير التي تصل عمقَ عظامه باللوحِ المعدني. كانت الدماءُ تسيلُ ببطء من فتحات المسامير كأنّها عرق، دعا الله بصوتٍ عال أنْ تتسارع تلك الدّماء، ويزداد نزيفُه حتّى يموت سريعًا.

شعرَ بأنّه في مشهدٍ من مشاهد تعذيب في القرون الوسطى لا ينقصه إلّا وقوفُ الغوغاء يهلّلون لعملية الإعدام، ويقذفون المتّهم بأشياء في أيديهم.

كان جسده مثبّتًا تمامًا ومفرودًا على اللّوح المعدني وسطَ صرخات وتوسلات منه ومِن زملائه الذين يتعرّضون للعملية ذاتها.

في النهاية، جاءت رافعةٌ كبيرة وثبّتت اللّوح المعدني بجسده الملتصق عليه إلى العمود، وبدأت مراسمُ موته البطيء بعد أن توقّف النزيف من كلّ النقاط التي دخلَ جسده فيها مسامير تثبيت. كان الألمُ ينبعث من كلّ نقطة منها، وزاد عليها ضوءُ الشّمس الحارق الذي يدخل عينيه، وهو يحاول تحريكَ رأسه بعيدًا لكن بدون جدوى.

***

١٩

جلسَ ماندريك وحيدًا في قاعةِ اجتماعات صغيرة يدخّن سيجارة وينفث دخانَها ببطء، ويتأمله وهو يتشتّت أمامه، ويفكر أنّ التبغَ هو الحسنة الوحيدة التي نالها من المجيء إلى كوكبِ الأرض، وأنه لوْلا الغزوُ لأمضى حياته دونَ أن يجرب هذا الإحساس. فردَ ذراعَه أمامه وهو يتحسّس مكان المقذوف الذي أصابه في أثناء محاولتِه الفاشلة لاختطاف هيرمين.

في اليوم السابق، كان لقاؤه الأوّل مع عمر بعدَ خروجه من السجن، جلسا معًا وتجاذبَا أطراف الحديث كأنْ لم يمرّ عامان منذ قُبض على الأخير. كان هو و(عمر) على مَدار سبع سنوات يديران عمليات المقاومة التي تجري في مصر، ولم يكن لديه أيّ غضاضة في أنْ ينسب الفضلُ لعُمر وحده مادام الغرض يتمّ؛ وهو جعل إقامة الأديتيين على الأرض غير مأمونة.

على أنّ سبع سنوات من العمل مع (عمر)، وسنتيْن من العمل بعده، ومئات العمليات؛ لم تفلح في إظهار أيّ تقدم، بل على العكس كان الاحتلالُ يثبت أقدامه يومًا بعد يوم، وكانت الطامة الكبرى حين اعترفتْ دولٌ كثيرة بدولة أديتيا، وصار الاستمرارُ في المقاومة بهذه الطريقة نوعًا من العبث، وبدأ هو وزملاؤه في التفكير في إستراتيجيات أخرى.

جاءهم الحلّ حين بدأ مندوبونَ عن الحكومات يتواصلون مع المقاومين الأديتيين في دولٍ مُختلفة، ويعرضون عليهم التعاونَ والانضمام لتحالف واحد،

ولكنّ المشكلة كانت تكمنُ في (عمر) وكثيرٍ من المؤمنين بفكرته في الثورة على الغزاة وعلى الحكومات في الوقت ذاته. ماندريك كان يهتمّ بالأساس بإنهاء الغزو والتوقفِ عن استنزاف شعبِه لصالح المتكسّبين من تلك المغامرة الذين تركوا الملايين في الكوكب الأمّ يعيشون تحت خطّ الفقر، وأداروا مواردَ ضخمة لاحتلال جزءٍ من الأرض غنيّ بمصدر طاقة يُدرّ الأرباح على طُغمةٍ منهم، ويعاونهم مجموعةٌ من المهاويس بمعتقدٍ غريب يحتّم العودةَ لكوكب الأرض.

حُرّرَ (عمر)، واجتمع به مندوبو حكومته، ولمسوا منه لينًا في موقفه، وجاء دورُ ماندريك لإقناعه هو الآخر. كان يشعرُ أحيانًا أنّ (عمر) سعيدٌ بدور المقاوم البطل الذي يتغنّى الناس بمآثره بغضّ النظر عن النتيجة النهائية. المثالية قد تصلح لبعضِ الوقت لكنّها لا تبني واقعًا حقيقيًّا، ولا بدّ لقليل من البراجماتية لضبط الصورة وتحقيق الهدف. وصلَ في النهاية لقناعةٍ أنّ المقاومة التي تضمّ أفرادًا بهذا الشكل تصلحُ كوسيلة ضغطٍ فقط، لكنّ الحكومات في النهاية هي مَن تقدر على المواجهة؛ فلا يفلّ الحديدَ إلا الحديدُ كما يقول الأرضيون.

جلسَ مع (عمر)، وأخبره أنّ الحكومة تواصلت معه ومع القادة الستة للمقاومة في مصر، وإنّهم يميلون إلى التعاون، لكنّهم مترددون ويحتاجون إلى (عمر) ليحسم معهم ذلك التردد.

"أعتقدُ أنّكم وافقتم بالفعل، لكنّكم محرَجون من إخباري بتلك الحقيقة". كان هذا ردَّ (عمر)، ولم ينفِ ماندريك ذلك، لكنّه أكد أنهم لم يعطوا ردًّا للحكومة المصرية، وأنّهم أجّلوا الاتفاق معهم حتّى إخراج (عمر) من سجنه.

”اسمعْ يا صديقي، لأوّل مرة منذ الغزو هناك خطّة واضحة لإنهاء الاحتلال وليس مجرّد محاولات لإزعاجهم حتّى يهربوا، خذِ القدر التي تقدرُ عليه من حقك، وصدّقني بعد التحرير سوف تتغيّر معادلة الحكم في بلدك، وستكون أنت والثوار رُكنًا مهمًّا فيها“.

صمتَ عُمر، قامَ من مقعده وتمشّى قليلًا وهو يسند ظهرَه، وقال بتوتّر، مازحًا: ”يبدو أنّ ألمَ الظهر سيجبرني على الموافقة“. ابتسم ماندريك لمزاحِه، لكنّه ظلّ ينظر مترقّبًا. ”أنت تعرف حماسَ الشباب يا ماندريك، أخشى حتّى لو وافقت مبدأك أنْ يعتبروا أننا نتنازل وينفضّوا من حولنا“. أجاب قائلًا: ”سوف تكون كلّ قواتِ المقاومة في الداخل تحتَ إمرتنا- على الأقلّ في الفترة التي تسبق الحرب الشاملة- ستكون اسمها المقاومة الهجينة“. كرّر (عمر) الكلمة ”المقاومة الهجينة“، فأكملَ ماندريك: ”نعم، سيعطي هذا انطباعًا لشبابنا أنّنا نتّحد مع حكومات الأرض اتّحادَ النّد مع النّدّ، وليس اتحادَ التابع مع القائد“

كان هذا آخرَ كلام له قبل أن يُبدي (عمر) اقتناعًا نهائيًّا بالفكرة، والتقط ماندريك ساعتَها نَفَسَه في ارتياح لأنّه لم يضطرّ للضغط عليه وإخباره أن كلّ المقاومين الأديتيين موافقونَ على الفكرة، وقد هدّد بعضهم بالتعاون مع الحكومات بغضّ النظر عن اشتراك المقاومين الأرضيين في الخطة من عدمه.

كان ينتظر لقاءه الثاني مع عمر الذي ظل مقيما في الحوامدية في المقر الحكومي الذي استقبلوه فيه بعد خروجه من السجن. أخذَ آخر نَفَس من سيجارته بعمق، وأتبعه بالرشفةِ الآخيرة من كوب القهوة الموضوع أمامَه قبل أن يسمع صوتَ عُمر يقول: ”ستقتلك هذه السجائرُ يومًا ما“. ردّ عليه بمرح: ”أجسادُنا أقوى كثيرًا منكم لا تؤثّر فيها تلك التفاهات“. جلس عُمر

وهوَ يمسك بيدِه كوبًا من الشاي، وقبل أن يرحّب به ماندريك قال له عُمر باسمًا: "حدّثني عن لقائك السريع بهيرمين.. هل كنتَ تريد خطفها للضغط عليهم حقًّا، أم لأنّك افتقدتها". أشارَ له ماندريك بأنْ يُخفض صوته وهو يقول.. إنّ حكايته القديمة معَ هيرمين لا يعرف بها أيّ شخص إلّا عمر، وإنّها قد تقلّل من مصداقيته أمام البعض.

غيّر عُمر صوتَه للهمس، وكرّر سؤاله ضاحكًا. فقال ماندريك: "أصدقك القول.. لا أعرفُ حقيقة شعوري، لكنّني كنت مغتمًّا جدًّا وأنا أعود إلى المقرّ دون أنْ أحضرها معي، ولم يكن مجرّدَ شعور تجاه فشل مهمّةٍ اعتيادية". كان لا يزال يذكرُ هجومه الشديد عليها في البرنامج التليفزيوني، وسعادته حين رأى ارتباكها واحمرارَ وجهها حين فوجئت به أمامَها، وردّ فعلها المبالَغ فيه، والذي أكّد له أنها لا تزالُ تحبّه كما كانت.

قطعَ حديثهما دخولُ (ميْساء) وهي دامعة العينين، سألها أبوها عن سبب دموعِها، ففتحت شاشةً أمامها تنقل المشهدَ الذي أبكاها. كانت الكاميرا تتجول بين الوجوه المعذّبة لأربعة شبّان تعرف منهم (معاذ) و(حبيب)، ثمّ تبتعد لتظهر الميدان الذي تنتصب فيه أربعة أعمدة معدنيّة يحمل كلّ واحد منها مسطّحًا معدنيًّا مصلوبًا عليه شابّ من الأربعة، ثمّ تقترب وتظهر طريقةَ الصلب البشعة بتثبيت الجسد على لوحٍ معدني بعشرات المسامير.

انتفضَ (عمر) في غضب وهو يقول لها بانفعال: "ولماذا تبكينَ! ألم تكوني أنتِ وزملاؤكِ مَن قام بالقبض عليهم! اذهبي الآن واستدعي أحدَ قادتك لنرتب معهم كيفَ ننقذ هؤلاء الشّبان المساكين". أنهى جُملته ثمّ استوقفها ثانية، وتأمّل المشهد فقد بدَا له وجهٌ مألوف، ثمّ تأمل أكثرَ

فوجد وجهًا آخر، فقال بدهشة: "هذا الفتى.. (معاذ) زميلُك أيامَ الدراسة، أليس كذلك؟ هانَ عليكِ تسليمه لتلك النهاية البشعة! وهذا الرجل إنّه أحدُ أشجع مَن قاتلوا معي، لا أذكر اسمَه الآن لكنّه مقاتل صُلب، وإنسان طيب، لا يستحقّ هذا، حتّى لو كان أخطأ في الماضي".

أغلقتِ الشاشة قبل أن يكمل، ثمّ انصرفت دونَ أن تتكلم، وهو لا يزال يضغَطُ أضراسَه بعنفٍ من الغيظ. حاولَ ماندريك تهدئته بالتأكيد على أنّ الإعدام بتلك الطريقة يأخذُ على الأقلّ ثلاثة أيام، وأنّ هناك مُتسعًا من الوقت لإنقاذهم، ثمّ ربّت على كتفه مُعاتبًا إيّاه على انفعاله الشديد على (ميْساء)، وأنّها كانت تؤدي عملَها، وتحاول تحريرَه في الوقت نفسه.

في دقائقَ معدودةٍ تمّ الاجتماع، وجلس (عمر) وماندريك مع ضابط كبير من المُخابرات، وإلى جواره (ميْساء) و(سمير). طلب عُمر منه أن يساعدوهم في تحريرِ هؤلاء الشبان فردَّ الرجل: "سيد (عمر)، أنتم إمكانيّاتكم وعدد رجالكمِ في الأرض المحتلة أكثرُ منّا.. دورنا في مساعدتك سيكون دعمًا فقط، لكنّني لن أخاطر بالرجال على الأرض".

قالت (ميْساء) للضابط بصوت مُتردد: "عذرًا سيدي، أعتقد أنّني وزملائي في المجموعة نشعر بالذّنب تجاهَ هؤلاء الشبان، ونأمل أن توافق على أنْ نشارك في تحريرهم". ردّ (عمر) عليها وهو يقول.. إنّه لا يريد منها الاشتراك، ولا يريد أفرادًا من كتائب النصر، وكلّ ما يريده دعمًا بتقنيات إضافية أو مركبات. نظرت (ميْساء) إليه بتحدٍّ وهي تقول: "عذرًا يا سيدي، أنا أتحدث مع القائد المسئول عني، وليس معك". أغضبتْ كلماتها (عمر)، وأصابته في كبريائه بعنفٍ وهو يفكر أنّه لم يتخيل يومًا أن ينجب بنتًا تناطحه هكذا!

حكّ الضابط الكبير ذقنَه وهو يفكر في قراره، ثمّ استأذن منهم للتشاور، وعاد بعدَ بضع دقائق. كان عُمر خلالها يتبادل النظراتِ الغاضبة مع ابنته. جلس الرجل وأخذَ نفسًا عميقًا ثمّ قال: "اسمع يا سيد عمر، لقد وافقتِ القيادة على الاشتراك معك في العملية، سوف يشترك المقدم (إياد) معكم في قيادتها، وسوف يشترك أربعة من أفرادنا في التنفيذ". ردّ عليه ماندريك بارتياح: "اتفقنا". فأضاف عمر: "لكن لا أريد أنْ تشترك (ميْساء) في التنفيذ".

حدّقت (ميْساء) فيه بمزيج من الدهشة والغضب، وهمّت بالرد عليه، لولا نظرةٌ محذّرة من قائدها الذّي قال: "سيد عمر، نحن لا نختار رجالك، وأنت كذلك لا سلطةَ لك على رجالنا.. سوف يشترك المقدم (إياد) معك في الخطة وتوزيع رجاله ورجالك، لكن أنا مَن يحدّد أسماء الأفراد المشتركين في العملية".

همّ عُمر بالردّ، لكن ماندريك استبقه ومدّ يدَه مصافحًا الرجل وشاكرًا إيّاه على التعاون. قامت (ميْساء) وسمير مع قائدهما، وتوجّه ثلاثتهم نحو مكتبه، جلس على أريكة صغيرة وأجلسهما أمامه على كرسيّين متقابلين وقال لهم: "أنتما و(ضياء) سوف تقومون بالاشتراك، وأريد منكم جميعًا توثيقًا لتلك العملية لأنّنا لا نريد أن نبْدو في صورة مَن سلّم هؤلاء الشبان للعدو، ثمّ تقاعس حين رأى معاملتهم بتلك البشاعة، ودون محاكمة عادلة. ستنصرفون الآن إلى مقرّكم في منشية ناصر وسيلحق بكم (إياد) الليلة". أشار لهما بالانصراف، فقاما ثمّ عاد (سمير) إليه يطلب منه الإذنَ أن يؤجّل سفره لآخر الليل، لكنّه لم يوافق.

جلسَ (سمير) في غرفته محبطًا، فقد وعدَ زوجتَه أن يزورها هي والفتيات ويبيتَ معهم الليلة، لكنّه الآن مُضطرّ للذهاب دون الوفاء بوعْده. فتح جهاز الاتصال ورأى زوجته تقفُ في المطبخ تجهّز الغداء لاستقباله. أخبرها أنه لن يأتي فردّت عليه بغضب، حاول أن يهدئها لكنّها ألقتِ الصحنَ الذي كانت تمسك به على الأرض دونَ إجابة، ناداها مرّةً تلو الأخرى حتّى ردّت عليه: "أنا تعبت من تلك الطريقة، ستقول لي عملية مهمّة كالعادة، وطبعًا سترافقك فيها (ميْساء) هانم".

حاولَ أن يبتسم وهو يقسم لها إنّ (ميْساء) مجرّد زميلة، وإنّ زوجات زملائه الآخرين لا يَغارون منها مثلما تفعل هي، ثمّ قال: "أقسم إنّك حياتي، وإنّ خصامك لي يعني أنّي سأموت.. أنا بالفعل أموتُ حين تغيبين عنّي، وحين تغضبين منّي"، ثمّ أتبعَ كلامه بالحديث عن أشواقه، وعن مقدار حبّه، ووعدها بأنّ كلّ شيء سيتحسن بعدَ عام على الأكثر. أغلق الاتصال، وفوجئ بميْساء تدخل عليه، وتنظر إليه بغضب قائلة: "اعتبرْ ما بيننا انتهى الآن.. زوجتُك أولى بك". ثمّ انصرفت دون أن تسمحَ له بالاعتراض.

جلستْ تبكي في حضن أمّها التي كانت تربّت على كتفيها وتواسيها وهي تكادُ تطير من الفرح أنْ خلّصها الله من هذا الرجل. "هل كنتِ تعتقدين أنه لا يقول لها كلامَ حبّ.. إنّها زوجته أمّ أولاده وهي أوْلى". ردّت عليها (ميْساء) بأنها تعرف أنّه يقول لها كلامًا حلوًا بالطبع، وأنّها سألته ذاتَ مرة؛ فقال إنّ الرجل يجب عليه أن يتغزّل في زوجته ويُشعرها بالحب حتّى لو كان كذبًا، وأنّ الكذب الوحيد المباح هو الكذب على الزوجة في تلك الأمور.

ما آلمها أكثر وكشفَها أمام نفسها؛ هو أنّه كان يقول لزوجته الجملة نفسها التي حاولَ أن يسترضيها بها بالأمس، الكلماتُ نفسها يردّدها باللهجة نفسها والحميمة نفسها، إلّا أنّها شعرت أنّ حميميّته وهو يخاطب زوجته كانت أصدق كثيرًا من حميميته معها.

***

٢٠

في شارع المعزّ لدين الله الفاطمي، وبعد أنْ أنهى المصلون، في جامع الأقمر، صلاةَ المغرب؛ خرجوا وبعضُهم يتهامس عن تلك الفعلة الشنيعة التي تحدث على مسافةٍ قصيرة منهم. وقف رجلٌ خمسينيّ وسطهم، كان يدرس التاريخ في الجامعة قبل أن يقلّص الغزو عددَ الجامعات ويضطرّ للعمل ملاحظًا في القطار الهوائي الجديد. تحدّث الرجلُ عن الرمزية التي قصدها هؤلاء الغزاة الملاعين حين قرّروا أن يصلبوا أربعة شبّان مصريين أمام باب من أبواب القاهرة القديمة.

ردّ عليه شابّ متسائلًا: "ولماذا صلبوهم عندَ باب الفتوح بدلًا من باب زويلة؟". ردّ الرجل بصوت العارفِ ببواطن الأمور مؤكدًا أنّ هذا إمعان في الرّمزية حين يجعلون بابًا كان يرمزُ لنصر جيوش مصر يصبح رمزًا لذلّ أبنائها، وإنّ هذه سياسة جديدة بدأوا في تطبيقها في كلّ الأراضي المحتلة، فقد فعلوا الشيء نفسَه في تركيا الشهرَ الماضي حين صلبوا مجموعة من المقاومين على أسوار قلعة قديمة، وتركوا جثثهم تتعفّن في الهواء.

قال الشابّ بلهجة مَن يرى مُحدّثه جاهلًا يتظاهر بالفهم: "ليست هناك رمزية ولا يحزنون، إنّهم يخشونَ من باب زويلة لأنّ المنطقة أمامه يصعب حراستها، بعكس بابِ الفتوح الذي صارَ يطلّ على أرض واسعة بعد أن أزالوا المنطقة المواجهة له". رفع الرجل يديْه ناهرًا للشابّ، مؤكدًا أنه لا يفهم شيئًا، ومتسائلًا عن جدْوى النقاش معَ شابّ يخطط للزواج من إحدى النياندرتال.

تساءل إن كانت تصحّ صلاةُ شابّ ينوي أن يُقدم على فعلةٍ كتلك، فقال الشابّ وابتسامة ساخرة تعلو وجهه: "اسأل ابنَك يا عمّي إيهاب، فهو قد قابل عروسًا منهنّ بالفعل، وحاز على موافقتها".

رفعَ الرجل صوتَه بالسّباب، وتدخّل أناس بينهما، لكنّ الجميع صمتوا حين رأوا مركبة تطيرُ ببطء يتبعها مجموعة من الملثّمين المسلحين لا يقل عددهم عن العشرين. كانت عملية تحرير الشّبان المصلوبين قد بدأت مع اختفاء ضوء الشمس. كانت الخطة تقتضي الهجومَ على الحراس من عدّة شوارع والاشتباك معهم وإعطاء الفرصة لمجموعاتٍ صغيرة تقوم بقطع الأعمدة المصلوب عليها هؤلاء الشبان والدّخول بهم إلى الشوارع الخلفية، وفيها تُحَرَّر أجسادهم جزئيًّا من تلك الأعمدة ثمّ نقلهم بمركبةٍ أخرى إلى المقرّ المُجهّز بآلات طبية.

قفزَ الشابّ بحماس اتّجاه المجموعة وهو يقول: "هل أنتم مُتجهون لتحرير هؤلاء الرجال؟". لم يردّ أحدٌ عليه، كانوا يمشون بخطوات ثابتة اتجاه نقطة انتقاهم وقد تولّى مَن في المركبة عملية التشويش على الطائرات الدقيقة. أعاد الشاب كلامه بتوسّل راجيًا أن يأخذوه معهم "أنا أستطيعُ المساعدة في تخليصهم؛ لن أشترك في القتال، دعوني مثلًا أساعدُ في قطع الأعمدة، أو حملهم معكم إن شئتم".

لم يردّ عليه أحد، فمشى إلى جوارهم مؤكّدًا أنّه سيتبعهم مهما كلف الأمر. التفتَ أحدُ الملثّمين اتجاهه رافعًا سلاحَه، وأمره بالتوقف عن تلك الألاعيب الصّبيانية، وإذا كان يودُّ الانضمام للمقاومة فهناك طرقٌ أخرى.

قبل أن يكمل الشاب جدالَه وجدَ عمّه إيهاب واقفًا خلفه وقد تبعَه مهرولًا، وضع يدَه على كتفه وهو يحاول أنْ يقنعه بالعودة: "اهدأ يا ولدي، نحن ناسٌ في حالنا لا قبَلَ لنا بالمقاومة أو السلاح، لن يتحمّل والدك أن يراك مصلوبًا هكذا".

في المركبة، كان يجلس ماندريك وميْساء، ورجلٌ يتبعه، وكان (ضياء) مع الملثّمين المترجّلين. (سمير) كان في مجموعة أخرى مع عُمر وإياد الذي أصرّ على المُشاركة بنفسه. حين كانوا يتجهّزون لبدء العملية انتهزَ ماندريك الفرصة وحاول الحديثَ مع (ميْساء) عن علاقتها بأبيها ليقلّل من التوتر البادي عليها. بدأ حديثه عن نفسِه قائلًا: "كانت علاقتي بأبي أكثرَ توترًا" دهشت (ميْساء) فهي لم تكن تعلم أن النياندرتال لديهم ذلك التعقيد في علاقاتهم الاجتماعية. كان ماندريك طالبًا متفوقًا أصرّ على أن يدرس في معهدِ التاريخ، وأنظمة الحكم على خلاف رغبة أبيه الذي كان قاضيًا وكان يريدُه أن يدرس القانون.

كان ذلك سببَ توتّر بينهما، لكنّه لم يكن كالخصومة التي حدثت بعد أن هجر ماندريك كلّ شيء، وانبرى يهاجم الدولة ونظامَها الحاكم وخططَها للعودة إلى كوكبِ الأرض. تحوّله كان صدمةً للجميع، فقد كان متحمّسًا ويطمح في الصعود السّياسي السريع. بدأ تحوّله حين تعرّف على مجموعة من الشبان المتحمسين الذين أقنعوه أنّ التغييرَ لن يحدث إلّا إذا تغيرت الطبقةُ الحاكمة بالكامل، وأنّ ازدواجية الحُكم بين المتدينين المتعصبين ورجال الأعمال لا بدّ أن تنتهي. كان أفكاره تتردد بينَ الثورية الخالصة وبينَ النفعية

الطبقية التي تدين بها عائلته، وظلّ هكذا فترة من الزّمن حتّى أبصرَ بعينيه كيف يعيش الملايين من الفقراء في كوكبه، والذين يدفعون فاتورة التكاليف الباهظة لذلك الغزو.

التقديراتُ باحتمال حدوثِ كارثة طبيعية كانت تزداد، وبدلًا من التفكير في حلولٍ عملية قرّر الحكام توجيهَ كلّ الموارد نحو الغزو فيهاجر للأرض أغلب الأغنياء والطبقة المتوسطة وبعض الفقراء الذين يقومون بالأعمال المتدنية والذين يُتركون للحياة في مناطقَ تجعلهم مهدّدين من الأرضين. بعض الأغنياء وتابعيهم خططّوا للبقاء في كوكب أديتيا، والعيش في مناطق لن تطالها الكارثة، وترك الفقراء لمواجهة مصيرهم. قادَ الكثير من المناظرات الإعلامية الناجحة ضدّ الحكام. واحدة منها كانت ضدّ أبيه.. مناظرة قانونية استطاع أبوه بالطبع التغلبَ عليه بمعرفته القانونية الكبيرة، لم يضايقه ذلك قدرَ ما ضايقه الأسلوبُ المزدري الذي كان يسلكه أبوه في المناظرة.

"أبي حكمَ عليَّ أنا ورفاقي بالسجن في جزيرة معزولة.. أصر أن يحكم عليَّ بنفسه، ولكنّي استطعت الهربَ، وأرسلت من مخبئي فيديو أقول له إنّني أقوى منه ومِن قمعه". قال وهو يضمّ قبضته أمامها مدلّلًا على قدْر التحدي الذي كان يملؤه. بعدَ حدوث الغزو، هربَ إلى الأرض وقاد عمليات المقاومة في القطاع الجنوبي الذي يشمل الأراضي المحتلة في مصر. كانت لذةُ الانتصار في كلّ عملية يخوضها لذةَ انتصار على ازدراء أبيه له، لا على أعدائه.

لم يخبرْ (ميْساء) بالطبع، أنّه وقادة المقاومة من النياندرتال يريدون أن يسيطروا في النهاية على الحكم مُستغلّين الفوضى التي ستحدث بعد انتصار

الأرضيين بمعاونتهم وحدوث الهجرة العكسية إلى كوكبهم الأم. ستكون قدرتهم قد وصلتْ للذروة، والملايين الذين يسكنون المناطق المقفرة سيكونون هُم جيشَ دولتهم القادمة، مقابل نظام حُكمٍ مُتهالك يعاني من خسائر فادحة في كلّ شيء.

"أنا وأبي كنّا على النقيض في الغايات والسبل، أمّا أنت وأبوك فلكما الغاية نفسها، والوسائل متشابهة، لكنّ زاوية الرؤية مختلفة قليلًا.. صدقيني أنت محظوظة بأبيك يا ميساء". انشرحت أساريرها بعدَ كلامه واستقلّت معه المركبة وصدرُها يملؤه الارتياح والصفاء.

حينَ وصلت المركبة لهدفها، نزل ماندريك وميساء من المركبة بدراجاتهم الطّائرة، وهاجمَا نقطة الحراسة الموجودة على يمين باب الفتوح في الوقت نفسه الذي بدأت فيه دراجاتٌ أخرى في إطلاق قذائفها الفردية على الحراس في النقطة المقابلة. بعدها مباشرة، انطلقت مركبتان؛ واحدة تجاه مدخل الميدان من ناحية الدرّاسة مطلقة عدة قذائف متفجرة نحو مجموعة الجنود المتمركزين هناك، والأخرى اتجهت نحو باب الفتوح نفسه مطلقة قذائفها لتدمر مركبات الحراسة المُتمركزة أسفله.

في الدقائق التالية، كانت هناك أربعُ مجموعات تتكون الواحدة من ثمانية أفراد، تقوم بقطع الأعمدةِ المرفوع عليها الشبانُ المصلوبون. كانت الجلبة التي أحدثَها الهجوم قد شغلتْ مجموعات الحراس الموجودة؛ ألهتهم القذائف المتتالية وذلك الهجوم الكاسح عن مهمّتهم الأصلية في حراسة المحكوم عليهم، ولم يكن ببال أغلبهم أنْ يحاول أحدٌ تهريبهم، فتحريك تلك الأعمدة بعنفٍ أو إسقاط أحدها كان على الأرجح قادرًا على قتل الضحية.

انتبه الجنودُ حين أطلق أحدُهم شعلة تحذيريةً عندما رأى أحدَ الأعمدة يميل ببطء ويتلقّاه الرجال على الأرض، ويبدؤون بحملِه، والتحرّك عابرين باب الفتوح ومُتّجهين لشارع المعز. أطلقَ أحدُهم قذيفة ذكيّة اتجاه واحدٍ ممّن يحملون (معاذ) فأصابتْ خاصرته وسقطَ على الأرض. مال اللوحُ المعدني اتجاه الرجل الساقط مُشعلًا نوبةً من الألم جعلتْ (معاذ) يستفيق ويتأكّد من أنّ هناك من يحاول إنقاذه بالفعل، وأنّه لا يهذي بسبب الجفاف الذي حلّ به.

أخذَ رجلٌ آخر مكانَ زميله وعاونه ثالثٌ على القيام، وعادوا مسرعين إلى وجْهتهم، وزملاء لهم يطلقون قذائفهم على الجنود الذين استهدفوهم. مع خروج آخر مجموعةٍ تحمل آخرَ ضحية، وبعد إعطائهم إشارة أنّهم قد دخلوا في شارع جانبي صغيرٍ في اتّجاه نقطة التجمع بدأ المقاومون بالانسحاب المنسّق وهُم يهللون لذلك النّجاح الفائق للعملية.

اتّجهت (سلمى) بدرّاجتها نحو المركبة التي ستقلّها، وفي الوقت نفسه كان ماندريك على وشكِ الوصول إليها. فجأة عبرتْ من أمامها عدّة قذائف استقرت جميعُها في المركبة وعطّلتها فسقطتْ على الأرض بدون حراك. نظرت حولها فرأتْ مركبات كثيرة تدخلُ الميدان من شرقه وغربِه، ثمّ في اللحظة التالية أطلقت إحداها قذيفة مُتفجّرة فأسقطت مجموعة من الثوار. صرخ ماندريك بصوت عال: "الخطة البديلة"، وردّد آخرون خلفة الجملة كأنهم صدى في أحد الجبال العالية. أخرجَ قنبلة موجيّة من حزامِه، ثمّ فجّرها فانطفأت الأنوار وسقطت المركبات والدراجات بما فيها دراجة (ميْساء) التي سقطت من ارتفاع متريْن، والدراجة فوقها.

***

٢١

وضعَ (باسل) في فمِه قطعة كبيرة من اللحم المشوي وهو يجلس على الطّاولة التي يحجزها صاحبُ المطعم له ولزوجته كلّ أسبوع في الموعد نفسه. مضغَها بصعوبة ثمّ أشارَ في غضب للنادل الأديتي، وقال وهو يخبط على طبقه بالشّوكة في حنق: "ما هذا.. لَقد طلبتُ لحماً ناضجًا تمامًا، هذا اللحم نصفُ الناضج سيّئ الطعم، وتعلق أليافه بين أسناني".

ربّتت كميردا بيدِها على قبضته المضْمومة تحاول تهدئته، وتقول إن الأمر لا يستدعي. حاول النادلُ أن يجادله لكنْ أوقفه مديرُ المطعم البدين الذي يتواجد طيلة اليوم بينَ زبائنه وصرفَه من أمام (باسل)، وقال بتأدّب: "العزيز (باسل)، بطلنا الهمام، أعتذرُ لك شخصيًّا عن هذا الخطأ". هزّ (باسل) رأسه متفهماً فأكمل الرجل: "لكنْ اعذرني.. إذا كان لديك شكوى من أيّ شيء أرسِل في طلبي ولا داعي لتعنيف أحدٍ من موظفيّ"، ثمّ رفع يديْه أمام صدره كنايةً عن الاحترام قبل أن ينصرف.

"سوف نغيّر هذا المطعم الأسبوع القادم". قال بغيظ لكميردا التي ضحكت وهي تؤكّد ثانية على أن سبب توتّره هو انتظارُه لقرار اللجنة المخولة باختيار قائد جديدٍ لشرطة القطاع الجنوبي، وهو أحدُ المرشّحين، ثمّ قالت وهي تمدّ شوكة بها قطعةٌ من البطاطس المطهوّة لتضعها في فمه: "هذه أمسيتي الأسبوعية، ونحن متّفقون على أنني مَن يختار مكانها".

بعدَ دقائق وضع النادلُ نفسه طبقًا جديدًا من اللحم، ووقف جواره حتّى تأكد من رضا (باسل) عن الطعم قبلَ أن ينصرف من أمامه وهو يسبُّ في سرّه ذلك الأرضيّ الحقير والدولة "التي جعلت من أمثاله أشخاصًا ذوي شأن وهو كلّ مؤهّلاته أنه نجحَ في تلقيح امرأة غبيّة". رنّ جهاز الاتصال في معصم (باسل) وكان زميلُه يخبره بحدوث هجوم كبير على مكان تنفيذِ حكم الإعدام البطيء، وأن على (باسل) التوجّهُ إلى هناكَ الآن.

تنهّدت كميردا في ضيق، لكنّها لم تفتح فمَها بكلمة اعتراض؛ فعملُ (باسل) بالنّسبة لها واجبٌ مقدّس، ودعمها له جزءٌ لا يتجزأ منه. ترك (باسل) بقية طبقه وهو يعتذرُ لها عن قطع أمسيتها الأسبوعية، فقالت: "لا تعتذر يا عزيز القلب، فعملك هو ما يجعلني فخورة، لكنْ أنْهِ طعامَك أو على الأقلّ خذه معك". ضحك وهو يقول لها إنّها تتصرف كزوجةٍ مصرية وليست كامرأة من كوكب آخر حرفيًا. "أنا أديتية تنتمي للإقليم المصري في أديتيا، فيمكنك أن تقول مصرية". أمسك كفّها وطبعَ قبلةً على باطنه، فقالت، وهي تملّس بيدها على شعره المُجعّد: "فليعدك ماجوها سالمًا إلى حضني". نظرَ إليها وهو يلوي شفتَه في تبرّم. فقالت: "آسفة، فليحفظك مَن يقدر على حفظك أيًّا كان اسمه". ابتسم في حبور، وطبع قبلةً ثانية على خدّها، وطلب منها أن تأخذَ بقيّة عشائه للمنزل معَ وعد أن يتناوله معها، ثمّ انصرف مسرعًا.

تتبّعته بنظرها حتّى خرجَ من الباب وهي تدعو له في سرّها ثانية بصوت خفيض. تدعو وهي تقول لنفسها رغمَ إيمانها الشديد بدينها: "مَن يدري.. يمكن أن نكونَ في الحقيقة نعبد الإله نفسَه دون أن ندري، فقط ندعوه بأسماء مختلفة،

ونصلي له بطرق شتى". أشارتْ للنادل الأديتي فجاء إليها مسرعًا بزيّه الجلدي الأسود المزيّن بعلامة طائرٍ أسطوري تملأ صدر قميصه.

سألته إن كان يعرف لماذا تصرّ أنْ تتناول العشاء مع زوجها في هذا المطعم أسبوعيًّا، فهزّ رأسه نافيًا بتأدّب، ثمّ قال: "أيمكن أن يكون السببُ لأنّ البيت قريب من هنا يا سيدتي". فقالت نافية وعلى وجهِها صرامة لا تناسبها: "كلّا، رغم أني أسكنُ في الشارع نفسه الذي اقترحت رئيستي المباشرة اسمه، كان يسميه المصريون شارع (جامعة الدول العربية)، وأطلقوا عليه بعدَ الغزو رقمًا، لكن سيدة هيرمين أسمته "وحدة أديتيا" نكايةً فيهم، وكذلك فعلت في شوارع كثيرة".

اصطنعَ النادل ابتسامة، وقد بدأ يشعر بالملل من استطرادها في موضوع لا فائدةَ منه. فقالت مُجيبة سؤالها: إنّ هذا المطعم أنشأه كاهنٌ صديق لأبيها بعد أن هدم أكثرَ من عشرةِ محالّ تجارية كانت تحتلّ سورَ نادٍ قديم، وأنشأه على طراز ديني، وجعلَ شعار رسول ماجوها الطائر علامةً له، وأنها لم تتوقّع أن يعمل في هذا المطعم شخصٌ بذلك الجحود والقدرة على الكراهية.

حدّق الشابّ مدهوشًا، وقال بارتباك: "أنا يا سيدتي!". رفعت صوتها وهي تقول: "سيدتك أم مجرّد امرأة غبيّة قام أرضيّ تافهٌ بتلقيحها، وصار ذا شأن نتيجة لذلك!". حاول النادل أن يقسمَ أنّه لم يقلْ هكذا فأخرسته بخبطة على طاولتها أصدرتْ صوتًا عاليًا جذبَ انتباهَ صاحب المطعم: "لا تكذب أنا أعرف لغة أهل الأحراش الغربية.. درستُها في مرحلةٍ مِن تعليمي، وفهمت كلّ كلمة تمتمت بها".

وقفَ أمامها مديرُ المطعم وأخذ يعتذر لها، لكنّها تجاهلت اعتذاراته، وأكملت قائلة بذاتِ النبرةِ المُحتدّة: "هذا الأرضي لم ينجح في تلقيحي وحسب، وإنما يحميك كلّ ليلة أنتَ وغيرك من الكارهين الجاحدين، لقد ذهبَ الآن لقتال المخربين دون أن يكملَ عشاءه حتّى، ولا أدري إن كان سيعود ليكمله أم لا".

في ذلك الوقت كان (باسل) منطلقًا بأقصى سرعة بمركبته حتّى قابل آخرين على دراجاتهم فرافقهم حتّى دخلوا الميدان معًا. راعتْه الفوضى الشديدة وجنود الشرطة الأديتية الذين يتحركون على غير هدى، أو يختبئون محاولين إطلاق قذائف من خلفِ بعض الحواجز، والمهاجمون ينتشرون هنا وهناك، ومجموعة منهم تغادر الميدان وهي تحملُ آخرَ نصبٍ كان مصلوبًا عليه أحد المحكوم عليهم.

أطلقَ قذيفة ذكية في اتجاه المجموعة لكنّها أخطأتهم فأطلق سبابًا عاليًا وهو يلعنُ الخونة من الأديتيين الذين يبيعونَ تقنياتهم للمخربين. التفت إلى يمينه فرأى مركبةً كبيرة يتجه إليها اثنان فوقَ دراجتيْهما في خطوة بدت له انسحابًا منهم بعد إتمام المهمّة. أقسم في سرّه ألّا يتركهما، ووضع يدَه على زرّ القذائف المتفجرة مُنتظرًا أن يدخل الدراجان للمركبة فيفجر ركابها جميعًا. فوجئ بقذائف معطلة أطلقها أحدُ زملائه على المركبة فسقطت قبلَ أن يصلها الدراجان ففتح جهاز اتصاله وقال: "اقتلوهم أيّها الأغبياء؛ لا أريد أسرى"، ثمّ أطلق قذائفَه المتفجرة اتجاه مجموعة راجلة منهم.

قبلَ أن يقوم بحركةٍ أخرى سمع أصواتًا تكرّر كلمة "الخطة البديلة"، ثمّ شعر بدفقةٍ من تيار كهرباء إستاتيكية تلاها توقفُ مركبته وسقوطها على الأرض من ارتفاع مترٍ واحد. لم يثنِ ذلك من عزمه، وإنّما خرج من مركبته وهو يقسم في غيظ أنْ يقتل مَن يجده بيديه العاريتين.

أوّلُ ما لفت انتباهه كانت دراجة ساقطة على راكبها وهو يجاهد لرفعها من فوقه، فركضَ نحوه وهو شاهرٌ في يده قطعةً معدنية أخذها من المركبة. عندما وصلَ إلى الدراجة وجد رجلًا أديتيًّا يعترض طريقه وفي يدِه سكين وقد خلع خوذته وظهرتْ ملامحه المألوفة التي لا يذكر أينَ رآها. انحنى متفاديًا سكين الرجل ثمّ ضربَه بقطعة المعدن في صدغه فأوقعه أرضًا والدمُ ينزّ من فروة رأسه.

هجمَ على الدّراج الملقى على الأرض، ونزع خوذته وهو يكافح لتفادي لكماته. بهتَ حين رأى وجهَ غريمه؛ كانت فتاة أرضية وهي الأولى التي يراها ضمنَ قوّة هجومية لأعدائه. كان وجهُها دقيقَ الملامح يشبه وجهَ طفلة من اللواتي كنّ يظهرن في أحدِ الإعلانات التي كان يحبّها وهو صغير. نظر إلى عينيها العسليّتين المتحديتين اللتين تمتلئان بغضبٍ وجموح لم يرَه على أنثى من قبل. كبل حركتَها بجسده وهو لا يرفع عينيه من على عينيها، ثمّ كالمبرمج آليًّا رفع يده بالقطعة المعدنية ليهوي بها على رأسها، لكنّ ذراعه توقفت فجأة حين أغلقت الفتاة عينيْها في فزع. تعطّلت ذراعه كأن البرنامج الآلي في رأسه أصابه خطأ بالبرمجة.

"هيّا أتمم مهمّتك أيها الخائن الحقير، لماذا توقفت". قالتها (ميْساء) بتحدٍّ بعد أن مرّت بلحظة من الفزع الوقتي تلاشت حينَ توقفت ذراعه وحلّ محلّها تحدٍّ مجنون. نظرت إلى الاسم المطبوع بالأديتية على ذراع سترته ثمّ قالت: "واسمك (باسل)!.. يا لحُمْق أهلك". نظرَ إليها في غضب رمى القطعة المعدنية من يده ووقفَ وهو يجذبها بعنف ليأخذها أسيرة.

حاولتِ التملّص منه فضربها بقدمِه على ساقها المصابة فصرختْ في ألم وهي تسبّه. في اللحظة التالية شعر بألم في رأسه إثرَ ضربة قوية من آلة معدنية وصوت رجل مألوف جدًّا يقول: "دعِ ابنتي أيها اللعين" استدارَ ورأى الرجل وتعرّف عليه؛ كان (عمر). لملم نفَسَه بسرعة وهجم على (عمر) وقد وجد صيدًا ثمينًا آخرَ يضمن له الترقية التي يصبو لها.

قبلَ أن يستطيع السيطرة على (عمر) شعر بسكين يخترق ظهره، لكنه لم يستسلمْ واستدار اتّجاه مهاجمه وقبل أن يفعل شيئًا هوى أحدُهم على رأسه بضربة ثقيلةٍ أدارت الدنيا من حوله، وجعلتِ الدم ينزف بغزارة من رأسه. حاول أن يفتح عينيه ويقاوم الإغماءة لكنّه وجد (ميْساء) فوقه تنظرُ له بغضب بعينيها العسليتين، ثمّ تكوّر قبضتها وتُعطيه لكمة أكملتِ المهمّة، وأفقدته الوعي تمامًا.

***

القسمُ الثّالث

منشيةُ ناصر

"لا يحتاج الناسُ شياطينًا لإفسادهم؛ فكلّ شرٍّ في هذا العالم هو إنتاجٌ إنساني خالص"

كميردا نقلًا عن أبيها.

٢٢

زفرتْ (هيرمين) في ضيق وهي تنظرُ في الشاشة الفراغية المنصوبة أمامَها، وتشاهد التقريرَ الذي أعدّته مساعدتُها الثانية التي أخذت مهامّ كميردا مؤقتًا حتّى تعود من إجازتِها القصيرة. قبلَ إجازتها، أعدت كميردا أغلبَ التقرير الذي يتحدّث عن خطر المناطق العشوائية في القاهرة، وعن عددِ العمليات التخريبية التي تحدُث انطلاقًا من هناك، وعنْ كيفية استغلال ذلك للتسويق دوليًّا لخطة ستهدم كلّ تلكَ المناطق وتهجّر سكانها إلى خارج أديتيا. أعدت المساعدة الثانية النسخة النهائية من التقرير، والتي جاءت مختلّةَ السّياق إلى حدٍّ كبير وهو ما أثارَ حفيظة هيرمين.

أخذت تغيّر في ترتيب التقرير وهي تعطي المساعدةَ وصلة من التقريع، وهدّدتها بالعقاب إذا سبّب ذلك التقرير إحراجًا لها في الاجتماع المصغر الذي يجمعُها مع حاكم أديتيا الأرض، ورئيس قسم الأمن، وحاكم القطاع الجنوبي (الذي يضمّ الأراضي المصرية في أديتيا). قالت لها في غيظ بعد أن أنقذت ما يمكن إنقاذه: "أنتِ تعملين معي فقط لأنّ والدك كان خادمًا مخلصًا لأبي، لكنّني لن أتورّع عن إعادتك إلى كوخ عائلتك في الأحراش الجنوبية إذا لزمَ الأمر". أخذت المساعدة تتوسّل إليها ألّا تفعل، وتقسم أنّها لن تخذلها مرّة أخرى، وانحنت تقبّل ركبتها لكنّها دفعتْها وهي تطلب منها المغادرة.

في مكتب الحاكم، جلست على يمين مكتبه، وعلى اليسار جلس رئيس الأمن، وجلسَ محافظ الجنوب في المنتصف. تبادلتْ مع الأخير تحيةً فاترة

فهي تكرهه لأنّها من ذلك النّوع الديني المتعصّب وهوَ لا يطيقها لأنها من عائلة مشكوك في نزاهتِها- طبقًا لرأيه-، ولأنّه يعرف يقينًا أنها تطمعُ في منصبه. كان ذلك حقيقيًّا فالقطاعُ الجنوبي هو الأكبرُ في القطاعات الثلاث في أديتيا الأرض، وهو بالنسبة لها منصبٌ مليء بالصلاحيات الواسعة، وليس كمنصبها الحالي؛ مجرّد واجهة للنظام الحاكم أمام الأرضيين.

كان الموضوعُ الأوّل في هذا الاجتماع عن نقضِ المصريين لاتفاقهم معهم وعدمِ احتجازهم لعُمر عوض الله كما نصّ الاتفاق؛ بل إنّهم أطلقوا سراحه وجعلَوه يعودُ لممارسة نشاطه حتّى استطاع أن يختطفَ الأربعة المحكوم عليهم بالإعدام وإظهار الشرطة الأديتية بمظهر العاجز أمام العالم.

فتحَ مسئولُ الأمن شاشةً أمامهم تظهر صورًا للهجوم من إحدى الطائرات الدّقيقة، ثمّ تركز على وجْه أحدِ المهاجمين وتقتطعُ صورته ثمّ يبدو على الصورة تغييراتٌ تزيل بعضَ الملامح وتستبدلُها بأخرى، ثمّ قال: "هذا الرجل أحد ضباط المُخابرات المصرية، بالطبع هُم ينكرون أنّه أحدهم لكنّنا نعرف تاريخ حياته بالكامل".

أمسكَ الحاكم بأداة في يدِه اسْتخدمها لتكبير الكلمات المكتوبة تحت الصورة، ثمّ سأله بتحفّظ: "هل تعني أنّ المخابرات المصرية هي مَن دبّر الهجوم، وأنّهم جنّدوا عمر عوض الله؟". ردّ عليه مسئولُ الأمن بأنّ الأرجح أنّهم يدعمونه، وأنّه مِن المحتمل جدًّا أن يضمّوا كتائب النصر التابعة لهم إلى كتائب الحرية التابعة لعُمر.

هزّ محافظُ الجنوب رأسَه نافيًا وهو يقول: "لا أعتقد ذلك؛ عُمر ومَن معه يكرهونَ حكومتهم، والكثيرُ منهم كانوا مُضطهدين سياسيًّا قبل الغزو.. يمكن أن يكونَ قد تصرّف بمفرده". كانت هيرمين تتابعُ حوارهم وهي تشعر أنّهم مجموعة من التّلاميذ الحمقى يخطّطون للإغارة على مجموعة منافسة من الحي المجاور. واحدٌ يعتقد، وواحدٌ لا يعتقد، والأمور واضحة كالشمس؛ إنّهم لا يسالمون أديتيا الأرض، ولم يتوقف تدبيرُهم لحظة، حتّى الدول الكبرى التي اعترفت بدولتهم تدبر في الخفاء أيضًا.

"إذا كان كلامُك صحيحًا فلا بدّ أن نخرج تلك الأدلةَ للعلن". قال الحاكم بحزم حينَ عرض مسئولُ الأمن صورًا أخرى وتقاريرَ تدعم وجهة نظره في تورط المصريين المباشر في العملية الأخيرة. ابتسم مسئولُ الأمن في اعتداد، ثمّ قال: "لا بدّ أيضًا أن نردَّ بعنف يا سيدي، لقد قتلوا أكثر من دستةٍ من رجالنا.. أقترح أن نطلقَ عددًا من القذائف على تجمّعاتهم العسكرية شرق بني سويف". أنهى جملته وهوَ يدير نظرَه لمحافظ الجنوب الذي هز رأسه مؤيدًا.

داعبَ الحاكم كمّ سترتِه وهو يدير المسألة في رأسه، ثمّ أدارَ نظره إلى هيرمين طالبًا رأيَها، ومستفهمًا عن سبب صمتِها من أوّل الاجتماع. اعتدلت في جلستِها وهي تبدأ بالكلام متحدّثة عن الأعداء الذين لن يتحولوا إلى أصدقاء، ثمّ وجّهت نظرها نحوَ الآخرين قائلة: "لا بدّ أن نستغلّ كلّ المواقف لصالحنا وليس لمجرّد انتقام ساذج". احتدّ مسئولُ الأمن على طريقتها، لكنّها تجاهلته وفتحت شاشة عرضتْ عليها تقريرَها عن المناطق العشوائية مختتمة

إياه بخطة لإخلاء منطقة منشية ناصر، وهدمها، وإنشاء مُنتجع كبير في حضن الجبل، وتتمادى في خطتها فتقترحُ جعْلَه مقصدًا سياحيًّا للأرضيين من خارج أديتيا.

أثار اقتراحُها لغطًا، ردّ عليها محافظ الجنوب بأنها تتدخل في صميم عمله: "أنتِ مسئولةٌ عن الخارجية، لا شأن لك بالخططِ الاستيطانية يا سيدة هيرمين". رد عليه الحاكمُ بأنّ المانع الوحيد من إزالة تلك المنطقة هو صورتهم أمام العالم، وهذا من صميم تخصّصها، إضافة طبعًا إلى أنها حلّلت المشكلة بطريقة لم يقدر عليها المتخصّص. ارْبدّ وجهُ الرّجل وهمّ بالردّ لكن الحاكمَ أسكته بإشارة من يده ثمّ سألها: "ما الخطّة التي تقترحينها؟".

فتحت هيرمين نصًّا على الشاشة أمامَهم في ثقة وهي تقول: "أولًا يجب أن نقدّم تلك الشكوى في مجلس الأمن". قبل أن يعترضَ الجميع- وهو ما كانت تتوقعه- أردفتْ قائلة: "بالطبع لن تُجدي الشكوى نفعًا، فلا أتوقع أن يتمّ معاقبة المصريين على ذلك، ولكن..."، فتحتْ نصًّا آخر يبيّن الدول التي قد تستنكر التصرف المصري (وهي تُعدّ على الأصابع)، والدول التي ستنكرُ أنّ الحكومة المصرية لها علاقة بالأمر، والتي ستقول إنّ ما حدث نوع من المقاومة المشروعة، ثمّ قالت "المهمّ أنّه- ولأوّل مرة- هناك طرفان للمشكلة أديتيا ومصر، وليس أديتيا وكلّ الأرض، أو أديتيا ضدّ الشرق الأوسط مثلًا. ثمّ إنّ الشكوى ستكون وثيقة تثبت أن أديتيا لجأت للوسائل الدبلوماسية أولًا".

"فهمت، وأعتقد أنّ الشّكوى ستتضمّن الإشارةَ إلى منشية ناصر على أنها وكرٌ للمُخرّبين". قال الحاكمُ فهزّت رأسها موافقة، ثمّ قالت: "بعدَ ذلك،

لا بدّ أن تحدثَ عملية إرهابية بشِعَة نستغلّها لتكون نقطةَ الغليان بالنسبة لنا، ونعتبرها كما يقولونَ القشّة التي قصمت ظهرَ البعير". صمتَ الثلاثة وتبادلوا النظرات فيما بينهم متوجّسين من قصدها، فقالتْ بوضوح: "أنتم تذكرون عملية قتل وتعذيب الفتيات الأديتيات، التي بسببها حُكِمَ بالإعدام على هؤلاء الشبان" صمتتْ لحظة وهي تتأمل أثرَ كلامها على وجوههم.. "أنا أعرف أنّ مدبّرها كان رئيسَ الأمن السابق الذي استطاعَ تجنيد هؤلاء الشبان وإيهامَهم أنّهم يعملون لصالح المقاومة، وأقنعهم بتصوير تلك الفعلة ونشْرِها في العلن، ومعَ الأسف مات دون أن يخبر أحدًا بهوية المنفّذين".

استنكرَ رئيسُ الأمن ومحافظُ الجنوب كلامها، فقال الحاكم: "لا داعي للإنكار أيّها الأعزّاء.. هيرمين الآن صارتْ من دوائر السلطة العليا، وأعتقد أنّها تقترح أن نكرّر العملية نفسها". ابتلعتْ ريقها بصعوبة قبلَ أن تكمل كلامها؛ تشعر أنّها على وشكِ تحقيق غرضِها الكامل من اجتماع اليوم، وأنّها أدارته بالكامل لصالحها، لكنها ترى الآن مدى حقارةِ ما هي مُقدمةٌ عليه، وترى ماندريك يبصقُ على وجهها ويحدّثها عن بشاعة روحِها التي فقدت كلّ براءة الماضي. كانت الخطوة التالية هي ما سيُزيل أيّ رمادية تتحجّج بها في تبرير أفعالها، وسيجعلها سوداء خالصة لا لبسَ فيها.

"الفتياتُ اللواتي قتلنَ لم تذهب تضحيتهنّ هباءً؛ فمقتلُهنّ أعطانا مكاسب كثيرة". أمّن حاكمُ الأرض على كلامها مثيرًا حفيظةَ الرّجليْن أكثر، قائلًا: "نعم، عرفَ العالم أنّنا ندافع عن أنفسنا ضدّ مجموعة من المتوحّشين عديمي الأخلاق". قالتْ هيرمين بعد أنِ ابتلعت ريقها: "أنا بالفعل أقترحُ تكرار

العملية لكن بشكل أكثر تأثيرًا، أقترح أن يكون المخطوفاتُ من الحوامل، وأن تُفتَح بطونهنّ، وتقتل الأجنة، ثمّ يتركن لينزفن أمام الكاميرا حتّى الموت؛ هكذا لن يفكّر أحدٌ في الاعتراض على أيّ إجراء انتقامي نقوم به".

تأمّلت تعبيراتِ وجوههم المتقزّزة من بشاعة الفكرة. تبادلت نظرة محتقرة معَ محافظ الجنوب الذي قال: "إنّ الفكرة مُفزعة حتّى بمقاييس عائلتك يا هيرمين". قالها وهو يضغطُ على حروف كلماته، فاحتدّت عليه هيرمين ونظرت للحاكم كأنها تطلبُ عونَه. أشار لهم الحاكمُ جميعًا بالصمت، ثمّ قال له: "ينبغي أن لا تقول كلامًا كهذا لمسئولة مهمّة في الدولة". ابتسمت بظفر، لكنّ ابتسامتها تلاشت حين نظر الحاكمُ لها، وقال: "غير أنّ عملية كتلك يصعب التحضيرُ لها على الطريقة السابقة.. نريدُ أرضيّين مأجورين يقومون بالتنفيذ، وأعتقد أنّ أناندار الصغير شقيقك لديه الكثيرُ منهم".

حاولتْ أن ترفض اقتراحه، لكنّ الرجلَ لم يمنحها فرصة، وبدَا واضحًا لها أنّه يريد غرسَ قدميها عميقًا في وحْل ذلك المستنقع الذي تقترحه. قال لها: إن كلّ حكومةٍ تحتاج أحيانًا إلى مساعدةِ منظمة إجرامية في تنفيذ عملياتها القذرة، وإنّهم يستأجرون خدمات شقيقها في حدودٍ ضيقة.. "أنا على دراية بتجارته للتقنيات مع المصريين، والتي يقبض ثمنَها من الماس والمعادن الأرضية النادرة التي يبيعها في أديتيا بأثمانٍ باهظة.. نحن نتغاضَى عن أفعاله تلك لأنّنا لم نثبتها أولًا، وثانيًا لأننا نحتاج إليه أحيانًا كما قلت".

ردّت هيرمين: "إذًا، استأجره أنتَ يا سيدي". ضحك الحاكم وظهرَ على وجه محافظِ الجنوب نظرةُ استمتاع وهو يراها تحاولُ التملّص بدون جدوى،

والحاكمُ يردّ قائلًا: "هذا الموضوعُ بالذات أريده أن يتمّ بطلب منك، ولا تقلقي بالنسبة للتكاليف فالميزانيةُ مفتوحة". في النهاية لم تجد بدًّا من القبول بالأمر، وأنّها مُجبرة على ابتلاع كرامتها والطلب من أخيها تنفيذَ مهمّة كتلك، وهي تعلم أنّه سيستخدمها ضدّها ليمنعَها من مفاتحتِه ثانية في ترك الأعمال الإجرامية والاكتفاء بالاستشارات الشرعية.

وافقتْ وقد غدتْ مصرّةً على المضيّ قُدمًا في ذلك الطريق لآخره، ثمّ لاحت لها فرصةٌ لاستغلال الموقف، فقالت: "لكن لديّ شرطٌ واحد". عقد الحاكمُ حاجبيه وهو يسألها: "أيّ شرطٍ يا هيرمين أنتِ تخدمين وطنَك بلا شروط". ردت عليه قائلة: "أريد أن أشرفَ على عملية هدم منشية ناصر، وعلى بناء المنتجع، وأن يكون إنشاؤه وإدارتُه تحت إشرافَ واحدةٍ من شركات عائلتي". استنكر محافظُ الجنوب شرطَها، فقالت له بتحدٍّ: "إذًا، نفّذ العملية أنت". فغصّ حلقه ولم يقدرْ على إجابتها وهو ينظرُ للحاكم الذي أومأ لها بالموافقة على شرطها.

***

٢٣

اعتدلتْ (ميْساء) في جلستِها بصعوبة وهي مازالت تتعافى من إصابة ساقها في العملية الأخيرة. كانت راقدةً في أحدِ المقارّ التابعة لكتائب الحرية في شقة نظيفة، أثاثُها حديثٌ يختلف تمامًا عن ما عهدته في مقارّ عملها السابقة. كانت المقاومةُ التابعة لأبيها وماندريك لديْها إمكانيات أفضل من كتائبها، فوجود المئات من النّياندرتال في صفوفهم يُعطيهم نقطة تفوّقٍ كبيرة؛ تتدفق عليهم التقنيات والتّجهيزات من كوكبهم الأمّ، إضافةً إلى قدرتهم على المراوغة بفضل عملهم جميعًا تحتَ ستار من مهن أخرى مُعلنة، والتزاوج المتكرّر بين بشر من المقاومة وزميلاتهم الأديتيات.

رغمَ إصابتها في أثناء تحرير (معاذ) وزملائه؛ فإنّ تلك العملية كانت من أسعدِ العمليات التي قامت بها منذُ التحقت بالمقاومة. كان معها أبوها يقاتل جنبًا إلى جنب؛ شعور نجحَ في إزالة مرارة سنوات من الخلاف بينهما وشعورها برغبتها الأزليّة في الخروج من عباءته. شعرت أيضًا أنّها بقتالها وإصابتها قد قللت كثيرًا من إحساسِها بالذّنب الذي كانت تعاني منه اتجاه (معاذ) الذي استدرجته، و(حبيب) الذي تسبّبت في قتل زوجته. إحساسٌ بالذنب لم تفلح في إزالته محاولاتها إقناع نفسها أنّها في جانب الخير، وتأكيدات قادتها أنّ مقاومي كتائب الحرية مارقون حتّى وإنْ كانوا يحاربون العدو نفسه.

كان دورُها كبيرًا في تلك العملية، وقاتلت بشجاعة ولم تهب الموت؛ بل استعدّت لملاقاته بعينٍ مفتوحة. مازال يشغل تفكيرَها أحيانًا تلك النظرة

المترددة التي رأتها على وجْه ذلك الضابط، ذلك الخائن لأهله وبلده الذي يقاتل تحت راية الأعداء. لماذا تراجع؟ هل داهمتْه دفقة من الشّهامة فأحسّ أنه لا يصحّ أن يقتل امرأة هكذا؟ إذًا، ما الذي كان سيفعلُه لو نجح في القبض عليها هل كان سيربّت عليها ويطالبها بعدم تكرار حماقاتها؟.

بالأمس، حين زارها أبوها قصّ عليها حكاية ذلك الرجل، وكيف أن (باسل) كان شابًّا صالحًا فيما مضى، وأنه كان يعرف والده الأستاذ علاء الشعراني المُعارض البارز، والذي قضى نحبَه في السجن لأنّه كان "يدافع عن ضحايا النظام المُستبد" طبقًا لأبيها. يفعل أبوها كما يفعل الكثيرُ من الروائيين أمثاله؛ يتلمس العذر للمجرم، ويقول إنّ أيّ واحدٍ يوضع في ظروفه نفسها قد يتصرّف نفس تصرفه، وأن شابًّا مات أبوه وهو مَسجون ظلمًا، وماتت أمّه من الفاقة ينبغي أن لا نتوقع منه غير الكفر بالوطن وبمَن فيه.

لم تحاولْ أن تجادل أباها كثيرًا في تلك النقطة، فهي لا تريد أن تعكر صفو المرحلة الجديدة في علاقتهما، رغم أنّها لا تزال تتساءل هل مهادنته ورفاقه تلك حقيقة، وهل اقتنعوا فجأةً بعد سنين من الممانعة أنّهم لا بدّ أن ينضموا إلى دولتهم في خندقٍ واحد. شرح لها أبوها الأسبابَ التي جعلته يقبل بذلك، وحكى لها قصصًا عنْ مناضلين وصلوا في النّهاية إلى القناعة بأنّ ما لا يؤخذ كله لا يترك كله، وأنه مادام غريمُك قد اعترفَ بحقّك، فلا مانعَ من أن تسامحه وتفتح معه صفحة جديدة يقدّم كلاكما فيها بعض التنازلات.

تشعرُ بتناقض في أفكارها تجاهَ أبيها حين يخطر ببالها أنّه ربما قبل طمعًا في منصبٍ ما بعد إتمام التحرير. تشعرُ بغصّة لا تدري سببها حين تفكر أنّ مثالية

أبيها الصافية تلك- والتي كانت تثيرُ حفيظتها بالمناسبة- ليست موجودة، وأنّه رجلٌ عاقل كأيّ رجل يزن الأمورَ بمقياس العقل، ويحدّد ما الأهداف الواقعية وما الأهداف الخيالية، ثمّ تعود فتذكّر نفسها بأنها كانت دومًا تقول له إنّ السياسة هي فنّ المُمكن، وأنّ الرومانسية التي نجحتْ بينه وبين أمّها ليست موجودة في المقاومة والحرب.

كانت تقلّب في القنوات التي تعرض على الشاشة الفراغية المنتصبة أمام فراشها وهي تبحثُ عن أيّ شيء يسليها حين دخل عليها (سمير). جلس على الكرسي المجاور لفراشها وهو يسأل عن حالها، وهل مازالت إصابتها مؤلمة إلى آخرِ تلك الأسئلة العادية، وهي تجيب أنّها بخير، وتنظر إلى كفّه المرتعشة وهي تقتربُ لتربّت على كتفها، ثمّ تتراجع كأنّهما عادا غريبين لا يصحّ بينهما أكثر من التحية باللسان.

"مازالت تلك الشاشاتُ الفراغية تثير دهشتي، لا أعرف كيف لا تشفّ ما وراءها رغم أنّها مجردُ ضوء في الهواء". قالها محاولًا أن يجدَ ثغرة في الجدار الجليدي بينهما مثلَ رجلٍ يعلّق على أحوال الطقس أو آخر أخبار ممثلي السينما، وردّت هي بدورها بفتورٍ مؤمّنةً على كلامه. اعتدلتْ في فراشها بطريقة توحي أنها على وشكِ الاستغراق في النوم، راجية أن يفهم أنّها غيرُ راغبة في استكمال تلك الزيارة.

زفرتْ في ضيق حين لم تصلْه رسالتها المبطّنة، واستمرّ في محاولاته البائسة لفتح موضوع للحديث. صار وجودُه حولها يسحب الأكسجين من الهواء ويجعلها ترغبُ في فعل أيّ شيء يبعدها عنه. في النّهاية قالت له صراحة إنّها

تريد أن تنامَ فانصرف يلملمُ بقايا كرامته دونَ أن يتكلم. لم تكرهه لكنّها اكتشفت فجأة أنها أوهمتْ نفسها بحبّه في وقتٍ كانت تحتاج فيه للحب؛ وقت كانت تعيش فيه وحدة قاتلة لا أب ولا أم ولا صديقة تفهمها وتحكي معها عن مشاكلها. أحبّته لأنّها استندت عليه في وقتٍ لم تجد فيه مَن يسندها، ولأنّها صدّقت أنها الحبيبة، وأنّ زوجته هي مجرّدُ امرأةً فرضها أهلُه عليه حين كان صغيرًا وحاصلًا على تعليم متواضع.

صدّقته حين قال ذلك، لكنّ الأساس الذي بنتْ عليه حبّها له وتجاهلت بسببه أنّها ستكون زوجةً ثانية تهدم حينَ سمعت تلك النبرة المتهدّجة والصوت النابع من القلب الذي كان يتكلّم به مع زوجته، ويقول الجُملَ نفسها التي قالها لها. إذا كان صادقًا في الكلمات اللي كان يقولها لزوجته، فهي غيرُ مُقتنعة بأنه يستطيع أن يحب امرأتيْن بالقدر نفسه، وإذا كان كاذبًا ويستطيع تمثيلَ تلك اللهجة الصادقة النابعة من القلب، فتلك مصيبة، وذلك رجلٌ لا يمكن أن يؤتَمن على قلبها.

قفزَ (باسل) إلى ذهنها فجأة، وعادت إلى ذهنها نظرته لها وكأنّه قد صُدم حينَ رآها. كان يحدّق في عينيها كالمسحور، وكأنّ القذائف من حوله توقفت في مكانها، وكأنه نسيَ ما كان يفعله، وربّما كان تراجعه عن قتلها سببه أنّ ثمة سحرًا في عينيها شلَّ تفكيرَه. ابتسمتْ وقد أرضتِ الفكرة أنوثتها المتوارية رغمَ أنّ ضحية عينيها هو مجرّد خائن خادم للغزاة.

دخلَ عليها ماندريك ورفعَ إضاءةَ الغرفة التي كان (سمير) قد خفضها بناء على رغبتها. جلسَ جوارها على المقعد نفسه الذي غادره (سمير) للتو

وهو يقول لها بمرح: "أنا أعرف أنّك غيرُ مُتعَبة، وأنّك طلبت منه المغادرة". ضحكت وهي تسأله كيف عرفت: "هل النساءُ عندكم يفعلنَ مثل هذه الأشياء؟". هزّ رأسه مؤكدًا أن هذه هي الحقيقة.

"ما أعرفه هو أنّ العلاقة بين الرجل والمرأة عندكم فيها قدرٌ كبير من الحرية والتّعدد". قالت وهي تفتح الشاشةَ ثانية وتقلّب القنوات لتظهر قناة الأخبار. قال ماندريك: "الأمرُ ليس بهذه البساطة، نحن فقط نفرّق بين العلاقة الجسدية ومشاعر الحبّ.. العلاقة الجسدية عندنا مجرّدُ ممارسة محبوبة مثلَ تناول طعام لذيذ أو مُمارسة الطيران الحرّ فوق السهول، ليس لها ذلك البعد النفسي الموجود لديكم". هزّت رأسَها غيرَ مقتنعة وهي تقول إنّهم بشر مثلنا، يحبّون ما نحبّ، ويكرهون ما نكره.

"لو أردت الدقةَ فإنّ ممارسة العلاقة الجسدية مع مَن نحبّ لها إحساس مُختلف، فهو أكثر خصوصية.. الإناث عندنا في أيام التبويض مثلًا يتزاوجن مع أي ذكرٍ يظهر أمامهنّ، إلّا إذا كانت في علاقة حصرية، عندها تهلك زوجها في الفراش، أو تضطرّ لتحمل الآلام الجسدية الفظيعة التي تعتريها إذا كان رجلها غائبًا". لم تردّ عليه، وحمدت الله في سرِّها على أنها ولدتْ من عرق مختلف. فأكمل ماندريك كلامَه قائلًا: "ربما كان علماءُ التّطور لديكم مُحقّون، وأنّنا نوعان مختلفان؛ نحن هومو نياندرتاليس، وأنتم هومو سابينز".

مطّت شفتيها علامةً على أنها لا تشغلُ بالها بتلك المسمّيات المعقدة ثمّ خطر ببالها سؤال.. إذا كنّا نوعيْن مختلفين من الكائنات كيف يصير تزاوجٌ بيننا؟ فضحك وهو يقول: "مثلما يتزاوج الحصانُ والحمار ويتزاوج الذئبُ والكلب..

دعك من كلّ هذا، الخلاصةُ أنّ المرأة عندنا إذا أحبّت رجلًا فإنّها تغار عليه من أي عاطفة تجاه امرأةٍ أخرى، وإذا عرفت أنّ حبيبها قد التقى مع أنثى أخرى ثلاثَ مرّات متتالية فإنّها تقيم الدنيا ولا تقعدها لأنّ تكرارَ الممارسة مع الشخص نفسه ينذر بالحب، و..".

قطعَ كلامه حين ظهرتْ على الشاشة قاعةُ مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وظهرَ رئيسُ الجلسة وهو يعطي الكلمةَ لهيرمين التي يجلس جوارها مساعد أرضي. كانت تتحدّث بانفعال عن ما تسمّيه بانتهاك المصريين للاتفاق بينهم. لاحظتْ (ميْساء) صمته وتغيّر ملامحه حين ظهرت هيرمين على الشاشة، سألته عن السّبب، فقال: "هذه المرأة سكنتْ قلبي حين كنّا في مقتبل العمر ولم تخرج منه للآن رغمَ محاولاتي.. أليسَ هذا النوع من الحبّ مشهور لديكم"! كان يعني ذلك الحبّ الذي يضعك في حالةٍ من الصراع الدائم بين قلبك وعقلك؛ أنْ تحبّ إنسانًا وأنتَ تكره كلّ أفعالِه، حين ترى حبّك له نوعًا من الخيانة لكلّ مبادئك، وكلّ ما تؤمن به.

لم تردّ (ميْساء) فهي لم تجرّب ذلك النوع من المشاعر، وتعتقد أنّ أصحابها ضعفاءُ مهزومون من الداخل، ولذلك لم تردّ عليه مخافةَ أن تجرحه. حاولت أن تغيّر الموضوع فقالت: "ما يغيظني حقًّا هو جلوسُ ذلك الخائن إلى جوارها.. لا يوجد سببٌ في الكون يجعل الإنسانَ يحارب في صفّ أعداء وطنه" ضحك ماندريك وقال لها: "لاحظي أنّ هذا الكلام يقولونه عنّي في وطني".

ارتبكتْ وهي تقول إن وضعه مختلف، وإنه يدافع عن الحق ويقف إلى جوار الضعفاء في مواجهة الغزاة فقال لها: "لست ملاكًا.. لي أسبابي أنا أيضًا،

وقناعاتي، ربّما لو تمّ هذا الغزوُ بطريقة مختلفة أو حجج أخرى لكنت معهم".
عقدت حاجبيها في دهشةٍ وتوجّس، فأكمل قائلًا: "أنا أرى مثلَ والدك أنّ لكلّ إنسانٍ ظروفه، وأنّني، وإنْ كنت أدافع عن مبادئي بدمي، إلّا أنّني لا أفترض أن مَن يخالفني يستحق القتل لمجرّد أنّه على الطرف الآخر، وإنِ اضطررت للقتل فينبغي أنْ يحزنني ذلك لا أن يسْعدني".

***

٢٤

في أمسيتها الأسبوعية المُعتادة، اختارت كميردا مطعمًا جديدًا لتتناول فيه العشاءَ مع (باسل) بعدَ أن تشاءمت من المطعم السّابق الذي كانا فيه حين انصرف إلى المهمّة التي أصيب فيها. مرّ عليها يومان عَصيبان لم تتركْ جوار فراشه فيهما حتّى تماثلَ للشّفاء. أخبرها الأطباءُ أنّه محظوظ، وأنّه لو تأخر عدة دقائق في الوصول إلى المستشفى لكان قد قضَى نحبَه.

كان المطعمُ أقلّ فخامةً من سابقه يحتلّ ناصيةً قريبة منه في نهاية شارع كان يطلقُ عليه قديمًا "البطل أحمد عبد العزيز". كان أحد تلك الشوارع التي تقطنها غالبيةٌ من الأديتيين من الطّبقة الوسطى، أو أديتيات من ذات الطبقة متزوجات من أرضيّين. حين صعدتْ كميردا الدرجَ مع (باسل) إلى الطابق العلوي من المطعم لاحظت تغيّرًا على وجهه، انتظرت حتّى جلسَا على الطاولة ثمّ سألته: "ما بك.. هل المطعمُ لا يعجبك؟". جالَ بعينيه في المكان وهو يتأمل الأسقف والجدران وشكل العاملين، ثمّ قال: "تغيّر كلّ شيء هنا.. هذا المطعم كان مُلتقاي أنا وأصحابي أيام الصّغر، كنّا ندّخرُ من مصروفنا لنأتي إلى هنا نأكلُ البيتزا ونشاغل الفتيات".

قالت بابتسامةٍ اغتصبتها من شفتيها المتوتّرتين: "لا شيء يبقى على حاله". تذكّرت اليوم السابق حين استضافتْ صديقتها التي أتتْ من عكا في زيارة عمل قصيرة. تذكّرت ضيقَه من صديقتها حين قالت إنّ عكا تحوّلت من

مدينة إسرائيلية إلى نموذج للمدن الأديتية الجميلة. ردّ يومَها بحدّة: "عكا لم تكن يومًا إسرائيلية؛ عكّا مدينةٌ عربية كانت كذلك قبلَ مجيء اليهود، وظلّت كذلك بعد احتلالهم لها". وقتها سألتْه صديقتها إنْ كان الآن يعترف أنّها أديتية أم يعتقد أنّها لا تزال عربية، فارتبك وقال: "أديتيا أمر مُختلف، إنّها بوتقة تصهر كلّ مَن على أرضها في كيان واحد وتعامل الجميع بدون تفرقة".

لحظتَها تمنّت لو كانت تستطيع قراءة أفكاره، وتعرف إنْ كان يصدق في كلامِه عن أديتيا أم يقوله لمداراةِ موقفه. ليلتها سألتْه على استحياء عن ما يقلقها فأكّد لها أنّه كان يعني كلّ حرفٍ قاله، وأنّه "تربّى على تسمية إسرائيل بالكيان الصهيوني وعدمِ الاعتراف بوجودها"، وإنّ أباه المتوفَّى كان عروبيًّا قوميًّا غرس فيه منذ الصَّغر أنّ إسرائيل سرطانٌ زرعه الاستعمارُ في قلب الجسد العربي ثمّ ختم كلامه قائلًا: "كان هذا في الماضي، نحن الآن أديتيّون في دولة عادلةٍ تحتوي الجميع حين يمرّ على نشأتها ثمانين عامًا كعُمر إسرائيل سيكون أغلبُ سكانها أصحاب أصول مُختلطة، لا يوجد عربي ولا تركي ولا يهودي؛ فقط أديتيون".

نامتْ قانعة بكلامِه ليلتها لكنّه الآن يعود فيُقلقها بكلامه عن الماضي وشكل هذا المطعم قبلَ الغزو. أحسّ (باسل) بقلقِها فقال مُطمْئنًا: "افهميني يا عزيزة القلب.. الحنينُ إلى الماضي صفةٌ طبيعية في أيّ إنسان، لو لم تقم أديتيا وظلّت المهندسين كما هي، وتغيّر فقط هذا المطعم؛ كنت سأشعر بذات الدرجة من الحنين؛ بل لو ظلّ المطعم كما هو وغابتْ عنه صحبتي القديمة ونفْسي القديمة فسأشعرُ بالحنين أيضًا.. الموضوع لا علاقة له بأديتيا".

اتّسعت ابتسامتها في فرح طفولي، ثمّ قامت من على مقعدها وطبعت قبلةً على شفتيه، أكملها هو بأنْ ضمّها بقوة. عادتْ لجلستها ثمّ أخذت رشفة من الشراب البارد الذي يتناوله الأديتيون قبلَ الطعام. رنّ جهازُ الاتصال الخاص بها فضغطت على معْصمها لتردّ على المكالمة. بعدَ محادثة قصيرة ابتسمت وقالت له: "السيدة هيرمين وعدتني أنّها ستتدخل بقوّة لدى رئيس قسم الأمن لإعطائك هذه الترقية". ابتسمَ في امتنان وهو يقول إنّه لم يكن من المهمّ أن تسأل رئيستها معروفًا كهذا لكنها أخبرتْه بحماس أنّها هي التي فعلت ذلك من تلقاءِ نفسها، وأنّها تنوي إعطاءه منصبًا أكبرَ في المستقبل.

بعد أنِ انتهت جلستهما قامتْ ببطء تتحسّس بطنها وهي تضحك قائلة: "يبدو أنّ علاء الصغير قد ملّ الجلوسَ بالداخل". عقدَ حاجبيه بدهشة تخالطها ابتسامة وهو يردّد مستفهماً "علاء؟!". اتسعت ابتسامتها في حبور، وامتلأت عيناها بنظرة تفيضُ حبًّا وهي تقول: "كنت أريدُ أن أفاجئك باختياري لهذا الاسم، لكن لساني سَبَقني". أمسك كفّها وطبعَ قبلةً عليه وهو يُبادلها النظرةَ نفسها التي تفيض بحب يمتدّ من الخلايا أشعةً متفرقة تتجمّع حتّى تصل إلى العينين لتخرج منهما وتضيء على وجهها.

في أديتيا تختارُ الأمّ اسم المولود، عرفٌ امتدّ في قومهم منذ قرون وصار قانونًا يسري على أهل الأرض الذين يتزوجون من بناتهم. كان يقلقه أن تختار لابنهم اسماً عجيبًا من تلك الأسماء التي يعجزُ أحيانًا عن نطقها أو الأسوأ أن تطلق عليه اسماً دينيًّا مثل بارماجوها (أي خادم ماجوها)، أو شيء يتعلق بديانتها لكنها غلّبتْ حبّها له على تراثها. "أريده أن يكون نبيلًا عظيماً مثل جدّه، وباسلًا مثل أبيه".

نزلتْ معه على الدرج ببطء مُستندة عليه وهي تحدّثه عن تفكيرها في الاستعانة بمربّية من خرّيجات معهدِ رعاية الطفولة بدلًا من الاستعانة بمجرد خادمة عادية، وقالت إنّها ستنفق منحةَ المولود الذكر على الطفل بالكامل. "إذًا، لن ننتقل إلى هيردافاديل؟". سألها فقالت: "أنا أعرفُ أنّكَ غير راغب في الانتقال إلى هناك، وأنّك كنت تفعلُ ذلك كي تسعدني لكنّ الأمر لا يستحق إنفاقَ الأموال عليه.. وأنا أعرفُ أنك تحبّ جيزافاديل ففيها نشأت".

جيزافاديل هو الاسمُ الذي يطلق على مناطق الجيزة التي كانت جزءًا مهمًّا مِن القاهرة الكبرى، وكلّ حيّ فيها أطلق عليه قطاع؛ فالمهندسين مثلًا صارت القطاع الخامس، والدقي القطاع الرابع، وهي أماكنُ يسكن الأديتيون في أغلبها. حين أعادَ النياندرتال تسميةَ المناطق على الأرض وضعوا في نهاية الأسماء مقاطعًا تنتمي للغتِهم الأصلية، فالمدن الكبيرة تنتهي بمقطع "فاديل"، والمدن الصغيرة والتجمّعات القروية تنتهي بمقطع "بشيل"، أمّا التجمعات الحضرية الراقية شكلًا والصّغيرة حجمًا فتنتهي بالمقطع "بنيل".

أمامَ باب المطعم أفلت يدَها وأخرج جهازَه الصغير الذي استدعى به مركبته ثمّ عاد يمسك يدَها وهو ينتظر المركبة. مالَ على أذنها فاقتربت ظنًّا منها أنه سيهمسُ لها بشيء ما، لكنّه عضّ شحمة أذنها برفق، فانفجرت في الضّحك وقالت: "كالعادة أقعُ في هذه الخدعة". لم تكدْ تُكمل جملتها حتّى اتّسعت عيناها في خوف وهي ترى رجليْن ملثّمين يخرجان من مدخل البناية فجأة ويقتربان نحوهما.

انتبه (باسل) لنظرتها فالتفتَ، ولكنّه لم يجد الوقت الكافي لإبداء ردّ فعل مناسب. أطلقت شهقةً عالية حين ألقى عليه الملثّمان أسلاكًا معدنية التفّت على ساقيه وكبّلت حركته، فسقط على الأرض، ثمّ ركلَه أحدهما في رأسه بعنف قبل أن يهجم عليها الثاني ويكبّل ذراعيها من الخلف. حاولت أن تقاومَه وعيناها معلقتان بباسل الذي ينزف من فمِه جرّاء الركلة العنيفة.

اقتربت مركبةٌ غريبة ووقفت أمامَها مباشرة، ورأت داخلها ملثمينْ آخرين، دفعَها الملثم الذي يمسك بها اتّجاه المركبة. كان يبدو من طوله أنّه أرضي، وكان مفتولَ الجسم قويَّ البنية لم يترك لها مجالًا للحركة أو للتملص منه. نظرت اتجاه (باسل) فوجدته يعتدلُ ويقذف بجسدِه على الملثّم الثاني فيسقطه على الأرض ويمسكُه بكلتا يديه، ثمّ يعتصر رقبتَه بذراعه وهو يصرخ طالبًا منهم أن يتركوها مقابل صديقهم.

لم يجبِ الملثمُ الضخم الذي يمسك بها، ولم يكلف نفسَه عناءَ الالتفات أو محاولة استنقاذِ زميله من بين ذراعي (باسل)، وإنّما دفعها في المركبة وصرخ آمرًا قائدَها بالانطلاق، ومؤكّدًا أنّ زميلهم قادرٌ على التخلص من (باسل). أخذت تصرخ في هيستريا وهي تحاول التملصَ بدون جدوى، حتّى أسكتها الملثمُ بضربة على رأسها أفقدتها الوعي.

رأتْ نفسها في كوكب أديتيا تتسلّق إحدى الهضاب المعشبة المحيطة بمدينتها الأم. وصلت في تسلّقها إلى أرض فسيحة مرتفعة بما يكفي لترى مدينتها بالكامل من أعلى. كانت أطرافُ مدينتها تلامس الساحلَ الذي استقرت عليه ثلاثة أهرامات متجاورة. أخذت بيدِها قبضتين من العُشب

الذي يكسو الأرض التي تجلس فيها ثمّ نزلتْ مُسرعة. بعد ذلك رأتْ نفسها عند سفحِ الهرم تتسلق حجارته وهي ترى البحر أمامَها. انزلقت قدمُها ففلتتْ من يدهاَ حزمة من العشب وهي تستند بها لتتجنب السّقوط. اختلّ توازنها رغمَ ذلك، لكنّها وجدت (باسل) يسندها بيدٍ ويمدّ يده الأخرى بحزمة العشب التي سقطت منها. غرستِ العشبَ بين حجارة الهرم وقالت له إنها ستجلسُ معه ينتظران المطرَ كي ينبت العشب ويغطّي الهرم. فتح (باسل) فمه ليتكلم لكنّ يدًا غليظة نبتتْ من العدم قذفت به إلى الأسفل وهي تصرخُ وتشاهده يرتطم بالحجارة. دفعتها اليدُ الغليظة هي الأخرى لكنّها تشبثت وجسدها معلق في الهواء. ذراعاها تمسكان بقوة، وقدماها تحاولان الوقوف على أيّ أرض لتتحملان وزن جسمها وتخفّفان آلامَ ذراعيها، لكن بدون جدوى. آلامُ ذراعيها تتزايد وفجأة انتبهت، اختفى الهرمُ والبحر، وظهر أمامها وجهٌ قميء يبتسم في فظاظة.

كان أرضيًّا، ضخم الجثة، ورجّحت أنه هو نفسه خاطفها. بدأت تنتبه لما حولها، كانت واقفة وذراعاها معلّقان فوق رأسها بحبلٍ مثبّت إلى جنزير حديدي مدلّى من السقف. على يمينها كانت امرأةٌ معلقةً بالطريقة نفسها، وعلى يسارها امرأتان. كان المكان عبارة عن قاعةٍ فسيحة جدرانُها رمادية لا يوجد فيها أي تفاصيل، خالية سوى من عدّة مقاعد جلسَ عليها رجال يتحدثون، وأمامهم طاولة صغيرة تكوّمت عليها أسلحة منوعة.

"زوجُك قتل زميلي، وهذا كفيلٌ بأن يزيل أيّ تعاطف معك"، قالها وهو يقتربُ بأنفاسه من وجهها ما جعلها توشكُ على التقيّؤ. تملّكها الفزع وهي تفكر

في ما ينويه هؤلاء، لكنّها حاولت أن تهدئ نفسها وهي تقول إنّهم اختطفوها لسبب ما، قد ينْتوون استبدالها بأسْرى، وهي تعرف أنّ هيرمين لن تتوانى عن فعل أي شيء لإنقاذها، ثمّ قالت إن (باسل) سوف يجدها قبلَ أن يجدوا حتّى فرصة لطرح مطالبهم سوفَ يقتلهم واحدًا واحدًا، وسوف يتركها تمثل بجثةِ هذا الضخم البغيض.

تناهى لسمعها صوتُ أنّة من المرأةِ على يسارها ما لبثت أن تحوّلت إلى صرخاتٍ فزعة، وتوسّلات بأن يتركوها. انتبهت في تلك اللحظة إلى أنّ المرأة حُبْلى هي الأخرى، نقلت نظرها للأخريات فوجدت أنهنّ جميعًا حوامل، وجميعهنّ من الأديتيات.

انتبهَ بقيةُ النساء وتناوبْنَ الأنين والصراخ والتعبير عن فزعهن، وحاولت هي تهدئتهنّ بدون جدوى، حتّى صرخ الرجلُ فيهن فكتمنَ أصواتهن داخل حلوقهن. "أنا أصابُ بالصداع من صراخ النساء، وخاصّة أمثالكن من القردة.. أي واحدة منكنّ يعلو صوتها سوف أعاقبُها بما تستحق". قالها بلهجة مُخيفة وبصوت خشن أقربَ إلى العواء، وهو يشير بآلة طويلة في آخرها طرفٌ مُلتهب قرّبه من وجه إحداهنّ فتراجعت في فزع وهي تتوسل إليه.

أشارَ الرجل إلى أحدِ رفاقه فخرج من الباب الوحيد في القاعة وأحضر كاميرا نصبَها على الطاولة ثمّ ضغطَ على عدّة أزرار في جهاز أمامه ثمّ أشار بيده فارتدَى الضّخم لثامه هو وآخران، ووقفوا أمامَ الكاميرا، الضخم أمام النساء، والآخران على اليمين واليسار مُتقلّدين أسلحة عتيقة. أشارَ رجلُ الكاميرا لهم وهو يقول: "استعدّوا، أنتم على الشبكة بعدَ ثلاثة اثنان واحد..".

٢٥

كانت العيونُ مسمّرة على الشاشاتِ في كلّ مكان تتابع ذلك الفيديو الذي يبثه الملثّمُ الضخم. هيرمين في مكتبها وإلى جوارها (لؤي) حارسُها وفحلها الذي اختارته ليكون أبًا لطفلِها المستقبلي، (باسل) وهو في عمله يجري بحثًا ليتعرف على شخصيّة الخاطف الذي استطاع قتله، (ميْساء) في مشفاها وأبوها يجلس إلى جوارها، رجلٌ أرضي وزوجته الأديتية التي تهدهد طفلَها الهجين الذي لا يكف عن البكاء، وغيرهم كثير.

الجميع كان ينظرُ للرجل وهو يتحدّث عن قسوة الغزو وبشاعته، وأنّ الغزاة لا بدّ أن يتمّ الرد عليهم بأبشع الطرق التي يمكن فعلُها، عن الأجنة في بطون الأديتيات الذين يعتبرهم هو وزملاؤه كائناتٍ ممسوخة ينبغي التخلص منها. كانت بؤرةُ الكاميرا مركّزةً على وجهه، فبدتْ خلفه وجوه النّسوة مشوشة، وإنْ بدا للجميع أنهنّ أربع منتفخات البطون، واقفات وقد علّقت أذرعهن إلى الأعلى.

ارتشفتْ هيرمين ما تبقّى من شرابها دفعةً واحدة وهي تتابع المشهدَ في جمود دون أنْ تظهر على وجهها أيّ خلجة. كانت راضيةً عن إخراج المشهد وعن طريقة الملثّم في الحديث التي بدت مُقنعة تمامًا، ولكن كانت تشعرُ مع ذلك باضطراب في معدتها ممّا هو متوقّع الحدوث الآن. قال الملثّمُ بلهجة حاسمة "ما سنفعله بهؤلاء النّساء هو بدايةٌ لعهدٍ جديد من التّعامل معكم يا كائنات ما قبلَ التاريخ". قالها وأشار لزميله الواقفِ على يسار النسوة المعلقات.

اقتربتِ الكاميرا من الرّجل الذي أخرج من حزامه سكينًا كبيرًا مرّره أمام وجْه الفتاة وهي تنظرُ في هلع وقد انكتمتْ صرخاتها من الصدمة. "سيذبحها الملعون" قالها (لؤي) بغضب واشمئزاز، ولم تردّ هيرمين فهي تعرف أن ما سيفعله أسوأ. حافظتْ على جمود وجهها وهي ترى الرجلَ يمزّق بسكينه ملابس المرأة من فوقِ بطنها ثمّ يتحسّس أسفلها وهو يحرّك سكينه في الهواء بحركة استعراضية أغاظتْها لأنّها تنال من جدية المشهد، وتوحي بأنّه مجرَّدُ سادي مجنون.

رغمًا عنها اضطربتْ ملامحها وتسارع نبضُها وأحسّت بثقل أنفاسها وهي تشاهده يشقّ بطن المرأة حتّى أخرج جنينها وأسقطَه على الأرض، وصرخاتُ النساء تتصاعد، والدمُ ينزف من بطن المرأة بغزارة قبلَ أن تفقد الوعي. كادت هيرمين تقذفُ ما في بطنها حين نقلت الكاميرا صورة الجنين الذي كان مكتمل الملامح وهو يتقلّب قليلًا ثمّ تهمد حركتُه، وشعرت لحظتها بفداحةِ ما اقترحته لكنّها عادتْ تقول لنفسها إنّ الضرورة تجيز الممنوع.

انتقلتِ الكاميرا بين وجوه النّساء لتُظهِر هلعهنّ واحدة تلو الأخرى، وعندما وصلتْ للمرأة الثالثة، صرختْ هيرمين في هلع حين اكتشفت أنّ كميردا ضمن المخطوفات "كميردا!! لا.. لا.. أيها الحقير سوف أسحقُك بيدي.. أوه كميردا". مدّ (لؤي) يدَه ليحاول مواساتها فدفعته بعيدًا وصرخت فيه أن يخرج ويغلق الباب وراءه. خرجَ مستجيبًا لها مكررًا اعتذارَه عن خطأ لا يعرفه، وضغطت هي جهاز الاتّصال في معصمها محاولةً التحدث إلى شقيقها بدون جدوى.

أخذت تتابع المشهدَ والدموعُ تنساب من عينيها وهي تقول: "كميردا العزيزة.. البريئة.. سوف أقتلك لو مسّها سوء، أقسم أنّي سأذبحك بيدي". انتقل المشهدُ إلى الرجل الضخم ثانية، والذي قال: "سوف نقتلُ امرأة كلّ ستّ ساعات ما لم تصدر حكومتُكم أمرًا بإلغاء كلّ الزّيجات المختلطة، ومنع أي زيجات قادمة، وإذا لم تستجيبوا فسنكرّرها ونقتل غيرهن، وليعرف الجميعُ أنّنا انتظرنا كثيرًا ولكن للصبر نهاية".

توقّف الفيديو وأخذت هي تتجوّل في الغرفة كنمرة حبيسة، تقول لنفسها "لماذا اختارها هي بالذات! إنّها أكثر براءة من الجنين الموجود في بطنها، أليس للأبرياء مكانٌ في هذا العالم القذر؟". جلست على كرسيها وأسندت رأسها على المكتب وأخذت في الانتحابِ وهي تهمس: "أنقذْها يا ماجوها.. إن كنت موجودًا حقًّا أنقذها، فهذه المرأة تفعل كلّ ما في وسعها لإرضائك". أطلّت في رأسها صورة وجه كميردا المُلتاع وهي تنظر على الجنين الملقَى على الأرض، وبركة دماء أمه التي تحيطُ به، فارتفع صوتُ نحيبها أكثر، حتّى فتح الباب وأطلّ منه (لؤي) قائلًا بصوت خفيض: "سيدتي...".

نظرتْ إليه بغضب وهي تسأله: "ألم أخبرك أنّك تتركني وحدي!". تلعثم وهو يردّ قائلًا: "عذرًا سيدتي أردت فقط أن أطمئنّ عليك". نظرت إليه وملامحها مليئة بالغضب، ثمّ شردت قليلًا دون أن تتكلّم أو تأمره بالانصراف. اقترب خطوة بحذر، لم يصدرْ منها ردُّ فعل، فاقترب أكثرَ حتّى وضع يده على كتفها وربّت عليها.

رفعتْ رأسها نحوه وتأمّلت وهي شاردة ملامح وجهه القلقة، انْحنى عليها وهو يلفّ يده الثانية على رأسها ويهمّ أن يضمّها، فدفعته بيدها وهي تهتف به: "هل أنتَ أحمق.. هل تظنّني امرأة عادية تبحث عن رجلٍ يربّت عليها حين تبكي أم أنّ خيالك الأرضي المريض صوّر لك أنّ ما يحدث بيننا يعطيك ميزة... اذهب من هنا".

انصرفَ يجرّ أذيال خيبته، أغلق الباب خلفَه بهدوء شديد مخافة أن يزيد من غضبتِها. ضغطت جهازَ اتّصال معصمها بعصبيّة للمرة العاشرة وهي تتوعد شقيقها أناندار. تفكّر في ما دفعه لذلك هل يريدُ إغاظتها أو تذكيرها بقوته أو.. تراه يريد أن يساومَها على شركة من شركاتها أو على منصبٍ له. مصيبة كبرى إذا كان يفكر في ابتزازِها لتعطيه منصبًا صوريًّا في الحكومةٍ، أو لدعمه في شيء كهذا.. هل قرر أن يتّجه إلى السياسة؟

قطعَ أفكارها ورودُ اتّصال من شقيقها، فتحتْ بسرعة قناة الاتصال، ورأته أمامَها جالسًا في حوض استحمامه، وقال: "ألا يستطيع الرجلُ منّا أن يستريح في حمّامه دون إزعاج من امرأة؟". ردّت عليه بغيظ وهي تقذف صورتَه بقلم كان في يدِها: "أيّهاَ الملعون". ضحك بصوتٍ عال وهو يتناول كأسَ شراب من خادمته ثمّ قال: "أراهن أنّك تتواصلين معي لشكْري على ذلك العرض المؤثّر... لقد نفذنا خطّتك بحذافيرها".

سبّته بصوتٍ عالٍ بكلّ كلمات السباب التي تعرفها وهي تقول إنّها تفهمه جيدًا، وإنّه قصد أن يخطفَ كميردا لأنه يعرف كم هي مهمّة عندها،

فقال ساخرًا: "مهمّة؟! إنّها مجرد مساعدة ابنة كاهن صغير في إحدى قرى الساحل.. يمكن أن آتي لك بعشرةٍ بدلًا منها". لم تكُن تحبّ أن تشعره بأنه ينتصر، منذ صغرهما وهما لا يكفّان عن الشجار والتنافس، وكان الأبُ يشجّع تلك العلاقة ويرى أنها ستفرز أفضلَ ما فيهما. كان يؤهّل أختهما الكبرى للعمل في السياسة، لكنها انضمت للمقاومة وقُتلت على يدِ الشرطة، فقرّر أن يفصل بين هيرمين وأنادار ويضع لكلّ واحدٍ منهما اتّجاهًا مختلفًا، فتأخذ هيرمين طريق السياسة، ويبقى أناندار الصغير يُدير المنظمة.

كان أناندار يطمحُ للعمل في السياسة، فهو يعشق الظهور، وحاول كثيرًا مع أبيه، وكاد أبوه يوافقُ لكنّ هيرمين أصرّت على عدم التخلي عن هذا الطريق وأثبتتْ كفاءتها، فجعلها أبوها الوجهَ اللامع للعائلة، وأجبر أناندار على البقاء في الظلّ ما جعله يمقتها أكثر.

قالت له بفراغ صبر: "اسمعِ، ليس لديّ وقت لألاعيبك، أنت تعلم مكانتها عندي.. ماذا تريد مقابلَ إطلاق سراحها؟". رمى الكأس من يده وهو يتّهمها بالحمق ويقول لها إنّ ما تفكر به مستحيل، وإنّه لا يمكن أن يوقف عملية تكلفت الكثير. اقترحتْ عليه أن يتركها ويكملَ إعدام الباقيات، أو أيّ شيء آخر، فرفض وهو يقول إنّ العملية برمّتِها ستفشل، وستفقد مغزاها.

أخذتْ تخبط بقبضتها على فخذها في توتّر وهي تلعنه وتفكر، هل فعل ذلك لمجرّد أنْ يحزنها أو أنْ يستفزها، أو يريد شيئًا آخر ويريد أن يحصل على أقصى استفادة، فقالت بفراغ صبر: "ماذا تريد مقابلَ إطلاق سراحها؟". تظاهر بالدهشة وهو ينفي التهمة، ثمّ قال متظاهرًا بالعتاب: "هل معقول أنْ أفعل هذا بشقيقتي.. لو كان الأمرُ ممكنًا لأطلقت سراحها إرضاء لك".

لم تدرِ ما تقول، أطرقت مفكّرةً وهي تشعر بيأس عارم وتتمنى لو تقفز في الشّاشة فتنشب أسنانَها في رقبته. اعتدل أمامَها في حوض استحمامه، وقرّب وجهه من جهازِ الاتّصال وهو يقول: "هناك طريقة أخرى لكنّها قد تكلفني رقابَ ثلاثة من رجالي، ولا بدّ أن تعوّضيني في تلك الحالة". ردّت بغيظ: "سألتك من البداية لكنك استنكرت سؤالي أيّها الخبيث". لم يعقب وقال إنّه على استعداد أن يجعل كميردا آخر امرأةٍ تُقتَل، وسيُبلَغ زوجها بمكانِ الاحتجاز فيذهب كالفارس المغوار لتحريرها بنفسه.

"وكيف إذا أمسك أحدُ رجالك وأخبره باسْم مَن يعمل له؟". ابتسم في ظفر وقد شعر أنّها صارت طوع بنانه وقال: "سيهرب القائمون بالتنفيذ قبل وصوله ولكنّي سأترك له ثلاثة حرّاس يعطلونه ويسهل عليه قتلهم حتّى إذا وجدها وحدها ظنّ أنّ المنفذين هربوا وقتَ اشتباكه مع الآخرين".

أطرقتْ برأسها مفكّرة ثمّ سألته: "وما الثمن؟". فقال: "أنْ آخذ عقد هدم منشية ناصر، وإعادة بنائها، وإدارة المنتجع بعد بنائه". اتسعت عيناها في دهشة وهي تفكّر كيف عرفَ بذلك الاتفاق، ولكن قبل أن تسأله أكمل قائلًا: "لا تحاولي معرفة كيف وصلتني المعلومة، ما يهمّ الآن هو أن تقرري، لديك اثنتا عشرة ساعة للتفكير إذا وافقتِ سنتواصل على قناةِ العقود، وتتنازلين لي عن أيّ عقد تفوز به شركاتك خلالَ الثلاث السنوات القادمة، وتتعهّدين بأن يكون ضمنها عقد إنشاء وإدارة منتجع سياحي بذات المساحة". صمتتْ وقد عقدت لسانها المفاجأة، فأكمل قائلًا: "فكري هل تساوي مساعدتك هذا المبلغ أم لا؟ ثمّ أخبريني".

***

٢٦

كلّ شيء تغيّر في القاهرة بعدَ الغزو إلّا عربات المترو القديم ومحطاته ظلّت كما هي لم تتغير، فيما عدا أنّ نهاية الخط لم تعدْ تصل إلى حلوان بل تتوقف عند طرة؛ حيث الحدودُ بين الأراضي المحتلة وحلوان. في محطة المرج اندفع (ضياء) خارجًا من المترو فورَ فتح الأبواب وخروج طوفان البشر متجهين إلى المرج التي لا يصل إليها أحدٌ من النياندرتال عادة إلّا رجال الشرطة والقليل جدًّا من الموظفين.

خرجَ من المحطة، ثمّ ركب إحدى مركبات النقل خارجها، وهي مركبات صغيرة تطيرُ على ارتفاع لا يزيد عن نصف متر، وتتّسع الواحدة منها لستة أشخاص مكدّسين، تعمل آليًّا بدون سائق في خطوط محدّدة تغطي المناطق والأحياء البعيدة عن القطار الكهربائي والمترو. في العربة كانت الشاشة تعرض إعلانات التّوعية نفسها الموجودة في المترو. إعلانات تؤكد على موعد التطعيمات، إعلانات تذكّر بفائدة الزواج من أديتيات، إعلانات تذكر بضرورة أن تجري عملية تعقيم لزوجتك الأرضية إذا أنجبت طفلتين لأنّها لو أنجبت طفلة ثالثة فسيتم ترحيلكم جميعًا خارجَ أديتيا، وإعلانات أخرى توضّح فارق التقدم والحضارة بين أديتيا وباقي دول العالم.

وصلَ إلى ناصية الشارع الذي يريده، مشى لمسافة قصيرة ثمّ دخل زقاقًا وانحرف بعدها إلى زقاقٍ آخر سار إلى نهايته المسدودة ثمّ فتح البوابة الحديدية للبيت الموجود على يمينه. صعدَ طابقًا واحدًا، طرق الباب فانفتح وحده،

دخل غرفة النوم وفتحَ خزانة الملابس التي دخل منها إلى أنبوب منزلق كانت فتحته مغطاة بالثيابِ المهملة. نزل في الأنبوب مسافةَ ستّة أمتار ثمّ وجد نفسه في قاعة محاضرات صغيرة جلسَ فيها ما يقارب العشرين فردًا شاخصين بأبصارهم إلى المنصّة التي جلس عليها ماندريك وعمر والعقيد عماد.

جلسَ على أول كرسي فارغ قابله، وصرف انتباهه تمامًا للعقيد عماد الذي كان يتحدّث عن خطورة واقعة اختطاف النساء الحوامل وعن تداعياتها وكيف سيستغلّها الغزاة للدعاية لمخطّطاتهم أو لتبرير جريمة جديدة ينتوون القيام بها ثمّ ختمَ كلمته قائلًا: "لدينا أيضًا التزامٌ أخلاقي تجاه نساء يتعرّضن لهذا لمثل هذا الفعل البشع".

عقدَ (ضياء) حاجبيه في غيظ مفكرًا في جدوى تلك العمليات التي قررت إدارة المخابرات القيام بها بدون سبب مُقنع له. لا يعقل أن يبذلوا مجهودًا خرافيًّا ومخاطرة كبرى من أجل القبض على أربعة شبّان ثمّ عملية أخرى لتسليمهم وثالثة لتحريرهم، والآن عملية لتحرير أسيراتٍ من النياندرتال "ما لنا وهذا! فليحترقوا جميعًا".

انتبهَ على صوت عماد وهو يطلبُ تشغيل الفيديو ليس فقط لتذكير المجتمعين ببشاعة ما يحدث؛ بل لتحليل محتوياته مبدئيًّا. لم يكن (ضياء) قد شاهد الفيديو من قبل، ولذلك تصاعد الدمُ إلى رأسه عندما رأى ما يحدث، شعر بغضب عارم لم يشعرْ به من قبل، وأقسم لنفسه أنّه لو استطاع لمزق هؤلاء الملاعين بيديه. لم يتعاطفْ من قبل مع الأديتيات حتّى اللواتي تعرّضنَ لتعذيب في فيديو سابق لكن رؤية هذا الفيديو كانت أشبهَ بمشاهدة

فيلم رعب رخيص لم يجدْ مؤلّفه فكرة يطرحها فأكثرَ من المشاهدِ التي تثير امتعاضَ المتفرّج، أو تثير أحقرَ غرائزه إنْ كان مريضًا.

"مِن الرؤية الأوليّة لهذا الفيديو يتّضح لنا أنّ هؤلاء الرجال محترفون، كلماتُهم وحركاتُهم محسوبة، ويبدو أنّهم من النوع الذي لا يوجد لديْه خطوط حمراء ولا خلفية أخلاقية، من المرجّح أنّهم أصحابُ تاريخ إجرامي طويل". قال عمر، فعقّب عماد: "ولذلك فقدِ اخترنا اثنين من رجالِنا الذين لهم خبرة في العمل مع الشّرطة بعد الاحتلال"، أشارَ عماد لضياء الذي انتصب واقفًا ثمّ أشار عُمَر لرجل خمسينيّ في الصفوف الأولى، فقام بدوره.

طلبَ منهم عماد أن يفحصوا كلّ شيء يخصّ الرجالَ في الفيديو أن ينظروا إلى عيونهم؛ لغات الجسد لديهم، أيديهم المكشوفة، مشيتهم.. أيّ شيء قد يفيد في التعرّف عليهم. أضافَ ماندريك: "سيقوم أحدُ مهندسينا بتعديل الصوت لإزالة أي تعديلٍ عليه لتسمعوا صوتَ الرّجل على الطبيعة، فقد يُفيد ذلك في التعرف عليه".

وضح- أيضًا- أنّ الصوت قد تمّ تعديلُه بتقنيات أديتيّة، وسيستطيع مهندسوهم بفصل المكونات الصوتية المختلفة للفيديو، وبالتعاون مع مختصّين مصريين قد يمكنهم استخلاصُ صوتٍ أو أصوات تساهم في تحديد مكان التصوير. هناك آخرون سيحاولون تتبّع البثّ في المرّة التي يذيعونَ فيها ثانية، ورغم معرفتهم بأنّ مصدر البثّ يكون مشفّرًا بطرق مُعقدة فإنّ الرجال في المقاومة لديهم تقنيات متطورة قد تساعدُ- على الأقلّ- في تضييق نطاق البحث.

"أمامَنا ثلاثُ ساعات فقط قبلَ تنفيذ عملية الإعدام القادمة نرجو أن يكون تمّ التوصلُ إلى شيء قبلها، أو على الأقل نكون قدِ اقتربنا"، قال ماندريك مختتمًا الاجتماع ومتوجّهًا بصحبةِ رفيقيْه إلى غرفة مُغلقة لعمل اجتماعٍ آخر تنسيقي. قام (ضياء) متوجّهًا للرّجل الخمسيني، وانضمّ لهما شابّ أديتيٌ قادهم نحوَ ممرّ صغير دلفوا منه إلى غرفةٍ فيها عدّةُ أجهزة وثلاثةُ مقاعد.

أخرجَ الرجل الخمسيني ورقة وقلمًا، وقال لضياء: "اعذرني أنا أفضّل الطرقَ القديمة، سندوّن ملاحظاتنا هنا ثمّ نصنّفها بطريقة تسهّل علينا الاستفادة منها". فهزّ (ضياء) رأسَه موافقًا دون أن يعقب.

بدأ الفيديو وأوقفَه الرجل بعدَ ثانيتين ثمّ طلب من المهندس تكبير الصورة وركّزَ على عيْن الرجل وخمّن عُمرَه منها قائلًا إنّه بين الأربعين والخامسة والأربعين. استمرّ في تشغيل الفيديو مسجلًا ملاحظاتٍ دقيقة على الرجل تخص كلّ شيء يظهر منه بطريقةٍ أثارت إعجابَ ضياء. مرّ أكثرُ من ساعتين حتّى دون الرجلُ كميّة ملاحظات كبيرة على الرجال الثلاثة، وعلى المكان المتواجدين فيه، والنّساء المختَطَفات، بل وماركة السّكين المستخدَم، وكان (ضياء) يساعده ببعض الملحوظات هنا وهناك.

بعدَ الانتهاء من تحليل الصورة جاء دورُ تحليل الصوت بعدَ إعادته إلى أصلِه. حين استمع (ضياء) إلى الصوت أحسّ أنّه مألوفٌ لديه، سمعه من قبل لكنّه لم يتذكرْ أين أو متى، قبلَ الغزو أو بعده، في قسم الشرطة أو في مكان آخر. بدأ الشابّ الأديتي الدخولَ على الملفّات الخاصّة بالشرطة، والمسجّل عليها بيانات المتّهمين في قضايا في العشرين سنة الأخيرة، والذين يطابقون المواصفات التي استطاعوا استخلاصها من الفيديو.

قبلَ أن تصلهم النتائجُ جاءهم فيديو جديدٌ للجريمة الثانية. تحمل (ضياء) مشاهدةَ الفيديو بصعوبةٍ وهو يرى الرجلَ يلوّح بسكينه، ويقترب من المرأة، ويحرّك فمَه بالقرب من أذنها كأنّه يهمس لها. فجأة صرختِ المرأة في هيستريا وانقضّت بأسنانها على أنفِ الرجل، ولم تتركه إلّا وهو يدمي، وقد انكشف جزء من قناعه فبانَ أثرُ جرح يمتدّ من أسفل جفنه إلى خدّه. أوقف الفني الأديتي الفيديو وكبّر اللقطةَ واستطاعَ استخلاص صورةٍ للجرح ليستخدمَها في برامج تحديد الهوية، إضافة إلى المُعطيات الأخرى.

طلب منه (ضياء) إكمالَ الفيديو، وبدأ يظهر فيه ردُّ فعل الرجل على المرأة المسكينة. كان بشعًا لدرجة أنّ دمعة غلبت (ضياء) وهو المعروف عنه صعوبة البكاء. استأذن الفنّي منهما فهوَ لا يقدر على إكمال المشاهدة فالتفت الرجل الخمسيني إلى (ضياء) وسأله بملامح جامدة: "هل تقدر إكمالَ الفيديو معي أم..." ردّ عليه (ضياء) بحنق: "ماذا.. ألا يحقّ لي أن أشعر بالتأثر قليلًا؟". فأجاب الرجل: "بلى.. ولكن إذا أردت ألّا يتكررَ ذلك للمرأتين الأخريين فعليك أن تتماسك".

ضغطَ (ضياء) على نفسه، وحاول التركيز أكثر في الفيديو. كان يأمل أن تحدثَ معجزة ما مثلَ الأفلام القديمة فيظهر وشمٌ على يدِ أحدهم، ويتذكر هو أنه أمسكَ تلك اليد، ووضع فيها الأصفاد، ثمّ يتذكّر اسمَ المجرم، لكن للأسف لم يحدث ذلك، ما حدث فقط هو أنّه يشعر أنّ صوتَ الرجل مألوف جدًّا، يكاد يرى وجهه لكن تضيعُ ملامح الصّورة في اللحظة الأخيرة.

مرّت ساعةٌ أخرى وردتْ لهم نتائج البحث، استطاع الخبراء التعرف على المجرم ذي النّدبة؛ كانت مواصفاته مطابقةً لأكثر من مائة وعشرين رجلًا، لكنّ واحدًا فقط كان لديه النّدبة نفسها. تفحّص (ضياء) صورَ جميع المجرمين الذين تنطبقُ مواصفاتهم معَ صاحب الصوت، لكنّه لم يجد منهم وجهًا مألوفًا. حاول- أيضًا- أنْ يستطلع صورًا أخرى لأشخاصٍ يشتبه أنّ أحدهم هو الرجلُ الثالث في الفيديو بدون جدوى.

بدأتْ عملية البحث عن الرجل الذي تمّ التعرفُ على شخصيته لكنه قد اختفى من السّجلات وليس لديه عائلة أو امرأة أو أيّ خيط يقود إليه. بعد مرور خمس ساعات على بدْء المهمّة ومرورِ ساعتين على إعدام المرأة الثانية لم يتم التوصل إلى شيء غير مجموعة صورٍ لُمشتبه بهم يستحيلَ التأكدُ من مكانهم جميعًا في الوقت المناسب.

خرجَ (ضياء) للقاعة الكبرى، رأى المقدم إياد، سأله عن آخر المستجدات فقال له: إنّهم حدّدوا مكانَ إرسال الفيديو بمنطقة كبيرة تمتدّ من منشية ناصر حتّى منطقة الخليفة، وإن كان المرجّح أنّ المصدر في منشية ناصر. "هل توصلتم إلى شيء". سأله (إياد) فقال (ضياء) في يأس: "تأكّدنا من شخصية أحدهم لكنه لا أدلة عنْ تواجده، ولدينا نحو مائتي مُشتبه يحتَمل أنّ اثنين منهم همَا...." لم يكمل جملته وشردَ قليلًا فسأله إياد: "ماذا هناك؟".

تركَه (ضياء) وركضَ نحو الغرفة دون أن يستأذن منه، وطلب من التقني أن يستخرجَ له صورَ المجرمين الذين حكم عليهم بالإعدام وتنطبق عليهم مواصفات الرجلِ صاحبِ الصوت. فعل التقني ما طلبه فأخرجَ له صور تسعة أشخاص تأملهم مليًّا، ثمّ استخـرج واحدًا منهم وقال: "هذا هو. لقد تذكّرته،

كنت قد شاركت في قضيّته وأنا ضابط صغير قبلَ الغزو.. لو بحثنا عن زوجته فسنصلُ إليه حتماً إنها تعيشُ في دار السلام". ردّ عليه التقني: "لو أمسكنا بها فيمكن أن نجبرها على الاتّصال به، وعندها يمكن تحديد مكانه بسهولة".

***

٢٧

ظلّ (باسل) يدورُ في مكتبه كالمجنون ينتقلُ بين جهاز الاتصال وشاشة تحديدِ المواقع التي تكشف له مسارَ دوريات البحث عن كميردا والنساء المخطوفات معها. لم يبقَ من الزمن إلّا ساعة فقط على عملية الإعدام القادمة، قتل الخاطفون امرأتين وبقيتْ كميردا وامرأةٌ أخرى. كان مرعوبًا أن يكون الدورُ عليها هذه المرة فقدْ شعر بأنّ الله أنقذها في المرة السابقة حين رأى الرجل في الفيديو يقترب منها ثمّ يتراجعُ لسبب ما لا يعرفه، ويتّجه للمرأة التي بجوارها.

في الساعات السابقة تمكّن الرجالُ في الشرطة من تحديد منطقة واسعة يبثّ الفيديو من نقطةٍ فيها، كانت المنطقة تشملُ جزءًا من منشية ناصر ومساحة واسعة مِن منطقة المقطم، وقد سيّر ستة دوريات تسير بين شوارع تلك المناطق لعلهم يلمحونَ أيّ شيء يدلّهم على مكانها، وقام مديره بتوجيه مئاتٍ من الطائرات الدقيقة الإضافية في تلك المناطق للمساعدة.

لم يكنْ يتخيّل أن يشعر بكلّ هذا الحزن والرعب من أجلها، كان يعتبرها شيئًا هامشيًّا موجودًا في حياته هي وجنينها أيضًا. كان إذا خطرَ بباله أن المستحيل قد يحدث وينتصرُ الأرضيون ويطردون النياندرتال، يصابُ بالذعر فقط لتخيله أنه سوف يقبضُ عليه ويحاكم بتهمةِ الخيانة، ولم تضايقه فكرة أنها ستختفي وتعود إلى كوكبها هي وابنه منها. اليوم شعرَ أنّه هو مَن يتعرض لتعذيب وحشي، وأنّه هو من يرى نصلَ السكين على وشك الغوصِ في لحمه،

كان يشعر بالتصاق حلقه كأنه هو الأسيرُ المحروم من الماء، لا هي، بل كان يشعر وهو يشاهد الفيديو أن ذراعيه تؤلمانِه كأنّهما معلّقان فوق رأسه. بكى حين شاهدَ دموعها وبكى أكثر حين لمح في الفيديو بقعةً كبيرة من البول أسفلَها، وتخيّل الإحساس الذي دفعها لإفراغ مثانتها على فخذيْها.

فُتح بابه فجأة، فنهَرَ الجندي الذي فتحه ولم يستأذن، لكن الجندي أقسم أنه طرقَ الباب أكثرَ من مرّة. "ماذا تريد؟" قال بضيق وهو يجلس، فردّ عليه الجندي وهو يمدّ له ورقة صغيرة؛ اتصلتِ امرأةٌ على الهاتف المركزي وطلبت أن تكلمها مِن جهازك الشخصي على هذا الرّمز للأهمية". لوّح بيديه بما يوحي بعدم الاكتراث فقال الجندي: "قالت إنّ الموضوع مسألة حياة أو موت، وستضيع فرصة لإنقاذ ما يمكنُ إنقاذه لو لم تتّصل خلال دقائق".

انتفضَ من على كرسيه قائلًا: "هل تتبّعتم مصدر المكالمة؟" تلعثم الجندي وهو يقول إنّ مصدر المكالمة كان مشفّرًا ولا يمكن تتبعه، تردّد قليلًا ثمّ أضاف: "قالت أيضًا لا تحاول تتبّعها حين تتصل بها". أشارَ إليه بالخروج ثمّ فتح شاشة الاتّصال وضغط رمزَ الاتصال، ردّ عليه صوتٌ أنثوي: "إذا أردت أن تنقذ زوجتك قابلني أمامَ النّصب الموجود في تقاطع شارع النصر مع امتداد شارع رمسيس.. تعالَ وحدك، لو أبصرنا أحدًا معك أو أنّ هناك من يتبعك فسنختفي وستفقد فرصتك".

انطلقَ على دراجته من فوْره اتجاه نقطةِ اللقاء بعد أن عيّن أحد زملائه مكانه في العمل. وصلَ هناك فوجد المكان خاليًا. أخذ ينظرُ يمينًا ويسارًا

وهو يسبّ ويلعنُ أصحابَ الاتصال، رنّ جهازه ثانية فسمع ذات الصوت يقول: "ستمرّ من جوارك مركبةٌ الآن، سرْ جوارها ثمّ ادخلْها حين ينفتح الباب".

لم يكدْ ينتهي الاتصال حتّى مرّت جواره المركبة وهي تسير ببطء، بدأ يسير ببطء إلى جوارها، انفتح بابُ المركبة فدخلها بدراجته وانغلق الباب خلفه. كان يجلسُ في المركبة رجلٌ ثلاثيني مألوف الملامح، وامرأةٌ فيروزية العينين شعرها مزيجٌ بين البني والأشيب، تبدو في عقدها الخامس من العمر. "أهلاً يا (باسل)" قال الرّجل. "أنا (ضياء حاتم) ، كنت أعملُ معك في الشرطة تقابلنا عدة مرات". نظر للرّجل بشكّ، فهوَ لا يذكر الاسمَ وإن كانت الملامح مرّتْ عليه من قبل، سأله بحزم: "هل أنت الآنَ مع المخربين؟ وهل أنتم حقًّا كما أعلنتم في بيانكم تحاولون تحريرَ المخطوفات؟".

قالتِ المرأة: "سيد (باسل)، الوقت قصير جدًّا، نحن الآن على وشك تحديد مكانِ احتجاز زوجتك، سيردُ إلينا موقعها خلال دقائق". سألها (باسل) إن كانوا ماهرينَ إلى هذه الدرجة، فلماذا لجأوا إليه؟ لماذا لم يحرّروهن دون الاتصال به، وكيفَ سيحددون موقعهن. ردّ عليه (ضياء) بفراغ صبر: "لنا طرقنا وسنطلعك عليها فيما بعد، المهمّ نريد تعاونك هل ستشارك في تحريرهن أم لا؟".

ردّ عليه (باسل) بحدة، تدخّلت المرأة وقالت: "نريدك أن تشارك معنا لتكون شاهدًا على أنّنا بذلنا ما بوسعنا لتحريرهن لو ساءت الأمور لا سمح الله". شبك أصابعَ يديه وأخذ يحرّك إبهاميْه في عصبية ثمّ سألها: "صوتُك يبدو مألوفًا لي". ردّت عليه: "يمكن أن نناقش هذا الأمر لاحقًا، المهمّ ردُّك

الآن هل أنت معنا.. إذا كنتَ تريد استشارة أحدٍ من رؤسائك فلا مانعَ لدينا، ثمّ..“، قاطعها كلام قائد المركبة: ”لقد حدّدوا الموقع، وأرسلوا لنا الإحداثيات“.

نظرَ الاثنان لباسل مُنتظرين ردَّه، فقال: ”هيّا أنا معكم لكن لن أكون مدينًا لكم بشيء، أنا صديقكم حتّى نحرّرهن، وبعدها ستعودون كما أنتم أهدافًا مشروعة لي“. ضحكَ (ضياء) وقال بسخرية هو يومئ برأسه اتّجاه المرأة التي أشارت للسائق بالتحرك: ”لقد كانت على وشك أنْ تقع بأسرك ذاتَ مرّة“. نهرته المرأة ونظر لها (باسل) متفحّصًا ثمّ قال: ”أنتِ متنكرة.. أليس كذلك؟“. ردّت عليه بالإيجاب ثمّ طلبتْ منه أن يخرجَ دراجته من المركبة بسرعة ويتخلّص من أجهزته التي يمكن بها تتبّعه، حاول الاعتراضَ لكنّها أصرّت وأوقفت المركبة مخيرة إياه بين إنزال دراجتِه وحدها أو النزول بها. وافقَ على مضض وانطلقت المركبة في طريق النّصر غيرَ مبالية بانكشافها، فقد كانت جميعُ الطائرات في المنطقة مشغولة بالبحث عن المخطوفات.

بعدَ دقيقتين انعطفتِ المركبة يسارًا في مدخل منشية ناصر من جهة الدويقة، وتوجّهت نحو سفحِ الجبل مباشرة مُنعطفة في شوارع ضيقة وعندما أصبح على مرمى البصرِ توقّفت المركبة، ثمّ قالت المرأة: ”لقد اقتربنا، سننزل هنا ثمّ سنمشي بقية المسافة“.

لم يكنِ الوقتُ في صالحهم فلم يبقَ أكثر من عشرين دقيقة على عملية القتل القادمة. مشى ثلاثتُهم مُسرعين في أزقّة ضيقة، وبعد حوالي مائتي متر قابلهم أربعة آخرون مدرّعون ومُسلحون. كان (باسل) مُغتاظًا لأنهم

جرّدوه من أسلحته لكنه لم يجدْ بدًّا من الموافقة، فهو سيذهب ليحرّر زوجته ولو بيديه العاريتين.

ظهرَ من أحدِ الأزقة مجموعة أخرى من خمسة، وبذلك صار العدد اثني عشر، وكان بينهم قائدُ العملية، بدَا رجلًا أشيبَ في العقد الخامس من عمره، وزّعهم أربعةً في كلّ جهة ليحاوطوا البيتَ الموجود به المختطفات. كانت المرأة- وهي (ميْساء)- متنكّرة مع (باسل) ورجليْن آخرين؛ أحدهما من النياندرتال والآخر أرضي. كانت تشعرُ باضطراب لوجودها جوارَ رجلٍ حاول قتلها من فترة قصيرة وتراجعَ في اللحظة الأخيرة لسبب لا تعرفه.

أصرّت على الاشتراك في تلك العملية، وأقنعت العقيد (عماد)- الذي يقودُها- أنّها تستطيع إقناعَ (باسل) بالتواجد معهم في أثناء تحرير المختطفات. كان ماندريك صاحبَ فكرة إحضاره لأنّ المهمة تنطوي على مخاطرة كبيرة بفقد الرهائن، وعندها سيقع اللومُ على المقاومة، لكن لو حدث ذلك و"باسل" معهم فسيكون شاهدًا من أهلها. تلقّفت (ميْساء) الفكرة، وطلبت أن تحضر (باسل) هي وضياء الذي قال إنّه قد تقابل مع الرجل مرّاتٍ قليلة في دورات تدريبية كان النياندرتال يقيمونها للأرضيين الذين يعملون معهم في الشرطة.

تبقّى من الزمن عشرُ دقائق فقط، بدأ الاقتحام وكانت التعليمات هي محاولة عدم إصدار جلبةٍ قدرَ الإمكان حتّى لا ينتبه المتواجدون بالداخل فيقدمون علَى قتل المرأتين مرّة واحدة. كانت التقديراتُ أنهنّ مُحتجزات في الطابق الثاني ولذلك قام اثنان بالتسلق من الجهةِ الشرقية للبيت،

واثنان من جهتِه الشمالية للتسلل من الشّرفات، ودخل خمسةٌ من المدخل، كان (باسل) و(عماد) و(ضياء) في المقدمة خلفَهما (ميْساء) والأديتي.

كان مدخلُ البيت خرسانيًّا لا توجد بوابة تغلقه، بيت من أربعة طوابق، في كلّ طابق شقتان، لا يثير الريبة أو يعطي انطباعًا أبدًا أنّ جريمة بهذا الحجم تحدث داخلَه. صعدوا الدرجَ للطابق الأول دون أن يصادفهم أحد فقد كانت أبواب الشقتين في الطابق الأرضي مغلقتيْن. في الطابق الأول فوجئوا برجلين يقفان أمام باب مفتوح، فوجئ الرجلان برؤيةِ الموكب الصّاعد على الدرج وقبل أن يقوم أحدهما بالتحرّك أطلقَ (عماد) و(ضياء) عليهما قذائف أسقطتهما دون صوت.

أشارَ (عماد) لضياء والأديتي بتمشيطِ الشقة للتأكد من خلوّها من أحد، وأكمل طريقَه للطابق التالي يتبعه (باسل) وميساء. سمعوا صوتًا لسقوط أشخاص على الأرض قادمًا من الشّقة بالطابق الأول فأجفلت (ميْساء)، لكنْ عماد أشار لهما بالاستمرار. وقفوا في الطابق الثاني ولحقَ بهم (ضياء) و(باسل)، كان هناك بابان، أشارَ عماد لضياء والأديتي للوقوف على الباب الأيمن متأهّبين لاقتحامه، ووقف هو وميساء وجواره (باسل) أمامَ الباب الأيسر. ضغطَ (عماد) على زرّ في جهاز معصمِه ليُعطي الإشارة للمتربّصين عند الشرفات للاقتحام المتزامن معهم. بدأ يعد للعشرةِ بهمس وهو يشير بأصابعه، ولكنّه عندما وصل لرقم أربعة دوّت صرخةُ امرأةٍ من الباب الموجود على النّاحية اليمنى، فأشار لضياء ببدء الاقتحام وأشار لمَن معَه بترك بابهم، والاشتراك في اقتحام الباب الآخر.

٢٨

قبلَ ساعة من بدْء الاقتحام، كانت كميردا معلقةً كما هي تنتظر ما ستأتي لها به السّاعات التالية وهي تحاول الاستسلامَ لمصيرها، وإبعادَ أشباح الألم والفزع من أمامها. "بقيتْ ساعة ولا أحد يهتمّ لمصيركن". قال أحدُ الرجال بتشفّ، فأخذت المرأةُ المعلقة جوارَ كميردا تصرخ في فزع وهي تقول إنّها لا تريد أن تموت. حاولتْ كميردا تهدئتها بكلماتٍ تخرج بصعوبة من فم لم يذق طعمَ الماء منذ ساعات طويلة: "ماجوها سيعوّض أرواحنا عن هذا العَذاب، اهدئي يا صديقتي".

ردّت عليها المرأة وهي تبكي مُنهارة وتقول: "ولماذا يتركنا لهؤلاء الوحوش يعذّبوننا.. لا أريد منه تعويضًا عن العذاب؛ أريده أن يمنعه من البداية". تمتمت كميردا ببعض الأدعية وهي تحاول إقناعَها بأن تتحلى بالهدوء والشجاعة فكلّنا سنموتُ في النهاية، فقالت المرأة: "نعم، ولكن أليس من حقّ أولادنا أن يذوقوا طعم الحياة قبلَ أن يُحرَموا منها؟!". لم تقدّر كميردا على الرد، وانخرطت في بكاء صامت هي الأخرى، وهي تنظر إلى بطنها وتتمتم بأدعيتها ثانية.

اقتربَ الرجلُ الضّخم منها، ورفع ذراعيه فوقَ رأسها، وفكّ الحبل من الجنزير المعلّق للسقف. أنزلت ذراعيْها للأسفل وهي تكاد لا تشعرُ بهما، وعيناها معلّقتان بوجهِ الرجل تحاول أن تستشفّ ما ينوي فعله بها. انهار جدار التماسك الذي تحاولُ الاستناد عليه، وأخذت تبكي متوسّلةً للرجل

مستحلفةً إيّاه بربّه ونبيّه أنْ يعتقها: "أرجوك... ماذا ستكسب من قتلي... أرجوك".

لم يردّ عليها الرجلُ وجرّها بغلظةٍ اتجاه باب إحدى الغرف وهي تتوسل له. مشتْ خلفه بصعوبة وهي تشعرُ بآلام في ساقيها ووهنٍ شديد في جسمها كله، إلى أن دخلتْ غرفةً صغيرة كان فيها شاشتان؛ واحدة فيها أناندار الصّغير والثانية فارغة عبارة عن ضوءٍ أبيض خالٍ من التفاصيل. "أهلًا يا كميردا.. اعْذريني على هذا، لكنّ ماجوها سيقدّر تضحيتك بالتأكيد". قالها وشبحُ ابتسامة ساخرة يلوح على وجهه فسألتْه بحيرة: "سيد أناندار، ماذا تقصد؟ وما علاقتك بهؤلاء الوحوش!؟".

ضحكَ الضخم ضحكةً قصيرة فنظرَ له أناندار محذرًا فكتم ضحكته وعاد لوجهه الجاد. كان أناندار الصغير يحملُ ملامحَ لا تمتّ للصغر بصِلة، فالتجاعيدُ تحيطُ بعينيه وزاويتي فمِه العريض الذي يحيط بأسنانٍ قاسية المظهر، واللحية الخفيفة النّابتة على وجهه قد خالطَها الشّيب. شرحَ لها أناندار فكرة الخطف والغرضَ المقصود منها، وأنّ الفكرة كلّها من ترتيب الحكومة، نظرت له مصدومة وقالت: "أنت تكذبُ، لا يمكن أن يكون ذلك حقيقيًّا، إنّها فكرة إجرامية منك أنت.. أنا أعرفُ حقيقتك". ضحك هو هذه المرّةَ بصوت عال وهو يسألها كيف سيكون ردّ فعلِها إذا عرفت أنّ عزيزتها هيرمين هي صاحبةُ الفكرة، وهي مَن استأجرته للقيام بها.

"ألهذه الدرجة تحقدُ عليها، أتَصلُ بك الوقاحةُ لتلفيق تهمة كهذه لأختك". قالت له وقد أنساها انفعالُها حقيقة الموقف السيئ الذي هي فيه،

لكن الغضب الذي بانَ على وجهه ملأها رعبًا ثانية، خاصّة عندما قال: "اخرسي أيتها المرأة الحمقاء.. هيرمين هي صاحبةُ الفكرة وأنا المقاول فقط". دمعتْ عيناها ثانية وهي تردّ بصوت أقربَ للنحيب: "لا يمكن أن تفعل السيدة هيرمين هذا بي.. إنها تحبني".

اعتدلَ الرجل وهو يقول: "حسنًا.. خطفك أنت بالذات كان فكرتي أنا، لكن هذا لا يمنع أنّها ترفض أن تفتديك بعقدٍ ستحصل عليه مقابلَ نجاح هذه العملية". نظرتْ إليه بحيرةٍ وهي تسأله عن قصده، لم يردّ عليها وضغط جهاز اتصاله، فعَلَا صوتُ طنين ثمّ ظهرت صورةُ هيرمين على الشاشة الثانية. نظرت هيرمين بلوْعة لصورةِ كميردا أمامها وقالت: "كيف حالُك يا عزيزة القلب؟". قالت كميردا وقد بلغ الذّهولُ منها مبلغه: "لا أعلم.. إنّه يقول كلامًا غريبًا ثمّ أنت.. لم يبدُ عليك الاندهاش.. هل حقًّا.. يا إلهي".

اختلطَ صوتُ هيرمين وهي تردّ عليها بصوت أناندار ولم تفهم شيئًا من كليْهما، حتّى علا صوتُ أناندار وهو يقول: "ليس هذا موضوعنا.. صديقتك أمامك يا هيرمين إذا أردتِ أن تنقذيها فليسَ عليك سوى أن توافقي على شرطي". ردّت عليه هيرمين وهي تتّهمُه بالجنون والخسّة، وتكيل له اللعنات. لم تفهم كميردا موضوعَ التّفاوض بينهما لكنّها فهمت أنّ أناندار يستغل حبَّ هيرمين لها للضغط عليها، لم تفكر لحظتَها إلّا في فرجة الأمل التي لاحت لها ولجنينها، فهتفت متوسّلة: "أرجوك يا سيدتي، أعطيه ما يريد، أنقذي طفلي أتوسّل لك".

سكتتْ هيرمين ولم ترد، وكميردا تعيد عليها التوسلَ وقد أحسّت أن هذا الصمتَ نوعٌ من الضعف، شرخ في جدار رفضها لطلب شقيقها، وقد يدمّر هذا الجدار تمامًا لو واصلتْ توسّلاتها وبكاءها. "أنت لا تتخيلين يا سيدتي.. لقد شقوا بطنَ امرأتين، لقد رأيت الأطفالَ يتحركون قبل أن يموتوا، كلّ أمّ كانت تحتضر وهي تشاهدُ جنينها يموت أمامها.. أرجوك سأساعدك في تعويض أيّ خسارة.. سأكون خادمتك للأبد بدون مقابل".

ردّت هيرمين بصعوبة: "كميردا... أنا..". فضحك أناندار بسخرية وهو يقول: "المالُ يا كميردا والسلطةُ تجعل الشخصَ يقتل أبناءه بيديه أحيانًا... من المُمكن أن أعطيها فرصةً للتفكير؛ بضع ساعات أخرى لكنّي أعرف شقيقتي". نظرتْ لها كميردا ثانية وأعادتْ توسّلاتها وقد نسيت أو تناست فداحة ما أقدمت هيرمين عليه، وأخذت تتوسّل إليها بكلّ ذكرى لهما معًا؛ لم تتوسل لها بماجوها أو قدّيسيه أو كهنتِه؛ فهي تعرف أنّ هيرمين غيرُ متدينة، لكنّها رغم ذلك ذكرتها به في ختام توسّلها.

"أنا آسفة يا كميردا، لا أستطيع". قالتها هيرمين وأغلقت الاتصال تاركة كميردا في صدمة لا تقلّ سوءًا عن شعورها بأنّها على وشك القتل بأبشع الطرق. قال أناندار وقد بدَا عليه التأثر: "أنا أيضًا آسفٌ يا كميردا، إنّها مسألة استثمارات ولكنْ أرجو أن تكوني قد أدركتِ أنّ الشيطان الذي يفصح عن نفسه أقلّ نجسًا من شيطانٍ يتظاهر بالطهر".

قادَها الضخمُ لمكانها الأول في تشفٍّ وكأنّه كان يخشى أن تضيع منه فريسته، علّق ذراعها في مكانها بدون مقاومة منها، وقد عادت إلى حالة

التسليم بقدَرها، وإن كانت قد عرفت أنّ الدورَ الآن على المرأة الثانية. قال لها الرجل الضّخم "يبدو عليك أنّك ممّن يؤمنون بوجود خيرٍ في هذا العالم... دعيني أقولها لك صريحة".. اقتربَ بفمه من أذنها وقالَ بصوت عميق: "لا يوجد خير في العالم... فقط أشكالٌ مختلفة من الشّر يتلوّن بعضُها فيظهر أمامَ السّذج كأنه خير، إنّ الشياطين كائناتٌ حقيقية، أمّا الملائكة فهي مجرد خيالات أطفال".

صمتتْ وهي تفكر في كلامه حتّى ابتعدَ عنها وجلس على مقعده فقالت: "أنا أؤمنُ أنّ ماجوها وضعَ الخيرَ والشر في العالم، وترك الخلق ليختاروا، وهم للأسف يعشقونَ الشّر ويفضّلونه"، قال أبوها إنّ ماجوها لم يرسل شياطينَ أو ملائكة ليحثوا المخلوقاتِ على الاختيار، ولم يسهل لأيّ شخص طريقًا من الطريقين، وإنما تركهم ليُمارسوا الحياة فيما بينهم. كان إيمانُها يؤكّد لها أنّ العذاب والألم اللذيْن تعانيهما الآنَ همَا فعلُ البشر؛ أرضيين أو أديتيين. أغمضت عينيها وهي مستسلمة وتقول لنفسها إنّ أمثال أناندار وهيرمين وذلك الوحشِ الذي يتشوّق لذبحها هم السبب أنّ ماجوها لم يخلق شياطينَ؛ فالبشرُ مُكتفونَ بما فيهم من الشر.

انتبهتْ على صرخة المرأة جوارها، وأحدُ الخاطفين يشقّ بطنها. تعلقت عيناها وهي جامدةٌ بالدماء تندفعُ من الشّق، ثمّ ماءٌ غزير ثمّ جنينٌ يهوي إلى أسفل يتبعُه حبلُه السُّري، ثمّ يقف معلقًا في الهواء لحظة، وبعدها يكمل رحلةَ سقوطه للأرض يتبعه حبلُه، وجزءٌ من مشيمته. سمعت صوت انفجار مدوٍّ تلاه دخول مجموعةٍ من الناس لم تُحصِ عددهم، واشتباك بينهم

وبين الخاطفين. فتشت بعينيها في ساحةِ الصراع عن (باسل)، تهلّل وجهها حين رأته وقد أجهزَ على أحد الخاطفين كان واقفًا بينه وبينها، ثمّ قفزَ نحوها متجاهلًا الصّراع الدائر حولهما ثمّ احتضنَها بيدٍ وهو يقطع الحبل من يديها بيدِه الأخرى بسكينٍ صغير.

جلسَ على الأرض وأخذَها في حضنِه كما تمسك الأمّ بطفلها وأخذ يملّس على شعْرها ويعتذرُ عن التأخير. أسكتتْه بقُبلة على شفتيه حاولتْ أن تطيلها قدر ما تسمح به أنفاسُها المتلاحقة. قالت بصوتٍ واهن: "هيرمين وأخوها هم مَن استأجر هؤلاء لخطفي يا (باسل)، أنا مذهولة! أشعر أنّني كنت في كابوس". سألها مدهوشًا: "كيف تفعلُ هيرمين بك هذا؟!". شرحتْ بكلمات واهنة حقيقةَ ما حدث وهو يستمع مذهولًا ومصدومًا بطريقةٍ لا تقلّ عن صدمته لاختطافها. وَهِن صوتُها أكثر وهي تعقب على ما قصّتْه عليه، لم تعدْ تستطيع إكمالَ جُملة دون أن تأخذ نفَسَها، قال بصوت حانٍ: "استريحي الآن". طلبت منه أن يسقيها، أشارَ لأحد الواقفين فأحضرَ لها ماء، وقبلَ أن تكمل رشفة شعرتْ بقبضة قاسية تعتصر صدرَها.

صرختْ من الألم وهي تحاول التقاطَ أنفاسها. كان الألم رهيبًا يشلّ صدرها كلّه، ويقيّد أنفاسها التي أخذت تحاول بعنفٍ أن تلتقطها. قبلَ أن يفعل (باسل) شيئًا وجدتْ (ميْساء)- التي كانت تتابع حديثَهما في صمت- تقفز اتجاهها، وفي يدها أسطوانةُ أكسجين صغيرة وضعتْها على وجهها وهي تقول لأحدهم أن يستدعي الإسعاف، وتطلب من الجميع المغادرةَ لأنّ الإسعاف والشرطة سيصلون الآن.

كانت كميردا تتألم، ومشغولةً بمحاولة التقاط أنفاس كافية لملء صدرها بدون جدوى، لكنّها شعرت أنّ هناك شيئًا غريبًا، لماذا تطلب المرأة من زملائها المغادرة قبلَ مجيء الشرطة. سألت (باسل) فقال: "استريحي الآن يا عزيزة القلب". ألحّت عليه، فقال.. إنّهم من المقاومة وساعدوه في إنقاذها. سعلتْ بقوّة قبل أن تتمكن من قولِ أيّ كلمة تناسب تلك المفاجأة، وهي تحاول بينَ أنفاسها العسيرة أن تقتطع لحظة للتّفكير في تلك المَتاهة العقلية.. بشرٌ يختطفونها، وأديتيون استأجروهم، ومقاومة تنقذُها، وزوجها يقبلُ مساعدةَ بعض مَن حاولوا قتله من فترة قريبة، وأرضية من المقاومة تضع الأكسجينَ على وجهها محاولة إسعافها.

صرختْ من نوبة ألم إضافية فضمّها (باسل) ثانية وهو عاجز عن التفكير، وسألَ (ميْساء): "هل أنتِ طبيبة.. هل تعرفين ما بها؟". قالت ميساء: "لست طبيبة ولكنّي ساعدت أمّي الطبيبة في عملها كثيرًا... أعتقد أنّ زوجتك تعاني من جلطة رئوية". سألها بوجل: "وهل هذه خطيرة؟". طمأنته (ميْساء) وقالت إن إذابتها سهلة بشرطِ أنْ يصل الطبيب سريعًا، وألّا تنتقل جلطاتٌ إضافية من ساقها إلى رئتها. لم يفهمْ شيئًا لكنّه اكتفى بمعلومة أنّ إذابة تلك الجلطات سهلة.

لم تكنْ (ميْساء) على درايةٍ كاملة بخطورة الحالة، فهي لا تعرف أنّ طول مدّة تعليق كميردا بهذا الشكل- وهي في أواخر حملها والجفاف الذي عانت منه- كفيلان بتكوين جلطاتٍ ضخمة في ساقيها، وحين تنتقل تلك الجلطات لشريانها الرّئوي بكمية كبيرة فلنْ يُجدي أيُّ علاج مهما كان متطوّرًا في إنقاذ حياتها، إذا مرّتْ دقائق على انسداد الشريان الرئيسي.

بدأتْ قوى كميردا في التّهاوي، وأحسّت أنّها تحتضر، لم يمر ببالها في تلك اللحظة شريطُ ذكرياتها؛ بل سيطرت عليها فكرةُ إنقاذ جنينها فقالت بصعوبة: "باسل.. أنقِذ طفلنا، لو وصلَ الطبيب بعدَ موتي فاطلبْ منه أن يخرجه منّي أو أخرجْه أنت إذا تأخّر الطبيب". نهرها (باسل) ودموعه تسبق كلماته، فقالت: "أرجوك يا عزيز القلب". هزّ رأسَه موافقًا حتّى تصمت وتوفر أنفاسها لكنها لم تسكت، وقالت: "أنت الحقيقة الوحيدة في حياتي.. حياتي كلّها زيف إلّا أنتَ وحبّك وجنينُنا.. كلّ شيء زائف إلّا أنت" أخذت تردّد بصوت خفيض" كلّ شيء زائف إلا أنت".. حتّى انقطع آخر نفس لها.

دفعتْه (ميْساء) بقوة وفردتْ جسدَ كميردا على الأرض ثمّ بركت فوقها محاولةً إنعاش قلبها. استمرّت عدة دقائق حتّى وصل الطبيب الذي حاول بدوره إنعاشَها بدون جدوى، فنظر لباسل وقال: "لقد ماتت، لكنّ صوت قلب الجنين لا يزالُ مسموعًا"، قال باسل: "أخرجه... هذه رغبتها". فتحَ الطبيب حقيبة إضافية وأشارَ إلى مساعدته فعاونته في كشف بطنِها، وبدأ في إخراج الجنين و(باسل) جالس على الأرض دافنًا وجهَه بين كفّيه، وقد غادرت ميساء.

***

القسمُ الرّابع

عمليّة برًمّانا

"كلّما خدشت سطحَ الحياة وظننتُ أنّني أدركت عمقها، وجدتني مازلتُ أتخبّط في طبقةٍ سطحيّة أخرى، لم أدرك بعدُ ما يختبئ تحت تلك الأسطح"

باسل الشعراني

٢٩

”كيف تنظرُ في يدِ مَن صافحوك ولا تبصر الدمَ في كلّ كف“. كلمات أمل دنقل التي كان والدُ (باسل) يردّدها دومًا على أذنيه كلّما جاء خبرٌ عن عربي يدعو للتّطبيع مع إسرائيل. كان يردّد الكلمة على أذنه كثيرًا، ويقول له إنّ تلك القصيدة ينبغي أن تدرَّس للتلاميذ حتّى لا ينسوا مَن عدوٌّ بلادهم الحقيقي. اليوم صار يرددها لنفسِه بعدَ مقتل زوجته؛ يسأل نفسه، كيف ينظرُ في يد مَن صافحوه وفي عين مَن عزّوه ومَن كرّموه وكرّموا ذكرى زوجته وهوَ يعلم أنّ دمها يلطخهم جميعًا.

يوم جنازتها حضرتْ هيرمين، ورأى دموعَها الغزيرة وهي تودع جثمانها قبلَ حرقه، وتمنّى لو فقأ هاتيْن العينين حتّى يكون لبكائها معنى. كان والدُ كميردا حاضرًا، كان هو كاهنَ مراسم توديع روحها التي يقومون فيها بتسجية جثمانها بالأغصان الجافّة على طاولة رخاميّة يعلوها أعمدةٌ معدنية. يكون كفّ اليد هو الجزءَ الوحيد الظاهرَ من الجثمان خارجَ كومة الأغصان الجافة وقد ألبسوه قفازًا مزيّنًا من ذلك القماش المصنوع في كوكبهم. يمرّ كلّ شخص من المودعين فيأبن الميت بين يدي الكاهن، ثمّ يقبّل ركبته، ويتوجّه للجثمان فيهمس أمامه بصلاة ما ثمّ يمسحُ خدّه في كفّ الميت المغطاة بالقفاز ويقوم.

كان يتمنّى أن تدبَّ الروحُ في يد كميردا حين كانت هيرمين تتمسح فيها فتقبضُ على وجهها وتصرخُ قائلة.. هذه قاتلتي. حين جاءت تعزيه قالت له:

"كميردا كانت شقيقتي، وطفلها ولدي، وإذا شئت أن أتبنّاه فسيكون..."، قاطعها بحدّة قائلًا: "لم يعدْ لي هدفٌ في الحياة غير تربية علاء، والانتقام مِن قاتلي أمه". لاحظ اضطرابها وعينيْها اللّتيْن تحاشتا النظرَ في عينيه وهي تقول: "لا يمكن أن أتوقّع منك غيرَ ذلك".

أحيانًا تراودُه نفسه أن ينسى الأمرَ برمّته؛ لن يقدرَ على الانتقام من هيرمين وأخيها وهوَ القاتل الفعلي الذي يستحيل عليه الوصولُ إليه. أحيانًا يقول إنه يمكن أن يرسمَ خطة طويلة الأمد؛ يفعل المستحيلَ حتّى يصل لمنصب يؤهله لانتقامه على الأقلّ من أناندار، فهو خارجٌ عن القانون في رأي أغلبِ الأديتيين الذين تحدث معهم ثمّ يعودُ ليذكّر نفسه أنه أرضي، وأنّ له سقفًا محدودًا في المناصب لا يمكن أن يتعدّاه، عندها يفكّر في ابنه الهجين الذي سيكون أديتيًّا مميّزًا له الحقوق في الوصول لأيّ منصب، حتّى منصب الحاكم الأول، ويقول إنّه سيُعْلمه مَن هُم قتلة أمّه، ثمّ... ثمّ يتذكّر أنّ قتلة زوجته في الغالب سيموتون قبلَ أن يصل ابنه لمنصبٍ يؤهّله للأخذ بالثأر.

غيرَ أنّ كلّ تلك الأفكار والغضب لمقتل زوجته والتخطيط الفانتازي للانتقام لها، ليس إلّا مجرّد أبخرةٍ بركانية تخفي أسفلَها حممًا من نوع آخر. كان قبل الحادثة لديْه يقينٌ وقلبٌ مُطمئن، ولا يشكّ في أنّ قراره بالانحياز إلى المحتلين وخدمة الغُزاة تشوبه شائبة. ذلك اليقينُ اهتز، تلك الطمأنينة تبخّرت من قلبه، وقد كان يحاولُ تجنبَ التّفكير لأنّ ذلك يعني أنّ البركانَ داخله سيلتهم كلّ ما يتكئ عليه للبقاء عاقلًا.

حينَ يركّز تفكيره بالانتقام من هيرمين وأناندار، حين يلعنهما في اليوم ألف مرّة، فإنه يريدُ أنْ يغطّي صخبَ تلك اللعنات على الأصوات في داخله التي تقول إنّ العيبَ عيبُ نظام بأكمله، وإنّ مَن يحكمون النياندرتال لا يختلفون عمّن ظلموا أباه وتركوه يموت في غياهبِ السجون، كأنّ قدرَه أن يفقد مَن يحبّ دومًا على يد نظام ظالم أيًّا يكون.

في صباح اليوم الأخير لإجازته، استأذنتْ مربّية ابنه للذهاب حتّى المساء لتأخذَ راحتها الأسبوعية. أذنَ لها بالانصراف وهو يتمنّى ألّا تعود ويستبدلها بامرأة مصريّة. كان النظام المتبَع إذا ماتت أمّ طفل هجين، أن تُعين له امرأة أديتية تكون مرضعةً ومربّية في آنٍ واحد؛ فهُم لا يأتمنون الأبَ الأرضي وحده على تربية الطفل لأنّهم لا يطعمون صغارَهم غير صدر الأمّ في عامه الأول، ولأنّهم يريدون أنْ يغرسوا في الطفل مِن صغره الانتماءَ لأديتيا وتربيته ناطقًا بلغتها.

جلسَ يداعب الطفلَ الذي كان هادئًا في مهده، تأمله وهو يحاول أن يقسم ملامحَه إلى ملامح ورثَها منه وأخرى ورثَها من أمه دون فائدة، كان الطفل جميلًا وهذا يكفي، أو لنقلْ كان ابنه وهذا يكفي. أخذ يحرّك سبّابته على قبضة الصغير المضْمومة وهو يقول: "دبّرني يا علاء ماذا أفعل؟ أنا في دوامة لا أعرف كيف أعودُ إلى عملي غدًا... ما رأيك لو اعتزلت؟". انفتحت كفُّ الصغير وأطبقت على سبّابته فابتسمَ وهو يقول: "إذًا توافقني؟!".

أصدرَ جهازُ الاتصال الداخلي رنينًا، فقال بصوت عال: "ماذا تريد" كان جهاز الرّد الداخلي في العادة مُبرمجًا على كلمة نعم، لكنّ جهاز (باسل)

الوحيد هو المُبرمج على كلمة "ماذا تريد؟"، التي كانت تثير حفيظةَ حارس الأمن الذي كان فيما مضى كبيرَ مهندسين بشركة سيارات شهيرة. "الكبير (باسل) هناك امرأة عند البوّابة تقول إنّها عمتك، وإنّها أتت لتقدم واجبَ العزاء". عقد (باسل) حاجبيه وهو يضغطُ زرًّا، فتح شاشةً تعرض له وجهها، لم يكن وجْه عمّته؛ كان وجهًا غريبًا عليه، كبّر الصورة وتمعّن فيها أكثر، عيناها فقط مألوفتان جدًّا. صمت ثانية ثمّ قال: "آه.. عمتي ولاء.. دعْها تصعد". ثمّ أغلق الصورة.

فتحَ الباب، انتظر حتّى ظهرتِ المرأة وجوارها حارسُ الأمن فصرفه وقال لها: "تفضّلي". وهو يفسحُ لها لتدخل إلى غرفة استقبال الضيوف وقد عرف أنها (ميْساء). قبلَ أن يتكلم رنّ جهازُ الاتصال الداخلي ثانية، وردّ الحارس الثاني قائلًا: "هناك ضيفٌ آخر يا سيدي" أشارت له (ميْساء) بما معناه أنْ يسمح له بالصعود. حدّق فيها بغيظٍ وهو يلوّح بذراعه ويقول للحارس: "مَن؟". فأجاب الحارس "رجلٌ أديتي، اسمه السيد كرنـ.. كنر.. اسمُه صعبٌ يا سيدي". ردّ عليه بلهجة المتفهم "نعم نعم.. أعرفه، دعْه يصعد".

جلسَ قُبالتهما وهو يتحدّث غاضبًا: "لقد قلت لكما إنّنا سنفترق بعد إنقاذ زوجتي، وإنّني سأقبض على مَن أصادفه منكم". ردّت عليه (ميْساء) متحدية: "أعتقد أنّ الوضع اختلف بعد أنْ عرفت مَن وراء قتل زوجتك". ردّ عليها نافيًا أن الوضع تغيّر، فمهْما كانت المستجداتُ فهو لن يتهاونَ في عمله، وأخطاءُ أفراد من النخبة لا يعني أنّ النظام برمّته فاسد.. "لقد وافقت على مقابلتك فقط لأنّه ممتنّ لمخاطرتك حينَ حاولتِ إنعاش زوجته.

تدخّل الأديتي قائلًا بصوت هادئ: "العزيز (باسل)، اسمي ماندريك أندام، من قادةِ المقاومة الأديتية، أنا أعرف هيرمين شخصيًّا، وأعلم أنّها قادرة على التضحية بأقربِ الناس لها لأجل مصْلحتها". أكملت ميساء: "نحنُ هنا لأننا نعرف كم كنت تحبّ زوجتك، ولأنّنا نعرف أصلَك الطيب، أبي حدّثني كثيرًا عن أبيك وكم كان مُعجبًا به وبوطنيته".

همّ بالرد عليها، لكنْ قاطعه صوتُ بكاء طفله، فقام ليحمله من مهده وهو يقولُ لنفسه ما الضيرُ في أن يسمعَ منهم، فقد يكون لديهم ما يقولونه. إنهم مهتمون به بشكلٍ خاصّ، يرسلون ماندريك وهو في منصبٍ رفيع بينهم، ويعرف هيرمين، ومعَه تلك الفتاة التي تحدّثه عن أبيه وتمدح وطنيته. أخذَ يهدهد الطفل الذي بدأ يهدأ وهو يقول لنفسه إنّ اهتمامهم به لا يغيّر من الأمر شيئًا، فمِن الطبيعي أن يهتموا بتجنيدِ شخصٍ في مثل موقعه ليكون مجرّدَ عميل لهم.

دخلَ عليهما والطفلُ على ذراعه وقال: "أشكرُ لكما الزيارة، وأعتذر منكما لأنّني أريد قضاءَ الوقت مع طفلي". ردّ عليه ماندريك: "ألا تريد معرفة السبب الذي جعلنا نخاطر بالحضورِ لك؟". مطّ (باسل) شفتيه وهزّ رأسه نافيًا بشدة، فقال ماندريك: "ألا تريد أن تثأرَ لزوجتك يا رجل؟". اتّسعت عيناه في غضب واحمرّ وجهُه، وبدا أنه سيرفع صوته مُحتدًّا، لكنّه ثانية هزّ رأسه نافيًا دون أن يتكلم.

قالت (ميْساء): "ما نوعية السائلِ الذي يجري في عروقك بالضّبط؟!". نظر إليها وأطلقَ ضحكة عصبية مُصطنعَة وقال: "دمٌ يا سيدتي دم.. ها قد أجبت

سؤالك المهمّ.. اعذريني فقد حانَ موعدُ إطعام علاء". قالها وهو يشير لهما بالخروج، لكن ميْساء، التي فهمت أنّه سمّى الصغير على اسم والده، بدأتْ تتحدّث عن صاحب الاسم، وكيف كان رجلًا وكيفَ وقف في وجه كلّ مَن حاولوا إقناعه بالخنوع ومَن نصحوه بأن يكتفي بتربيةِ ابنه ويكتب في مواضيع أخرى لا تجلبُ عليه المصائب ولم يهتم، "لو كان الأستاذ علاء حيًّا؛ لذهب بنفسه لينتقم لأمّ حفيده".

زفرَ في ضيق وقد لمسَ كلامُها وترًا في داخله يحاول دومًا أن يكتم نغمه. كان حتّى قبلَ مقتل كميردا يسأل إنْ كان أبوه سيرضى عن منهجه في الحياة أم كان سيتبرّأ منه، كانت الإجابةُ تحيّره، كان يرجّح أن روحَ أبيه غيرُ راضية عن عمله معَ الغزاة، لكنه أحيانًا يؤكّد أنّه لو شرح لأبيه دوافعَه لتفهّم ما يفعل؛ الآن وبعد ما حدثَ الإجابةُ واضحة تمامًا لا لبسَ فيها. قلّب نظرَه بينهما ثمّ جلس وهو يسأل: "ماذا تريدون مني بالضبط؟".

"نريد مساعدتَك في الانتقام لزوجتك من هيرمين وشقيقها" قال ماندريك. فردّ عليه (باسل): "حسنًا أنا أوافق... قومًا باغتيال تلك العقربة وأخيها ولكم الشكر منّي". ضحك ماندريك وهو يشيرُ بيده نافيًا نيّة القتل ثمّ قال: "نحن نريد اختطافَ هيرمين ومحاكمتها في محكمة أديتية يُنشئها الثوار". هزّ (باسل) رأسه متفهمًا وهو يكملُ ما لم يقلْه ماندريك وهو أنّهم يريدون تفاصيلَ أكثر عن حراسة هيرمين والوقتِ الأنسب لاختطافها، خاصّة بعد القبض على اثنين من عملاء الثوار ضمنَ موظفي قسمها.

هزّ ماندريك رأسه موافقًا، فنظر (باسل) إلى علاء الذي نام على ذراعه وقالَ كأنّه يسأله: "ما رأيك يا أستاذ علاء؟". أمال أذنَه على وجه الصغير بحركة تمثيليّة، ثمّ رفع رأسه باسمًا وقال: "علاء يريدُ الثأر لأمّه وليس إعطاءكم نصرًا دعائيًّا يتيح لكم ضمّ المزيدِ من الأنصار.. يريد قتل هيرمين وأنانـ... ".

قاطعَه ماندريك وهو يضحك قائلًا: "كنّا ندرس علومًا عن سلوكيات البشر الذين يعيشون في مناطق أسلافنا كما يقال، وكان مذكورًا أنّكم تخلطون الجد بالمزاح حتّى في أشدّ اللحظات حرجًا.. لم أفهم هذا السلوك العجيب إلا الآن".

نظرَ له (باسل) بضيق وهو يقول: "الجدّ هو أنني لست أداة تستغلونها لأغراضكم السياسية" قالها ونظرَ إلى (ميْساء) بتحدٍّ، ثمّ نظر إليه ثانية مكملًا: "سوفَ أتفاوض معك.. ساعدني في قتلِ أناندار وأنا أساعدك في خطف هيرمين". صمتَ ماندريك مفكّرًا ثمّ نظرَ إليه كأنّه يحاول أن يقرأ أفكاره. فقال (باسل): "ماذا قلت؟".

تبادلَ ماندريك النظراتِ مع (ميْساء) ثمّ قال: "حسنًا، ولكن نقوم بالعمليتين في وقتٍ واحد". أكملت ميساء: "وأن تنضمّ رسميًّا للمقاومة".

صمتَ (باسل)، أدارَ ظهره لهما ووضعَ (علاء) في مهدِه برفق وهو يفكر أنّه لو فعل ذلك فسيحكُم على الصغير أن يعيش مطاردًا معه، ولكنّه في الوقت نفسه سيتمّ تربيته على يده وليسَ على يدِ مربّية غريبة. عاد لهما وقال:

"آخر كلام عندي.. أوافق على الانضمام للمقاومة على شرط أنْ يصدر عفوٌ رسمي عن عملي معَ الحكومة الأديتية، وأنْ تساعدوني في قتل أناندار في الوقت نفسِه الذي تختطفون فيه هيرمين، و..." وجّه نظرَه لميساء وهو يقول: "ما اسمك؟" قالت دون أن تفكر (اسمي ميْساء). نظرَ ماندريك لها مستغربًا أنّها أعطته اسمها بهذه السهولة قبل أن يضيف (باسل) "وأنْ تشترك (ميْساء)- أو أنت- معي في عملية قتل أناندار".

ردّ عليه ماندريك بأنّ مسألة العفو تلك ليست بيده، وأنّه لا بدّ أن يشارك في خطفِ هيرمين بنفسه، وأمّا اشتراك (ميْساء) معه في قتل أناندار فهو شرطٌ صعب لأنّ تكليف المقاومين بعملياتٍ يأتي من خلال رؤسائهم، خاصّة أنها تتبع للحكومة المصرية، فقالت ميساء: "هذا الشرطُ بالذات يمكن تحقيقُه، فقادتي يثقون بقدرتي على تقييم الموقف، وأنا أرى أنّه من العدل لك أنْ أشاركَ معك في عملٍ أنا من أقنعَك به".

***

٣٠

قامَ (سمير) من نومه متثاقلًا وهو يفكر في اليوم الطويل الذي ينتظره. منذ يومين صدرتِ الأوامرُ لهم بإخلاء مقرّاتهم في منشية ناصر بعد أن أصدر النياندرتال قرارًا بإخلاءِ هذه المنطقة على مراحل تبدأ غدًا بإخلاء الدويقة ثمّ تستمرّ جنوبًا بعدَ ذلك على مراحل. كانت الإداناتُ الدولية لإخلاء منطقة بهذا الحجم يقطنها ما يُقارب النصف مليون إنسان؛ تتوالى، لكنّها كانت جميعها جعجعةً بلا طحين لا تُسمن ولا تغني من جوع.

كان من المفترض أن يذهبَ إلى المقرّ الشّرقي الذي يقع جوار صخرة الدّويقة الشهيرة التي دهستْ عشرات المصريين في حادثةٍ لا تُنسى منذ ما يقارب نصفِ قرن. كان المقرّ يحوي آلاتِ اتّصال وأجهزة وأسلحة وعدة دراجات طائرة. وكانت وظيفتُه أن يجهّز كلّ شيء بالاشتراك مع مجموعة من الفنيّين لإخراجها دونَ أن يثير الشكوك.

وصلَ إلى المقرّ في السابعة صباحًا وهو يشعرُ بالضّيق الشديد من (ميْساء) التي أصرّت على أن يقومَ بهذه المهمة وحدَه دون أن يرافقه (ضياء)، وتحجّجت بأنهم سيتعاونون جميعًا في إخلاء المقر الرئيسي. منذ أن قررت الانفصالَ عنه وهي تعامله بصلفٍ شديد يثير غيظَه أكثر من قرار الانفصال نفسه، وكادَ يشْكوها مرّة للمقدم (إياد) لكنّه شعر بأنّ ذلك يمسّ رجولتَه بشكل ما. لم يلتمس لها العذرَ في البداية، فما الغريب في أن يكلّم زوجته ويتغزّل فيها، وما الحق الذي ارتضته (ميْساء) ليتيح لها أن تتنصّت عليه. هل كانت تتوقع أنه

يتكلم مع زوجته بشكلٍ رسمي مثلًا؛ إنّها أمّ أولاده والمتحمّلة عبء أسرته، وإن كان قلبُه أحبّ (ميساء) فلا يعني ذلك أنّه نسي زوجته، أو أنه سيتعامل معها كأنّها سقطُ المتاع إرضاءً لغرور ابنة المدينة.

كان واقفًا وسطَ التّقنيين يجهزونَ محتوياتِ المقرّ الذي يقع تحت الأرض حينَ سمعوا صوتًا هدّارًا مختلطًا بصراخ نساء وصخب رجال وبكاء أطفال. صعدَ السّلم الذي يُفضي إلى الدور الأرضي ثمّ خرج من البوابة الصّغيرة للبيت الذي يطلّ على زقاقٍ متفرّع من شارع أوسع. رأى مجموعة من النّاس تسير، وطائرات دقيقةً تحوم فوقهم وكأنّها تقودهم في الاتجاه الذي يؤدي إلى خارج المنطقة.

وصلَ إلى الشارع ورأى على مرمى بصره مركبةً ضخمة تخرج منها خراطيمُ معدنيّة، قطرُ الواحد منها ربعُ متر على الأقلّ، وقد التصقت الخراطيم بقاعدة بيتٍ أمامها في عدّة نقاط. تذكّر ذلك المشهدَ حين كانت هناك آلات مشابهة في قريتِه من عشر سنوات، تلصق الآلة زوائدها في قاعدة البيت، وتبدأ في الاهتزاز فتجعلُ البيت يرتعدُ كفرخ مبتلّ، وتثير الرعب في قلوب ساكنيه، وتجعلهم يهرعون فزعينَ خارجَ البيت ليجدوا في انتظارهم أربعَ طائرات دقيقة تأمرهم بالسير خلف واحدة منها، بينما البقية يقودون الموكبَ بعيدًا عن البيت.

تذكّر يومَ أن وقف أمام الطائرة راجيًا إيّاها (أو من يوجهها) أن تعطيه فرصةً ليعود ويأخذَ بعض الملابس لبناته، وكان ردُّ الطائرة أن أطلقت عليها سهمًا صغيرًا انغرسَ في رقبته أسقطه أرضًا ونشرَ ألمًا حارقًا في أرجاء جسده

استمرّ لعدّة دقائق. غير أنه يذكرُ- أيضًا- أنّ الوضع في قريته أيامها كان مختلفًا؛ فالغزاة وقتها كانوا قد جهّزوا أبراجًا ضخمة ليسكن أهلُ القرية فيها بدلًا من بيوتهم، أمّا هؤلاء المساكين فهُم يطردون إلى العراء.

كان يتوقّع أن يتمّ الإخلاءُ بتلك الطريقة، ولكنه كان يظنّ أنه سيحدث في اليوم التالي، وأنّ من الممكن أنْ يغادر الناس بيوتهم قبلها طواعية بدلًا من إيقاظهم مفزوعين هكذا. اقتربَ من أحد الحراس الواقفين جوار المركبة الهادمة وكان أرضيًّا فقال له بأدبٍ جمّ مصطَنع: "سيدي.. ألم تعلنوا أنّ هذا الإخلاء سيبدأ غدًا؟". نظرَ إليه الرجل بقرف، وقال: "بلى، لكنْ وردت للقادة معلومات أنّ هناك مخربين سيندسّون بين الناس غدًا فقرّروا التبكير". فقال للرجل: "ولكن ما ذنب هؤلاء الناس أن يتمّ خلعُهم من بيوتهم ورميُهم في العراء هكذا؟!". ضحك الرجل في سخرية وهو يقول: "وهل هذه بيوتٌ يا رجل؛ هذه مزابل... اذهب من أمامي الآن وأخلِ بيتك فسوفَ نزيل هذا المربع بالكامل اليوم".

عضّ (سمير) على أسنانه في غيظٍ شديد وهو يتمنى أن يلقن ذلك الخائن درسًا لن ينساه، لكنّه لم يشأ أن يفعل حتّى لا يوقع نفسَه في مشكلة كبرى. سار بعيدًا عن مكان الهدم في الاتجاه الآخر، وصادف عدةَ مركبات هدم تعمل بشكل متزامن، ورأى اثنتين منها قد ساوتِ البيوت أمامها بالأرض. كان يشعر بالدّم يتصاعد في رأسِه بعنف من شدّة الغضب وهو يبصر أحدَ البيوت ينهار، ويرى رجل البيت وهو يسيرُ منكّسَ الرأس خلف أسرته الكبيرة، ثمّ يقف ويلتفت في أسى نحو البيت وهو يتهاوى وتنزل من عينيه دمعة يمسحُها بكمّه وينظر إلى الطائرة الدقيقة التي اقتربت منه وهي تطلق

نداءً تحذيريًّا تحثّه على المشي فيقفز الرجل في الهواء غاضبًا محاولًا ضربَها بكفّه في حركة يائسة فتطلق طائرة أخرى سهمًا يسقطه على الأرض وهو يرتعد ويصرخ من الألم.

صرختْ زوجة الرجل وبكى الأطفال، حاولت عجوزٌ- يبدو أنها أمّه- أنْ تقتربَ منه رغم تحذير الطائرة فأمسكتْ بها الزوجة، وطلبت منها بتوسّل أن تمضي وسيلحقهم الرجلُ حين يفيق من تأثير السّهم المعذب. كان المنظر في عيني (سمير) أشدّ وطأة من كلّ المواقف التي رآها منذ الغزو، رغم أنّه لم يكن أبشعها، ولا يدري لماذا، هل لأنّ نفسه ضاقت كثيرًا بما تحمّل، أو لأنّ الحرب الكبرى قد اقتربت ولم يعدْ يتحمّل المزيد ويريد أن يقومَ بها الآن. هذا القهر الذي أبصره يمارس على تلك العائلة ذكره أنّ مهمّته في مقاومة هؤلاء الغزاة ليست مجرد مهنةٍ يصرف من راتبها على أبنائه، وإنّما واجبٌ على كلّ حرّ يجري في عروقه دم، وأنه يجب أن يتحمّل مصاعبه، لا ليكفل لأسرته عيشًا كريمًا فحسب، بل لتكون حياتُه ذات معنى.

نفضَ عن نفسه الأفكارَ المتلاطمة، وبدأ يفكر فيما ينبغي فعله الآن. صار الموقفُ أكثر تعقيدًا، لم يعدْ بإمكانه وسطَ تلك الفوضى وكمية الحراس ورجال الأمن أنْ يخرج أيّ شيء من المقر. توارى في فرجةٍ صغيرة بين منزلين وضغط على جهازِ الاتصال في معصمه، كلّم (ميْساء) ليبلغها بالتطورات فطلبت منه أن ينتظر دقيقةً ريثما تستشير (إياد). زفرَ في ضيق وهو يغلق الاتصال ويتمتم بكلمات تعني أنّها لا تفقه شيئًا، وغيرُ قادرة على القيادة، وكلّ ما يميزها أنها ابنة عمر عوض الله، فميْساء من وجهة نظرِه نقطة الضعف التي سهّلت على الحكومة إقناع (عمر) بالعمل لصالحهم.

ميْساء استقبلت الخبرَ بقلب مُنقبض، وأحسّت أنها لا تستطيع أن تأخذ قرارًا في موقفٍ كهذا لكي لا تتحمّل مسئولية الأجهزة التي ستفقد، تلك الأجهزة التي إنْ وجدَها النياندرتال فسيتّخذونها دليلًا إضافيًّا على صحّة قرارهم بمحْو تلك المنطقة من على الخارطة وتشريد سكانها. اتّصلت على (إياد) فطلب منها هو الآخر فرصة لخطابِ رؤسائه، فقالت له: إنّ الوقت لا يحتمل الانتظار. "سيدي، أنا أعلم أنّ القَرار الآنَ في نطاق صلاحياتك". قالت له بحزم. فقال لها: "أجل، ولكن تلك الأجهزة تساوي الملايين، غير الخسارة المعنويّة من كشف مقرٍّ كهذا". ردّت بسرعة: "ولكنّنا سنعرّض الرجال للخطر". صمت لحظة ثمّ قال: "حسنًا، أخبريهم أن ينسحبوا".

تنهّدت في ارتياح، وطلبت (سمير) وأبلغته بقرار الانسحاب وبالعودة سريعًا ليتمكّنوا من مساعدة الباقين في إفراغ المقرّيْن المتبقيين قبل أن تحدث مفاجآت أخرى. دارت في حجرتها في قلقٍ وهي تفكر في ما ستفعل في الأيام القادمة وكيف سيكون الحالُ بعد انتقالهم لمقرّاتٍ تابعة لكتائب الحرية، وعن كيفية إدارة الأمور في المرحلةِ القادمة. الحلّ الوحيد لإيقاف هذا، كما قال ماندريك، هو الإسراع في اختطافِ هيرمين ومحاكمتها، وإجبارها على الاعتراف بارتكاب تلك الجريمة وقد تعترف- أيضًا- بتواطئ أصحابِ مناصب أعلى معها. بتلك الطريقة يمكن أن يتمّ إيقافُ عمليات التهجير فتقتصرُ المشكلة فقط على الدويقة، ولا تمتدّ إلى بقية منشية ناصر، ويمكن عندها الحفاظ على بقية المقار.

"لا بدّ أن نسرع في خطفِ تلك اللعينة قبلَ أن تكمل خطتها". تذكرت (باسل) وخطرَ ببالها أن تطلبه الآن لتحثّه على إنجاز مهمته، وإحضار المعلومات اللازمة التي ستساعدُ في اختطاف هيرمين. ضغطتْ على معصمها فانفتحت شاشة فراغية صغيرة، بدأت بضغط رمزِ الاتصال الخاصّ بجهاز اتصاله المشفّر، لكنها لم تكمله وأغلقتِ الشاشة وقد أدركت سخفَ الفكرة. لا تدري ما الذي أصابها منذ تعاملت معه، تصير امرأةً أخرى في وجوده رغمَ أنّ المرات التي رأته فيها قليلة جدًّا.

خطرتْ ببالها حجّة تطلبه بها ثمّ حاولت التراجع، في النهاية لم تستطع منعَ نفسها من فتح جهاز الاتصال ثانية وطلب رمز الاتصال المشفر به. جاءها صوتُ الطنين ثمّ أجابها صوتٌ مسجّل لباسل.. "عذرًا، أنا في عمل الآن، اترك رسالة إذا استدعَى الأمر". أغلقتِ الاتّصال دون ترك رسالة، فلم يكن لديها شيء محدّد لتقوله، كانت ستكلّمه عن مقال قرأته لأبيه الرّاحل بعنوان "إرهاب الجرافات" يحكي عن مأساةِ هدم منازل الفلسطينيين بحجج واهية من قوّات الاحتلال، ثمّ تقارن بين ما تحدّث عنه أبوه وما يحدُث الآنَ. كانت تشعر أنّ كتابات أبيه مقدسة عنده، وأنّ مجردَ ذكْرها هو مَدخل مُباشر لأعماق روحه وهي تحاول الوصول لتلك الأعماق دونَ أن تدري لماذا، ودون أن تجدَ القوة لمنع نفسها من ذلك الفعل اللامنطقي.

انتزعتْ (باسل) من تيار أفكارها واستبدلته بهاجس آخر يراودها كثيرًا هذه الأيام. كانت تفكّر في ما لو أنّ ماندريك وبقية النّياندرتال الثائرين لا يتعاونون معهم فقط لأجل نصرة الضعفاء، وأنّهم يطمعون في السلطة،

ويتّخذون إفشال الغزو وفضحَ جرائم الحكام الحاليين سلّمًا للسيطرة على السلطة في كوكبهم.

حينَ صارحت المقدم (إياد) بهواجسها قال لها: "لا يهمّنا نواياهم.. كلّ ما يهمّنا هو استردادُ أرضنا، وفعلُ ذلك بأسرع وقت قبل أن يسكن الأرض المحتلة جيلٌ كامل من المهجّنين مزدوجي الولاء الذين سيكونُ من العسير التخلص منهم". لم تقتنعْ تمامًا فقد كانت تأمل لسببٍ لا تدريه أن يكون ماندريك ورفاقه يناصرون الخيرَ دون طمعٍ في السلطةٍ؛ تتمنّى أن يكون في هذا العالم أناس يحملون بقايا من المثالية التيً تجعلهم يفعلون ذلك.

لم تسأل المقدم (إياد) عن بقية الهاجس؛ فقد كانت إجابته حاسمة لم تسمح لها بالاسترسال. كان بقيةُ هاجسها يتضمّن افتراضًا مخيفًا؛ ماذا لو قام الثوار النياندرتال بالسّيطرة على الحكم ولم ينْهوا الغزو، ماذا لو تحجّجوا بصعوبة نقل الملايين إلى الكوكب الأمّ نتيجة تدمير وسائل الانتقال مثلًا، أو تحججوا بوجود مئات الآلاف من الأسَر المختلطة والأبناء المهجّنين الذين يخشون عليهم سطوة الدول الأصلية حين تسترد أراضيها؟!

كانت الهواجسُ تملأ رأسها لكنّها فعلت كما تفعل دومًا حين تسقط في دوامة كتلك؛ أخذت نفَسًا عميقًا وأخرجت شاشة فراغية ومضتْ تكتب عليها تلخيص الأفكار، والرّد عليها، ثمّ محت كلّ ذلك وكتبت خطّتَها للأيام القادمة.

بعدَ أن فرغت، ضغطت جهازَ الاتصال في معصمها لتطمئن على (سمير) ورجاله، ثمّ تغلق الاتصال لتكمل بقيةَ استعداداتها هي الأخرى لغدٍ حافل بالتغيرات الكبرى والتحالفات الجديدة والأحداث الجسام، وهي تحاول أن تتناسَى تلك المآسي الأخيرة، والتي في رأيها لا بدّ أن تسبق انفراجةَ الأمل.

٣١

أنهتْ (زهرة) استئصالَ آخر قطعة من ورم كبير في الغدة النخامية، ثمّ أدخلتِ المنظار للمرة الأخيرة لتطمئنّ أنّ كلّ شيء على ما يرام قبل أن تخلع قفّازيها، وتطلب من الجراح المساعدِ أن يكملَ مكانها. كانت جهودها قد أسفرت في العام الماضي عن استكمال بناء المستشفى الذي كانت تديره في مخيم اللاجئين الموجود في قرى الجيزة جنوبي حدودِ الأرض المحتلة، وصار بالإمكان إجراء كلّ الجراحات الخطرة فيه.

خرجتْ إلى غرفة المكتب الصغيرة التي كانت مشاعًا للأطباء، كان (عمر) ينتظرُها ليودّعها قبل الذهاب إلى عمليةٍ مهمّة سيشارك بها هو وميساء، أخبرها أنه أصرّ على الاشتراك في هذه العملية ليكون جوارَ ابنته التي صممت على رأيها بالمشاركة في مهمّة على تلك الدرجة من الخطورة. قلبها ينفطر قلقًا عليهما وعزاؤها الوحيد أنّ ما يفعلانه سيساهم في عودة هؤلاء المساكين المقيمين في المخيّم إلى بيوتهم، والذين زاد عددُهم بشكل كبير في الأيام الأخيرة.

جلستْ جواره على الأريكة الصغيرة الموجودة في المكتب، طلبت من العاملة إعداد كوبيْن من الشاي وقالت: "لا تنسي النعناعَ الأخضر يا أم سيف". اعتدلتْ لتواجه (عمر) ثانية فوجدته ينظرُ إليها بطريقة أخجلتها، فقالت في خجل: "لقد تجاوزنا الستين يا رجل، ألن تتغير!". ضحك وهو يقول: "كما قلت لك ألفَ مرّة، قصة حبّنا بدأت متأخرةً عن موعدها بعشرين عامًا، حين ضممتُك بين ضلوعي أولَ مرّة كنتِ في الخامسة عشرة لا في الثلاثينيّات، ولذلك أنا أنظرُ إليك الآن كما لو أنّنا نفارق الثلاثينيّات للتّو".

احمرّ وجهها أكثر، وقالت: "قلبي يخفق كلّما قلت ذلك كأنني لا أزال في الخامسة عشرة بالفعل". أمسك يدها بحنوّ قائلًا.. إنّه يتمنى أن يأخذها في حضنه الآنَ لولا خوفُه على صورتها أمامَ العاملين بالمستشفى. كان يفتقدها كثيرًا هذه الأيام منذُ خرج من سجنه، لم تعدْ تكفيه رؤيتها كلّ أسبوع، وكأنّه كان يريد أن يعوّض ما فاته معها في العامين الماضيين.

كانا ينتظران (ميْساء) ليتناولوا الغداء معًا قبل أن يتوجّه معها إلى بورسعيد ومنها سيستقلّان القطارَ الهوائي الكبير إلى بيروت في رحلة تستغرق عدة ساعات. كان يشعرُ بالقلق الشديد على (ميْساء) في تلك المهمة، ولم يفصحْ لزهرة عن سببه، فالمكان الذي سيهاجمونَه أقربُ إلى القلعة، وحراسته مشدّدة، مزيج من النياندرتال المدرّبين جيدًا والبشر المرتزقة مُحترفي القتل، إضافة إلى الطائرات الدقيقة التي يمتلك أناندار منها الكثير.

جاءَ الشاي، وسألته زهرة وهي تناوله كوبَه بعدما قلّبت سكّرَه: "ألا تحاول إقناعَ ابنتك بالعدول عن المشاركة في المهامّ القتالية تلك؟". ابتسم في توتر وهو يتخيّل ردَّ فعلها إنْ عرفت طبيعة هذه المهمّة تحديدًا. قال لها، بعد أن تناول رشفة من شايه بصوتٍ مرتفع يئست هي مِن جعله يكفّ عنه: "حاولت كثيرًا بدون جدوى، رحمَ الله زمانًا كانت البنت تعتبر كلمة الأب أمرًا سماويًّا لا يجوز نقاشه". ضحكت وهي تقول: "نحن في منتصف القرن الحادي والعشرين.. هذه القواعد كانت تصلح في القرن السابق". مطّ شفتيه في غير اقتناع وهو يقول إنّ الحداثة لا تعني الخروج على الأعراف ولو في القرن الثلاثين.

غيّر مسارَ الحديث وحكى لها عن خططه وطموحاته في الغد بعد أن ينتصروا على الغزو، وعنْ حلمه في أن تستفيدَ بلاده من هذه التجربة الأليمة، وعن أطماع الدول الكبرى التي ستزيد قطعًا حينَ يعرفون أن أراضي شمال مصر وسيناء هي مِن أغنى الأماكن بمصدر الطاقة الجديد. أخذ يحكي عن ما خطط له في حال تولّيه أحد المناصب. كان يتحدّث معها بحماس تلميذٍ يقصّ على فتاته مغامرة مرّ بها، وبينما هو منهمكٌ في حكيه شعرَ فجأة بألم في فم معدته يمتدّ إلى أسفل صدره، ألم قابض يعتصرُ داخله وليس مجرّد حرقة كالتي يشعر بها من يعاني من معدته بالفعل.

"ماذا بك؟". سألته زهرة في قلق، فقال: "لا شيء، يبدو أنها المعدة". نظرت إليه في شك، ثمّ قالت: "قمْ معي". حاول التملصَ منها بدون جدوى، قام متبرمًا وهو يتحدّث عن الأطباء الذين يجعلون من الحبّة قبّة. دخلت به إحدى الغرف وطلبت من الممرّض أن يقوم بمسح لقلبه فقام الرجل بتشغيل جهاز ذي مجسّات أخذت تحوم حولَه وتصدر أزيزًا خافتًا، وفي النهاية خرجت ثلاثُ ورقات مطبوعة من الجهاز. طالعتْ زهرة الورقات الثلاث، وبدا التوتر على وجهها ثمّ طلبت طبيب القلب.

بدأ يشعرُ بالقلق وهو يرى جديةَ الحديث الذي دار بينها وبين طبيب القلب، وأحسّ أن هناك نوعًا من الجدل بينهما. في النهاية خرج طبيبُ القلب وبدأت هي في الحديثِ مرتبكة فقال مُطَمْئنًا: "حبيبتي تكلّمي لا تخافي عليّ". ابتسمت بتوتر وقالت: "هناك جلطةٌ صغيرة في أحد شرايين قلبك الفرعيّة والممرض الآن يجهز لك الدواء المذيبَ لها، لكن الأشعة تظهر أنّ

أحد الشرايين الرئيسية على وشك الانسداد أيضًا ويجبُ استبداله فورًا". نظرَ إليها وقد فاجأه كلامها فقال مرتبكًا: "ألا يمكن أن تنتظر العملية حتّى أعودَ من المهمّة؟". هزّت رأسها نافية بقوة وقبل أن تتكلم وجدت (ميْساء) واقفةً بباب الغرفة تتساءل عن ما جرى.

في دقائق معدودة كان يجري تجهيز (عمر) لغرفة العمليات، وميساء إلى جواره، وزهرة تروح وتجيء تحدّث هذا وتناقش ذاك. انتظر (عمر) حتّى ابتعدت زهرة قليلًا، ثمّ أمسك يدَ (ميْساء) وأوصاها قائلًا: "إذا متّ يا (ميْساء) فلا بدّ أن تعتزلي، فلن تتحمّل أمك فقدَ كلينا". دمعت عيناها وهي تنهاه عن قول ذلك فضحك قائلًا: "أنا جاوزتُ الستين، وأحارب أيضًا، ومُعرّض للموت في أي لحظة اسمعيني هذا هو الشقّ الأول من وصيتي، أمّا الشق الثاني فيخصني".

حدّثها عن قريته التي نشأ بها، وعن ندمه أنّه لم يأخذها إلى هناك كثيرًا في صغرها، قال لها إنّ الغزاة ضمّوها مع القرى المجاورة، وأطلقوا عليهم جميعًا اسمًا لعينًا ينتهي بمقطع "بشيل"، الذي يضعونَه في نهاية أسماء المدن الصغيرة وتجمعات القرى. قال لها إنّه رغم ذلك فإنّ مكانَها محدد، ومَن بقي من أهلها فيها سيستطيع إيصالها لمكان دفْن أبويه لتنقلَ رفاته إلى جوارهم بعد التحرير، ثمّ قال وهو يضع يدَه بحنوّ على خدها: "أنا أعرف أنّ قيمة هذه الأشياء تضاءلت في زمنكم هذا، لكن ما أطلبُه منك مهمّ لي فوق ما تتصورين". أمسكت يدَه وقبّلتها وهي تقول: "أنت أعزّ عندي من الدنيا يا أبي، ووصيتك واجبةٌ رغم أنني أتمنى ألّا أحتاج لتنفيذها". ابتسم في امتنان ثمّ قال: "اكتبي الاسمَ حتّى لا تنسيه". فقالت وهي تصطنع ضحكة حاولت

أن تكسبها مرحًا قدرَ الإمكان: "حفظتها والله، اسمها عزبة سيدك تبع". ضربها على كفّها وهو يقول: "وسيدك أنتِ أيضًا يا قليلةَ الأصل، قولي ثانية ما اسمها وما اسم القرى المجاورة لها". فقالت ضاحكة: "سيدي تبع، شمالها قرية الورق وجنوبها الكفر الجديد، ومقبرة جدي على بُعد كيلومترين شرق الطريق الرئيسي تقطعهما خلالَ سكة صغيرة تسمّونها الجعفرية... لا تقلق يا أبي سوف تعود إليها حيًّا وأنت وزير أو محافظ".

قبّلته على جبينه وهي تتمنى شفاءه سريعًا، رأتها زهرة فقالت ضاحكة: "اللّهم أدِم علينا هذا الصفاء". ضحكوا جميعًا ثمّ سألها عمر: "أظنّ أنني سأستطيع الخروجَ الليلة لأستطيع اللحاقَ بمهمتي". ردّت عليه بنفي قاطع مؤكدة أنه لن يخرج قبلَ ثلاثة أيام ثمّ سيحتاج إلى الراحة لمدة أسبوعين على الأقل لا يمارس أفعالاً مُجهدة. اعترض على قولها، ودخلا في شدّ وجذب، وانضمّت (ميْساء) لصفّ أمها وقالت: "اسمع يا أبي، لا أريد الذهاب إلى سيدك بلبع هذا في أي وقت". نظر إليها بغيظ وهو يقول: "بلبع يا ابنة الـــ...".

كرّر سؤاله لزهرة عن إمكانية تقليل مدّة الراحة، فقالت بحزم: "أسبوعان بلا أيّ إجهاد". أشار إليها لتقترب بأذنها منه، ثمّ همس قائلًا: "كيف أتحمّل أسبوعين بلا مجهود، وأنا سأقضيهما بصُحبتك". احمرّ وجهها خجلًا وضربته على كتفه قائلة: "سأجبرُك على الراحة لا تقلق".

نقلتْ (ميْساء) عينيها بينهما في شكّ وهي تقول: "لو كان ما أفكر فيه صحيحًا؛ فهذه كارثة". انفجرَا ضاحكين، ثمّ قال (عمر) باسمًا: "بذمتك هل كنت تتخيّلين وأنت في سنّها أن تقولي لأمّك شيئًا كهذا.. ما رأيك الآن في بنات الأربعينيّات!". فقالت زهرة: "حين تقول الأربعينيات أتخيّل أفلام

ليلى مراد وأنور وجدي والريحاني، ولا يخطر ببالي أربعينيّات القرن الحادي والعشرين".

استأذنت منهما (ميْساء) وقالت إنّها ستذهب لمكان منعزل لتجري اتصالًا بالمقدّم (إياد) وباسل، وتخبرهما بأنّ أباها لن يكون معهم غدًا. تابعها بنظره وهي تبتعدُ وقال لزهرة: "كنت معترضة على (سمير) لأنّه متزوج، الآن هي لا تتكلم إلّا عن باسل ولا أدري ما دهاها". سألته مَن يكون باسل؟ فقال لها إنّه انضم للمقاومة حديثًا، وإنّه يعمل في الظاهر مع شرطة النياندرتال، وإنّه كان من عتاة ضباطهم واعتقَل، وقتلَ الكثير من الثوار فيما مضى. فقالت مذعورة: "يا إلهي هل جنّت البنت... ثمّ كيف يعمل هذا الرجلُ معكم بعدَ خيانته وعمله مع الغزاة".

حكّ يدَه مكان مدخل الجهاز الوريدي طالبًا منها أن تنزعه لكنّها نظرت إليه محذّرةً فتراجع قائلًا: "الرجل أعلن توبتَه عن أفكاره، وحصل على عفو من السّلطات مقابل تعاونِه الكامل، واشتراكه الفعّال مع المقاومة، والحق أنه صدق تمامًا حتّى الآن". هزّت رأسَها رافضة لفكرة ارتباط ابنتها به رغم ذلك. فقال عمر إنه يخمّنُ فقط من طريقة اهتمامها به، ثمّ أضاف: "أعتقدُ أن معه بعض العذر فيما فعل سابقًا، فالظلم الذي تعرّضت له أسرته قبل الغزو يجعل أيَّ إنسان يفقد بوصلته لكنه عادَ إلى رشده عندما عرف الحقيقة، وهذا يُحسب له".

بدَا على وجه زهرة الاقتناع، وإن لم تصرّح به، وقالت في نفسها إنه ليس أسوأ من رجل متزوّج على أيّ حال. حين عادت (ميْساء) سألت وهي

تغمز بعينها اليمنى عن ردّ الأستاذ باسل، وضغطت على حروف اسمه، فقالت (ميْساء) بضيق مُتجاهلة التلميح المبطّنَ في كلام أمها: "لم يستطع الحديث، ردّ بطريقة مقتضبة لأنّ مربّية ابنه موجودة بجواره". حدّقت زهرة فيها باستنكار وهي تقول: "ابنه! هو متزوّج هو الآخر! ما حكايتك أيّتها المجنونة". ردت (ميْساء) بتوتر قائلة: "أمي.. هذا مجرّدُ زميل لا يعنيني في شيء، ثمّ إنّه أرمل وليس متزوجًا". فقالت أمها وهي تنزعُ جهاز المحلول من ذراع (عمر) بعد أن فرغ الدواء: "حسنًا سأصدق أنه لا يعنيك في شيء، لكنِ اعلمي أنّه على جثتي أن تتزوجي أرمل لتربّي له ولده". ضحك عمر بصوت عال وهو يقول: "مَن الذي يعيش في القرن العشرين الآن أنا أم أنت يا أمّ ميساء؟!".

***

٣٢

ترجّلت (ميْساء) من القطار الهوائي الصّغير الذي يربط القاهرة ببورسعيد، وبصحبتِها (باسل) ليركبا القطارَ الكبير الذي يربط كلّ المدن الساحلية في الأراضي المحتلّة، بدايةً من الإسكندرية حتّى إزمير، مرورًا بعدة مدن كبرى؛ مثل غزة وحيفا وبيروت واللاذقية وأنطاليا وغيرها. عبرَا معًا الشارع نحو رصيف القطار الكبير، كانا متنكّرين في هيئة فتاةٍ وأبيها، (باسل) وجهُه مُتغضّن وشعره أشيب وجفنُه السفلي منتفخ قليلًا، والعلوي متهدّل الجلد، ويداه مغطيتان بالتجاعيد والبقع البنيّة، لا يمكنك حين تراه إلّا أن تجزم أنّه تجاوز الستين. أما (ميْساء) فقد طال أنفها قليلًا، وزادت حدتُه، وزادت وجنتاها استدارة، وفكّاها بروزًا، وامتلأت شفتاها قليلًا حتّى بات وجهها أقربَ لعارضة أزياء في أيام ما قبل الاحتلال.

أمسكتْ ذراعه بيدها الصغيرة وكأنّها تساعده على عبور الطريق، توقفا أمام إحدى الطائرات الدقيقة التي تفحّصتهما، ثمّ قالت رحلة سعيدة بصوتها المميز بعد أن تعرّفت فيهما على ملامح مُستعارة أُدخِلت لقاعدة بيانات شرطة النياندرتال بواسطة الثوار. على باب القطار أوقفَهما ضابط أديتي، تفحّصهما بحرص ثمّ سألهما عنِ الغرض من رحلتِهما قبل أن يتركهما يركبان. كان القطارُ نظيفًا لامعًا، عرباته فسيحة، والمقاعد وثيرة، وكانت أسماؤهما المُستعارة مكتوبة في شاشة فراغية صغيرة أعلى المقاعد المخصّصة لهما.

ارتفعَ القطار في الهواء أولَ الأمر، ثمّ انطلق مرّة واحدة كالريح على ارتفاع تسعةِ أمتار فوق سطح الأرض، في وقت وجيز وصل إلى محطته التالية في العريش، وقف أعلاها ونزلَ لمستوى الرصيف وركبَ البعض، ثمّ طار إلى محطته التالية في غزة.

كانت (ميْساء) مبهورةً بالقطار وقدّرت أنه يحتاج في تشغيله إلى عشرة كيلوجرامات على الأقلّ من معدن الطاقة الجديد. كان ذلك المعدن موجودًا في مسافة عميقةٍ في الأرض لم يصلْ إلى البشر إلى ربعها قبل الغزو، كان يتفاعل مع مواد حمضيّة معتادة تطلق منه طاقة كهربائية كبيرة بشكل مستمرّ كأنّه بطارية ضخمة لا تحتاج إعادة شحن.

سألت (ميْساء) (باسل) إنْ كانت تلك أوّل مرّة يركب فيها هذا القطار المبهر، فأجابَ باقتضاب: "لا.. ركبتُه مرّتين من قبل". قالت: "كنت في مهمة عمل؟" فأجابها بإيماءةٍ موافقة. أوشكتْ أن تسأله متى وكيف لكنّها تراجعت فلو كان يريد القولَ لاستطرد في إجابته أو أحابها بكلمةٍ على الأقل.

صمتتْ قليلًا وهي تفكر في فتح مجال آخر للحديث معه يكون محفّزًا له ليتحدّث ولا يجيبها بذلك الاقتضابِ المُنفر. أخذت نفسًا عميقًا ثمّ سألته ثانية: "هل تظنّ أننا سنستمتع بتلك المواصلات بعد أن يرحل الغزاة". نظر حوله في توجّس، ثمّ قالَ بصوت هامس: "وهل تظنّين أنّه من المناسب أن نتكلم عن رحيلهم في قطار مملوءٍ بالناس والطائرات الدقيقة!". أحسّت بالدم يهرب من أطرافها، وبأنّها تكاد تغوص في كرسيها من الإحراج.

ها هي ترتكبُ حماقة لمجرّد أن تفتح معه حوارًا وهو لا يبالي أصلًا بوجود حوارٍ بينهما. تساءلت هل كانت واهمةً حين شعرت بانجذابه لها أوّل ما رآها، كانت لحظة صراع يصعب تصوّرُ حدوث انجذابٍ بين رجل وامرأة خلالها، إلّا أنها تكاد تُقسم أنّها شعرت بانجذابه. هل كان شعورًا كاذبًا أم أنّه انجذب لها فعلًا ثمّ لما ماتت زوجتُه بين يديه فقدَ الرغبة في الحب. تقلب الأمر في رأسها ثانية ثمّ تقول إن افتراضَ ذلك حماقة أخرى، فكيف ينجذب رجلٌ متزوج لامرأة ما، ثمّ حين تموت زوجتُه يزول هذا الانجذاب، ثمّ تقول لنفسها: "الرجالُ مجانين، ويعشقون الخيانة، وقد يتصرّف أحدُهم بهذا الشكل".

نظرتْ من زجاج القطار، وأخذت تتأمّل الساحل وهي تفكر في مدى سذاجة وحمقِ خيالاتها وتحليلاتها، وتفكّر في السبب الذي يجعلها تتسرّع في الحكم على مشاعرها ومشاعر مَن حولها، وتتخلّى عن بديهيات لا بدّ أن تكون موجودة في أي علاقة تُقدم عليها. ربّما لأنّها لا تمتلك صديقاتٍ تحكي لهن وتستمعُ إلى خبراتهن، وربّما إحساسها بأنّ الحياة على حافّة الخطر في بلدٍ مُحتل جعلها تظنّ أن القراراتِ العاطفية يجب أن تكون أسرعَ اتّخاذًا وأقل تعقيدًا.

توقّف القطار في غزة، ثمّ تل أبيب، وقد صارت المدينتان متشابهتيْن إلى حدّ كبير، على الأقلّ في الجزء الظاهر لها من محطة القطار. كان مَن استقلوا القطار من المدينتين نياندرتال (يظهر جنسُهم من سحنتهم المميزة)، وأرضيّين لا يمكن أن تفرّق مَن منهم عربي ومَن منهم يهودي، وقد وحّد بينهم الاحتلال فجعلهم تحت نيره سواء. كانت إحدى النّقاط التي يتباهى بها المحتلون دومًا

أنهم قضوا على الصّراعات بين الأرضيين في الأراضي التي احتلوها، وعلى رأسها الصراع العربي الإسرائيلي الذي دام قرابة القرن قبل مجيء النياندرتال.

أمضتْ بقية رحلتها موليةً وجهها شطرَ زجاج القطار، لم تتبادل مع (باسل) كلمةً أخرى حتّى وصلا إلى بيروت، كانت محطة القطار تطل على البحر أمام صخرةِ الرّوشة التي لا تزال واقفةً بقوسها العظيم أمام الشاطئ لا يشغلها من يحكم هناك أو مَن يعيش. هناك كانت تنتظرُهما مركبة أخذتهما إلى أحدِ مقرّات المقاومة اللبنانية في أحدِ أزقة الضاحية الجنوبية لبيروت. انطلقت بهما في شارع "باماجوها" والذي كان قبل الغزو يسمّى "حارة حريك". انعطفت السيارة في شوارع جانبية مُتتالية حتّى انتهى المطافُ بهما إلى الجلوس في غرفة صغيرة في انتظار التعليمات القادمة من قيادة المهمة التي هُم على وشك الانخراط فيها، والتي كانت تديرها كتائبُ بيروت بصفتهم مسئولين عن تلك المنطقة.

نقرَ (باسل) بأصابعه على الطاولة أمامَه في عصبية ثمّ قال: "اعذريني فقد كنت اعتقد أن أحمقًا أصح لأنها صفة وليست أفعل تفضيل من أوّل اليوم، لكن..." سكت وكأنّه يستجمع بقية كلماته، فتح فمه ليكمل، ثمّ سكت ثانية فقالت هي: "لكن ماذا؟". كان يريد أن يقول لها إنه مضطرب ويمرّ بأكثر أيام حياته تعقيدًا، ويشعر أنّه أمضى عقدًا كاملًا من حياته في كذبة، أمضاها يحاربُ في جبهة خاطئة، ويُخلص لأناس لا يقلّون خسّة عمّن ظلموا أباه، ولا يعرف إنْ كان سيستطيع أنْ يسامح نفسه على الدماء التي سالت على يدِهِ لأناس كلّ همهم كان الدفاع عن أوطانهم ضدّ الغرباء.

كان يريدُ أن يتكلم عن كميردا وعنِ ارتباط صورتها في ذهنه بولائه للغزاة، وعنْ تساؤله ماذا لو كانت قد نجتْ من تلك الأزمة؛ هل كانت ستؤيّد انضمامه للناس الذين تحرق خصلات شعرهم بعدَ موتهم وتصلي لإلهها ليحبس أرواحهم في الظلام، أم ستظلّ مُخلصة لجلّاديها!؟ وماذا عن حبّه لها، عن حياتهما الرائعة معًا وعن طفلِهما الذي تركَه للمربّية، ولا يعرف إن كان سيعود ليراه أم لا! لو كان اتخذ طريقًا آخرَ غيرَ الولاء لقومها أترى كانت ستحبّه بكلّ ذلك الشغف، أكان سيوجد ثمة احتمالٌ ولو ضئيل أن تعرفَ هي حقيقة حكامها فتنضم هي للمقاومة ويقعا في الحب بتلك الطريقة.

في النّهاية، قال لميساء: "أعتقد أننا يمكن أن نستفيدَ من تقنيات الأديتيين وقطاراتهم حتّى بعدَ رحيلهم". ابتسمت لردِّه وقالت: "هل أخذت كلّ هذا الوقت لتفكر في إجابة السؤال؟". لم يُبدِ أنّه استوعب مزاحها لأنّه استطرد قائلًا: إنّ الاستفادة من تقنياتهم ستحدُث فقط إذا تعاون الجميع، ونسوا أحقاد الماضي، إذا تخلت الحكومات عنِ استبدادها، وتخلّى المتعصّبون عن طائفيّتهم، ووجد الصهاينةُ أنّهم لا بدّ أن يكفّوا عن اغتصابِ الأرض والتوسعيّة والمؤامرات، واستطعنا نحن أن نقبل وجودَهم بيننا إذا احترموا وعودَهم، وإذا فهمَ العربي والتركي والكردي واليهودي أنّ الإنسانية هي العرقُ الوحيد الذي يوضَع في الاعتبار، وأنّ التعايش هو الدين الذي ينبغي أن يسود.

ختمَ حديثَه وهي تنظرُ إليه مبهورةً غير مصدقة أنّ لديه مثل تلك الأفكار وهو الذي كان يعمل شرطيًّا يقمع الثائرين، وقالت: "أنتَ تتكلم مثل أبي تمامًا في تلك النقطة". هزّ رأسه موافقًا وقال: "ما دفعني لخدمتهم هو أنّهم يسعون إلى التّعايش بين جميع الأجناس والأديان داخل دولتهم واحترامهم للجميع، لكنني اكتشفتُ أنّهم لا يحترمون حتّى حقّ أبناء شعبهم في الحياة، وأنهم يبحثون عن أحقر الذّرائع لتهجير مزيدٍ من البشر خارج الأرض المحتلة".

عندما أنهى كلامَه وجد نفسَه يتأمل عينيها ثانية دون أن يشعر، كانتا بالنسبة له تحويان عمقًا غريبًا لم يختلف باختلافِ نظرتها له. المرّة الأولى نظرتا إليه بتحدّ وشيء من الكراهية، في الثانية تحفّز وفضول واليوم فيهما إعجاب واضح تحاول هي إخفاءه، في كلّ تلك الأحوال كانت العينان تأخذانه بشكل لا يمكن تفسيره، وكان ذلك سببًا إضافيًّا لتجنّبه النظرَ إليها أو تبادل الحديث معها في القطار. لاحظ احمرار وجهها من طول نظرِه إليها، فاحمرّ وجهه هو الآخر، ابتسمت وقالت "أريد أن أقول أنّ وجهكَ به حُمرة خجل، وأعود أكذّب نفسي" ضحك وقال "نفيك لوجود حمرة الخجلِ في شخص ما تعدّ إهانة، لكنّني أعرف مقصدك، الحقيقة يا (ميْساء) أنني ...."

قاطعَه مجيء شابّ عشريني يجرّ أمامه عربةَ طعام صغيرة، نقل الأطباقَ من عليها إلى طاولتهم، نوعان من سلطات الخضار ولحم ودجاج مشوي وطبق فاكهة، وتمنّى لهم وجبة هنية، وانصرف دون أن يزيد كلمة. كانا جائعين فلم يتبرّمَا وأقبلَا على الأكل بشهيّة مفتوحة، بل وهربا به من لحظةٍ كلاهما غيرُ مستعدّ لها. بعد أنِ انتهيا جاء الشابّ نفسه بكوبين صغيرين من القهوة وهمّ بالانصراف.

أمسك باسلُ ذراعه وقال: "شكرًا على واجبِ الضيافة.. ألن يجتمع بنا أحدٌ من القادة أم سنظلّ هكذا حتّى الغد؟". ابتسمَ الشابّ مجاملًا وهو يؤكد أنّ الاجتماع بعد قليل.

لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى بدأ الاجتماع، كانا جالسين إلى طاولة بيضاوية كبيرة، جلَس عليها أيضًا أربعةُ رجال وامرأة وثلاثة من النياندرتال. تبادلوا تعارفًا قصيرًا وترحيبًا مُقتضبًا قبل أن يأتي رجلٌ خمسيني ليتوسط الجلسة. سلمت عليه (ميْساء) بحرارة وهي تقول: "سيد سامر، شرف لي أن أقابلك شخصيًّا، لقد حدثني والدي عنك كثيرًا". بادلَها الرجل بالحرارة نفسها وهو يقول إنّه يحترم بطولة والدها جدًّا، وقد أسعدَه قراره بالموافقة على توحيد المقاومة في مصر كما هي في لبنان، وأنّه لم يبقَ غير السوريين حتّى تكتمل جبهة واحدة داخل الأراضي المحتلة.

نظرَ إلى باسل، ومدّ يده يسلم عليه ويربّت على كتفه مرحبًا؛ "لقد قرأت ملفك بعناية، وأصدقك القول لم أقتنعْ في البداية بالعمل معك لولا أنّ السيد (عمر) أكّد لي ولاءكَ للقضية". ابتسمَ باسل وقال له: "صدقني يا سيدي سترى منّي ما يسرّك". هزّ الرجلُ رأسه متفهّمًا ثمّ أشار إلى أحد معاونيه قائلًا: "ابدأ الشرح يا إيلي".

ضغطَ إيلي- رجلٌ ثلاثيني من عُمْر (باسل) تقريبًا، وسيم، ذو شعر طويلٍ انحسر عن مقدمة رأسه- على أداةٍ في يده؛ فظهرت شاشة فراغية أمام الجميع فيها مجسّم لقصْر مَنيف عالي الأسوار، به مساحة واسعة من الأرض العشبية، وحمّامَا سباحة ومبنيان صغيران؛ واحد بين البوابة الخارجية وباب القصر

والآخر خلف القصر. ضغط زرًّا آخر فابتعدتِ الصورة، وبدا واضحًا موقعُ القصر على تبّة عالية يطلّ سورُه الغربي على جرفٍ يرى البحر من بعيد، وفي ناحيته الشرقية يطلّ السورُ على طريق يمتدّ موازيًا للجرف الموجود غرب القصر.

بدأ إيلي بشرح الترتيبات الأمنية للقصر، وعدد الرجال القائمين على حمايته، وأماكن المركبات فيه، والمستشعرات المجهزة بمقذوفات لمهاجمة أي متسلل، وطريقة توزيع الطائرات الدقيقة التي تحرس المكان. فتح بعد ذلك صورة فيها مخطّط للقصر وأماكن تواجدِ أفراده، وغرفة اجتماعات أناندار المتوقع وجوده فيها وقتَ الهجوم إلى جانب غرفة نومه وغرفة زوجته والغرف المخصصة لممارسة اللّهو الذي يدمنه.

قال سامر: "مهمّتنا من شقّين؛ الأوّل قتل أناندار، والثاني هو القبض على مساعده الأول حيًّا ليُعيننا في محاكمة هيرمين". فهمَ (باسل) من الشرح أنه قد عُدِّلَت الخطةُ لإحداث أكبر قدر من التأثير الدعائي لمحاكمة هيرمين، وذلك بمحاكمة مساعدِ أخيها معهاً، والتأثير على كلّ منهما للاعتراف على الآخر، ونشر كلّ تلك الاعترافات في العلن.

سألَ أحد النياندرتال الموجودين قائلًا: "ماذا لو قُتل المساعد في أثناء العملية؟". فأجاب سامر: "سنكون مُجبرين على اختطاف أناندار بدلًا من قتله". فتدخّل (باسل) قائلًا بغضب: "لقد اتّفقت مع زملائكم في مصر على قتله". نظر سامرُ له شذرًا وقال: "مِن المفترض أنّك صرتَ من زملائنا بمجرد قبولك الانضمام لنا!". تدخل إيلي قائلًا: "سيد باسل، يمكنك أن تحمي هذا المساعد حتّى لا تفقد فرصتَك في الانتقام". فقالت ميساء: "وبفرض أنّهم

اضطرّوا لمحاكمته مع أخته فإنه يُمكنك بعدَ نشر اعترافاته أن تحضر تنفيذ حكم إعدامه بنفسك". هزّ سامر رأسه موافقًا (ميْساء) وهو يؤمّن على كلامها، ثمّ وقف مكان إيلي وأشارَ له بالجلوس وهو يقول: "والآن دعونا نبدأ بخطة عملية برمانا".

***

٣٣

جلستْ هيرمين في مكتبها تراجع تقاريرَ إعلامية عن إخلاء منطقة الدويقة وهدم بيوتها، والمهجّرين منها الذين تجاوز عددهم الخمسين ألفًا، هُجِّروا في مركَباتٍ كبيرة وأنزلوهم في صحراء طرة عند الحدود بين الأرض المحتلة وباقي مصر. كانت الإداناتُ الدولية تتوالى، وأديتيا تردّ بأنها دولة حرّة، ولا بدّ لها من معالجة (مشكلة الإرهاب المُستفحلة فيها) حتّى وإنْ أدّى الأمر إلى إخلاء كلّ المناطق الشبيهة.

لم تدخرْ دولُ العالم وسْعًا في إدانتها لمقتل النساء الأديتيات الحوامل حتّى الدّول المحتلة. تركيا ومصر مثلًا أدانتا الجريمةَ بأشدّ العبارات، وأكّدتا على أن المقاومةَ حقّ مَشروع للشعوب، لكنّ المقاومة لا ينبغي أن توجه للمدنيين وينبغي أن لا تتّخذ ذريعةً لجرائم كتلك. في جلسةِ مجلس الأمن كانت هيرمين تتحدث بكل ثقةٍ وتقول إنّ أديتيا سترد، ولن تسمحَ لأيّ دولة في العالم بالضغط عليها في مثل هذا الأمر.

كانت منشية ناصر هي التجربةَ الأولى، وإذا نجحت وكانت ذات جدوى ماديةٍ كبيرة وهو المتوقع؛ فسوف تتبعُها مناطق أخرى أولها إمبابة ومسطرد في مصر وجوبر وبرزة في دمشق وأجزاء من ضاحية بيروت الجنوبية وبعض الضواحي القديمة في مدينتي أضنة وإزمير بتركيا.

نادتْ على مساعدتها الجديدة، طلبتْ منها بعض الأوراق فتسمّرت المرأة في مكانِها كأنها لم تفهم، فأخذت نفسًا عميقًا وهي تكبتُ رغبتها في صفعها.

شرحت لها ثانيةً غرضَها، وهي تترحّم على كميردا التي كانت في أواخر الحمل تعمل بطاقة رجليْن. يعنّ لها كثيرًا تذكّرُ كميردا وتفقد أحوال ولدها وزوجها، وشعرت بارتياح كبيرٍ حين ماتت ميتة طبيعية دونَ أن يقتلها أحدٌ بسكينه، وحين استطاعوا إنقاذ حياة طفلها.

ارتعبتْ قليلًا من احتمال أن تكون قصّت على (باسل) تفاصيل الساعات الأخيرة قبل موتها، لكن مرّتِ الأيام وكلُّ شيء طبيعي، مقابلة الزوج لها في الجنازة كانت أكثرَ من عادية، ومقابلاته اللاحقة كانت ودية، وأحسّت منها أنه ربما يريد أن ينالَ منصبًا جديدًا، مستغلًّا شفقتَها على وفاة زوجته، بل وجدته يتودّد إلى (لؤي) وإلى مساعدتها الجديدة.

زادَ ارتياحها أيضًا حين زارتْها كميردا في المنام منذ عدة أيام، وقالت إنها سامحتْها، وإنّ روحها تنعمُ الآن في ملكوت بهيّ، وأوصتها على (باسل)، وعلى ابنها علاء. رغم أنّها لم تكن متدينة، أقنعتْ هيرمين نفسها أنّ الحلم حقيقي، وأنّ روح كميردا زارتْها بالفعل، وأنّها سامحتها، واستدلّت على ذلك بأنها لا تتذكر أن كميردا أخبرتها بأنّها اختارت اسمًا لطفلها.

رنّ جهازُ الاتصال في معصمها، فتحت الاتصالَ الذي كان صوتيًّا، فجاءها صوتُ ماندريك قائلًا بنعومة: "ألم تفتقديني يا عزيزتي هيرمين.. ألا تحنّين لأيام الشّباب؟". امتقعَ وجهها وسألته بصوتٍ مرتعد: "كيف وصلت لكودِ الاتّصال بي؟". جاءها صوتُه ضاحكًا يقول بسخرية: "أحدّثك عن أشواقي فتكسرين بخاطري هكذا.. عمومًا لن أيأس، وسأحاول اختطافَك ثانية، أتعرفين لماذا؟". صمتت وهي تحاول فهمَ ما يرمي إليه. قالت: "لماذا؟".

فقال: "لأنني أشتاقُ إليك دومًا، وأريدك جانبي، وأعلم أنّني أستطيع ضمّك لصفّي ضدّ حكومتك الفاسدة". أغلق الاتصال وتركها تضربُ أخماسًا في أسداس، وسطَ سيلٍ من الأفكار والمشاعر المتناقضة.

حاولتِ الاندماج في عملها ثانية بدون جدوى، لدرجة أنّها قررت أن تنهي اليومَ وتأخذ (لؤي) وخادمتها العجوز في نزهة. قبل أن تحوّل فكرتها لقرار، صمّ أذنَها صوتُ انفجار يأتي من فناء المبنى فانحنتْ غريزيًّا تحتمي تحت مكتبها ثمّ سمعتْ صوت جلبة في الخارج وأزيزَ مركبتين وإطلاق قذائف.

انفتح بابُ مكتبها عنوة، ودخل (لؤي) وقال: "سيدتي، هل أنت بخير؟". فردّت بالإيجاب وهي تعتدل واقفة. "لا بدّ أن ننصرف سريعًا، يبدو أن هناك هجومًا كبيرًا على مكتبك". قال وهو يمسك يدَها ويجذبها للخارج. اندفعت تجري معه وهي تتذكّر كلامَ ماندريك، وتخمّن أنّه لا بدّ خاطبها وهو واقفٌ خارج مكتبها يريد أن يطمئنّ على وجودها بالداخل، وخمّنت أنّ هناك خطة لقتلها أو اختطافها .

طبقًا لخطّة الطوارئ المُعَدة لتلك الظروف، تبعت (لؤي) إلى القبو حيث تقبع مركباتُ الهروب؛ مركبة مخصّصة لها ولحارسها الشخصي، ومركبتان مسلحتان جيدًا لحراستها هي. اندفعتْ إلى مركبتها واتّخذت مكانها في الخلف وأمامها (لؤي) والسّائق. انتظرت قلقة وهي تسمعُ أصواتًا مكتومة تصدر من الأعلى تنبئ أن الوضعَ مُضطرب، هتفتْ بلؤي تحثّه الإسراع، فتح جهازَ اتّصاله وقبل أن يتكلم كان الرجالُ يدخلون إلى المركبتين الثانيتين،

وفي لحظات كانت طاقة تنفتح في الأرض وتخرج منها المركبات الثلاث منطلقة بسرعة.

على بُعد حوالي كيلومتر من الڤيلا التي يقبع فيها مكتب هيرمين، كان (ضياء) يلملمُ أجهزة التحكم، ويهمّ بالانصراف هو وزميله الأديتي. كانت تلك هي المرةَ الأولى التي يعمل فيها جنبًا إلى جنب مع المقاومين من هؤلاء القوم، كان موضوعُ التعاون مع كتائب الحرية (غير النظامية والتي يقودها عمر عوض الله) ومعَ أعضائها من النياندرتال لا يزال يُربك تفكيره جدًّا، فهو رجل نظامي طيلة عمرِه، عملَ في الشرطة قبل الاحتلال، ثمّ عمل مع المحتلين في العمل نفسه، وحين اعتزلهم وأرادَ أن يقاومهم انضمّ إلى كتائب النصر تحت إمرة ضباط من المخابرات المصرية.

حملَ حقيبته على كتفه، ومعَه زميله يحمل حقيبة أخرى أكبر، وبدءا يمشيان في شوارع فسيحة بهدوء كأنهما موظّفان يغادران مقرّ عملهما. كان دورهما في الخطة إطلاقَ مجموعة من القذائف على مقرّ هيرمين، وإحداثَ أكبر قدر من الارتباك لإجبارها على الانْصراف بسرعة ليبدأ تنفيذُ الجزء الثاني من خطة اختطافها.

انطلقتْ هيرمين في طريقها إلى أحدِ المنازل المخصصة لمثل تلك المواقف الخطرة، كان الطريق مُحاطًا بسريّة شديدة، لا يعرفه إلّا حارسها الشخصي وسائقها قبلَ الانطلاق مباشرة. لم تسلك الطريقَ المباشر من هيردفاديل (٦ أكتوبر) إلى نارافاديل التي تضمّ أجزاءًا في القطامية ومدينة نصر؛ بل سلك الموكب طرقًا صغيرة في قلب الجيزة عابرًا نهرَ النيل فوق جزيرة الروضة إلى القاهرة.

كان مسارُ الموكب بعد ذلك يمرّ على كورنيش النيل ليدخل إلى شبرا ثمّ يدخلُ لمدينة نصر من اتّجاه بعيد تمامًا عن تفكير المقاومين، الذين ولا بدّ يتربصون في أيّ نقطة في الطريق المباشر. خاطبت هيرمين مسئولَ الأمن، لتسأله إن كان رجالُه قد توصّلوا إلى مطلقي القذائف على مقرّها، فأجابها بالنفي، وبالتأكيد على أنّهم يبذلون قصارى جهدهم. أغلقتِ الاتصال معه، ولم تمضِ لحظات حتّى ارتجت مركبتُها بفعل انفجارٍ في مركبة الحراسة فوقها، وظهرت من العدم ما يربو على عشْر دراجات طائرةٍ تحاصر موكبها.

زادَ سائق مركبتها من سرعته، واشتبكت مركبتا الحراسة مع الدراجات، طلب (لؤي) المددَ من أقرب نقطة تجمع، وجاءه الردّ بالإيجاب. في دقائق معدودة، استطاعتْ مركبتا الحراسة إسقاطَ ستّ دراجات مهاجمة، ولاذَ البقية بالفرار في شوارع جانبية، لكن تعطّلت إحداهما ولم تعدْ لها القدرة على مرافقتها، وبالتالي انطلقتْ هيرمين ثانية بمرافقة مركبة واحدة.

استخدم السائقُ سرعة عالية في طريقِه غير عابئ بقوة الانحرافات التي كانت تجعلُ هيرمين تتمايل بقوّة، وتكاد تسقط. بعد تجاوُز ثلثي الطريق المرهق، الذي تزيد مسافتهُ عن ضعفِ مسافة الطريق المعتاد، فوجئ سائقُ مركبة الحراسة المتبقّية بمركبة تسدّ الطريق عليه، وتطلق عدّة قذائف متتالية. أصيبت مركبته إصاباتٍ كبيرة عطّلتها تمامًا، لكن بعد أنِ استطاع إطلاقَ قذيفة فجرت المركبة المُهاجمة، وجعلتها تسقط مشتعلة على الأرض.

ترجّل قائدُ مركبة الحراسة وأخرج منها دراجةً طائرة ركبها ووقف بها جوارَ مركبة هيرمين، وهو يطلب من قائدها الاستمرار في طريقه بمرافقته.

استدار (لؤي) لهيرمين وقال: "سيدتي، يبدو أنّ مسارنا معروف لديهم، وأنّ هناك أحدًا دلّهم عليه، لا بدّ أننا سنجد كمينًا ثالثًا في طريقنا". سألته في توتر: "إذًا، ماذا تقترح؟".

"أقترحُ أن نأخذَ المركبة ومعنا الحارس الإضافي ونتّجه إلى منزل أسرتي". سألته: "أين؟". فقال: "في وسط القاهرة، بالقرب من محطة القطار الكهربائي الرئيسية".

بعدَ دقيقة من التردّد حسمت قرارها ووافقت على أن تتبع خطة لؤي. بدأت مركبتُها في التحرك يتبعها الحارسُ على دراجته الطائرة، ولؤي يدل قائد المركبة على الطريق. طلبَ منها أن تغلق كلّ أجهزة التعقب في المركبة، وفي معصمها، وتلك الموجودة مع الحارس المرافق لهم؛ فقد يكون سببُ التسرب الأمني هو اختراقَ المقاومين لتلك الأجهزة. فكّرت قليلًا، لم تسلم الأمان أبدًا لشخص بتلك الطّريقة لكنّ كلامَه منطقي؛ وهي إن تركت أجهزة التعقب تعمل ستكون قد ائتمنت أشخاصًا كثيرين على حياتها، وليس مجرّد حارس واحد. في النهاية حسمت أمرها ووافقتْ على اقتراحه.

بدأتْ تطمئن قليلًا حين رأت أنّ مسار المركبة يمضي بسلاسة دون كمائن جديدة. طلبت الحاكمَ وأخبرته أنّ مسئول الأمن ينبغي تغييرُه، فهناك فشل ذريع في حمايتها وحماية أسرارها، أوصت- أيضًا- بالتحقيق معه ومعَ محافظ الجنوب مدعية أنّ ذلك الإهمال في حمايتها قد يكون متعمّدًا لما بينها وبينهم من البغض الظاهر.

هدّأ الحاكمُ من روْعها، وأخبرها أنهم جميعًا مُخلصون لأديتيا، وأن مثل تلك الأخطاء واردُ الحدوث. "لا تنسي أنّ هؤلاء المخربين يجمعون بين دراية

الأرضيين بمدنهم وطرقها وبين دراية الأديتيين بطرقنا الأمنية، وأنّ لهم عملاء بيننا بلا شك، لكنّ ذلك لا يمنع من محاسبة المقصّر إن وجد".

كانت المركبة قد بدأتْ تسير في شارع جانبي حين أمرَ (لؤي) القائد أن يوقفَ المركبة. ترجّل (لؤي) أولًا ثمّ طلبَ منها النزول وهو يقول: "سوف ندخل إلى البيت، وأطمئنّ إلى أن أحدًا لم يتبعنا أولًا، ثمّ سأطلب القيادة أبلغهم بالعنوان لترسل لنا مددًا كبيرًا لاستخراجك من هنا". قالت وهي تصعدُ معه السلم وقد اطمأنّت له تمامًا: "حسنًا. واطلب من القائد والحارس أن لا يقومَا بتشغيل أجهزة التتبع حتّى وصول المدد".

فتحَ الباب لها، وأدخلها إلى استقبال الشقة، وأجلسها على أريكة كبيرة ثمّ أحضرَ لها كوبًا من العصير وضعَه أمامها على طاولة صغيرة. استأذن منها للخروج إلى الرجلين ثمّ العودة لها سريعًا ليقوم بطلب المدد، فأذنت له. خرج إلَى مدخلِ البيت ووقف متحفّزًا مسترقًا النظرَ نحو الحارس الذي كان لا يزال على دراجته. فعّل سلاحَه بهدوء حذر، ثمّ صوّبه على رقبة الحارس وأطلقه فأسقطه أرضًا، ثمّ قفز نحوَ المركبة مطلقًا عدةَ قذائف نحو قائدها الذي خرّ صريعًا.

في الداخل، كانت هيرمين تشرب العصيرَ الذي كان لاذع الطعم بشكل مُحبّب. ما إنْ أكملته حتّى سمعت صوتًا مألوفًا لها يقول بأديتية سليمة: "مرحبًا بك في ضيافة رجال المقاومة يا هيرمين". التفتتْ بفزع فوجدت أمامَها ماندريك واقفًا وعلى وجهه ابتسامة ظفر عريضة، فتحت فمَها لتتكلم لكنها شعرت بدوار شديد، وبالأرض تنزلق منْ تحت قدميها، وبسوادٍ يغشي عينيها، ثمّ غرقت في سبات عميق.

٣٤

كان قصرُ أناندار قبلَ الغزو منتجعًا سياحيًّا يقصده القاصي والداني في قلب جبلِ لبنان، في برمانا التي صارتْ جزءًا من جبلتافاديل، وهي مدينة ضمت معظمَ جبل لبنان، وصارَ يسكنها غالبية من النياندرتال ومَن تزوّجوا من نسائهم. كانت الخطةُ تقتضي التسلّلَ للقصر من اتجاهين؛ الأول من جهة سوره الغربي الذي يطل على الجرف، عن طريق المرورِ من البيوت التي تحتلّ المستوى الأدنى في الجبل، والثاني من ناحية الشمال حيث يوجد بيتٌ فارغ من أهله في هذا الوقت من العام ولا يفصلُه عن سور القصر سوى ممرّ قصير من الأشجار. في ذلك البيت تجمع على مدى الليل مجموعةٌ من خمسة عشر فردًا، منهم ثلاثةُ تقنيّين ومعهم (باسل)، وأغلبهم من الثوّار النياندرتال. دخل هؤلاء الثوار إلى ذلك البيت فرادَى أو أزواجًا يفصلُ بين دخولهم وقتٌ يقارب النصف ساعة.

وصلَ (باسل) لمكان التجمع في الثانية صباحًا وقد قضى الساعات الثلاث السابقة مع (ميْساء) قبل أن يتركها وينطلق. تبادلا معًا الكثير من الأحاديث التي بدأت بالنقاش حول دور الأبِ في حياة كلّ منهما. تشعب الحديث بينهما كما صديقين قديمين التقيا بعدَ فراق، وحين صمتَا ولم يعدْ ثمّة مجال لنقاش عام استجمعت شجاعتَها وسألته عن السبب الذي جعله يتركها تعيش في أوّل مرةٍ تقابلا فيها، لماذا غيّر طريقته في التعامل مع الثوار الذين يقعون تحتَ يده؟

لم يعرف كيف يجيبُها، فلم يكنْ متأكدًا من السبب، ولم يردْ أن يخبرها أنه خمّن بعد الحادثة أن ثمّة شيئًا في عينيها كبّلَ ذراعه، سهمٌ نفذ إلى داخله واستقرّ، لكن منعَه إحساسُه بالولاء لعمله ولكميردا من الاعتراف به. كان وجودُ إنسان ضمن المُقاومين يجعله تلقائيًّا في قائمة أعدائه، ولم يكنْ يستقيم له أن يترك قلبَه يذهب إلى امرأةٍ تناصبه العداء، وتنعته بالخائن، وتسخر من تسميته باسلًا وهو يحارب في صفّ الغزاة.

الليلة، وهو جالس معها، كان يطالع ذاتَ العينين اللتين حركتا في داخله الكثيرَ، وقد زال مانعُ العداوة وحلّ محلّه الكثيرُ من الود. هي الفتاة نفسها التي قاومتْه بشراسة حين كان يكبّلها، ولم يمنعها وجودُ سلاح في يده، وفارق القوة بينهما من أن تردّ عليه وتسخرَ منه وتثيرَ غضبه. تلك الفتاة التي أثارت إعجابه وهي عدوة تجلسُ الآن بين يديه، تتحرّك عاطفته نحوها فيهمس بكلام يعبّر عنها، ثمّ يجد قلبه ينهرُه بسبب الإحساس بالذّنب تجاه كميردا التي فَشل في حمايتها، فيغير الكلام لموضوع آخر.

لو كانت كميردا على قيْد الحياة لما وجدَ غصّة في حلقه حين ينظر لأخرى مثلما يشعرُ الآن. بعدَ موتها بتلك الطريقة، بعد فشله في حمايتها، يشعر أنه لا يحقّ له أن يسعدَ في علاقة مع امرأة أخرى؛ شعور يجعل الحديث بينه وبين (ميْساء) عسيرًا مقلقًا محفوفًا بالمخاطر. كان هذا قيدًا حاضرًا في نفسه، لكنّ القيد الأسوأ كان هو الخوفَ من خذلان امرأةٍ ثانية، والفشل في حمايتها، وأن يمرّ بتجربة أخرى تموتُ فيها امرأته بين ذراعيه وهو عاجزٌ عن إنقاذها.

في الواحدة والنصف ودّعها بحرارةٍ وقال: "تكلمنا ثلاث ساعات لكنها تساوي عندي ثلاثةَ أعوام، أشعر أنني أعرفُك من زمن بعيد"

ابتسمت بخجل ولم تردّ، فقال: "كوني حريصة، لا تثيري قلقي عليك، هذا رجاء" اتّسعت ابتسامتها ثمّ أطلقتْ سبابًا لسامر الذي قرّر فصلهما في مجموعتين مختلفتين وقوانين المقاومين التي تجعل الضيفَ يعمل جنديًّا تحت إمرة قائد المكان الأساسي.

اقتربتْ ساعة الصفر، وهي الثالثة صباحًا؛ الوقت الذي ينخفض فيه عددُ الحرّاس إلى الحد الأدنى، ويصير الاعتمادُ الأساسي على الطائرات الدقيقة. كان ذكاءُ تلك الطائرات الاصطناعي وقدرتُها على المحاورة واتّخاذُ القرارات في المراقبة والحراسة والقتال؛ يجعل الجميعَ يتعامل معها كأشخاص معاملة الند بالندّ، وكانتْ كافية وحدها لبدْء حرب، والفوز بها.

بدأ التقنيون باختراقِ برمجة كلّ الطائرات الدقيقة التي تحرس القصر وساكنيه، وجعلها تعطي بيانات تفيد بأنّ كلّ شيء يسير في مجراه الطبيعي. بعد ذلك بدأتِ المجموعة بتسلّق السور الشمالي من عدةِ نقاط مقابل أماكن تواجد حراس السّور من الداخل حسبَ ما كانت تنقل لهم كاميرات الطائرات التي سيطر التقنيون عليها. كلّ واحد منهم كان مكلفًا بهبوطِ السور مقابل حارس وإسقاطه دون إحداث جلبةٍ عن طريق صاعقٍ كهربائي يحول درعَ الحارس إلى شحنة قوية تفرغ في جسمه وتسقطه في ثوانٍ قليلة.

استطاع (باسل) بسرعة إسقاطَ الحارس الذي اشتبك معه، ثمّ أدرك أنّ الرجل الأقربَ له لا يزال مشتبكًا مع الحارس الذي يستهدفه، فساعده على الإجهاز عليه. في الوقت نفسه، كانت مجموعةٌ أخرى من زملائهم قد تقدّموا بين الأشجار التي تفصلُ السّور عن حمّام السباحة للإجهاز على المجموعة

الباقية من الحراس في هذا الجزء. كان كلّ شيء يمرّ بسلاسةٍ حتّى هذه اللحظة، وهو ما جعل (باسل) يشعر أن هناك شيئًا غير طبيعي.

تمركزوا جميعًا في نقاطٍ مُتقاربة حول مدخل المبنى الرئيسي للقصر في انتظارٍ لتأكيد المجموعة الثانية التي ستهاجم من ناحية السور الشرقي. كان من المُفترض أن يتسلقوا مسافةً صغيرة، حتّى يصلوا إلى السور الذي كان عدد الحراس أقلّ من ناحيته. أخذ (باسل) يراجع معدّاته ليسرع مرور الدقائق القليلة القادمة حتّى تأتيهم إشارةٌ تدلّ على إتمام مهمّة المجموعة الثانية التي كانت تضمّ ميساء.

في الوقت الذي كان يجلس فيه باسلُ منتظرًا في مكمنه كانت (ميْساء) تهبط السورَ إلى داخل القصر من نقطة خالية من الحراس. تسللت بهدوء هي ومجموعتها قاطعينَ مسافة تقارب المائة مترٍ في حدائق رائعة التصميم تتخللها نوافير صغيرة وتماثيل فضية اللون لفتيات حِسان بعضهنّ واقفات في دلال وأخريات جالسات على أرائك. كانت وجوههنّ جميعًا بشرية وكأنّ صاحب القصر لا يحبّ الإناث من بني جلدته كما أشيعَ عنه. عندما تجاوروا الحدائق تمركزوا جميعًا عند صف الأشجار الأخيرِ المطلّ على الباب الخلفي للقصر. انتظروا بعض الوقت حتّى يصل آخرهم إلى نقطة تمركزه، وقد كانت الطائرات الدقيقة تحوم جيئة وذهابًا دون أن تتوقف أمامَ أحد منهم كأنّهم أشباح غيرُ مرئية لها، وهو دليلُ كفاءة التقنيين الذين اخترقوها.

فجأة سمعت بالقرب منها صوتَ تمثال يسقط مُحْدثًا جلبة فنظرت خلفها فإذا واحدٌ من عاملي القصر يشتبك مع واحدٍ من مجموعتها وقد دفعه

دفعة قوية صدمته بالتّمثال، فوقع مُحدثًا ذلك الدوي. كان واضحًا أنّ ذلك الشخص كان موجودًا في وقتٍ غير مناسب تصادفَ مع وقت اقتحامهم.

هجمَ المقاوم على ذلك العامل في القصر، وقبل أن يصرعه تصاعدت أصوات من شرفات القصر في طوابقه العليا أشبه بانفجارات مكتومة متتالية ثمّ خرجتْ منها طائرات صغيرة كثيفة العدد، واتّجهت نحو أماكن ارتكازهم. الطائرات التي كانت فوقهم في البداية والتي سيطرَ عليها تقنيو المقاومة تهاوت فجأة كالحجارة متوقّفة عن العمل ومُفْسحة الطريق للطائرات الجديدة التي كان من الواضح أنها تعملُ بكامل كفاءتها بدون اختراق. اتّضح لها في تلك اللحظة أن حراسة أناندار ليستْ أحادية كما تبدو، وإنّما تتكون من عدّة مستويات، وانتابها هاجسٌ حول ما ينتظرهم من مفاجآت.

حينَ وصلت لباسل أصواتُ تلك الانفجارات المكتومة لم ينتظر الأمر من قائدِ مجموعته؛ بل انطلقَ من فوره وسط الأشجار الملاصقة للسور الشمالي، التي عبرَها للتّو، ومضى يعْدو فيها بكلّ قوّته يسيطر على رأسه فكرة واحدة وهي أن (ميْساء) في خطرٍ مُحدق، وأنّه لن يسمح بحدوث مكروه لها. لم يفكر إن كان ذلك بسبب أنّها جاءت هنا بسبب إصراره على ذلك، أو لأنها المصرية الوحيدة معه أو لأَنها (ميْساء) دون أسباب.

وصلَ للناحية التي يفترض أن تتواجدَ فيها مجموعة (ميْساء) وما أن اقترب حتّى هاجمتْه إحدى الطائرات الدقيقة بمقذوف تفاداه بمهارة فتوقفت الطائرة وزامت في الهواء كأنّها غاضبة منه، ثمّ أطلقت مقذوفًا آخر تفاداه،

لكن المقذوف دار وتوجه إليه ثانية. في لحظة واحدة أخرج سلاحًا مكوّرًا وضغط جانبه فخرجت منه كرة مضلّلة وجّهت المقذوف لينغرز في إحدى الأشجار، وأطلق سلاح قبضته اتجاه الطائرة فأسقطها قبلَ أن تستطيع تفادي قذيفته.

عدَا في مسار متعرّج بين الأشجار وهو يرى عددًا من الطائرات يهاجم أشخاصًا من المجموعة، ولم تقع عيناه على (ميْساء) مباشرة. نادى باسمها بصوت مُرتفع وهو مدركٌ أنّ ذلك سوف يجذب طائرة دقيقة واحدة على الأقل، وبالفعل انهالتْ عليه إحداها بثلاث مقذوفات استطاع تفادي اثنتيْن منها، واستقرّت الثالثة في ذراعه، فصرخ متألّمًا ثمّ قفزَ مُختبئًا وراء أحد التماثيل الفضية. دارت الطائرة في الهواء قليلًا ثمّ صمتَ صوتها، جهّز سلاحَ قبضته بمقذوف معطل، وهو يعلم أن الطائرة تناوره، وأنها ستظهرُ أمامه مباشرة، وبالفعل حدث ما توقعه واستطاع إسقاطَ الطائرة حين دارت وحاولت مهاجمته.

تساءل بينه وبين نفسه عن ما حدث لميساء، ولماذا لم تردّ عليه.. هل أصابها مكروه أم أنّها مختبئة وتخشى إنْ تكلّمت أن تفضح مكانها، وتجذب إحدى الطائرات لمهاجمتها. تنبّه فجأة إلى ما فعله بدون تفكير، وما يفترض أن يفعله الآن فهو محاصَر وهي محاصَرة أو جريحة. فكّر فيما سيفعله قائد مجموعته هل سيهاجم البابَ الأمامي مباشرة وهو لا يعلم إنْ كان هناك دعم سيأتي من الباب الخلفي أم لا، هل سيدفع بتعزيزٍ من مجموعته لتلك المجموعة أم سينتظر ردَّ قائدها الذي ربما بالفعل كان ينسّق معه و(باسل) لا يدري. "لا تقلق كلّ شيء سيتضح الآن المهم أنْ تجد ميساء". قال لنفسه وهو يحاول البحثَ بعينيه عن أي علامة تدل على مكانها.

"باسل..." أتاه صوتُها من خلف تمثال على بُعد عشرين مترًا تقريبًا، نظر في اتّجاه التمثال فلم يتبيّنها، زحف بجسده اتجاه التمثال الذي اعتقد أنها خلفه، وقبل أنْ يصل جاءه صوتُ طنين من أعلى، نظر إليه وجدَ طائرة متّجهة نحو التمثال وكأنّها تنوي مهاجمة (ميْساء) المُختبئة خلفه.

لم يفكر كثيرًا، اعتدل جالسًا على ركبتيه وسدّد مقذوفًا مُعطلًا في اتجاه الطائرة لكنّه أخطأها. صكّ أسنانه في غيظ؛ فقد كان ذلك آخر مقذوف مُعطل لديه. تسمّرت الطائرة للحظة، ثمّ توجّهت نحوه، وعلا طنينُها الذي ينبئ بأنها ستطلق عدةَ مقذوفات مرّةً واحدة، وقبل أن يخرج منها أيّ شيء أصيبت الطائرة بمقذوف أسقطها.

تنهّد في ارتياح وهو يرى (ميْساء) تخرج من خلف التمثال وتشير إليه، وصلَ إليها وجلس جوارها وهو يقول: "هذه مفاجأة لم تكن في الحسبان". ضحكت بصعوبةٍ وهي تقول: "يا لك من أحمق، ألا تحسن الحديثَ أمام النساء... قل إنك هُرعت لنجدتي". ابتسم بتوتر ثمّ قال: "هل أصبتِ؟". ردّت قائلة بغيظ وهي تكتم آهةَ ألم: "نعم، أصبت بالجنون حين تخيّلتك ستقول بلهفة إنّك متّ من القلق عليّ". لم يعرفْ بمَ يجيبها، وكيف تتكلم هكذا في موقف معرّضين فيه لخطر الموت، لاحظت ارتباكَه، فضحكت ضحكةً قصيرة انقلبتْ آهة مكتومة وهي تضع يدها جانب صدرها.

تفحّص مكان يدها فرأى مقذوفًا على شكل حربة صغيرة مغروسًا فيها، فتح جيبًا قريبًا من حزامه وأخرجَ منه محقنًا ومقصًّا صغيرًا وعلبة فتحها فظهر فيها مادّة صفراء باهتة. "هل تعرف ما تفعله؟". سألته بتوجّس، فهزّ رأسه مطمئنًا إياها، فتحَ المحقن وأفرغه في رقبتها، فزال ألمُها مرّة واحدة ثمّ

أمسك المقص وقطع ملابسَها حول الحربة قطعًا صغيرًا ثمّ غرفَ بسبّابته اليسرى من المادة الصفراء. أمسكَ الحربة بقوة بيدِه اليمنى، أخذ نفسًا عميقًا ثمّ أخرجها بقوّة وهو يدفع سبابته المغطّاة بالمادة الصفراء مكانَ خروجها. ثبّت سبابته داخل الجرح قليلًا ثمّ غرف بسبّابته اليمنى من العلبة ثانية، ونزع سبّابته اليسرى ببطء من الجرح وهو يغطيه بالكامل بالمادة الصفراء ثمّ يضع عليه ضمادة.

كانت تنظر إليه مُندهشة وهو يعالجها، ثمّ سألته هامسة: "أنت خبير باستخدام أدوية النياندرتال تلك؟". ردّ عليها وهو يمسح يديه: "نعم، وكذلك أبوك ورجاله، وقريبًا ستكتسبينها أنتِ وزملاؤك من كتائبَ النصر". قالت: "لدينا الكثير من أدوية النيادرتال ولكنّها ليست متطورة مثلَ تلك". قال بضيق: "أريدك أن تكفي عن استخدام كلمة نياندرتال، اسمُهم الأديتيين، وربع فريقنا تقريبا منهم لو لاحظت" نظرتْ إليه صامتة لوهلة، ثمّ وجدته ينصتُ في تركيز إلى الأصوات من حوله. "يبدو أنّنا تخلصنا من الطائرات، ترى ما الخطوةُ القادمة، لماذا لم يخرج لنا حراس آخرون؟". قال ثمّ طلب منها أنْ تلزم مكانها وهو يقول هامسًا إنّه سيتسلل مستكشفًا المكانَ ليعرف الأوامر الجديدة. همّ بالتحرك لكنها أمسكت بذراعه وجذبته لينظر إليها. قالت هامسة وعيناها العميقتان تكادان تخترقان روحه: "شكرًا لك". فقال مُرتبكًا: "هذا واجبي"، ثمّ تركها وتسلّل متوجهًا ناحية القصر وهي تتابعه بنظرات قلقة.

***

٣٥

كان قائدُ مجموعة (ميْساء) هو إيلي، الشابّ اللبناني الذي كان يشرح لهم تصميمَ قصر أناندار، وطريقة حراسته في الاجتماع الأول. لم يكن في حسبانه بالطبع وجودُ تلك الطائرات الخاملة التي فُعِّلَت وهاجمتهم وقد كانوا على وشك بدء المرحلة الثانية ومهاجمة المبنى الرئيسي الذي يقيم فيه أناندار ومساعده. وصل باسلُ إليه فوجده ينزع إحدى الحراب من فخذه ويضع مكانها من المرهم نفسه الذي عالج به ميساء.

"ما الخطّة الآن؟". سأله باسل وهو يساعده في إكمال العناية بجرحه فقال مذْهوشًا: "ما الذي أتى بك إلى هنا، ألستَ هناك مع المجموعة الأمامية؟". ردّ عليه باسلُ بالإيجاب، وقال إنّه غادر موقعه وجاء لهذه الناحية لنجدةِ ميساء. لم يعجب إيلي ردّه، وطلبَ منه بضيق أن يلتزم بالخطط الموضوعة، وأن يسلّم بأنه يعمل تحتَ إمرة رجال المقاومة هنا في لبنان.

قبلَ أن يكمل تقريعه ونصْحَه لباسل، جاءه صوتُ منسّق العملية عبر جهاز اتّصاله: "إيلي.. ما الوضع لديك الآن؟". ردّ إيلي: "قتيل وستة مصابين وقد أوشكوا على إنهاء علاجهم". ردّ المتصل: "حسنًا، استعدّ للهجوم بعد أربعمائة ثانية". أمسك إيلي بمؤقّت صغير ووضع إبهامَه على الزّر، والمتصل يقول: "تبدأ في ثلاثة.. اثنين.. واحد" ثمّ ضغط الزّر وبدأ المؤقتُ العد.

”كيف نهاجم الآنَ والأمرُ مثير للريبة“ سأله باسل بقلق فلم يخرج أحد لملاقاتهم غير هذه الطائرات فقط، وكان من الطبيعي أن تكون صفارات الإنذار تعملُ في المكان الآن، وأن يكونوا مُحاطين بعدد كبير من الحراس، أو تحت هجومهم على الأقل. ردّ عليه إيلي بنفاد صبر: ”سيد باسل... نحن لدينا خطط وخططٌ بديلة، ولدينا منسّقون في غرفة عمليات يتخذون قرارات بناء على معطيات عديدة، من فضلك اِحمِ صديقتك كما تشاء، وحاول أن لا تعيق عملنا“.

تركه (باسل) وسار بحذر اتجاه (ميْساء) حتّى وصل إليها خلف التمثال الذي تركَها عنده، كانت قادرةً الآن على الوقوف، وحين رأت (باسل) همست له بأن يتوجّه معها إلى نقطة تمركزها التي ستنطلق منها عندَ إشارة بدء الهجوم. كانت تأتي لها على جهاز معصمِها إشارات تدلّها على خطوتها القادمة، وكذلك باسل، لكنّه تجاهل جهازه لأن موقعه تغير الآن.

جاءتْ إشارةُ الهجوم ثلاثَ رنّات قصيرة ثمّ رنتان طويلتان ثمّ رنتان قصيرتان، رنات أشبه برنّات شفرة مورس التي تستخدم في التلغراف. بدأت (ميْساء) المشيَ بحذر لكنْ بسرعة نحو الباب الخلفي للقصر ومعها باسل، كان بقية الأفراد في المجموعة يتّجهون نحو الباب في اللحظة نفسها حتّى وصل الجميع عنده. وقفوا على يمين الباب ويساره شاهرين أنواعًا مختلفة من الأسلحة، أرضية وأديتية ويدوية، اقترب ثلاثةٌ من الباب ومعهم ما يشبه مسدّسات الشمع التي تستخدم للصق الأغراض المنزلية، وبدأوا تمريرها على نقاط متفرقة من الباب المعدني الضخم الذي يتكوّن من الحديد المجدول المقوى.

بدأ الحديد يتصدع عند الأماكن التي كانوا يمرّرون تلك المسدسات عليها، وبدأ يصدر من الباب صوتٌ ينبئ بأنه سينفصل عن نقاط تثبيته.

انتقلت عدوى القلق من باسل إلى (ميْساء) فقد بدأت تحسّ هي الأخرى أن في الأمر فخًّا ما؛ فلا يمكن أن تسير الأمورُ بتلك السلاسة حتّى يجدوا أنفسهم في غرفةِ نوم أناندار بدون مقاومة تذكر. همستْ لباسل وهو يتابع باهتمام عملية كسر ذلك الباب، قال لها إنّه ساوره القلقُ نفسه، لكنّه يرى أنْ لا بديل عن الاستمرار في المهمّة مع الحذر، والأخذ في الاعتبار أنّ هناك فرقة جاهزة للتدخل وإنقاذ الموقف في حالة حدوثِ طارئ فقالت: "ماذا لو كانت فخاخًا مفجرة مثلًا.. لن يكون هناك وقتٌ لطلب النجدة". ابتسم وهو يقول مطمئنًا: "المخاطرةُ موجودة دومًا وسأتقدمك في كلّ خطوة حتّى تتأكدي من عدم وجود فخاخ ما".

أسعدَها كلامه دون أدنى قدرٍ من غضاضة. كثيرًا ما أغضبتها فكرة أن يعتبرَها أيّ رجلٍ مجرّد امرأة تحتاج للحماية كانت تغضب من أبيها وتعانده لمجرد إثباتِ العكس، وكانت تنهر (سمير) وتعنّفه إذا لمح فقط مجرد تلميح أنه يريد حمايتَها، لكنها مع (باسل) شعرت بفرحة صافية ربما لأنها كانت تتمنى من أعماقها أن تجدَ الشخص الذي تترك نفسَها معه على طبيعتها دون محاولة لإظهار قوة أو عناد.

انفتحَ الباب أخيرًا، أرسل إيلي نغمةً لقائد المجموعة الأولى تدل على فتح الباب، وردّ عليه الآخر بنغمةٍ مماثلة بعد ثوان معدودة، ثمّ بعدها مباشرة بدأ الاقتحام. انخلع البابُ الخشبي الرقيق الذي كان يوجد خلف الباب الحديدي،

وقف خمسةٌ عند الباب لحراسته، واندفع باقي المجموعة لممرّ يفضي إلى بهو القصر الرئيسي الذي يفترض أن يتمّ فيه التقاء أفراد المجموعتين.

دخلَ (باسل) و(ميساء) للبهْو، ثمّة بقية من ألم لا يزال في صدرها مكان الحربة، لكنّه لم يحدّ من حركتها، وجدَا البهوَ فسيحًا بشكل مبالغ فيه على شكل دائرة قطرُها لا يقلّ عن خمسة عشر مترًا، تتدلّى من سقفه المرتفع ثريات متنوعة الأشكال والأحجام، ويحتلّ جانبه سلّمان عريضان مقوسان يتلاقيان عند بسطة فسيحة تقود إلى سلم عريض قصير يصلُ إلى شرفة تعلو عن الأرض أربعة أمتار تقريبًا، تزيّن سورها منحوتات غريبة.

بدأوا في صعود السلم دون أن يقابلهم أحد، ودون أن يصدر أيّ صوت من أيّ مكان في القصر، وكأنّه بيتُ أشباح. عندما وصل أولهم إلى منتصف السلم، خرجتْ من حوافّه ومن أرضية أحد درجاته؛ قضبانٌ حديدية سميكة متعامدة سدت الطريقَ فجأة. كانت القضبان الرأسية أسطوانيّة تشبه المواسير ذات القطر الكبير وما لبثت أنِ انفتحت قممُها وانطلقت منها مقذوفاتٌ كروية في حجم كرة تنس، طارت كلّ واحدة منها تجاهَ واحد من الموجودين وكأنّها تعرف هدفها بالضبط. حين وصلتْ كلّ كرة للشخص المستهدف، انفتحت فجأة وخرجتْ منها أسلاك رفيعة طارت وتمدّدت ثمّ التفت به مقيدة إياه بإحكام.

في ثوان معدودة كان الجميعُ راقدين على الأرض، مقيدين، لا يستطيعون الحركة، يشعرون بمزيج من الحنق والخوف، لكنّ أكثرهم حنقًا كان (باسل). ذكره ذلك الموقف بلحظةِ اختطاف كميردا من بين يديه، وجعله يشعر بحرقة فقْدِها،

وبنار رغبةِ الانتقام التي تستعرُ فيه مرّة واحدة، ذكّرته بصراخها وهي تؤخذ منه وهو عاجزٌ عن الحركة، تذكّر بكاءها وهي مقيّدةٌ تنظر لرفيقاتها بنظرات ملؤها الأسى والرّعب، وهنّ يقتلنَ أمامها بمنتهى الوحشية.

مرّت دقائقُ وهُم على هذا الوضع، يحاول كلّ منهم التملصَ من قيده، وكلّما حاولَ أكثر ضاق القيدُ عليه أكثر. أدركت (ميْساء) أنْ لا جدوى من المقاومة فاستسلمتْ مُنتظرة ما سيُسفر عنه الموقف، لفتَ نظرها الغضب الشديد الظاهر على (باسل) أكثر من غيره، كان يتحرّك في قيده حركات عنيفة عصبية لا يبدو منها أنه يحاولُ الفكاك من قيده قدرَ ما يبدو أنه ينفّسُ عن غضب شديد في نفسه.

ما هي إلّا لحظات، حتّى رأت مجموعة من الرجال ضخام الجثة، يدخلون حاملينَ على رقابهم زملاءها من المقاومة، وقد تمّ تقييدُهم بالأسلاك نفسها، القوية التي لا تعطي فرصةً للتملص. قذف الرجالُ الضخام بحملهم على الأرض ليجتمع كلّ المقاومين الذين حاولوا الاقتحامَ في البهو وقد تمّ تقييدهم جميعًا، وأحاط بهم حرّاسُ القصر شاهرين أسلحتهم.

ضغطَ أحدُ الحراس، والذي كان يبدو عليه أنه قائدهم، على زرّ في يده فبدأت الأسلاكُ التي تقيد المقاومين في الارتخاء، ثمّ التفت مرّة ثانية مقيدة أيديهم بقوة. قام الحرّاسُ بعد ذلك بإيقافهم في صفّين بعضهم خلفَ بعض، ثمّ مرّ أحدُ الحراس على وجوهِهم جميعًا بآلة تشبه الشّوكة، يصوّبُها على الوجه فتمتدّ منها زوائد تنزع ما يغلّفُ وجوههم من تنكر، شيئًا فشيئًا حتّى ظهرتْ وجوههم الحقيقية. بعد ذلك، مرّ حارسٌ آخر على وجوههم بشاشة

تعرّفت على شخصياتهم، وظهرتْ على الشاشة صورةُ كلّ واحد منهم، وإلى جوارها بياناته كاملة.

توقّف الحراسُ جامدين بعد ذلك، وحذّروا أسراهم أنّ مَن يتحرك سوف يلقى حربةً بين عينيه تُجهز عليه في الحال. بعد دقيقتين تقريبًا، وفي خروج مسرحي الهيئة، ظهرَ أناندار واقفًا في أعلى السلم ينظرُ للجميع وإلى جواره وقف مساعده الرئيسي وقدْ أحاطت بهما كوكبةٌ من النساء شبه عرايا، بشريّات من أعراق مختلفة وأديتيّة واحدة، لا تزال بقايا النّعاس تسيطر على ملامحهن.

نزلَ أناندار درجاتِ السّلم الواسع حتّى توقف عندَ البسطة الفسيحة التي تربط السّلمين الجانبيين، مُحاطًا بموكبِه الصغير، كان أطول قليلًا من المعتاد بين النياندرتال، ملامحه أكثر نعومة، وإن لم تفقدِ السّمات المميزة لبني جلدته، من الجبهةِ العريضة المائلة والفم الواسع والوجنات العريضة المسطحة والأنف الغليظ. أحضرَ حارسان كرسيًّا وثيرًا أشبه بالعرش، ووضعوه على البسطة التي صارت بوجودِ الكرسي الوثير كأنها منصّة يجلس عليها ملك ليخاطب رعاياه. جلس أناندار على عرشه وعلى يمينه مساعده مبتسمًا في تشفٍ، وعلى يساره المساعدة الثانية، والفتيات الناعسات واقفات خلفه. فتحَ شاشة فراغية أمامه عرضت له في سرعة أسماءِ المقاومين الأسرى، ثمّ أشار لرجاله فأجلسوا الأسرى على الأرض.

بدأ بالحديث بصوتٍ جَهْوري كأنه يتحدّث في ميكروفون قديم: ”لا بد أنكم متعجّبون من السبب الذي جعلني أبقى على حياتكم“. ازدردت (ميْساء) ريقها وهي تتأمّل الرجل الذي يبدو لها كالملوكِ المجانين الذين

يفرطون في الأبهة والترف ويتلذّذون بتعذيب ضحاياهم أو الشرب من دمائهم. أكمل كلامَه وهو يتفحص وجوهَهم قائلًا: "أنا رجلٌ مُستثمر أكسبُ مالًا من كلّ شيء وبالنسبة لي أنتم مجرّدُ بضاعة.. سوف أقايضكم مع زملائكم بأشياء قيمة".

سرتْ همهماتٌ بين الأسرى توحي بالارتياح، وجال هو بعينيه في وجوههم جميعًا، وهو مبتسمٌ في ظفر. نزل من على كرسيه، توجّه بهدوء نحو السلم الأيمن وهو ينظرُ نحو الأسرى بابتسامة ساخرة، نزل على السلم ببطء وكأنّه يريد إطالة وقت انتظارهم لقراره.

تهادَى أمامَ الأسرى يستطلعهم كأنّهم غنائم حرب، استخرج إيلي من بينهم، حاولَ أن يضع ذراعه على كتف إيلي لكنّ الأخير كان أطول منه قامة فتراجع عن الفكرة، وأشار لأحد حرّاسه فأجلس إيلي في مواجهةِ زملائه ثمّ قال: "إيلي هذا مثلًا من أهمّ رجال المقاومة في لبنان، وهو ابنُ شقيقة سامر قائدكم، ويعرف الكثير من الأسرار، قد أعرضه على حاكم الشرق مقابلَ امتيازات جديدة، أو أعرضه على خالِه مقابل عشر ماسات لا تقلّ الواحدة عن قيراطين أو ...." ثمّ صمت وكأنه ملّ الحديثَ في تلك النقطة، وأشار لرجله فسحب إيلي وأعاده مكانه.

نظرَ لباسل بسخرية دونَ أن يتكلم ثمّ عاد إلى كرسيه، الذي أنزله الحراس ووضعوه في مواجهة الأسرى، أشارَ إلى فتاة طفولية الملامح آمرًا إياها بأن تجلس أمامَ الكرسي تدلّك له قدميه. أغمضَ عينيه في استمتاع بتدليك الفتاة

أو بذلك الاضطراب الذي يتبدّى على وجوه أسْراه، ويزداد مع الوقت، ثمّ قال وهو لا يزال مغمضًا ملقيًا رأسه إلى الخلف: "لا بدّ أنك وراء اختطاف شقيقتي يا باسل، ولا بدّ أنّك جئت هنا بدافع الانتقام لكميردا.. أعرفُ أنّك لن تصدقني لو قلت لك إنّني كنت سأعْفو عنها رغمَ رفض هيرمين افتداءها".

فتحَ عينيه ونظر لباسل وهو يكمل: "أنا معجبٌ بك، أنت مقاتل من نوع نادر، سوفَ أعفو عن حياتك مقابلَ أن تعمل معي". ضغط (باسل) على أسنانه في غيظ وقالَ بصوت يموج انفعالًا: "من الأفضل لك أنْ تقتلني لأنك إن لم تفعل فسأمزق رقبتَك بأسناني". ضحك أناندار بصوتٍ عال وهو يقول: "ستعمل معي سأرسل رجالي في القاهرة لاختطافِ علاء الصغير، بينما أنتَ معي هنا وسيكون ولاؤك لي هو ثمنَ حياته".

لم يلتفتْ لسيلِ اللعنات والوعيد الذي أطلقه باسل، والذي أنهاه أحدُ الحراس بضربةٍ قوية على رأسه. عمّ صمتٌ قصير تطلع فيه الجميع لأناندار منتظرين منه أنْ يكمل وصلتَه المسرحية. اعتدلَ في كرسيه بعد أن دفع الفتاة بقدمه في رفق معلنًا انتهاءَ جلسة التدليك، ثمّ نظر مباشرة إلى (ميْساء) وقال وهو يشير بيده نحوها: "انظروا معي إلى هذه الجميلة، جائزة الليلة، (ميْساء) ابنة عُمَر الزيبق، ترى كم ستدفع الحكومةُ المصرية مقابلك أيّتها الأميرة، وكيف سيتصرّف (عمر) حين يعرف أنّ البديل هو أنْ تصيري جاريةً ضمن هؤلاء الحسان". قالها وهو يعيد ضحكته ويتبادل نظرةً خبيثة مع مساعده، وميْساء تنظر نحوه وقد زاغتْ عيناها، وغاض الدم من عروقها.

***

٣٦

توقّع أغلبُ المقاومين أن تأتي النجدةُ بين دقيقة وأخرى، على الرغم من القلق الذي زرعته مفاجأة تقييدهم جميعًا بتلك السرعة، ورؤيتهم لذلك الاستعراض الذي قدّمه أناندار. أمّا (باسل) فلم يشعرْ إلّا بغضب صاف، نوع يعمي الشخص عن كلّ ما حوله وينسيه ما فاتَ وما عواقب ما ينوي فعله أو كيف يفعله. كان راقدًا على الأرض، بعدَ أن ضربه أحدُ الحراس وأوقعه وهو يحرّك يده في عصبية يحاول التملّصَ من قيده. أخذ يحكّ القيدَ بأظافره وكأنّها مسنّنة حديدية يمكنها أن تقطع ذلك القيد، ولم يعبأ بأنّه يضيق عليه كلما حاول التخلص منه.

قامَ أناندار من جلسته، وهو يدفع بخشونة يدي فتاةٍ شقراء كانت تدلك عنقه وكتفيه، ثمّ تحدث وكأنّه كان يقرأ أفكارهم: "بالطبع أنتم تنتظرون النجدة التي سيأتيكم بها سامر". نظر لعيونهم المندهشة ثمّ أكمل: "نعم، أعرف أنّ (سامر) ينوي، ولديْه خطّة دومًا بإرسال موجةٍ ثانية من الهجوم، أعرف خططه منذ تولى القيادة بعدَ مقتل شقيقه، وأعرف الأديتي الأحمق الذي ينسق معه الهجمات".

أشارَ عليه مساعده بالتوقف عن الحديث، لكنّه لم يهتم، استطرد متحدثًا عن قدراتِه وعن الاستفادة الجمّة التي يحصل عليها من استمرار القتال بين المقاومين والحكومة، تحدّث كثيرًا عن قدراته وتنظيم رجاله، وعن خططه للهرب لو حدث في يومٍ من الأيام، وانتصرت المقاومة، واضطرّ قومه للعودة إلى ديارهم،

قال إنه سيستفيدُ أيضًا من ذلك السيناريو إنْ حدث، ثمّ أردف: "هكذا يمكنكم أن تفهموا مدى عظمةِ هذا العقل الذي تخطّى بكثير عقل أناندار الكبير والدي".

كانت (ميْساء) تقلب نظرَها بينه وبين الفتيات الواقفات حوله، وتتخيل نفسها بينهنّ وقد تعرّتْ هكذا، وانتهكت على يدِ رجل مجنون مثل أناندار. ذابت من مخيّلتها أحلامُها بالحبّ المثالي والرجل المثالي، هربت ذكرياتها البعيدة عن (معاذ) والقريبة البغيضة عن (سمير) وأحلامها بباسل ومتعتها القصيرة التي وجدتها في ذلك الوقت الوجيز الذي أمضته بصحبته. حلّت محلّ كلّ هذا خيالات مفزعة، عن نفسها بعدَ ثلاث سنوات، وقد اعتادت على الحياة كجارية لأناندار، تقف حوله كقطعةِ زينة في أثناء اليوم، وتنتهك على فراشه في الليل وقد يهادي بها أحدَ رجاله إنْ ملّ منها يومًا ما.

نفضتْ عن رأسها تلك الأفكارَ السوداوية فهي تعرف نفسَها جيدًا، تعرف أنها لنْ تسمح أن تصيرَ جارية مهانة؛ فقتل النّفس عندها أهون، ولن يكون إلّا بعد أن تأخذَ روح خاطفها أولًا. (ميْساء) ابنة عُمَر وزهرة اللّذيْن قاوما النياندرتال وهما وحيدان في كوكب غريب، لن تكون أبَدًا مِن الذين يعتادون الهوانَ والرّق، لن تكون كأغلبِ النّاس الذين اعتادوا الحياةَ في ظلّ الاحتلال، بل وصاروا يلعنون مَن يقاومونه. لن تكون كالكثيرِ من الشّباب الذين اعتادوا أن يبيعوا أجسادهم ويصيرون أزواجًا لنساءٍ غريبات يحتفظنَ لأنفسهن بحقِّ إقامة علاقات جانبية مع مَن يردْن من الرجال في أيّ وقت، بحجّة أنهم لا يعتبرون الارتباطَ بالأديتيات زواجًا حقيقيًّا، وهو زواجٌ مهما أنكروا وبرّروا لأنفسهم تلك الدناءة.

انتبه أناندار وسطَ خطابه المتغطرسِ إلى تعبيرات وجهها الغاضبة واحتقانه الشّديد، فقال بحماس: "تُعجبني تلك الشراسة البادية على ملامحك يا ميساء". نظرت إليه بغيظٍ وهي تطلقُ سبابًا مكتومًا، فضحك ثمّ قال: "لن أطلبَ فدية من بلدك، بل سأتزوّجك، وسأنجب منك بضعَ فتيات هجينات يتمتّعن بهذا الجمال وتلك البراءة التي تحاولينَ مداراتها بالانْدساس بين المقاومين". أتمّ جملته وبدأ الهبوط نحوها وهي تتحفّز لاقترابه، وقبل أن يصل إليها سمع الجميعُ صوتَ انفجار مكتوم تلاه إحساسٌ بموجةٍ كهرباء إستاتيكية، ثمّ انطفأتِ الأنوار وإنْ ظلّ المكان مضيئًا بضوء الشروق.

صمتَ الجميع في ترقّب للحظات، كانت هذه هي المرة الأولى لباسل التي يشعرُ فيها بالابتهاج لإحساسه بتفجيرِ قنبلة موجيّة كتلك، وتوقّع أن تضعف القيود الموجودة حول يديه، والتي هي بالتأكيد تعملُ بطاقة إلكترونية. لم يدُم إحساسه بالابتهاج أكثرَ من ثوان قليلة إذ صكّت أذنيه ضحكةٌ مرتفعة من أناندار أتبعها بقوله: "أخيرًا قام سامر بالحركة التي كنت أنتظرُها، وأطلق قنبلة موجية.. لا يعرف أنني أتشوّق لمعركةٍ على طراز القرون الفائتة".

قفزَ من على المنصة واقفًا أمام أسْراه، وأحد رجاله يضغط جزءًا من الدرج فتحت به كوّة ممتلئة ببنادقَ رشاشة مُعتادة تناول واحدًا منها وثبت به خزنته ثمّ أطلقَ في الهواء دفعةً من الرصاص جعلت غبارًا يتناثر من سقف القصر على رؤوس الواقفين.

تركَ ثلاثة من رجاله شاهرين بنادقهم ثمّ توجه مع الباقين للخارج. عمَّ الصمتُ لدقيقة، ثمّ تعالت أصواتُ تبادلٍ لإطلاق النار تلاها صوت انفجار

مكتوم بدا صوتُه بعيدًا ما يدلّ على أنه حدث في المبنى الثاني، ثمّ عاد تبادل إطلاق النار ثانية، خمّن الجميع أنّ تلك المعركة ربما أيقظت كلّ من في برمانا.

شعرتْ (ميْساء) بتفاؤل حذر، بدأت تنفضُ عن نفسها تلك الأفكار السوداوية التي غزتْ عقلها في الدقائق الماضية. توقعت أنّ غرورَ أناندار ربما دفعه للتصرف بغباءٍ شديد، وأنّه من المرجّح جدًّا ألّا ينتصر على اللبنانيين في قتال بالأسلحة التّقليدية فهُم مدرّبون عليها، وأغلبهم ألفَها منذ الصغر، ثمّ قلّ تفاؤلها حين تذكرت أن الكثيرَ من رجال أناندار أرضيون مرتزقة اعتادوا تلك الأسلحة بالتأكيد، وقد يكون منهم لبنانيون يعملون معه.

كما توقع باسل، شعرَ أنّ قيده وإن كان لا يزال محكمًا، إلا أنه لم يعدْ فيه ذلك النّشاط التفاعلي، لم يعد القيدُ يشتدّ على يده كلما حاول التملص منه كما كان يحدث قبلَ إطلاق القنبلة. بدأ يحرّك يده ويحاول بأصابعه شدّ أجزاء من الحبل المعدني لكنه فشل.

كان صوتُ إطلاق النار كثيفًا في الخارج، وبدأ الحراسُ الثلاثة يتبادلون نظراتٍ قلقة، وقد بدَا عليهم أنّهم قد أحسّوا بأن القتال في الخارج أكثر صعوبة ممّا تخيّلوا. اقتربَ باسل من (ميْساء)، همس بأذنها بشيء ما، وقبل أن يكمل كلامه نهَرَه أحدُ الحرّاس آمرًا إياه بالابتعادِ عنها، ثمّ قال ساخرًا: "أعرف أنّها تهمك لكنها صارتِ الآن ملكًا لأناندار العظيم". ضحكَ (باسل) بسخرية بصوت عال وهو يقول: "كنتُ أعرف أنّ اسمَه أناندار الصغير". شدّ الحارسُ الآخر- والذي كان أرضيًّا- أجزاءَ سلاحه باحترافية، وقال وهو يوجّه سلاحَه لرأس باسل: "لو قتلتك الآن وقلت له إنّ السببَ أنّك قلت عليه أناندار الصغير فلنْ يلومني".

ابتعدَ باسل عن (ميْساء) وسكنَ في مكانه تمامًا، ثمّ فجأة صرخت (ميْساء) بالحارس الأوّل الأديتي وهي تقول له إنّها لن تكون جارية لأحد ثمّ انطلقت في سبابهم بمزيجٍ من العربية والأديتية. حذّرها الحارس وطلب منها الصمتَ بدون جدوًى، استمرّت بالصراخ ثمّ رقدتْ على الأرض ترفسُ بقدميها وتصرخ بصوت مكتوم، وكأنّها دخلت في نوبةٍ من التشنّجات. سرتْ همهمات بين الأسرى يطلبون من الحراس أن يساعدَ أحدُهم الفتاة.

استغلّ (باسل) الجلبةَ واقترب من أحد الرجال الواقفين خلفَه وهو يقلب نظره بينَ الحراس الثلاثة المشغولين بميْساء مَخافة أن يراه أحدهم، غمزَ بيده الرجل فنظر إليه مُستفهمًا فأشارَ بعينه للقيد. فهمَ الرجلُ مقصد (باسل) وهو أنّه يريد أن يفك كلّ منْهما قيدَ الآخر. أعطى الرجلُ ظهره لباسل الذي بدأ يتلاعبُ بقيد الرجل بسرعة حتّى تمكّن من فكّه، ثمّ تبادلَا الأدوار فقامَ الرجل بفكّ قيْد باسل بدوره.

في غضون دقائق كان خمسة قد فكّت قيودُهم دون أن يشعر الحراس، ودون ترتيب مُسبق، وزّعوا أنفسهم بينَ الأسرى حتّى صار كلّ واحد منهم قريبًا من أحَد الحرّاس. فجأة طوّقت ميْساء قدمي الحارس القريب منها بساقيها وجذبته بشدة فأوقعتْه أرضًا، حاول الاعتدالَ فناولته ركلةً أخرى تزامنت مع دويّ انفجار قوي في الخارج تلاه هجومُ (باسل) والآخرين على الحراس، ودارت معركة قصيرة انتهت بمقتل الحراس الثلاثة وأحدِ المقاومين.

حرّر المقاومون زملاءهم والتقطوا بقيةَ الأسلحة الموجودة في ذلك المخزن الصّغير أسفلَ الدرج وخرجوا بحذرٍ يستكشفون ساحة المعركة التي كانت حامية الوطيس. اتّخذ كلّ منهم ساترًا، وبدأوا بإطلاق النار اتجاه أناندار ورجاله الذين فوجئوا بأنّهم صاروا بين شقّي رحى بين المهاجمين الجدد والمهاجمين الذين جاؤوا من داخل المبنى.

حينَ رأى أناندار ذلك، طلب من أحد رجاله أن يطلقَ قذيفة على مكان مجموعةِ المقاومين المهاجمين من الداخل، ثمّ أمر الجميع بإطلاق النار بكثافة في كلّ الاتجاهات للتّغطية على انسحابه نحو المبنى الجانبي من القصر. كان (باسل) وميْساء من ضمن المجموعة التي أطلقتِ القذيفة اتجاهها والتي أصابت واحدًا بجراحٍ بليغة لكنّها لم تصبه أو (ميْساء) بأذًى سوى أن شوّشت وعيَه للحظاتٍ.

رأت (ميْساء) أناندار واثنين من رجاله ينسحبونَ فنبّهت باسل الذي طلب منها أن تنتظر، بينما يتبعهم هو، لكنّها أصرّت أن ترافقه. تجادلا للحظات قبل أن يتدخّل إيلي قائلًا: إنّهم الثلاثة سيطاردونه معًا، وافقته (ميْساء) على الفور، حاول باسلُ الاعتراض لكنّ إيلي تجاهله وأمرَ رجاله بتكثيف إطلاق النار للتغطية عليهم.

اقتربَ أناندار ورجُلَاه من مدخل المبنى الجانبي، والثلاثة خلفهم على مسافة آمنة. كانت أشعةُ الشّمس قد بدأتْ في الظهور من الأفق المُختفي خلف الجبل رامية بضوئها في عيون حرسِ أناندار حين يحاولون النظرَ خلفهم وهو ما يصعب عليهم رؤية المطاردين. دخلَ من الباب يتبعه حارساه،

ثمّ خرج أحدهم بغتة وأطلق دفقة من النّيران عشوائيًّا كأنّه يحاول قتلَ عدوّ لا يراه ثمّ اختفى بالداخل. تقدم الثلاثة زاحفينَ بحذر، ولا تزال أصواتُ الطّلقات تأتي من جهة المعركة وإن بدأت تقل.

دخلوا المبنى، لم يكنْ هنالك أحد، كان المبنى فارغًا تمامًا، تجولوا بين غرفه وممرّاته حتّى سمعوا صوتَ قرقعة عالية تأتي من الأسفل. هُرِعوا نحو السلم ونزلوا سريعًا نحوَ قبْو المبنى فوجدوا قاعةً فسيحة يتوسّطها جهاز أشبه بالغرفة الزجاجية يومضُ بشكل متقطع، وعلى مقربةٍ منه وقفَ رجلان من النياندرتال بأيديهم أجهزة تَحكّم.

قال باسلُ بغضب: "ابن الحقيرة هربَ إلى كوكبه عن طريق هذا الناقل". سألتْه (ميْساء) بدهشة: "كيف عرفت؟". فقال لها: "لقد سافرت مع كميردا عدة مرّاتٍ بجهاز شبيه.. كانت مفتونةً بقريتها الأمّ تزورها بين الحين والآخر". تعلقت عيناها بالنّاقل وهي تتذكّر كلامَ أبويها عن ناقلٍ كهذا أعادهما للأرض بعد فترة اختطافهما في كوكب أديتيا.

اقترب (باسل) شاهرًا أسلحته في وجْه الرجليْن الممسكين بأجهزة التحكم وسألهما: "كيف استطعتُم تشغيلَ هذا الجهاز رغم تأثير القنبلة الموجية؟". أجابه الرجلُ الأديتي مُرتعدًا: إنّ هذا القبو مبطّن بطبقات تعزله عن أي شيء يحدث في العالم الخارجي حتّى لو كانت قنبلة نووية. نظر (باسل) لميساء وإيلي وهو يخبط الأرض بقدمِه في عصبية ثمّ قال: "سوف أتبعُه في هذا الناقل.. لا بدّ أن أقتله ولو كانَ هذا آخرَ ما أفعله في حياتي".

نظر له إيلي بدهشة وهو يقول: "هل جننت ماذا ستفعلُ هناك دون دعم من أحد؟!". أكملت (ميْساء) قائلة: "دعنا ننتظر ونذهب في مطاردتِه بمساعدة ماندريك وزملائه هناك، أنا أتمنى الذهابَ إلى هناك، وأتمنى قتله أيضًا".

نظرَ إليها بحزم وهو يؤكّد أنّ هذا قراره وحده فقط، ردّت عليه متحدية بأنها ستذهبُ إن قرّرَ الذهاب، وإنّ أيّ شيء يحدث لها هناك سيكون ذنبه هو. لوّح بسلاحِه محذرًا الرجليْن الأديتيين حين لاحظَ أنّهما يهمّان بالحركة، ثمّ قال لها وعيناه عليهما: "لن يكون ذنبي، إذا أصرّيت على القدوم معي فأيّ شيء يحدث لك هناك سيكون ذنبك أنت وحدك". بلعتْ ريقها بصعوبة وقد فاجأها ردُّه، لكن غلب عليها كبرياؤها فقالت بحزم هي الأخرى: "ليكن ما يكون سوف أذهب.. أنا ضابط في المخابرات، وأستطيع أن أحمي نفسي".

تدخّل إيلي في الحديث طالبًا منهما الهدوء، صمتا لحظة وأطرق هو مفكرًا ثمّ قال: "سآتي أنا أيضًا، لكن يجب أن ننتظرَ حتّى نأخذ الإذن من القيادة". رد عليه باسلُ وهو يشير للأديتي بإعادةِ تشغيل الجهاز: "لن أنتظر وأخاطر بفقدان فرصة ملاحقتِه، ابقَ أنت واتبعني بعدَ ذلك إن شئت". زفر إيلي في حنق وهو يسبّ حمقَ باسل، ثمّ يقول مستسلمًا: "حسنًا، سأذهب معكما، لكن سنأخذ أحد هذين النياندرتال معنا لكي نطمئنّ أنّ زميله لن يعبث بالجهاز فيقتلنا". ردّ (باسل) وهو يأخذ جهاز التحكّم، ويضبطه بيده على البدء بعدَ دقيقتين من ضغط زر التشغيل: "بل سيأتي كلاهما معنا، الجهاز يمكن ضبطه مسبقًا، ولا يحتاج لوجود أحدٍ إلى جواره".

بعدَ أن أدخل (باسل) الإعدادات المطلوبة للجهاز، ضغط الزر، بدأ الجهاز يومضُ في تتابع مُنتظم، حين بدأ في التسارع قفزوا جميعًا فيه، ومعهما الأديتيان وأغلقوه بقوة. انتظروا حتّى بدأ الجهازُ بالعمل وغمرتهم جميعًا موجةٌ حارّة وأعمى عيونهم ضوءٌ مُبهر، وغابتِ التفاصيل لوقتٍ لا يعرفون حسابَه بالضبط، وحين عادت كانوا في عالم آخر.

***

القسمُ الخامس

محاكماتٌ مؤجّلة

”لا ينبغي أن يتركَ تنفيذُ العدل بيدِ الحكّام فقط؛ لا بدّ من طريقة قانونية تجعل عامةَ الشّعب قادرينَ على إنشاء محاكم تُجابه إرادةَ المحاكم التي تنشئها الدولة عند اللزوم“

ديباجة قانون أديتيا الأساسي

٣٧

نظرَ إليها وهي غارقةٌ في نومها بفعل المخدّر الذي دسّوه في شرابها، جال ببصرِه في ملامحها التي كانت في زمنٍ مضى عنوانًا لقلبه ومركزًا لحياته. تأمل شفتيها اللتين ذابَ فيهما ذات يوم، وهو يسأل كيف لهاتين الشفتين أن تصدران أمرًا بهذه البشاعة، تطلّع إلى صدرها وهو يعلو ويهبطُ بانتظام، وقال لنفسه كيف لهذا الصدرِ أن يحوي قلبًا يستبيح كلّ القبح، ويتّخذ قرارات لا يتخذها إلّا السفاحون!.

"إنّ الخوض في الوحل العميق يبدأ عندما لا تتأفّف من اتساخ قدمك وأنت على حافته" ردّد ماندريك في ذهنه ذلك المثل القديم من وطنه الأم، والذي يعني أن الإنسانَ يرتكب أقبحَ الأفعال التي كان يستنكر ذكرَ اسمها لمجرد أنه بدأ بالاعتياد على ارتكاب أفعالٍ أقلّ قبحًا، فالقبحُ كالمال كلّما استزدت منه قلّ شعورك بكثرة ما لديك.

تأوّهت هيرمين وهي تفتح عينيها غيرَ مستوعبة لما يجري أو لمَا تراه. كانت هيرمين راقدةً على أريكة صغيرة، وأمامها ماندريك جالسٌ على كرسي جلدي في غرفةٍ صغيرة في أحد المقارّ التي تخصّ المقاومة في حي عين شمس. كانت الغرفة مستطيلةَ الشكل ضيقةً، ينيرها مصباحٌ واحد خافتُ الضوء. كانت الرؤية ضبابية أوّل الأمر، لم تتبيّن ملامح ماندريك في البداية، وظنّت أنّها أغمى عليها من فرط التوتّر، وأنّ تلك الغرفة القذرة هي غرفةٌ في بيت لؤي. فزعت حين انتبهت إلى وجودِ ماندريك أمامها، وتذكّرت أنها قد

اختُطِفَت على يد المقاومين بمساعدة لؤي. تساءلتْ عن السبب الذي جعله يخونها وهي تعدّد أفضالها عليه، ثمّ عادت تقول لنفسها إنّ الأسباب لا تهمّ، والمهمّ التعاملُ مع النتائج.

اعتدلتْ في جلستها وهي تنتظر أنْ يبدأها بالكلام، كان الجو بينهما في تلك اللّحظة غائمًا باردًا يكتم الكلماتِ في صدر مَن يريد الكلام. كانت تريد أن تسأله عن مصيرها؛ أن تخاطب فيه الحبيب القديم علّه يرحمها. أمّا هو فكان يريد أن يعرف كيف تحوّلت إلى هذا الشّر الخالص، وكيف استباحت ما استباحته، كان يريد أن يصرخَ فيها سائلًا عن هيرمين القديمة أينَ دُفنت.. وعن الجديدة من أيّ جحيم جاءت!

فتحَ فمَه ليسأل لكنْ رغمًا عنه وجد نفسَه يقول متشفّيًا: "لم يكن من العسير علينا تجنيد (لؤي) بعدَ إغرائه ببعض الميزات فقد كان الرجل يمقتك حقًّا.. كان يكره احتقارَك له وهو يعلمُ حقيقة أنّك أحقرُ منه بكثير". ضغط على كلماته الأخيرة التي خرجتْ منه كبصقة على وجهها، وشعرت بها هي كسكين حادّ يغوص في قلبها لكنّها ردّت عليه وهي تحاول استجماعَ أكبر قدرٍ من رباطة جأشها: "جعْل ذلك الحيوان حارسي الخاصّ كان قرارًا خاطئًا، وخيانتُه لي لا تشغل بالي كما تظن"، ثمّ ابتلعتْ ريقَها وهي تحاول أن تطردَ عن ذهنها فكرة مصيرها القادم، وتحاول أن ترسمَ على وجهها أكبرَ قدرٍ من الاستهانة وهي تضيفُ مُتظاهرة بالمزاح: "أنا لست غاضبةً منه؛ على العكس أنا أشكره لأنّه أتاح لي فرصةَ رؤية حبيب قديم".

اكفهرّ وجهُه غضبًا من طريقتِها السّاخرة رغم أنه استخدم اللهجة نفسها في الحديث معها قبيلَ اختطافها، لكنّ رؤية ذلك التعبير المُستهين على وجهها ضايقه بشدّة. صاح فيها في ثورةٍ عارمة وهو يتّهمها بأبشع العبارات، ويذكّرها أن ما فعلته شيءٌ يفوقُ الوصف، ويتعدّى مراحلَ العار. فتح شاشةً فراغية أمامها، وعرض فيها صورًا تلخّص جريمتها، وردّ فعل الضحايا، وما ظهر على وجوههنّ من الألم والفزع، ثمّ أمسكها من كتفيها وصاح وهو يهزهما بقوة: "لم أرَ أرضيًّا ولا أديتيًّا واحدًا إلّا وصدمتْه بشاعة ما فعلتِه، من أنت بحقّ ماجوها، أو بحقّ أي شيء تؤمنين به".

أصابَها الفزع من غضبته، كانت تظنّ أنّ أسرَه لها مجرد حركة يقوم بها ثائرٌ ضدّ مسئول في الحكومة التي يُعاديها، لكن عيناه الغاضبتان الكارهتان أفصحتا عنْ مشاعر تفوقُ ذلك بكثير. قالت وهي تتلعثمُ وتنظر له بتوسّل: "أنا لم أفعل شيئًا، لم أرتكبْ تلك الفظاعة التي تدعيها".

نهرَها بشدّة وهو يتّهمها بالكذب والاستهانة بعقله ضاغطًا بيديه بقوة على كتفيْها حتّى صرختْ مُتألمة فأفلتها بعنف، وهو يدفعها لتنطرح على أريكتها. حاولت أنْ تتمالك نفسها، اعتدلتْ من سقطتها وهي تفكر أنّها ليست شخصًا ضعيفًا لتقف موقفَ المتوسّل المدافع عن نفسه، حتّى وإن كان هذا هو سبيلَ النجاة الوحيد، فكرت أنْ تتحدّاه وتقول إنّها فعلت ما فعلتْ لأنّ قوانين العالم هكذا، ولأنّها تريد أن تؤسس دولةً قوية لا مكان فيها للضعفاء ولا للشحاذين.

تضاربتْ في عقلها الأقوالُ والحجج، تصارع في داخلها العناد والأنفة مع حبّ البقاء والرغبة في النّجاة، فانعقد لسانها ولم تدرِ ماذا تقول، نظرت إلى عينيه اللّتين تطفحان غضبًا ومقتًا، إنّهما العينان نفسَاهما اللّتان كانتا تحتويانها ذات يوم، مفارقة غريبة واحتشادٌ للمشاعر المتضاربة وشعورٌ بالعجز، جعل كلّ شيء يختفي من ذهنِها، واجتاحتها رغبةٌ عارمة في البكاء، لم تقاومها فارتفعَ صوتها بنحيب مُرتفع مختلط بآهات متقطعة.

تأمّلها حائرًا وهي تنتحب، جزءٌ كبير من غضبه يعود لحبّه لها، ولأنّه كان دومًا يُمنّي نفسه أنّ هناك جزءًا في روحها لا يزال نقيًّا لم يمسّ، وأنّه في يوم ما سيوقظه ويجعلُه له اليد العليا على بقية روحها، وعندها تعود هيرمين القديمة. سلكتِ الآن طريقًا لا رجعةَ فيه ولا توبة منه في رأيه، لم تتلوّث يدها بالدم فقط، وإنّما بالبشاعة والاستهانة بالبشر بطريقةٍ أكّدت له أنّ روحها صارت أظلم من أعمقِ نقطة في المحيط، لا مكان فيها لبقعة ضوء واحدة.

"ستخضعينَ لمحاكمةٍ علنية عادلة سيراها العالم أجمع هنا على الأرض، وفي كوكبنا الأم"، قالها وهو عندَ باب الغرفة يهمّ بالخروج وهي لا تزال تبكي. لم يجدْ منها استجابةً لكلامه فقالَ بهدوء وكأنّه يحصّن نفسه ضدّ ضعفها: "ألا تظنينَ أن كميردا بكتْ مثلك هكذا وهي تتوسّل لك لتنقذي حياتها... ألَا تعلمين أنك لو بكيت عشرَ سنوات فلنْ توازي دموعك قطرةَ دم من هؤلاء النّسوة أو شهقة ألم أو نظرة حسرةٍ من امرأةٍ لجنينها وهو يموت مرميًّا على الأرض تحت قدميها!". ردت من بينِ دموعها قائلة: "لم أفعلْ ذلك". فرد بغيظ عليها: "كميردا قالت إنّك فعلت ولؤي سمعَك تحدثين أناندار وعيناك

الآن تفْضحانك وتكشفان سرّك... إنكارك لا قيمة له"، لم ينتظرْ ردّها وإنّما فتح الباب وخرج، ثمّ أغلقه خلفه بعنف.

خرجَ من غرفتها لممرّ طويل تنيره أضواءٌ خافتة، تجاوز ثلاثة أبواب ثمّ دخلَ الرّابع، قادَه إلى غرفة فسيحة جلس فيها رجلان؛ أرضي وأديتي، إلى طاولة مُستديرة. وقفَ الرجلان لتحيّته لكنّه أشار لهما بالجلوس ثمّ سأل: "ما آخر أخبار عملية أناندار". ردّ عليه الأرضي قائلًا.. إنّهم اضطرّوا لاقتحام القصر بأسلحة تقليدية بعدَما استطاع أناندار احتجازَ المجموعة المهاجمة الأولى، ثمّ أضاف: "اتّضح أنّ أناندار يخزن كمياتٍ كبيرة من الأسلحة التقليدية بنادق آلية ومتعددة الطلقات، وغيرها، لكنّ رجالَ المقاومة استطاعوا التغلب عليهم في النهاية".

ابتسمَ الرّجل بزهْو، وهو ينهي جُملته منتظرًا أن يشكرَه ماندريك لكن الأخير نظرَ إليه كأنه يقول.. وماذا أيضًا، فقال مُكملًا: "هذا كلّ ما وصلنا منهم". زفر ماندريك في ضيقٍ قائلًا: "أين الأخبارُ المهمّة؟ هل قتلوا أناندار؟ هل قبضوا على مساعده؟ هل (ميْساء) وباسل بخير؟".

تكلّم الآخر- الأديتي- قائلًا ومُبررًا لزميله: "سيدي، المكالمة كانت سريعة، وقالوا إنّ قائدهم سيتواصل معك حين تنتهي من تحقيقك مع المتهمة الرئيسية". أطرقَ ماندريك مفكرًا، ثمّ طلبَ من الأرضي أن يجري اتصالًا مع مقرّ المقاومة في بيروت ليتحدّث مع قائدهم سامر.

انفتحتْ شاشةٌ فراغية أظهرت (سامر) وهو يجلس بيده عبوةُ عصير صغيرة وقد ضمدتْ ذراعه وبدَا على وجهه الإجهاد، وعلى عينيه النعاس.

بادره ماندريك بالتّحية، ثمّ سألَه عن الأخبار فردّ قائلًا: "لقد استطعنا التغلبَ عليهم بصعوبة لكن أصدقكَ القول أنا أشعرُ بالقلق الشّديد من هذا اللعين أناندار"، تجاهل ماندريك ذلك "القلق الشديد" وسأله: "هل قتلتُم أناندار؟ وأين باسل وميساء؟".

سبّ الرجلُ لباسلَ ولليوم الذي وافقَ على ضمّ (باسل) لتلك العملية، وانبرى يصفُه بالحمق والتهور، وقبل أن يستطردَ قاطعه ماندريك بنفادِ صبر قائلًا: "العزيز سامر.. أرجوك أوّلًا أخبرني عن نتائج العملية، ثمّ الْعَن مَن تشاء بعدها"؛ فقال سامر بعدَ أن تجرّع بقية عبوة العصير وقذفها بعيدًا: "قبضنا على مساعد أناندار وسأشحنه لك غدًا صباحًا، أمّا أناندار نفسُه فقد انتقل عبرَ أحد أجهزتكم اللعينة إلى كوكبكم، وقام ابنُ الملاعين (باسل) بالانتقال خلفَه آخذًا معه (ميْساء) وإيلي ساعدي الأيمن".

عقدَ ماندريك حاجبَه مدهوشًا من ذلك الذي حدث. قد يتفهّم أسبابَ (باسل) التي تجعله يقفزُ إلى المجهول هكذا خلفَ قاتل زوجته، لكنْ لماذا تبعته ميساء. هل بلغَ بها الحمقُ ومحاولةُ إثبات ذاتها هذا المبلغ، أم أنّها هي الأخرى استفزها جرمُ أناندار وشخصيّته. هو يعرفُ أناندار أيامَ كان هو على علاقة حبّ بهيرمين، وتحدّث معه عدةَ مرّات، كان يرى أنّ به مسًّا من جنون العظمة والهوس بإثبات أنه أفضلُ إخوته، بل إنّه قال له ذاتَ مرّة إنّه أفضل من أبيه شخصيًّا، وإنّه ينوي أن يجعلَ ذكر عائلته خالدًا في التاريخ مَقرونًا بأمجاد أناندار الثاني كما كان يسمّي نفسه بدلًا من أناندار الصغير التي يطلقونها عليه في العائلة.

أخذَه من أفكاره قولُ سامر: "اسمعْ يا ماندريك، أريد منك أن تعيد (سامر) فهو أعزّ عندي من أبنائي، تصرّف". تأمله ماندريك مليًّا وهو يفكّر في ردٍّ فهو أيضًا لن يتخلّى عن (ميْساء) إكرامًا لأبيها، ولأنّها فتاة تستحقّ بذلَ الجهد من أجلها. قطعَ تأمله صوتُ سامر الحانق وهو يقول: "لا تنظرْ إليَّ هكذا كالتائه، قل لي ماذا ستفعل لاستعادة الفتى؟".

"هل مازال أحدٌ من رجالك في القصر؟". سأل ماندريك، فردّ (سامر) بالإيجاب، لكنّه أضاف: "لكنّهم لن يبقون هناك طويلًا، فشرطةُ أديتيا على وشك الوصول". طلبَ ماندريك منه أن يصوّر لوحاتِ التحكم الخاصّة بجهاز التحكم ليستطيعَ التقنيون لديه تحديد المكان الذي هبطوا فيه. أشارَ سامر لأحد مساعديه وطلبَ منه تنفيذ الأمر، ثمّ قال: "أريدُ فقط أنْ أذكّرك أنّ ذلك اللعين أناندار كان يخزّن كمياتٍ كبيرة من البنادق والمدافع الخفيفة والذخيرة، ولوْلا أننا فاجأناه لما تغلّبنا عليه.. هذا الرجلُ قد يكون أخطرَ كثيرًا ممّا تتصورون قد يكون أخطر من حكومتكم نفسها".

***

٣٨

جلسَ (عمر) يقلّب في أوراقه وهو يزفرُ في عصبية، يخرج أنفاسًا ملؤها القلقُ والغيظ، يحاول تمضيةَ الوقت الثقيل الذي يأبى إلّا أن يعذبه ببطئه المُمِض. أمضى هوَ وزهرة أربعةَ أيام عصيبة منذُ أن علمَا باختفاء (مَيْساء) مع باسل وإيلي بعدَ أن ذهبَا إلى كوكب أديتيا لمطاردةِ أناندار. كان كلّ ما سيطر على عقله خلال الأيام السابقة هو الرعبَ من فقْد طفلته الوحيدة لا يشغل باله شيء آخر، وإن حاولت زهرة تهدئته لخشيتِها على صحّته، فهو لا يزال في نقاهةٍ بعد جراحة القلب التي أجراها.

حينَ اطمأن عليها بعد أنْ أخبره ماندريك صباحَ اليوم أنّها بخير، وأنّها ستعودُ بعد ساعات، تبدل كلّ ذلك الفزعُ من فقدان طفلته الوحيدة إلى غضب شديد منْه لمَا وجده من استهتار منها، وتهوّر، جعلها تقفزُ قفزة كتلك. كان يجزم في داخله أنّها فعلت ذلك لسببٍ من اثنين لا ثالثَ لهما، إمّا أنها تريد أن تذهب بعيدًا في محاولةِ إثبات ذاتها وبطولتها، حتّى وإنْ كان ذلك بإلقاء نفسها في أرض العدو دون مددٍ أو متابعة، وإمّا أنها كانت تحاول أن تبهرَ ذلك المدعو باسل، وتريد أن تثير إعجابَه، فقد لمسَ منها اهتمامًا زائدًا به كأنّها تعوّض فشلَ مشروعها الأحمق للزواج من سمير.

منذُ قليل طلب قائدَها المقدم (إياد) وأخبرَه أنّ تهورها ذلك يستدعي استبعادها من العمليات الميدانية، وأنّها ليست كُفئًا لاتخاذ قرارات مصيرية. كانت خطوة تردد فيها أولًا لأنّه يعلم أنها ستغضبُها بشدة، وقد تقاطعه إنْ

وصل إلى علمها أنه تكلم عنها بتلك الطريقة، لكنّه كان يفضّل أن تكون في أمان على رؤيتها. استمع إليه (إياد) بنفادِ صبر، ثمّ ردّ عليه بجفاء قائلًا: إنها ضابط يعمل تحت إمرته وإنه لم يسبقْ في التاريخ أن تدخّل أبٌ في عمل ولده بتلك الطريقة، وإنه حتّى لا يحق له استخدامُ سلطته الأبوية في منعِها من العمل فهي عسكرية، وأمرها بيدِ قادتها فقط ومخالفتهم جريمة تحاسبُ عليها. ساعتها داخلته مشاعرُ من الارتياح والضيق والقلق، وأخذَ يمضي الوقتَ وهو يشعر بعقارب الساعة تكاد تطبق على رقبته.

دخلتْ عليه زهرة وقد أشرقَ وجهها بعدَ أربعة أيام قضتها في البكاء واعتزلت فيها العمل، رأت وجهَه مكفهرًّا فسألته عن السبب فأفرغَ ما في قلبه بين يديها. ابتسمتْ وهي تجلس إلى جواره وتربّت على صدره طالبة منه أن يهدأ فلم يمضِ على عمليته الجراحيّة أسبوع. كان جالسًا على فراش بسيط في البيت الذي اتّخذته (زهرة) في مخيّم اللاجئين جوار المستشفى. بيت متواضع كباقي بيوت المخيّم من طابق واحدٍ يحوي غرفتيْن ضيقتين وردهةً صغيرة وأثاثًا فقيرًا لا يقارن بأيّ حال ببيتها التي كانت تعيش فيه قبل الغزو.

"أرجوكِ يا زهرة، عندما تصل (ميْساء) أخبريها أنّني غاضب منها، وأنني لن أقابلها إلّا بعد أن تصفو نفسي". قال عُمر وهو يزدردُ ريقه بصعوبة، فتراجعت زهرة ونظرت إليه بخليطٍ من الدهشة والاستنكار وهي تقول: "عُمر... الموضوع لا يستحقّ كلّ هذا، إنّها ابنتك الوحيدة". ردّ عليها بنبرة حزينة لكنها حازمة: "لقد تغاضيتُ عن الكثير وهي مازالت تعاملني معاملةَ

النّد لا معاملة الابنة للأب حتّى وصلنا لليوم الذي تلقي بنفسها في التّهلكة بلا سبب". فقالت زهرة محاولة ثنيَه عن عزمِه: "لكن يا عمر.." توقّف لسانها ولم يكمل حين وضع سبّابته على فمها طالبًا منها الصمت، فأمسكت لأنّها تعرفه في مثل تلك الحالات لا يمكن إقناعه بشيء.

كانا يمتلكان مفاتيحَ بعضهما، يعرف كلّ واحد منهما متى يخفض للآخر جناحَه. منذ أولِ اعتراف بالحب، لم يكن في علاقتهما أيّ اعتبارات إلا لوجودهما معًا، وكان ذلك يثيرُ دهشة كلّ مَن حولهما. كانت تظهر له طاعة الزوجة المحبة وكان يُظهر لها خضوعَ العاشق الوَلِه. قصة حبّ مختلفة لم تحدث في مجتمعهما من قبل، وربما لم تكنْ لتأخذ ذلك الشكل لولا أنّها بدأت على كوكب غريب.

تركتْه وحده وخرجتْ تشغل نفسها بتجهيز غداء لثلاثتهم. كانت تلك من المرّات القليلة التي يتاح لهم تناول الغداء معًا كأيّ أسرة عادية منذ حدوث الغزو؛ كانت تتمنّى أن يصفو الجوّ بينهما حتّى لا تفسد المناسبة. مرّت ساعة ونصف قبل أنْ تسمع صوتَ طرقات سريعة متعجّلة على الباب، طرقات متتابعة خفيفة أنبأتها أنّ (ميْساء) هي صاحبتها. فتحت البابَ وأخذت ابنتها في حضنها وتبادلتا قبلات كثيرةً كانت قبلاتُها ملهوفة ممْزوجة بفرح طاغ، مشحونة برغبتها في التخلص من خوفها على ابنتها مرّة واحدة، وإلى الأبد.

"أين بابا؟ لقد أوحشني.. لن تصدّقي ما حدث.. لقد كنت هناك مشيت حيث مشيتم، ورأيت القمريْن ينيران السماء هناك، ويجعلان الليل رائع الجمال و......." قاطعتها أمّها طالبة منها أن تهدأ وتلتقطَ أنفاسها أولًا ثمّ

هناك متّسع من الوقت لتقص عليها كلّ شيء. أدركت أمّها أنّ (ميْساء) تشعر بأنها قد أخطأت وأنها تعرف أن ما فعلتْه سيثير غضبها وغضبَ أبيها فقد كانت في صغرها تفعل بالضبط ما فعلته الآن لتداري على خطأ ارتكبته. تدخلُ من باب البيت وتندفع في قصّ حكاية مثيرة عن ما حدثَ بطريقة توحي أنّها كانت سعيدة وتتصرّف بغفلة لم تدرك معها أنها أخطأت حتّى تتعاطف أمّها معها وتسامح خطأها في غمرة ذلك.

كان هذا التصرفُ مثيرًا لارتياحها قليلًا؛ فهي تعرف أن اللقاء بين (ميْساء) وأبيها سيكون مشحونًا، وأنّه سينفعلُ عليها ويلومها بشدة. لو كانت (ميْساء) مازالت تكابرُ ولا تدرك أنها أخطأت فسوفَ تجادله الكلمة بالكلمة ممّا سيزيد الموقف اشتعالًا بينهما، لكنْ بما أنها تعرف خطأها وتحاول مداراةَ الخطأ، بتلك الحماسة المفتعلة عن رحلتها الغريبة، فهي غالبًا ستعتذرُ لأبيها وهو سيقبلُ الاعتذار وينتهي الأمر سريعًا.

"لماذا فعلتِ ذلك يا (ميْساء)؟ كيف جرؤت على إلقاء نفسك في التهلكة بهذا الشّكل يا بنيّتي؟". سألتها وهي تنظرُ إليها بعين عاتبة فقالت: "لم أفكّر يا أمي كلّ ما خطرَ ببالي أنني سأرى ذلك المكان الذي شهدَ ولادة حبكما". لوت زاوية فمها غير مصدّقة وهي تنظرُ لها بتشكك من أسفل نظارتها ثمّ قالت: "مِن الأفضل أن تقولي لأبيك شيئًا يصدّقه ويخفّف غضبه، لا داعي للمراوغة حتّى لا يغضب أكثر".

فوجئت (ميْساء) بردّها ففكرت أن تقسمَ على أنّ هذه هي الحقيقة لكنها بدلًا من ذلك سألتها عنه: "أين هو الآن؟" فقالت: "غاضب. وقال إنّه لن يراك الآن". رفعتْ (ميْساء) خصلَ شعرها وجذبتها للخلفِ في عصبية

وهي تحاول أن تفهم وهي غيرُ مقتنعة أنّ أباها غاضبٌ لدرجة أنه يرفض لقاءها، فلم يحدث قط أن رفض لقاءها حتّى حينما اختلفا وكانت بينهما حدة في التعامل.

"سأدخل إليه" قالتْ بحزم وهي تهمّ بالوقوف، فقالت زهرة هامسة: "اجلسي وفكّري أولًا فيما يمكن أن تقوليه ويخفّف من غضبته.. اعتذري له قبل أن تتكلمي". تراجعتْ (ميْساء) بدهشة قائلة: "أعتذرُ أولًا! أنا كنت في مهمّة واتخذت قرارًا يخصّ عملي؛ لستُ طفلة مراهقة ضبطها أبوها تدخّن السجائر على ناصية الشارع".

أمسكتْ أمّها يدها، طلبت منها أن تنظرَ في عينها وتقسم أنها مقتنعة أنها لم تخطئ، ولم تفعل ما يستدعي غضبَ أبيها، فتلعثمت ولم تدر ما تقول ثمّ بعد تفكير، لم يهدِها إلى شيء، سألت أمها: "ماذا أقول له إذًا؟". فقالت: "هو يقول إنه غاضب لأنك عرّضت حياتك لخطر مُحقق، ولكنّني أشعر أن أكثر غضبه ناتج عن ظنه أنك عرّضت حياتك للخطر من أجل أن تُبهري ذلك الرجل، وقرّرت القفز لكوكب آخر لكي تكوني معه... قدْ لا تفهمين ما أقول لكنْ أبوكَ رجلٌ ريفي، ولا يزال يعتبر أن فعلَك هذا يسيء لكرامته، لا يزال يعتبرُ أنّ هناك أصولًا يجب أن تراعيها البنت حتّى لو كانت ضابطًا في المخابرات".

لم تقتنع (ميْساء) بكلام أمّها فجادلتها مستدلةً بأنّ أباها لم يغضب حين عرف بخططِها مع (سمير) من قبْل، أو حين لاحظ اهتمامها بباسل، فقالت زهرة: "كان يبتلعُ ذلك رغمًا عنه لأنّه كان محبوسًا لمدة عامين، كان سعيدًا بالروح الجديدة التي سرتْ بينكما، ولم يكن يريد أن يفسدها، كان يعلم أنّ علاقتك بسمير لن تنجح".

لم تقلْ لها بقيةَ ما يجول في صدرها؛ كانت ترى أنّ عيب (عمر) الوحيد أنه أحيانًا تملؤه الظنون، وتذهب به بعيدًا. تقول لنفسها إنّه قد يتخيل للحظة ما أن ما حدثَ بينها وبينه على الكوكب قد يتكرّر بين (ميْساء) وباسل، وهو كأيّ رجل عربي لا يرضى أن يتكرّر مع ابنته ما حدثَ بينه وبين حبيبته، ولن تتغيّر طريقة تفكيره تلك مهما كانت الظروف التي يعيش فيها.

قامت (ميْساء) مستأذنةً عازمة على مقابلة أبيها. حاولت زهرة ثنيَها عن عزمِها حين رأت نظرةً حازمة على وجهها جعلتها تدرك أنّ (ميْساء) لا تنوي الاعتذار. توجّهت (ميْساء) لباب الغرفة وطرقتِ الباب، لم تسمع ردًّا فكرّرت طرقها وهي تقول: "أنا ميساء.. أدخل؟". لم يجبْها فكررت سؤالها، وحينَ لم تجد استجابة فتحتِ الباب بهدوء، وجدتْه جالسًا متجهّمًا لا ينظر ناحيتها، فنادت عليه قائلة: "بابا، أنا عدت.. ألم تفتقدني؟ ألم تقلق علي ميسائك الحلوة؟!".

استمرّ في تجاهلها، فقالت: "أنا آسفة". لم ينظر إليها وإن لاحظت اختلاجَ وجهه فكرّرت أسفها، وقالت إنّها أخطأت، لم يردّ؛ وإنما زفرَ ولوى وجهه للناحية الأخرى، فقالت: "أقسمُ بحبّي لك أنّني لم أقفزْ في جهاز الناقل بأيّ نية، قلت لأمّي إنّني أردت أنْ أرى مكانَ ميلاد حبكما، لكنّني كنت أكذب، الحقيقة أنني أخذت قرارًا في أقلّ من ثانية، قرارٌ في أثناء عملية قتالية لم أفكّر في عواقبه، كذلك فعل إيلي زميلُنا اللبناني، قفزَ معي هو الآخر، هو مثلي أخذَ قرارًا بدَا له صحيحًا في وقتها".

جلستْ جواره ووضعت رأسَها على صدره، وقالت: "أنا آسفة... أقسم بالله إنّني أشعرُ بالندم على ما فعلته لأنّه تسبّب في غضبك، أقسم إن غضبتك

عندي أسوأ ألفَ مرّة من العقاب الذي قد يوقعه عليّ رؤسائي". لم يحرّك ساكنًا فقالت: "أبي... أنا مُرهقة جدًّا، قلبي مُرهق، وروحي متعَبة، ولا أعرف شخصًا في هذا العالم يمكنه شفائي إلّا أنت". ثمّ انخرطتْ في البكاء. وضع يدَه عليها وربّت على كتفها وهو يقول: "لا تبكي... لقد سامحتك". استمرّت في البكاء فقال ممازحًا: "أنت امرأة قوية مُستقلّة ينبغي أن لا تبكي أمامَ أحد" فابتسمت وهي تمسح دموعَها وتقول: "أنت الرجلُ الوحيد الذي يحقّ له أن يرى دموعي".

قال بحُنوّ: "دعك من بكاء الفتيات هذا، واحْكي لي ما حدثَ بالتفصيل". قصّت عليه ما حدث، كيف أنّهم عندما وجدوا أنفسهم في قصر أناندار الممتلئ بالحراس أدركوا خطأهم، وأنّ أحد الأديتيين من المقاومة انتقلَ وراءهم، ثمّ أخذهم إلى مكان عند أحدِ أصدقائه بعد مطاردة مُخيفة، وكيف ظلّوا عند صديقه ذلك لمدة ثلاثةِ أيّام ثمّ جاءَ آخرون من المقاومة في اليوم الرابع، وأخذوهما لمقرّ لهم، ونقلوهما إلى الأرض في الفيوم مباشرة، وكيف تمّ تحويلُها للتحقيق بسبب ما فعلته ذلك، وإنْ لم يصدر قرار بإيقافها عن العمل حتّى الآن.

"قائدُك اللعين لم يقلْ لي إنّك وصلت عندهم أولًا، أو عن إحالتك للتحقيق.. فقط ردَّ عليَّ بطريقة زادتْ من غضبي". ابتسمت بغموض وقالت: "أنا أعلم أنك حاولت تغييره عليّ لكنّني لم أغضب منك". رفع حاجبيه بدهشة وقبل أن يردّ عليها متّهمًا إيّاها بالتبجّح قبّلته على خدّه ثمّ قامت وهي تشدّه من ذراعه قائلة: "كفى كلامًا يا زعيمَ الثوار، وهيّا للغداء؛ فقد أوشكت على الموت جوعًا".

***

٣٩

جلستْ هيرمين في مواجهةِ منصّة القضاة في قبْو رتّبه رجال المقاومة من النياندرتال ليشبهَ قاعات المحكمة في كوكبهم. كانت تجلسُ في المنتصف، وعلى يمينها جلسَ (باسل) ولؤي الشّاهدان الوحيدان على جريمتها وفي مواجهتها المنصة المُعدّة لثلاثة قضاة من بني جلْدتها. على يسار القاعة جلس ماندريك وعُمر وخليطٌ من المقاومين من الأرضيّين والأديتيين يترقبون بدء المحاكمة آملين أن يكون لها صدًى دعائيّ قويّ يفيد القضية، ويحرج حكومة الاحتلال.

بعدَ تفكير طويل من هيرمين، وجدت أنّ السبيل الوحيد لنجاتها من تلك المحاكمة هو أنْ تنكرَ تهمتها. سترمي هي بالتُّهم عليهم، ستقول إنّهم يريدون نسبَ هذه الجرائم لها زورًا لتشويه منظرِ الدولة. القانون الأديتي لا يعدم شخصًا متّهمًا بالقتل إلّا إذا ثبتت عليه التهمةُ باعترافه الحرّ، أو بوجود شخص شاهده وهو يفعلها، أو شاهده وهو يرتّب لها ويأمر بها، ولحُسن حظّ هيرمين فإنّ كلا الشاهدين لم يشاهدها مباشرة.

كانت هادئة، وقد استجمعت في رأسِها الحجج. المقاومون يريدون أن يظهروا بمظهر المنصف الذي يقيم محاكمة عادلة، ويريدون أن يستغلّوا تلك المحاكمة دعائيًّا، لكنّها ترى أنها أكثرُ منهم قدرة على التلاعب، وحديثها أكثر إقناعًا، وحجّتها حاضرة، ستقلبُ الطاولة عليهم، وتجعل المحاكمة دعاية لها ولحكومتها مهْما كان الحكم النهائي.

لو أنّ الأمور كانت معكوسةً لقامت هي بتعذيب مَن أمسكته وهددته بكل من يهمّونه لحَثّه على الاعتراف ثمّ تحاكمُه، أما أنْ تضعه في محاكمة علنية أمام الناس مباشرة دون أوراق ضغطٍ كافية، فهذا هو الغباء بعينه؛ سينكر ويبكي ويستعطف حتّى يختلطَ على الناس الحقُّ بالباطل. لا يعني ذلك أنها ستوافق على الظهور بذلك الشكلِ المُثير للشفقة لكنّها ستدير تلك المحاكمة لصالحها، حتّى وإنْ حكموا عليها بالسّجن مدى الحياة. كانت هادئةً ذلك الهدوء الذي يقف على حدِّ التوتر تحاول الحفاظَ عليه بكلّ ما أوتيت من قوة.

(لؤي) على النّقيض منها، كان شديدَ التوتر؛ يدور بإبهاميْه عكس بعضهما في حركةٍ عصبية، ولا ينفكّ يسأل نفسه إن كان أصابَ أم أخطأ حين وافق على عرضِ الحكومة المصرية والمقاومين. اختطفوه ذاتَ يوم، استدرجته فتاة تعمل معَ المقاومة إلى بيتها، لم يقاوم أنوثتَها كالعادة، ودخل بيتها كالأبله. هناك وجدَ ضابطًا مِن المخابرات المصرية، وواحدًا من النياندرتال المقاومين طلبوا منه مساعدتهم في خطفِ هيرمين، وفي المقابل سيتمّ توفيرُ حياة كريمة له ولأسرته في الفيوم، وسيتمّ تعيينُه في وظيفة مُجزية. لو عرضَ عليه نفس العرض قبل أن يعايش هيرمين ويذوقَ غطرستها واحتقارها له لرَفَض دون تفكير، لكنّها كانت تتعمد إهانته كثيرًا خاصّة بعد مقتل كميردا.

في بداية عملِه مع الغزاة كان يرى أنّ السبيلَ الوحيد لنجاته ولمستقبل طيب هو العملُ معهم والزّواج منهم، وأنّ لديه فرصة للترقي، وليتبوّأ مكانة معقولة في الدولة الوليدة. لم يجدْ ما كان يصبو إليه رغمَ تعيينه في وظيفة جيدة

قريبة من دوائر الحكم، كان يشعرُ بالازدراء في عيون الأديتيين الرجال، وفي عيون نسائهم، كان يشعرُ أنه مجرّد عاهرة تعطي المتعة لَمن يدفع أو يمنّ عليه بفائدة. تغير إحساسه قليلًا بعد أنْ ضمّته هيرمين لحرسِها الخاص، وأمرتْه أن يساعدها في إنجاب طفلها الهجين، لكنّ إساءاتها المتكرّرة جعلته يمقتُ وضعَه أكثر من ذي قبْل، وسهّلت عليه أنْ يوافق على الانقلاب عليها.

فاوضَه رجالُ المخابرات المصريين، طلبوا منه معلوماتٍ عن دور هيرمين في قتْل كميردا ورفيقاتها، قال لهم إنّه استمعَ إلى حوار هيرمين مع شقيقها يوم الجريمة، وإنّه سيشهد بذلك أيضًا، لكنّه في المقابل لا يريد العودة إلى مصر بل يريد الحياةَ في اليابان التي صارت قبلة للمهاجرين بعد ثلاثينيات القرن الحادي والعشرين.

طلبَ عفوًا كاملًا من الحكومة عن عمله معَ المحتلين، ومبلغًا كبيرًا، وبيتًا في كيوتو. وافقوا على طلباته لكنّهم ربطوا حياته بالخارج بقدرته على الإيقاع بها في المحاكمة، كما قال له الضابط: "سوف نمنحك العفو، وبيتًا ووظيفةً في الفيوم مقابلَ اختطافها، أمّا موضوعُ الهجرة إلى اليابان فمرهونٌ بقدرتك على محاصرتها في المحاكمة، وإثبات التهمة عليها".

أشارَ ماندريك للتقنين للاستعدادِ بكاميراتهم وأجهزتهم الصوتية، استعدادًا لبدْء المحاكمة. قرّر المقاومون منذ البداية تسجيلَ المحاكمة، وليس بثّها بشكل مباشر لتجنّب أيّ احتمالٍ ولو ضئيل في تعقبها. كان لديه هو بالذات سببٌ آخر خفي؛ وهو أنّه لا يطمئنّ مائة في المائة إلى ما ستئول إليه الأمورُ، فهو يعلم أنّ هيرمين داهية، وأنّها قادرةٌ على التظاهر والجدال بطريقةٍ

تحيّر المشاهد وتخلط عليه الحق بالباطل، إضافةً إلى أنّ مساعد أناندار الذي كانوا يعتمدون عليه لإثبات التهمة عليها انتحرَ قبلَ أن يصل إلى القاهرة.

في يقينِه أنّ بإمكان هيرمين أنْ تجعل هدفهم الرئيسي من تلك المحاكمة، وهو إظهارُ حكومة أديتيا في شكل عصابة إجرامية؛ هدفًا مشكوكًا في تحقيقه. أراد أولًا أنْ يشاهد تسجيلًا للمحاكمة ليعدّل فيه بطريقة تبرز هدفَه، ويزيل أيّ نقاش فيها قد يظهرها بريئة.

لم يساورْه أدنى شكٍّ في أخلاقية هذا الفعل، فهو يعرف أنّها أجرمت، وقد اعترفتْ له ضمنيًّا بأنّها فعلت ذلك، لكنّ كلامها مع للأسف لم يكن رسميًّا ولا ينفع أنْ يستخدم كحجّة ضدّها. سيترك المحكمة تسيرُ بشكل قانوني تمامًا لكنه سيأخذ منها ما يحقّق غرضه، ويحقّق أقصى دعاية مُمكنة، حتّى لو اضطرّ إلى تزييف مقاطع أو إعادة ترتيب كلامها، فسبيلُ الحقّ عنده قد يضطرّه أحيانًا إلى امتطاء مركب الباطل.

دخلَ القضاة في زيّهم الأحمر المطرّز بشعار المقاومة، أعمارهم تتراوح بين الأربعين والستين. جلسَ أحدُهم أولًا، كان أشيب يبدو عليه السنّ أكثر، ظلّ الآخران واقفيْن على يمينه ويساره حتّى تلَا مقولةً افتتاحية تمجّد في العدل، وفي أخذ الحقوق لأصحابها، ثمّ أشار للآخرين فجلسَا.

ضغطَ القاضي الجالس يمينًا على زرٍّ فانفتحت شاشة فراغية عرضت ملخّصًا للقضية صوتًا وصورة ومستندات. النظام القضائي في أديتيا لا يحتوي على ادّعاء عام، أو محامين، بل يقف المتهمُ ويتلو عليه القضاةُ قضيته وأدلتها، ثمّ يأتي دورُ المدّعي أو قريب القتيل فيقول حجّته، ثمّ بعد ذلك يأتي الشهودُ فيقولون ما لديهم أمامَ القاضي، ثمّ يأتي المتّهمُ في النهاية ويدافعُ

عن نفسه ويواجه الشهودَ إن أراد، ثمّ يحكم القاضي في الجلسة نفسِها، أو في جلسة تالية إنْ تطلّب الأمر. مهمة قاضي الوسط هي أنْ يقرّر الحكم حيث يكون صامتًا في أثناء المحاكمة؛ يستمع فقط بينما قضاةُ اليمين واليسار هما مَن يستجوبان الناس ويتحاوران معهم.

قامَ (باسل) أولًا، عرف نفسَه وقال إنّه سيتحدّث بصفته مدعيًا لأنه زوج القتيلة، وبصفته شاهدًا أيضًا. بدأ يقصّ على القضاة ما سمعه من كميردا، وما سمعه من أناندار، عندما كان في قصره، تكلّم بعد ذلك واستفاض عن حبّه لزوجته وبكائه عليها، وعن حزنه لما حلّ بها، ورغبته في القصاص من قاتليها، وعلى رأسهم هيرمين وأخوها.

جاءَ بعدها دور (لؤي) الذي كان متوترًا يأخذُ نفسًا عميقًا بين كلّ جملة والتي تليها. تكلم عن يومِ الحادث وعنِ الحوار الذي دار بين هيرمين وشقيقها، وعن صدمتِهِ لحدوثَ ذلك كلّه، ثمّ ختمَ كلامه قائلًا: "لقد خدمتُ دولة أديتيا لأنني آمنت بحقّها في الوجود، ووجدتُها دولة عادلة، ولكن كلّ قناعاتي تغيّرت حين سمعت ما سمعت، ولذلك اتّصلت بالمقاومة، وقرّرت المساعدة في إرجاع الحق لأصحابه".

ما كادَ يُنهي جملته حتّى تعالتْ ضحكة ساخرة من هيرمين، فأشار لها القاضي على اليسار محذّرًا إياها من السخرية من المحكمة. نظر إلى (لؤي) متأكدًا أنّه ليس لديه أقوالٌ أخرى، وبعدها قام قاضي اليمين باستجواب هيرمين. تلا عليها تهمتَها قائلًا: "هيرمين ابنة أناندار من عائلة بوتار،

هل تعترفين بأنك تآمرت وخطّطت لتنفيذ الجريمة المذكورة؟". فردّت بغطرسة قائلة: "بالطبع لا، أنا أحترم القانون وحياةَ الإنسان أيّا كان عرقه، هذه مجرّد مكيدة من هؤلاء المخربين ولا دليل عليها".

لم يكنْ هناك محام مُضادّ يقول للقاضي إنّه يعترض على إطلاق لفظ مخرّبين على الشهود ومَن معهم، لكن القاضي حدجَها بنظرة صارمة وقال لها: "ليسوا مخرّبين وليست حكومتك على صواب، وهذا ليس موضوع محاكمتنا". فردّت عليه قائلة بتحدّ: "بل هو أساس محاكمتنا، هذه المحكمة ليس لها صفة من الدولة، مَن الذي عيّنكم للقضاء في تلك القضية؟". همّ القاضي بالرد، لكن القاضي الكبير الجالس في المنتصف قال: "قانون أديتيا الأساسي يمنح الحقّ لأي عدد من المواطنين يزيد عن خمسين ألفًا بتعْيين محكمة من ثلاثة قضاة للفصل في قضية يروْن أنّ قضاء الدولة غيرَ مُنصف فيها، ونحن لدينا تلك الصفة سواء رضيت حكومتك أم لا".

ابتسمتْ في هدوء وهزّت رأسها دون أن تعترض، وإن هزّ ذلك من ثقتها الزّائدة، سألها قاضي اليمين مرّة أخرى عن دفاعها عن نفسها فقالت: "هذان الشّاهدان لا يصلحان للشهادة؛ الأول كان حارسي لكنّه كان أيضًا حيواني الأليف وكان يطمحُ في أكثر من ذلك، لكنّي دومًا كنت أضعه في موضعه الحقير الذي يستحقّه، ولذا قرّر الانقلاب عليّ والاشتراكَ في تلك المكيدة ضدي". فردّ (لؤي) مُنفعلًا: "كلّا، إنّها كاذبة، هي الحقيرة ليس أنا يا سيدي القاضي". تدخل القاضي وأسكتَه وحذّرهما من ذلك الأسلوب، ثمّ ترك لها فرصة مواجهته وتفنيد شهادته.

سألته عن ما سمعه وكيفَ سمعه، واستطاعت بمهارة وذكاء أن تجعلَه يتلعثم ويغيّر في صيغة كلامه، ما جعله يبدو غيرَ واثق من شهادته. بدا لها مهتزًّا متوترًا واستطاعتْ أن تجهزَ على ما تبقى من ثقته بسهولة، أثبت دون قصد ما عايرته به سابقًا حين قالت إنّه مجرّدُ عضلات، ووجه وسيم دونَ عقل يستحقّ الذكر، وحين تمنّت إن أنجبتْ طفلًا منه أن يرثَ قوته ووسامته ويرث منها ذكاءها على عكس المفترض حين تقارن ذكاء النياندرتال بالأرضيين. في النهاية قالت موجهة كلامها لقاضي الوسط: "وحتّى بفرض صدقه، فكلامُه لا يعدّ دليلًا ضدّي؛ فهو يبني شهادته على كلماتٍ سمعها من خلف بابٍ مُغلق وهو يتلصّص عليّ دون وجه حق، من الطبيعي أن يكون متوترًا ساعتها يخلط الكلام ببعضه، وهو كما رأيتم غيرُ متأكد من شيء".

حاولَ (لؤي) أن يقاطعها لكنّ قاضي اليمين أسكته بإشارة من يده ثمّ سألها: "وبفرض صدقه؟ إذًا.. هناك محادثة بمعنى قريب من الكلام الذي قاله الشاهد!" تصنّعت الحزن وكستْ صوتها لهجة متألمة وهي تقول: "لقد تواصلَ معي أحد الخاطفين، وطلب منّي مقابلًا لإطلاق سراح كميردا لكنني رفضت، وليتني وافقت فلربّما كانت العزيزة كميردا هنا لو كان ثمّة ما أستحقّ المحاكمة عليه فهو أنني استهنتُ بوحشية هؤلاء المجرمين".

حدجَها (باسل) بنظرة تطفح مقتًا لكنّه ظلّ هادئًا لم يتكلم، وجلس (لؤي) في مقعده وهو يوشك على البكاء بعدَ أن فشلت شهادته فشلًا ذريعًا. جاء دور (باسل) وقالت هيرمين إنّها تعذره، وإنّها متأكدة من أنّ ما سمعه

هو مجرد هذيان من كميردا التي كانت تعاني هلعًا يفوقُ الوصف. ظلّ الكلام بينهما في شدّ وجذب وانفعلَ باسل أكثرَ من مرّة لدرجة أن القاضي هدّده بالطرد من المحاكمة واستبعاد شهادته.

حينَ انتهت مواجهتهما سرتْ همهماتٌ في القاعة قطعتها إشارة من قاضي الوسط الذي أعلنَ أنّه توصّل إلى الحكم. "هيرمين ابنة أناندار من عائلة بوتار" قال القاضي بصوت عميق، فوقفتْ هيرمين وقالت، وقد تظاهرت أنّها سلمت بقانونية المحكمة: "نعم أيها المعظم". فقال القاضي: "أنا متيقّن من أنك فعلت التهمة المنسوبة إليك، وأنا وإنْ كنت أتمنى أنْ أعدمك شخصيًّا إلّا أنّ الحجج الماثلة أمامي لا تعطيني الحقّ في ذلك". ابتسمت هيرمين في ظفر، وازدرد ماندريك ريقَه في قلق، وقلّب (باسل) عينيه في مقتٍ شديد قبلَ أن يستطرد القاضي قائلًا: "أعلم أنّ الحكم بإعدامك يبطلُ تلك المحاكمة، لكن إذا اجتمعت قرائنُ كثيرة لدى القاضي فإنّ القانون يعطيه الحقّ في الحكم عليك بأقصى عقوبة دون القتل، مادام متيقنًا من جرمك". اختفت ابتسامتُها وبدَا على وجه ماندريك حزنٌ عارم، وظلّت نظرة باسل تحمل مقت العالم كله.

أكملَ القاضي حكمه قائلًا: "بناءً على ما توفّر لديّ من قرائن فقد حكمت عليك بالحبس في جبّ تحت الأرض بعشرين ذراعًا، وحدك بلا رفقاء لمدة خمسة أعوام، ثمّ تنقلين بعدَها إلى سجن عادي إذا سمحتِ الظروف السياسية، أما إذا ظلّت الحكومةُ كما هي فيجوزُ لحكومة المقاومة الاستمرار في وضْعك في الجب إلى الأبد".

حاولتْ هيرمين أن تبتسمَ لتخفي فزعها من ذلك الحكم، فقد ظنّت أنه لو كان القاضي متجنّيًا فسيحكم بحبسها في أحدِ مقارّ المقاومة، كانت راضية بذلك على أمل أنّها تستطيع التحملَ حتّى ينقذها أحد، أمّا البقاء في جبّ بدائي خمس سنوات فهو أمرٌ أسوأ من الموت عندها. تنام في حفرةٍ عميقة يدلّى لها الأكل بحبل كلّ يوم وتقضي حاجتها في وعاءٍ يغيّرونه لها كلّ يومين مع موعدِ الطعام، لا تخاطب أحدًا ولا ترى أحدًا حتّى تجنّ أو توشك على الجنون.

قامَ القضاة فقام الجميعُ احترامًا ثمّ خرجوا، تلاهم بدءُ انصراف الحضور، رمقَها (باسل) وهو خارجٌ بنظرة لم تتغيّر تعبيراتها الكارهة وإن خالطها شبح ابتسامةٍ ساخرة وجّهها إليها عامدًا، شعرت منها أنّه يعلم فداحة العقوبة التي حكم بها عليها. قامت هي حينَ وقف حارسان لاقتيادها ولكنّها فجأة شعرت بوخزةٍ مؤلمة في فخذِها تلاها شعورٌ بالحرق يسري من مكان الوخزة إلى كلّ جسدها، ثمّ وجدت نفسها تنتفضُ بقوة. قلبُها كان ينقبض بسرعة واضطراب، أنفاسها كانت تخرج وتدخلُ بصعوبة كأنها تتنفّس تحت الماء، غزتْ رأسَها أفكارٌ مفزعة وخيالات قديمة من حياتها السابقة، لكنْ أشدّ ما آلمها كانت صورة كميردا التي تجسّدت أمامها ببطن مبْقورة وهي تجثم على صدرها، وتحاول انتزاع قلبها من صدرها. حاولت أن تعتذرَ لها وتتوسّل أن تترك قلبها في مكانه، وتقسم أنّها لم ترتكب ذنبًا، لكن عيون كميردا كانت على جمودِها تحمل اتّهامًا لا يقبل الشك، كانت عيون جلاد ينفذ حكم إعدامٍ واثقٌ من عدالته.

جرى ماندريك نحوَها صارخًا بمَن حوله أن يستدعوا أحدًا لنجدتها. زادت انتفاضاتها وغامتْ عيناها، وبدأت تخرج من فمها رغاوٍ كثيرة جعل كلّ ذلك قلبه يتمزّق رغم كلّ شيء. تحوّل وجهُها للّون الأرجواني وبرزت عروق عنقها وتحشرجتْ أنفاسها، فخرجت عالية الصوت كأنّها تخرج من أنبوب ضيق، ثمّ صمتتْ مرّة واحدة وخمدت للأبد.

***

٤٠

في أوّل ظهور علني له في بثّ مباشر، وقف أناندار أمامَ الكاميرا فاردًا قامته القصيرة، ناظرًا بتحدٍّ، وبدأ ينعي أختَه بعد أن أعلن المقاومون أنها انتحرت بالسمّ بعدَ أربعة أيام من الحُكم عليها بالسجن. بدأ كلامَه بصوت هادئ حزين يتكلم عن مدَى فجيعته بموت شقيقتِه الوحيدة: "هيرمين كانت بطلة وقفت أمام هؤلاء المُجرمين في محاكمتهم الهزلية، وأعلنت أنها أكبرُ من اتهاماتهم ورغم محاولاتهم تغيير التفاصيل في الفيديوهات التي أذاعوها لمحاكمتها إلّا أنني أقول وبكلّ ثقة إنها أفحمتهُم وجعلتهم يبْدون كالبُلهاء حتّى فشلوا في إدانتها بتلك الجريمة المزعومة واضطرّوا إلى الحكم عليها بالسجن".

أوقفَ حديثه وفتحَ شاشة فراغية تظهر لقطة لهيرمين وهي تكلم المحكمة بتحدٍّ، ثمّ أوقف الصورة وقرّبها من ملامح وجهها، ثمّ نظر إلى الكاميرا وهو يقول مشيرًا لوجه شقيقته على الشاشة: "هل يصدق عاقلٌ أنّ امرأة بكل هذه القوة والبأس تنتحرُ يأسًا، هي تعرف أنّني لم أكنْ لأتركها بين أيديهم، وتعرف أنّ حكومتنا حتّى وإنْ عجزت عن ملاحقة خاطفيها فإنّها لم تكن لتدخر وسعًا في تحريرها مهما طال الزمن. هيرمين قُتلت وأنا أقول الآن لهؤلاء الملاعين الذين خطفوها... سلموني قاتليها وسأترُك الباقين وإلّا فسوف أقتلكم واحدًا واحدًا، سأبدأ بهؤلاء المجرمين الذين يدّعون أنّهم قضاة محكمتها، ثمّ سأقتل ماندريك، ثمّ سأقتل مَن كانوا في تلك القاعة ولنْ أستثني أحدًا، وكما قالت حكمة ماجوها الخالدة (اقتل مَن أراقوا دم أهلك حتّى تملأ الهواء رائحة الدم، وحتى تصطبغ الحصباء بلونه القاني)".

أشارَ المصور له بأنّه سينهي التصوير، لكنّه استمر: "أمامكم مهلة يومين لتسليمي القتلة، وبعدها سوف تشكرني الحكومةُ لأنّني سأقضي لهم على هؤلاء المخرّبين، ستكون حربًا مفتوحة لا هوادة فيها ولا رحمة".

أشارَ للمصور لإنهاء المقطع، ثمّ أمر مساعدته ببثّه عبر كلّ القنوات المتاحة قائلًا: "أريد كلّ شخص على الأرض، وعلى كوكب أديتيا، أن يسمع هذا البيان، أريد أنْ يعلم الجميع أنّ أناندار سوف ينتقم لأخته"، ثمّ لوّح لهم بيديه فانصرف المصور وبقيةُ المتواجدين في الغرفة ما عدا مساعدته شاودريك التي اتّخذت مقعدًا مجاورًا له وهي تقول: "سيدي.. هل نرسل لهم ليأتوك به، أم ستذهب أنت له؟". نظر أناندار لها مفكّرًا ثمّ قال متجاهلًا السؤال: "أنا أشعرُ بارتياح حقيقي لأنّها ماتت فموتها يخدم أغراضًا كثيرة، ويسهّل لي الطريق في خططي المستقبلية، لكنني لا أستطيع أن أمنع تلك الأحاسيس التي تعتملُ في داخلي والتي تجعلني أشعر بالضعف، لقد كانت حمقاءَ مستفزّة، ولكنها كانت آخرَ مَن تبقى من عائلتي".

تنحنحتْ شاودريك ثمّ قالت مُتملقّة: "إنّ هذا لا يجعلك ضعيفًا يا سيدي إنما يُعلي قيمتَك أكثر، العظيمُ حين يتصف بالإخلاص لعائلته يزدادُ عظمة". نظر إليها متأملًا كأنه يعيدُ الكلمات في رأسه، كان يعلم أنّها تقصد التملق لكنها في الوقت نفسه تقول الحقيقة، فهو يرى نفسه عظيمًا، ويرى أنّه سيذهب إلى مدى أبعد كثيرًا من أي عظيم سبقه في تاريخ أديتيا. قال بعدَ قليل من الصمت: "شاودريك.. أنا عظيم وأعلم ذلك، لكنني- كما تعلمين- أعتبرُ وصفي بذلك من أحد المقرّبين مني علامة للتملق".

فتحتْ شاودريك فمَها لتبرر موقفها، لكنّه أشار بالصمت لتتركه يكمل: "أنا عظيم؛ أريدك أن تتصرّ في دومًا معي على هذا الأساس لا أن تذكّريني به .. هل فهمتِ؟". ردّت عليه وهي تبلع ريقَها: "لكن يا سيدي...". فقال بحزم: "لكن! هل تعترضينَ على كلام عظيمك، أم تريدين استدراك شيء لم يفطن إليه". صمتت شاودريك وقد شعرتْ أنّها قد حوصرت، فضحك أناندار وقال: "لا عليك أنت تابعتي المُخلصة، امرأةٌ أذكى من آلاف الرجال الذين يبدو أنّ عقولهم خربت بسبب العيب الجيني الذي ظهر فينا، لقد كنت أنوي ترقيتَك لتكوني كبيرة مساعدي بغض النظر عنِ اختطاف هؤلاء المخربين لأسنودريك كبيرِ مساعدي السابق". تلعثمت شاودريك وقالت: "هذا شرفٌ يا سيدي". فردّ أناندار في غطرسة: "أنت تابعة مخلصة وذكية كما قلت لك، ولو كنت متخذًا أصدقاءَ لاتّخذتك أنتِ .. هيّا اذهبي وائتيني بالأسير".

انطلقتْ شاودريك مهرولةً كأنها تهرب من تحقيق في إحدى محاكم التفتيش. كانت مُخلصةً لأناندار، وتعمل بكلّ جِدّ على إنجاح خططه، وكانت كثيرا ما تقترح خططًا بديلة على أسنودريك كبيرِ المساعدين السابق لعرضها على أناندار، كان عادةً ما ينسبُها لنفسه، ويحاولَ أن يبعدَها عن أناندار قدر الإمكان، لكن الأخير كان يعلمُ كلّ شيء يدور بين مساعديه.

شاودريك مثلها مثل آخرين ممّن يعملون لأناندار؛ يؤمنون أنّ العمل معه هو السبيلُ الوحيد لحياةٍ رغدة، وللعيش في الجنّة في هذه الدنيا، فهو لا يبخل عليهم بشيء، خاصّة الدائرة المقرّبة منه. الشيء المختلفُ فيها هو أنها متدينة بشدة، وترى أنّ تديّنها يحثّها على إحداث تغيير في هذا العالم،

تظن أنّ العمل مع أناندار هو خطوةٌ لتحقيق هذا التغيير، حتّى لو كانت الوسيلةُ مَشبوهة. كانت في درجة دينية تُعطيها الحقّ في تفسير الواقع حسب رؤيتها الخاصة، وتجعل الآخرين من المتدينين يعتبرونَ هذا التفسير جزءًا من تعاليم الدين، بل إنّ بعض المتدينين انضم لأناندار لأنّها أخبرتهم بتفسيراتها تلك. حين واتتْها فرصة عُمرها، بأنْ صارت كبيرة المُساعدين بعدَ اختطاف سلفها، استغلتها وعملتْ بجهد مضاعف لتظهر لأناندار أنها أفضلُ مَن عمل بهذا المنصب. والحقيقة أنّ أناندار لم يكن يحتاج ذلك فهو يقدر ذكاءها من ناحية، ومن ناحية أخرى يقدّر مكانتها الدينية التي تضيف له تابعين مخلصين.

بعدَ أقلّ من دقيقة عادت شاودريك لغرفة أناندار، وخلفها حارسان يجران رجلًا مقيّدًا. أجلساه على مقعد مواجهٍ لأناندار، أشار لهما بفكّ قيوده، ثمّ اقترب منه وأمسكَه من شَعره ووجّه رأسه للأعلى متأملًا وجهَه، والنظرة المتحدية البادية في عينيْه قبل أن يتركَه ويجلس على مقعده في مواجهته.

"أهلًا بك يا (باسل).. كيف حالك؟" قالها أناندار وعلى فمِه ابتسامة عريضة، لكن (باسل) اكتفى بالنّظر إليه في غضب وتحدّ غير عابئ بالأسلحة المصوبة لرأسه. تصاعدت سرعةُ وعمق أنفاسه كأنه يحاول أن ينفثَ نارًا من صدره يحرق أناندار بها، لكنّ غضبَه على أيّ حال كان أقلّ من المرة السابقة فقد بردّ مقتلُ هيرمين القليلَ من ناره.

جاهد (باسل) نفسَه كثيرًا حتّى رسمَ شبه ابتسامة على وجهه وهو يقول: "أفضلُ منك أيّها الحقير". صفعه أحدُ الجنديّين لكن أناندار أشارَ إليه بالهدوء

ثمّ سأل (باسل) بحزم: "قل لي أولًا.. هل قتلت هيرمين؟" نظرَ له باسل بدهشة قائلًا: "هل تتوقع إجابةً صادقة على هذا السؤال؟". فقال أناندار بابتسامة واثقة: "طبعًا، أنا أفهم الرّجال، أنت بالذات لو قتلتها ستقولُ ذلك في وجهي، وستهددني بأنني سأنال المصير نفسه".

"معَ الأسف لم أنلْ هذا الشرف". قالها باسل وهو ينظر له بتحدّ ثمّ أكمل: "لكنّني أعدك أنْ أقتلك أنت، ولن يكون بالسّم فأنا لست جبانًا؛ سوف أنتزع حنجرتك من عنقك الغليظ هذا وأنا أنظرُ في عينيك". مطّ أناندار شفتيه كأنه لم يسمع تهديد باسل، قام مِن مكانه وفتح أحدَ أدراج مكتبه وأخرج منه مسدسًا عتيقًا، ثمّ تأكد من أنّه محشوّ أمام عيني باسل. وجّه فوهة المسدس نحو رأسه وقال له: "تريد قتلي ومعكَ كلّ الحق، فأنا مدين لك بروح، وعليه..." لم يكمل جملته بل ضغطَ الزناد فدوّت فرقعة عالية وتصاعدَ دخانٌ من المسدس وانقبضت ملامحُ باسل بشكل تلقائي ثمّ دوّت ضحكة أناندار وهو يقول: "أنا الآن أحييتك، ولهذا فحسابُنا خالص؛ روحٌ بروح.. ما رأيك؟".

نظرَ له باسل بغضب وأنفاسُه متلاحقة من فرط الانفعال، ثمّ تمالك نفسه وقال: "هل تمزحُ معي.. سوف أقتلك لو كان هذا آخرَ ما أفعله في حياتي". أخذ أناندار نفسًا عميقًا وقامَ من كرسيه وتمشّى بهدوء في الغرفة إلى أن وقف جوار مساعدتِه، ثمّ وضع يدَه على كتفها وقال لها: "شاودريك، هل تحفظين حكاية الملك العظيم دريك". ابتسمتْ مساعدته بارتباك وردّت: "كلّنا نحفظها يا سيدي منذ الصغر إنّه في اسمي واسم الكثيرين رجالًا ونساءًا، إنّ حفظَها واجبٌ من ماجوها". ضرب أناندار بيدِه على كتفها وقال: "احكي لباسل قصته".

اعتدلت شاودريك في وقفتها كأنّها ستلقي موعظة دينية، كانت نحيفة القوام، ممشوقة رغم قصرها، وكانت ملامحُها عريضة خشنة كبقية النياندرتال، إلّا أن شعرَها كان ناعمًا طويلًا، أخذت تحكي قصةً طويلة عن ملك كان يعيش قبل عشرة آلافِ عام، وحّد الشعوب الأديتية، واستطاع أن ينشرَ العدل، وأنْ يجعل أديتيا كوكبًا مُزدهرًا يتكوّن من دولة واحدة فقط، دولة لا مكان فيها لفقير أو مظلوم، وظلّ يحكم خمسين عامًا حتّى انتهى حكمُه حين ضربَ الكوكبَ ثلاثة نيازك ضخمة قضت على أغلبِ السكان، ومنهم الملك. قضت النيازكُ على دولة الملك دريك وحضارته لكنها لم تطمسْ قصّته، فظلت حكاية تردّدها الأجيالُ المتوالية.

لم يفهم (باسل) ما علاقة تلك القصّة بما يحدث، ووجد أناندار ينظر له مبتسمًا ويقول: "ما لا تعرفه مساعدتي الجميلة، والكثيرُ من الناس، أنّ الملك دريك ارتكب مذابحَ في البداية لكي يستطيع توحيدَ الشعوب المتناحرة؛ بداية عهده كانت حافلة بالكثير من الأفعال المخجلة لكنّه في النهاية رفع أديتيا عاليًا، وجعل أهلها يعيشون في نعيم". بانَ الضيقُ على وجه شاودريك، وابتسم باسلُ في سخرية وقد فهم ما يرمي إليه أناندار بتلك القصّة، فاستفزّه قائلًا: "لكنه كان ملكًا وأنت مجرّدُ رجل عصابات".

اقتربَ منه أناندار متحدّثًا بحماس: "أنا رجل عصاباتٍ ومجنونٌ أمام الكثيرين، وهذه الصورة أنا أرسّخها في أذهانهم عمدًا، ولهذا عندما قبضت عليك أنتَ واللبنانيّين المقاومين خرجتُ عليكم بموكب مليء بالنساء شبه العرايا كما تصوّرون رجال العصابات في ثقافتكم". ابتعدَ عن باسل خطوات

قليلة ثمّ استند على مكتبه وأكمل وهو يلوّح بيديه كأنه على المسرح يؤدّي مشهدًا شكسبيريًّا: "أنا رجل له رؤية وحلمٌ كبير، وأديتيا الأرض هي حلمي، أريد أن أجعلها جنة يجسدها أهلُ الكوكبين، أنا أستطيع أن أكون ملكًا عادلًا مثل الملك دريك، وعندي من القوة والحكمة ما يساعدني على تحقيق حلمي، لكن لا بدّ من بعض التضحيات أولًا".

كان يتحدّث وشاودريك تستمعُ في خشوع واقتناع كسَا ملامحها، لكن باسل نظرَ إلى أناندار مستنكرًا وهو يقول: "أنت! هل تريد أن تحكمَ أديتيا وتنفصل عن حكومة بلدك بجيش المرتزقة هذا؟!.. ولو استطعت فعلَ ذلك فهل تتخيّل أن مجرمًا مثلَك يمكنه تحقيق العدل!".

ردّ عليه أناندار قائلًا: "اقرأ تاريخَ كوكبك وسترى آلاف المجرمين الذين فعلوا أكثرَ منّي بكثير ثمّ صاروا حكامًا تتحاكى الشعوبُ بعظمتهم". سأله باسل بتحدّ: "وما أدراك أنتَ بتاريخنا؟!". فضحك أناندار قائلًا: "أعرفه جيدًا، وأعرف العظماءَ فيه الذين قتلوا الآلاف، أعرف الإسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر، ونبوخذ نصر، والحجاج بن يوسف، وهارون الرشيد، وأعرف جنكيز خان، ونابليون، والملكة فيكتوريا، وهتلر، ومونتجومري وروزفلت، تصنفونهم في تاريخكم لطيبين وأشرار، لكنْ كلّهم يشتركون في شيء واحد". ابتسم باسل ساخرًا: "وما هو أيها الفيلسوف؟". فقال أناندار مُتجاهلًا سخريته: "جميعُهم قتلوا الآلاف من البشر من أجلِ هدفٍ وحيد؛ وهو رفعة دولتهم وشعبهم". فقال باسل وقد نفدَ صبره: "أنَت تبني أوهامًا على أوهام لتبرّر لنفسك فظائعك". لوّح أناندار بيده قائلًا: "دعك من ذلك النّقاش العقيم أنتَ نفسك كنت تبرّرُ أفعال الحكومة الأديتية وقتلك

للمقاومين لأنك كنت تظنّ أنّها دولةُ العدل التي تريد أن تحقّق فيها ما فشل أبوك في تحقيقه في مصر".

سأله باسل عنْ كيف عرف أباه، فقال أناندار إنّه فحص قصة حياته كاملة عندما طارده وذهبَ خلفه إلى كوكب أديتيا، وأنّ شجاعته جعلته يعجب به أكثر، وأنّه يريده معه، ثمّ أضاف: "اسمعْ يا باسل، حين أحكم أديتيا سأقسمها ستة أقاليم وسأجعلُك تحكم الإقليم الذي يضمّ القاهرة مسقطَ رأسك... أنا أجهّز من الآن لحكام وقادة يعملون معي، وأنت ستكون من أهمّهم".

هزّ (باسل) رأسه في تعجّب، ثمّ سأله: "دعك من هذا وقلْ لي كيف استطعتم الوصولَ إليَّ؟". ضحكَ أناندار ولم يجبْ ونظر لمساعدته، فقالت شاودريك: "زرعنا مادةَ تعقّب في جسدك عندما كنت عندنا من خلال القيود التفاعلية، وهذا بناء على أمرِ سيدي أناندار، فقد كان يخطّط لتركك تهرب". حوّل أناندار نظرَه لباسل منتظرًا ردَّه، فقال بتحدّ: "لن أعمل معك حتّى وإن كان الثمنُ حياتي، فأنا أعرف أنك لن تتركني أذهب بعدَ أن أطلعتني على خططك". ضحكَ أناندار ثمّ قال: "بل سأتركك تذهب، وسأعطيك الأمانَ أنت وابنك وميساء إنْ كانت تهمّك، أو أيّ امرأة تكون مكانها في حياتك، وأنا متأكد من أنك ستأتيني ذاتَ يوم لنحقق حلمًا مشتركًا بتحقيق السّعادة لكلّ مَن في أديتيا" ابتسم باسلُ ساخرًا ثمّ قال: "إذا صدقت أنّ الشيطان سيصير قطبًا صوفيًّا فسوف أصدقك".

***

٤١

في أحد المنتجعات المُستحدثة على شاطئ بحيرة قارون، جلست (ميْساء) على فرش قماشي زاهي الألوان على أرض خضراء يفصلها عن الماء شريط من الرّمالِ لا يزيد عرضُه عن عشرة أمتار. في نزهة على طراز نزهات القرن العشرين كانت تضع سلةَ طعام وترمسَ شاي وفواكه ومسليات، وأمامها يلعب أبوها وباسل كرةَ المضرب، وأمّها جالسة على الرمل تمسك (علاء) الذي يداعب المياه بقدميه الصغيرتين.

مرّت ستةُ أشهر على عودتها من مغامرتها القصيرة في أديتيا، والتي عوقبت بسببِها بخصم شهرٍ كامل من راتبها معَ استمرارها في العمل نظرًا لحرج المرحلة الحالية. كانت متقبّلة لذلك الجزاء بصدر رحْب فقد كان أخفّ الأضرار بعد أن توقّعت أن يقوموا بتخفيض رتبتها مثلًا، لكنّهم اعتبروا أنها اتخذت قرارًا جانبها التوفيق فيه فقط.

(باسل) خضعَ لتأنيب شديد، وأخبره القادة أنّه بسبب فعلته تلك فإنه لن يتمّ ضمّه للعمل بشكل نظامي، وإنّما كمتعاقدٍ يتمّ الاستعانة به فقط عند الحاجة، وتمّ تهديدُه بإلغاء العفو عنه إذا كرّر مثل هذه الأفعال المتهورة. ما عرفته بعد ذلك من أبيها أنّ السبب الرئيسي لتعنيف باسل هكذا كان شكوى سامر قائد المقاومين اللبنانيين من عدم تجاوب باسل معَ الأوامر ونظام القيادة المتبع.

الفترةُ التي تلت موت هيرمين شهدت بعضَ التغيرات لكنها لم تكن من ذلك النّوع الذي رجاه قادةُ المقاومة، خاصّة الأديتيين منهم. نشطت الدعاية الإعلامية الحكومية التي اتّهمت الثوارَ باختطاف هيرمين وتلفيق التهم لها ثمّ قتلها بعد ذلك، وفي كلّ يوم كان يذاع فيلمٌ قصير عن إنجازاتها وبطولتها ورباطة جأشها في مواجهة "المخربين"، ولم يصدّق مؤيّدو الحكومة الأديتية أنها هي العقل المدبر خلفَ تلك الفعلة الشنعاء.

كلّ ما فعلته محاكمة هيرمين ومحاولة فضْح جريمتها هي أنّها زادت المؤيّدين تأييدًا، وزادت الرافضين رفضًا، وأعطت لكلّ فريق حجة إضافية على موقفِه حسب الزاوية التي ينظر منها لنفس الحادثة. لم يتبع محاكمة هيرمين أي حدثٍ كبير غير قيام أناندار باغتيال اثنين من القضاة الذين حاكموها ومحاولة فاشلة لاغتيال ماندريك. أدّت تلك المحاولات لظهور شعبية جديدة لأناندار في صفوف المؤيّدين للحكومة. بعده حوادث الاغتيال، استطاع الثوارُ اكتشاف عميل له بين صفوفهم تمّ إعدامه مباشرة بدون محاكمة.

كانت (ميْساء) غارقةً في أفكارها قبل أن تنتبه حينَ ارتطمت كرة المضرب بها، ثمّ سمعت ضحكة من أبيها وهو يهتفُ بها: "هل ستظلّين جالسة هكذا طوال اليوم!". فقالت وهي تقذفُ الكرة له ثانية: "استمتع أنتَ باللعب مع صديقك الجديد". قالَ وهو يضحك ويضرب الكرة ثانية بمضربه اتّجاه باسل: "أنت الخير والبركة". استنشقتِ الهواء الصافي وملأت به صدرَها وهي تحاول أن تطرد عن رأسها التفكيرَ فيما هو قادم، وتستمتع باليوم الذي لم يتكرر في حياتها كثيرًا منذ الغزو.

رمى الرجلان مضربيْهما على الأرض، انضمّ عمر إلى زهرة وعلاء الصّغير، وتوجّه باسل إليها وعلى وجهِه ابتسامة عريضة. كانت ترى تغيرًا كبيرًا في روحِه منذ جاء إلى أبيها ذاتَ يوم واختلى به أكثرَ من ساعتين ثمّ خرجا يتكلمان ويتضاحكان كصديقين قديمين. لم يقصّ عليها باسل حكاية اختطاف أناندار له وما دارَ بينهما، ولم يقصّ عليها ما دار بينه وبين والدها، لكنّها حين سألته عن سرّ تقاربهما الأخير؛ قال لها إنّه طلب من أبيها أن يكون (علاء) في رعاية الأسرة، وأن يعتبرَ (علاء) حفيدَه، و(باسل) ولده، ولم يزد على ذلك.

جلسَ باسل إلى جوارها على الفرش نفسه، وفتح فمَه ليتكلم لكنه تلعثم. نظرتْ إليه متعجّبة، فهي لم تره خجولًا هكذا من قبل، لم يكن يبدو كباسل الذي تعرفه، بل كان أقربَ إلى فتى يحاول التقرب من زميلته في المدرسة. أسعدها ذلك الخاطرُ فقد تقاربَا الفترة السابقة كثيرًا بالتوازي مع تقاربه من أبويها، ولكن بطريقة تشبه تقاربَ صديقين من الرجال، ولذا كان جلوسُه متلعثمًا أمامها يحمل معنى جديدًا عنْ ذي قبل.

نظرَ إليها وحانت منه التفاتةٌ تجاه أبويها وكأنّه يطمئن أنهما لا يراقبانهما، ولحُسن حظّه كانا كعادتهما حين يجلسان معًا يتسامران كعشّاقٍ في مقتبل العشق. «لقد اختطفني أناندار لمدّة يوم ثمّ أطلق سراحي». قال بهدوء فاتّسعت عيناها في دهشةٍ وهي تسأله متى وكيف! فأجاب: «منذُ أربعة أشهر يوم أن قدّم بيانه عن وفاة شقيقته». شعرتْ بالضيق لأنه لم يخبرها من قبْل، لكنّ فضولها غلب عليها وأرادت أن تفهمَ منه ما حدث بالتفصيل، فكتمتْ ضيقها وسألته باهتمامٍ عن التفاصيل فقصّ عليها كلّ ما حدث.

«لم أخبرْ أحدًا إلّا عمّي عمر». أنهى كلامه بتلك الجُملة، فسألته: «متى أخبرتَه؟». فقال: «بعدَ عودتي مباشرة». كان ينظر إليها مترقبًا ردَّ فعلها خائفًا من إغضابها بعد أنْ صارت لديه رغبة حقيقية في أن يقترب منها أكثر، وأن ينقل العلاقة بينهما إلى خانةٍ أخرى غيرِ الصداقة. كانت جراحُه بعد وفاة كميردا قد كفت عنْه أذاها وآلامها، وتركت في قلبه فسحةً تسمح بسكنى امرأة أخرى، وكانت هي ميساء.

حينَ أطلق أناندار سراحَه وقع في دوّامة غريبة من الشك في كلّ شيء، الشكّ في نفسه ومبادئه، الشكّ في اتجاه الحق واتجاه الباطل، الشك في ماهية الخير والشرّ وأسباب تسمية الأشياء خيرًا أو شرًّا. لم يرَ أمامه في هذه اللحظة إنسانًا يستحقّ أن يتحدث معه، ويبوح بمكنون صدره إلّا (عمر). كان هو الوحيد الذي يرى باسلُ أنّه إنسانٌ نقيّ لم يتلوث بالأغراض الدنيئة أو الدسائس، كما أراد أيضًا باقترابه من (عمر) أن يجدَ لابنه مكانًا في أسرةٍ ترعاه وقتَ غيابه وتتبناه في حال موته.

جلسَ مع عمر وحكى له كلّ ما يثقلُ كاهله، بل إنّه ولدهشته بكى بين يديه، بكى امرأتَه القتيلة ومصيرَه المظلم وطفلَه المسكين الذي لا يجد من يرعاه. بكى نفسَه؛ بكى ندمًا على السنين التي قضاها سيفًا في يدِ نظام أكثر طغيانًا مما تخيل، وحسرة على عقله الشّرود الذي يبيح له أحيانًا أن يفكر في اعتناق الظلم دينًا ويسوق له مبرّراتٍ تقنعه بالانضمام لشخصٍ مجنون ومجرم كأناندار.

لم يبخلْ عمر عليه بالنّصح بل أعطاه حكمةَ ستين عامًا رأى فيها الكثير وقرأ أكثر. قال له إنّنا بشر، وإنّنا بطبيعتنا قد نخطئ في الحكم على الأشياء

ونخطئ بالتصرّف على أساس ذلك الحكم، لكن ما يميز الإنسانَ الخيّر أو كما قال "ابن الأصول" عنْ غيره هو ذلك القلق الذي يجعله يعيدُ النظر دومًا في أخلاقية أفعاله وصحّة مبرراتها، وذلك الندم الذي يعتريه حينَ يكتشف أنه أخطأ فيتوقف عن خطئه ولا يكرّره. كلّ ابن آدم خطّاء، لكنّ الإنسان ذا المعدن الطيب لو انزلقتْ قدمه للخطأ مرّة فإنّه يجدُ في نفسه ضميرًا متيقظًا يمنعه من تكرار الخطأ والتمادي نحو أخطاء أفدح، بينما صاحبُ الضمير الفاسد يختلق المبرراتِ مرّة تلو الأخرى حتّى يصل لمرحلةٍ من الخطأ يتوقف فيها عن التبرير لأنّه لم يعد بحاجة إليه.

قالَ له عمر إنّ دموعه تلك دليلٌ على أنه طيبٌ، أصيل المعدن، ثمّ أضاف: "أنتَ ابن أبيك، ومهما شردت عنْ طريق الصواب فإنك تعود، الناس معادن يا ولدي وأنتَ من معدن نفيس". فقال باسل: "اقبلني ولدًا لك، واعتبر (علاء) حفيدك، فهو لا أهلَ له إلّا أنا، لا أستطيع أن أتركَه في الأرض المحتلة فقد كان هناك من يتتبعه". رحّب عمرُ بطلبه يومها، واقترح عليه أن يقيمَ الطفل مع زهرة في بيتهم الصغير في المخيّم، وتستأجر له مربّية مصرية تعتني به. انتهى ذلك اللقاء وقد تغيّرت في نفس باسل أشياءُ كثيرة، وانفتحت في قلبه أبوابٌ كانت مغلقة من قبل.

مضتْ خمسة أشهر منذ ذلك اللقاء، وصار باسل واحدًا من العائلة. زهرة أيضًا صارت أكثرَ تقبلًا له، تعامله بودٍّ كأنّها أمّه، حتّى أنها سألت عمر ذات مرة إنْ كان الرجل قد ينوي الزواجَ من (ميْساء) ذات يوم، فقال لها عمر أنْ تؤجل التفكير في هذا إلى ما بعدَ حرب التحرير المزمعة. اليوم حين خرجوا في

نزهتهم تلك طلب باسلُ من عمر أنْ يسمح له بالتقرب من (ميْساء) تمهيدًا لطلب يدها، ابتسم عمر له متفهّمًا فهو يعرف أنّ ابنته قد ترفض فكرة الزواج من باسل إنْ هو تقدّم لأبيها رسميًّا قبل أن يفاتحها في شيء.

كان علاء الصغيرُ يحاول التملصَ من يد زهرة وهي تحاول إبقاءه، وهتفت بباسل قائلة: إنّ هذا الولد يبدو عنيدًا كأبيه. ضحك باسلُ وردّ على دعابتها ثمّ التفت إلى (ميْساء) وأخذَ نفسًا عميقًا ثمّ قال لها شيئًا عن جمال البحيرة فأمّنت على كلامه بابتسامةٍ رقيقة. سادَ الصمت دقيقة ثمّ فتح فمَه ليتكلم لكنه ارتبك فعاودَ السكوت فسألته ميساء: "باسل... لماذا أنت مُرتبك هكذا على غير عادتك!؟". ضحك بعصبية وهو يقول: "لستُ مرتبكًا لكنّني أشعر بإحساسٍ مختلف وأنا أجلس معك اليوم، أشعر أننا قريبان من بعضنا جدًّا".

نظرتْ له متأملة وهي تضيقُ عينيها كأنها تتفحصه؛ "هل استأذنت من أبي قبلَ أن تقول هذا الكلام؟". أدهشَه كلامها فسألها: "لم تقولين ذلك؟". فقالت: "حاستي السّادسة". ابتسم ولم يردّ، فعقدت حاجبيها وهي تقول: "أتعرف، أنا أحاول الاقترابَ منك منذ عرفتك، لكنّك حين قررت الاقترابَ من شخص في عائلتنا اقتربت من أبي بشكلٍ أثار غيرتي". ضحكَ فضحكت ثمّ استغرقا في الضحك لحظات قطعها بقوله: "تُعجبني جرأتك". فقالت ببساطة وهي تلوّح بيدها: "ليست جرأة أنْ أقول ما يرد بخاطري، لم تصفْني بالجرأة حين شتمتك وأنتَ توجّه سلاحًا لي وتصفني بالجرأة لأنّني أفصحتُ عن مشاعري، يا لحمق الرجال!".

ضحك وهو يهزّ رأسه متعجبًا من طريقتها، فقالت له: "هل حقًّا استأذنت من أبي؟". فهزّ رأسه موافقًا في خجل. فقالت إنّها مع أيّ رجل آخر كانت ستشعر بالغضب وتعنّفه، لكنّها معه لا تمانع في ذلك. حانت منها التفاتةٌ اتجاه والديها فوجدتْ أمّها تنظر نحوهما في فضول كأنّها تحاول أن تقرأ شفتيهما، فابتسمت ثمّ سألتْ (باسل): "هل أخبرك أحدٌ أنّنا سنعود إلى الأرض المحتلة نهاية الأسبوع ولن يسمحَ لنا بالخروج منها حتّى موعد الحرب؟". عقدَ حاجبيه مستغربًا ثمّ قال في استسلام: "بالطبع لا، فأنا مجرّد فردٍ عادي يا سيادة الملازم".

لم تلتفتْ لمزحته وقالت بجدية: "هل تريد أن تتزوّجني؟". نظر إليها بدهشة وهو يتأمّلها متسائلًا عن السبب الذي يجعلها مندفعة هكذا! تردّد للحظة قبل أن يجيبها لكنّه حسم تردّدَه بسرعة وقال: "نعم". فقالت: "لماذا؟ هل تريد أن تكون هناك امرأة في حياتك والسلام، أم لأنّك تراني مميزة أم لأنك تحبّني؟". ردّ عليها وهو يحك ذقنَه: "ما حكايتك اليوم تتكلَمين باندفاع غريب!". فأشارت بسبابتها محذرة وقالت: "أجبْ أسئلتي، أنا لست مجرّدَ فتاة تتحرّج من الحديث عما تريد، أجبني لماذا تريد الزّواج بي؟".

"أنتِ مميزة.. مميزة جدًّا". ابتسمت بزاوية فمِها وهي تقول: "أي أنك لا تحبّني!". فتحَ فمَه ليتكلم لكنها وضعت سبّابتها على شفتيه قبل أن ينطق قائلة: "لا يهمّ... مادمت معجبًا بي فستقع في حبّي بسهولة إذا كسرنا الحواجز بيننا، أنا أيضًا مُعجبة بك، مشدودة إليك جدًّا، ربّما لم أصل معك بعد لدرجة الحبّ التي كنت أحلم بوجودها مع الإنسان الذي سأتزوّجه، ولكن...."

أخذت نفسًا عميقًا ثمّ قالت: "قد أموتُ في الحرب القادمة فأكون فوّتّ على نفسي فرصة أن أجرب الزواج قبل أن أموت". ثمّ ضحكتْ بعصبية وأضافت: "وقد تموت أنتَ فأكون قد أضعت عريسًا في زمنٍ يندر فيه العرسان".

"أنتِ مجنونة!". قالها وهو يضحك وقد ملأه شعورٌ غامر نحوها فجأة فقالت له: "أنت لم تسمع الجنون بعد". نظر اتّجاه أبويها فوجدهما ينظران ناحية البحيرة فمدّ يدَه وأمسك يدها، وقال بحنوّ: "أريد أن أستزيد من جنونك يا ميساء، لا أعرف إنْ كنت ستصدقينني، لكنّ قلبي خفق لك بعنف منذُ رأيتك أول مرة، لم أرتبك أمام امرأةٍ مثلما أرتبك أمامك، أحيانًا كنت أشعرُ أنك تبادلينني نفسَ المشاعر، لكنني كنت أعودُ أقول لنفسي إنك لن تغفري لي ماضيّ المخزي... أنا أحبك يا ميساء، لست مجرّد فتاة تعجبني أو مناسبة للزواج، أنت كائنٌ مختلف، صهرتك ظروف استثنائية؛ بدأتْ منذ تعارف أبواك خارج كوكبنا واستمرّت بعد ذلك" صمت وكأنه يأخذ نفسه ليتمكّن من إكمال حديثه، وهي مُنصتة وعلى وجهها حمرةُ الخجل والانبهار، وفي عينيها دموعُ التأثر.. "ميساء، لست فقط فتاة جميلة العينين، عذبة القسمات موفورة الأنوثة، ولامقاتلة صلبة عنيدة وذكية فحسب، أنت اجتماع لصفات حلمت بها، ولم أتخيل أن أجدَها في امرأة، أنا أحبك ... والآن زيديني من جنونك ماذا كنت ستقولين؟"

”وهل هناك جنونٌ يقال بعد كلّ هذا.... أنا أيضًا أحبّك لكن كبريائي منعني من قولها قبلك“ قالت وهي تنظر ليدِه وتبتسم ثمّ أضافت: ”أمّا بالنسبة للجنون: أريد أنْ نتزوج الليلة؛ حربُنا كمقاومين ستبدأ منذ الأسبوع القادم لنحضر للحرب الكبرى، العمليات القادمة ستكون كلها عنيفة وبعضها انتحاري، أريد أن نتزوج قبل أن نخوضَ تلك العمليات“. أومأ برأسه موافقًا فابتسمتْ بفرحة، وأضافت وهي تتحاشى عينيه، وتتكلم بخجل لأوّل مرةٍ منذ عرفَها: ”لا أريد أن أموت عذراء فيطلقون عليَّ ألقابًا مثل عذراء الثورة وبتول المقاومة“. فضحكَ بصوت عال وهو يقول: ”اطمئني مِن هذه الناحية“.

***

القسمُ السّادس

معركةُ الدّرع المكسور

”لو يعلم الناسُ ما فعلناه من أجل النصر الذي يحتفلونَ به؛ لمَا بنوا هذا النصبَ التّذكاري من الصخور؛ بل من الرّؤوس المقطوعة والأطراف المبتورة والأحشاء المُنتزَعَة“

الملك العظيم دريك

٤٢

الأرضُ المحتلة (التي أسماها الغزاةُ بدولة أديتيا الأرض) كانت مفصولة عن ما يُحيط بها من العالم بحدودٍ معقّدة شديدة المناعة. كانت تلك الحدود عبارة عن أعمدةٍ يبلغ ارتفاعُ الواحد منها خمسة أمتار، ويبعد كلّ واحدٍ عن الآخر بخمسين مترًا، ويبثّ موجات قوية تشكّل مع موجات العمود المجاور حاجزًا لا يسمح بعبور أيّ جسم مادي- سواء كان إنسانًا أو حيوانًا أو حجرًا- كأنّه حاجز من الزجاج المقوَّى. كانت الفرصة الوحيدة لعبوره هي استخدامَ جهاز يفتح فجوة صغيرة تدوم عدّة ثوانٍ يمرّ من خلالها المقاومون ويهربون منها ما يريدون.

على مسافاتٍ متساوية تقدّر بكيلومتر تقريبًا كانت توجدُ نقاط حراسة صغيرة يقفُ فيها جنديان، ومزوّدان بمركبة سريعة وأسلحة بعضها أرضي يستخدم في حالة ما إذا قام أحدُهم بإطلاق قنبلة موجيّة تعطّل أجهزتهم وأسلحتهم المتقدمة. كلّ عدة كيلومترات كان يوجد خطّ الدفاع الأساسي عن تلك الحدود، مبانٍ مُحصّنة تبلغ مساحةُ الواحد منها فدانيْن على الأقل، مجهّزة بأطقم من المقاتلين المدربين ومركبات طائرة وعربات مدرّعة تقليدية تعمل بالوقود العادي.

كانت تلك الحصونُ مسلّحةً بمزيج من الأسلحة الأديتية الإلكترونية وأسلحة نارية تقليدية تعمل في وجودِ القنابل الموجية أيضًا، وعلى أسطح تلك المباني مدفعيّاتٌ تعمل بالذخيرة التقليدية لقصف أيّ أهداف متحركة

كانت أسلحة تنتمي لثمانينيّات القرن العشرين خالية تمامًا من أيّ تقنيات إلكترونية. كانت الحصون متواجدةً على مسافات تتراوح من خمسة إلى خمسة وعشرين كيلومترًا حسب أهمية المنطقة الحدودية ومدى انكشاف ما يحيط بها.

كان النياندرتال (الأديتيون) على وعي أنّ الأرضيين قد يستطيعون التوصل لقنابل موجيّة تعطّل قدراتهم الإلكترونية سواء بابتكارها وتصنيعها أو بشرائها من المهرّبين الأديتيين أو من المقاومين المناهضين للحكومة؛ فجهّزوا كلّ المقار الحدودية بأسلحةٍ عادية خفيفة وثقيلة، ودرّبوا رجالهم عليها بشكل جيد، كما استعانوا بمرتزقة أرضيين لتدريبِ رجالهم، وللقتال في صفوفهم أيضًا إذا لزم الأمر.

على مدار الشّهور الثلاثة السابقة للهجوم الشامل، كان هناك محاضرات وتدريباتٌ شبه يومية على كيفية اقتحام تلك المباني الحصينة والتعامل مع الموجودين فيها. كانت التدريبات تتمّ في داخل الأراضي المحتلة وخارجها؛ في مصر وسوريا وتركيا. كلّ ذلك كان المرحلةَ التحضيرية التي أطلقت عليها قوات التحالف اسمَ "معركة الدرع المكسور؟".

في تلك الأثناء، كانت هناك بعضُ العمليات ضدّ القوات المحتلة بالوتيرة المُعتادة؛ كمين هنا وتفخيخٌ هناك، وسرقة أجهزة ومعدات، كما كانت تتمّ بالضبط قبلَ الدخول في المرحلة التحضيرية. كان الغرضُ من تلك العمليات هو إشعار قادة الاحتلال أنّ هناك مقاومة نشطة كالمعتاد تقوم بعمليات لزعزعة استقرار الحكومة الأديتية حتّى لا يفطن القادةُ لوجود شيء غير طبيعي، وكذلك لزيادةِ الإمدادات من المعدّات الأديتية التي يتمّ النجاح في سرقتها.

قبلَ بدء "معركة الدرع المكسور" بيوم واحد، كانت هناك محاضرات توجيهيّة في كلّ مقارّ المقاومة. في إحداها، وقف العقيد عماد يعيد شرح تفاصيل الخطّة على أذهان الحاضرين. كانت المجموعةُ الموجودة تجلس في مقدمتها (ميْساء) إلى جوار المقدم (إياد)، ومجموعة أخرى من ضباط المخابرات وخلفهم نحوَ ثلاثين من الأفراد المشاركين معهم.

كانت أمامَه شاشة فراغية عليها خريطة لجنوب القاهرة، وبدأ يشرح للفرقة مهمّتها بالضبط؛ "ستقوم فرقتنا بالهجوم في تمام الثالثة فجرًا على النقطة رقم ٣ وهي الموجودة غرب النيل مباشرة هنا". قال شارحًا وأشارَ على نقطة في الخريطة كانت جزءًا من كورنيش المعادي قبلَ الغزو ثمّ أكمل: "ستنقسمون إلى ثلاثِ مجموعات، ستهاجم مجموعتان من البرّ شمالًا وغربًا، بينما ستهجم المجموعة الثالثة من النيل بعدَ قيامها بالغطس مسافة قصيرة".

ضغطَ على الشاشة الفراغية فظهرَ مخطّط المبنى، ومضى شارحًا أماكن الاقتحام وكيفيته وهي نقاطٌ معادة، لكنه أضاف في كلّ نقطة تنبيهًا بالخطط البديلة في حال حدوث طارئ: "كما تعلمون سيكون هناك فرقٌ مثلكم على طول الحدود ستقوم بمهاجمة كلّ تلك المباني الحصينة في التوقيت نفسِه من الإسكندرية في مصر وحتى إزمير في تركيا".

عدّل المشهد في الشاشة، وظهرتْ خريطة للحدود ثمّ أضاف: "بعد سيطرة فرقِكم على المباني الحصينة ستكون القواتُ جاهزة لاقتحام الحدود بعد خمسين دقيقة من بدْء عمليتكم، سيبدأ الاقتحامُ بإطلاق قنابل موجية

متزامنة على طول الحدود بعدَها تقتحم قواتُ المشاة والمدرعات، ولن يكون هناك إمكانية للسلاح الجوي في تلك المرحلة كما تعلمون".

سألَ أحدُ الحاضرين قائلًا: "سيدي، ماذا لو لم نتمكّن من السيطرة على المبنى الحصينِ بأكمله في ذلك الوقت القصير!؟". فأجاب العقيد: "سيؤخّر ذلك تقدم القوات التي ستعبرُ في نطاقكم، وسوف تقوم الدباباتُ بقصف المبنى بعنف حتّى تسقط دفاعاته، ثمّ تتوجّه إلى خطتها المرسومة ولكن متأخرة.. قد يكون هناك بعض الخسائر في صفوفها وقد تكونونَ أنتم أيضًا في مرمى نيران قواتنا". فسأل ثانية: "وما اتّجاهُ القوات التي ستعبر من نطاقنا؟". مطّ العقيد شفتيه وقال بحزم: "لا يهمك أنْ تعرف إلّا الجزء الموكّل إليك... هذه حربٌ عالمية ستشترك فيها قوات من عشرينَ دولة، ستهاجم من البرّ والبحر، ويجب على كلّ فردٍ يشارك فيها تنفيذ مهمّته بدقة، وعدمُ شغل رأسِه بمهمة غيره".

أنهى جملتَه وأطفأ الشاشة المجاورة له، وقال: "لقد انتهى الجزء التخطيطي من هذه المحاضرة". صمت وجالَ بيعينيه في عيونهم ثمّ قال "ما سأقوله الآن هو كلامٌ من قلبي لكم". بدَا التأثر على وجهه وهو ما أثار دهشة وترقب أكثرهم "حين كنتُ صغيرًا كانوا يدرسون لنا حربَ أكتوبر، والمانع المستحيل الذي عبره جنودنا في ذلك اليوم، كان اسمُه خطّ بارليف، وكانت نقاطه الحصينة كالوحوش الرابضة، يظنّ الناس أنْ لا أحد يمكنه أن يؤذيها، الآنَ وأنا أكلمكم أستشعر تلك الأجواء بشدة، أجواء حربٍ تبدأ باقتحام مانعٍ أجمعَ الكل على استحالة اقتحامه". تأمل وجوههم ليرى أثرَ كلامه عليهم وأكمل: "أعلمُ أنّ الزمن تغير، وأنّ الحرب مختلفة تمامًا، لكن المبدأ واحد،

وهو أننا سنعبرُ مانعًا رغم اختلاف طبيعته... جدودكم منذ سبعين عامًا فعلوها وكانوا متسلّحين بإيمانهم أكثرَ من ما كانوا متسلحين ببنادقهم".

سرتْ همهماتٌ متحمّسة بينهم، فابتسم وهو يضيف: "المفارقةُ الغريبة أننا سنلجأ في موجةِ الهجوم الأولى إلى أسلحةٍ عتيقة تشبه تلك التي كانت تستخدم أيامها لأنّنا نحتاج إلى كلّ ما هو لا يعتمدُ على التكنولوجيا الحديثة، والمفارقة الأغرب أنّ مَن كنّا نحاربهم في القرن الماضي يحاربون معنا اليوم في الخندق نفسه، مهمتكم أخطرُ ما في معركة الدّرع المكسور؛ هي مفصل نجاحها والعالم كله يعتمد عليكم... أنتُم تحاربون باسْم وطنكم مصر، وباسْم البشرية كلها، وباسْم الحق والعدالة".

صمتَ فعمّ المكان سكونٌ مهيب، وخطرَ لميساء أنّ الوقت مناسب جدًّا لتصفيقٍ حادّ لولا أنّه لا يجوز في تلك المقارّ فعلُ ذلك. كانت دومًا تشعر أن مثل تلك الخطب الحماسية تخلو من الإحساس الحقيقي، وإنّما مجرد كلمات يبثها ليحمس مستمعيه دونَ أن يكون لها أصلٌ في قلبه. في هذا اليوم أحسّت أن الكلمات تهزها، تخترقُ كيانها وتسري تحتَ جلدها فتنشرُ فيه قشعريرة توقف الشعراتِ الخفيفة النّابتة عليه في كلّ مكان.

بعدَ المحاضرة صرفهم القائدُ ليستعدّ كلّ منهم لمهمته، يراجع معداته وأسلحته، ويأخذ قسطًا من الراحة، ويتناول وجبةً خفيفة قبل الانطلاق نحو الهدف. جلستْ (ميْساء) تراجع معداتها؛ الزيّ المدرع الأديتي بكامل إمكانياته، جهاز المعصم المعدّ للتشويش على الطائرات الدقيقة بطريقة لا يكتشفها من يجلس في غرفة التحكم فيها، السلاح الأديتي الذي يُرتدَى في

قبضة اليدِ والذي تمقته، قذائف تعطيل الدّروع، وأخيرًا مسدسان عاديّان، وذخيرة، وسكين، وعلبتا طعام مجفف.

فردَتْ جسدها على الفراش الصغير المعدّ لها، وأخذت تفرك خاتم زواجها وهي تحاول أن تصرفَ ذهنها عن التفكير في (باسل)، وعنْ صبّ لعناتها على القادة الذين لم يسمحوا لهما بالاشتراك في مجموعة واحدة، وحتى لم يسمحوا لأحدِهما بمعرفة المجموعة التي سيلتحقُ بها زوجه وكأنّهم كانوا ضدّ فكرة زواجهم من الأساس.

لم تهنأ فعليًّا بزواجها إلّا مدّة لأسبوع الذي تلَى قرارهما بالزواج. أظهر أبوها تبرّمًا في البداية بطريقةِ قبولها لهذا الزواج رغمَ رغبته فيه، وأصيبت أمّها بخيبة أملٍ فقد كانت تتمنّى أن يستعدوا لزفاف ابنتها الوحيدة بشكل أفضل، لكن ما أرادته (ميْساء) تمّ، وعقد قرانها على باسل في ذات اليوم. سافرَا في اليوم التالي إلى العين السّخنة، وتركا (علاء) مع والديها، ومكثا خمسة أيام كانت أجملَ في قلبها من أن توصَف. اتفقا منذُ اللحظة الأولى على ألّا يكون هناك حملٌ في تلك الفترة وبدأت في تناولِ أقراص لهذا الغرض. بعدَ تلك الإجازة الصغيرة عادا إلى الأرض المحتلة وضُمَّ (باسل) لمجموعة مختلفة، وصارت لقاءاتهما متباعدةً، في العادة ساعات قصيرة لكنّها تعوض الكثيرَ من حنين البعد.

ابتسمتْ وهي تتذكر اليومَ الذي دبّر لهما ماندريك فيه رحلة قصيرة إلى كوكبِ أديتيا في جزيرة تخضعُ بالكامل لرجال المقاومة. قضتْ أسابيع قبلها في محاولةِ إقناعه بإرسالها هي وباسل ليقضيَا أسبوعًا هناك، وتوسّلت إليه

بكل السبل. حينَ تحجّج لها بأنها من المستحيل أن تغيبَ أسبوعًا عن الأرض دون أن يلاحظ أحد، طلبتْ منه أن يعيدَهما بطريقة تعيدهما لنفس اليوم الذي انتقلا فيه كما فعل المقاومون معَ أبويها قديمًا. قال يومها: "هذه فكرةٌ مستحيلة، ما حدث مع أبويك كان باستخدام جهازٍ معدّل ابتكره مهندسٌ عبقري، وللأسف احترق ذلك الجهازُ في أثناء عودةٍ أبيك، وقُتل هذا المهندس يومَها على يد رجال أناندار الكبير، ولم يستطع أحدٌ أن يكرّر تلك التجربة".

بعدَ إلحاح شديد وافقَ ماندريك على إرسالهما ليومين اثنين دون أن يعرف أيّ شخص، وبالفعل تحقّق حلمها وقضت مع (باسل) هناك يومين في الجو الذي حلمتْ به كثيرًا منذُ صغرها حين كانت تقصّ عليها أمها جمال المكان هناك.

أخذتْ نفسًا عميقًا وأطفأتِ الضوءَ وحاولت أن تنام. بدأت عيناها تغفوان ويصبح فتحهما عسيرًا توطئةً للاستغراق في النوم، وبدأت تتوارد الخواطر المهزوزةُ عن الغد، وما ينتظرها فيه، لكنْ قبل أن يسبح عقلها في بحرِ النوم نبّهتها طرقاتٌ خفيفة على باب غرفتها، فاعتدلت وقالت: "مَن بالبَاب؟". لكنّ الطارق لم ينتظرْ وفتحَ الباب مرّة واحدة.

اتّسعت عيناها بذهول غيرَ مصدقة لتلك المفاجأة، فهناك على بابها كان (باسل) واقفًا، وعلى وجهه ابتسامة عريضة. قالت وهي لم تفقْ من المفاجأة بعد: "باسل.. كيف جئت إلى..." لم تكمل جُملتها فقد قاطعها حين لثمَ شفتيها ومنعها من إكمالِ الحديث. أبعدَ وجهه عنها ونظرَ إليها بشوق جارف، فحاولت أن تكمل تساؤلها لكنّه قاطعها مرّة أخرى بقُبْلة ملهوفة غامرة، وضمّة قوية أفرغ فيها الكثيرَ من وجْده وشوقه.

أبعدتْه عنها برفق، وغلّقت الأبوابَ ثمّ قالت كأنها تذكّرت شيئًا مُهمًّا: "أنا لم أتناولِ الأقراص منذ أسبوع". فقال لها: "لم نعدْ نحتاجها، الحرب بعدَ ساعات دعينا إنْ نجونا منها نعش ثلاثة لا اثنين".

نظرتْ له وقد فاجأها كلامُه وملأها بسعادة لم تتوقّعها، ثمّ استسلمت للحظتها معه مؤجّلة تساؤلاتها عن كيف ومتى جاء. خلعت عنها رداءَ المقاتلة الجادة وارتدت جلدَ العاشقة وارتمتْ معه في حضنِ نشوة عارمة بدأها هو وأكملتها هي وكأنهما عازفان منفردان يشدّ أحدهما قوسَ كمانه فيفلتُ الآخر وترَ عوده، جواب منه وقرار منها، ثمّ جوابٌ منها وقرار منه، حتّى انتهتِ السّوناتا التي يعزفانِها بنغمة مرتفعة سادَ بعدها صمتٌ قصير لا يسمع فيه إلّا أنفاسهما.

دفنتْ رأسها في صدره وهي تتساءل بصوتٍ خفيض: "كيف جئت إلى هنا؟!". نظرَ إليها مبتسمًا ومسحَ بعينيه على وجهها متأملًا عينيها كأنه يراهما لأول مرّة، ثمّ قبّلها على جبينها وأخذَ نفسًا عميقًا دون أن يتكلم. فقالت له بإلحاح: "ألن تخبرني كيف جئت هنا؟". لم يجبْه،ا لدرجة أنّها قالت: "أنا أحلم.. أليس كذلك؟!". داعبها بيدِه بطريقة عابثة وهو يقول: "ها... هل تحلمين.. أعتقد أن هذه طريقة للتأكّد أفضل من القرص". ردّت عليه وهي تجعد أنفها وما بين عينيها كأنها تتغلب على الرّعشة الجذلة التي عمّت جسدَها قائلة: "كفَّ عن هذا وأجبني". داعبها ثانية فتنهّدت وجذبته من رأسه، ثمّ غابا ثانية في سوناتا جديدة.

”بقي ساعتان على موعدِ الانطلاق“ قالت له ثم زفرت بحنق وكأن انقضاء الوقت يخنقها. نظر إليها وسألها: ”هل مازلت تريدينَ معرفة كيفية مجيئي؟“. فهزّت رأسَها بالإيجاب دون أن تتكلم، فقال: ”لقد وسّطت أباك وماندريك وقائدَ مجموعتي الذي أنقذت حياتَه في آخر مهمة لكي يحصلوا لي على موافقة، وفي النهاية وافقوا أنْ أكون معك، وحجّتي هو أننا لو كنّا معًا فلن نتشتّت ذهنيًّا كما لو كنّا بعيدين“. ابتسمت وقبّلت خدّه ثمّ قالت وهي تقوم: ”ووافقوا بسهولة؟“. فأجاب: ”لم يقتنع القائدُ إلّا بعد أن سألني عن ما سيحدث لو مات أحدُنا بين يدي الآخر، فقلت له سيتحوّل الآخر إلى وحشٍ يلتهم أعداءه كما كان يحدُث في الأفلام القديمة“.

انقبضَ قلبُها لمجرّد ذكر تلك الفكرة، ولم تعرف السببَ هل كان خوفها عليه أم خوفها من الموت، قالت وهي تعيدُ دفن رأسها في صدْره ملتمسة أمانًا إضافيًّا: ”أتعرف.. أنا لا أخشى من موتي قدرَ ما أخشى عليك من صدمتك لفقْد زوجتك بين يديْك للمرّة الثانية“. عقدَ بين حاجبيه وهو ينظر إليها متأملًا قبل أن يقول: ”لو فقدتك فسألقي بنفسي وسطَهم حتّى أموت وأنا أقتلهم“. فقالتْ وهي تلوّح بيديها له أن يكفّ عنْ تلك الخواطر السوداء: ”الله خيرٌ حافظًا.. لو سمعتنا أمّي الآن ونحن نتحدث لتشاءمت ومنعتني من القتال“.

***

٤٣

لم يشعرْ ماندريك في حياته بثقلِ أنفاسه كما كان يشعر في ذلك اليوم. كان يجلسُ متأملًا الجنودَ اليافعين وهُم يستعدون، يروحون ويجيئون، يمرحون ويصْخبون، يقطعون صخبهم حين يمرّ عليهم ضابطٌ برتبة كبير، وما إن يختفي من أمام عيونهم حتّى يعود الصخبُ من جديد. كان يراقب من مكانه الدبابات تصطفّ، والعربات تتكدس، وهو بدلًا من أن يكون مثلَهم شاعرًا بذلك الحماس المتوتر، كان يشعرُ بضيق وقلقٍ يحاول أن يعرف سببًا له غير رائحة احتراق البنزين الخانقة التي لم يعتدْها من قبل.

أخذَ يقلّب خبايا نفسه كمَن يبحث بين الأنقاض عن آثار العبوة الناسفة التي هدمت بيتَ اليقين والطمأنينة الذي كان يعيش فيه. تساءل إن كان السبب ذلك القرار المؤلم الذي اتّخذه منذ شهور وتركَه جريحًا بنصلٍ اسْتلّه هو بنفسه. هيرمين ماتت بيدِه هو، زرعَ كبسولة سامّة تحت جلدها حين كانت مخدّرة حتّى تكون وسيلته لتنفيذ العدالة في حال فشلِ القضاة في إدانتها. عيّن نفسَه قاضيًا لأنها اعترفت له بجريمتِها، رأى أنها لاَ يمكنُ أن تفلت من العقاب بعدَ جريمة بتلك البشاعة، ولأنه يعلمُ أنّ منافسيه في قيادة المقاومة الأديتية سيقولون إنّه هو من جعلها تفلت من القصاص لأنّها حبيبته القديمة.

الوحيدُ الذي علمَ بقراره كان (باسل)؛ رأى أنّ من حقّ الرجل أن يشفي غليله، خاصّة أنّه أثبت شجاعةً استثنائية في طلب الثأر، وهو أمرٌ يعتبر مفخرة في أديتيا، والحقّ أنّ (باسل) صانَ السّر كما يجب أن يصان.

"بالتأكيد ليس هذا هو السبب في شعوري بالضيق الآن" قال لنفسه؛ هذا الحدثُ أخذ وقته من التفكير، مرّ بمراحل الندم والألم والتبرير والشرعنة والشيطنة، مرّ بلحظات الحنين الجارف لَمَن كانت تسكنه يومًا، وأنهى حياتها بيديه. ترددت على مدار الشهور السابقة صرخاتٌ في نفسه تخبره أنّه قتلها لأنها لو عاشت في سجنٍ فستظلّ جرحًا حاضرًا أمامه، قد يجبرُه ألمه على فعل أشياء لا تليق به كأن يزورَها في سجنها ويجدّد ما بينهما أو يضعف يومًا ما ويخون نفسه ويساعد في تهريبِها من السجن. كانت لو عاشتْ ستكون نقطة ضعفٍ خطيرة قد تقضي على آمالِه وطموحاته التي تراوده عنْ نفسه دومًا ولا يبوح بها لأحد؛ طموحات تراود أي ثائر في الجلوس على كرسي مَن يثور عليهم. تقول الصرخات له بكلّ وضوح: "لم تقتلْها قصاصًا ولا عقابًا؛ بل قتلتها من أجل نفسِك فقط، قتلتها لأنّك أجبن من أن تواجهها".

عادَ يتساءل؛ هل يعقل أن تكون تلك الهواجسُ هي سببَ انقباض روحه وضيقِ صدره، هل تنتقم منه روحُ هيرمين وتزوره في هذا الوقت الحرج قبل بدء حربٍ شاملة! قطع سيلَ أفكاره هديرُ مركبة مرتفع وسحابة من الدخان خرجت من ماسورةِ عادمها، وغمرت وجهَه وجعلته يسعل ويسبّ قائدها بلغته الأديتية ثمّ يقوم من مكانه ويتّجه إلى الحمّامات ليغسل وجهه وعينيه من أثر الدخان.

عادَ إلى جلسته بعد قليل، وعاد يسأل نفسَه ثانية ويقلب الأنقاض باحثًا عن سببِ انقباضه وقلقه. منظرُه هو والأديتيين من المقاومة، وهُم داخلون للمعركة على دبابات الأرضيين وبين صفوفهم؛، يثير التساؤل عن حقيقة ما يفعلونه؛

عن جدواه وعنْ أخلاقيته. حين قاوموا جنبًا إلى جنب مع الأرضيين في الداخل لم يساورهم الشكّ في نبْل ما يفعلون، لكنِ اليوم، واليومُ بالذات، هُم جزءٌ من جيوش نظامية ليس على لسانِ جنودها وقادتها من شعارٍ غير محْو النياندرتال.

تجنّب الجنود الأرضيون بالطبع استخدامَ هذه الكلمة في وجود الأديتيين لكنها كانتْ تصل إلى مسامعهم حين كان الجنودُ يتحدّثون أو يمزحون غير منتبهين لوجود واحدٍ من الأديتيين على مقْربة. منحَه ذلك شعورًا بأنّ هؤلاء لن يعاملوا مواطني أديتيا بأدنى قدرٍ من العدالة بعد أن تصير الغلبة لهم.

كان خوفُه يزداد من احتمال أن تتصاعدَ العنصرية بقوة بعد التحرير وتبيح للأرضيّين فعلَ الفظائع في المسالمين من أبناء وطنه. الأديتيون العاديون الذين صدّقوا قادتهم وكهنتهم وهاجروا للأرضِ بحثًا عن غدٍ أفضل أو طاعة لأمر ديني. كان يتساءل عنْ مصيرهم، هل لو تمّ النصرُ سيصبرون على الأديتيين حتّى يتمّ إعادتُهم إلى الكوكب، أم سيعملون فيهم القتلَ والاستعباد كما يقول بعض المتطرفين على الإنترنت؟!.

وقفَ أمامَه فجأة أحدُ الجنود المصريين منتصبًا مؤدّيًا التحية العسكرية التي مازالت تثير استغرابَه: "سيادة اللواء عادل يودّ مقابلتك يا سيدي.. هل تفضلت بمرافقتي؟". هزّ رأسَه بالإيجاب ثمّ قام وسارَ مع الجندي إلى غرفة من تلك التي تُبنى بشكلٍ مؤقت في المواقع العسكرية. وقف الجندي على الباب دون أن يدخل وهو يشدّ قامته ويضمّ قدميْه مشيرًا إليه بأدبٍ ليدخل هو.

استقبلَه اللواء عادل بحرارة، ثمّ أجلسه أمامه فحيّاه ماندريك: "يوم سعيد أيها العزيز اللواء". فابتسمَ اللواء وقال له: "ولك أيضًا أيها العزيز ماندريك"، ثمّ أكمل مازحًا: "ألا يوجد لديكم رتبٌ عسكرية.. مثلك يعتبر عميدًا أو لواء أيضًا؟". فردّ ماندريك مبتسمًا: "هناك في العمل الرسمي بالطبع، هناك درجاتٌ وظيفية في وطننا لكنّنا مقاومون خارجَ هيكل الدولة". هزّ الرجل رأسه متفهمًا وقال: "نعم لكنكم أناس نبلاء، وتستحقّون أن تحكموا بلادكم لتطبقوا العدل".

لم يردّ ماندريك ونظرَ للرجل منتظرًا أن يحدثه في سبب مقابلته. كان كلاهما يرتدي الزيّ العسكري المموّه نفسه، وإن زيّنت كتفُ اللواء رتبته العسكرية وخلا كتفُ ماندريك منها، لكن كان مكتوبًا على صدر زيّه عبارة "قوات صديقة" وأسفلها كتب اسمُه، وشعار ماجوها مصغّرًا.

قال اللواء عادل وهو ينظر في عيني ماندريك: "سوف تبدأ عملية الدرع المكسور بعد ساعات، وأريد أن أطمئنّ على معنويات رجالك". مطّ ماندريك شفتيه العريضتين وقال وهو ينظرُ للّواء في عينيه بدوره: "هل لديك أسبابٌ لهذا السؤال؟". فأشاحَ الرجل بعينه وقال وهو يهزّ رأسه نافيًا: "كلّا بالطبع، لكنّه سؤال روتيني فأنتم معنا في خندقٍ واحد ضدّ حكومتكم، وهذا كفيل بهزّ معنويات الكثيرين".

اعتدلَ ماندريك في مقعده وقال بهدوء حازم: "رجالي بالأساس يقاتلون من أجل وطنهم، ومن أجل شعبهم المقهور، والانتصارُ في تلك الحرب هو خطوة أَساسيةٌ في إسقاط النظام الفاسد الذي يخدم أقليةً على حساب الأغلبية،

ولذلك لا تخشَ شيئًا. نحن لسنا ملائكة لنقاتل من أجلكم، وإنما نتحالفُ معكم من أجل خير شعبينا".

هزّ الرجل رأسَه متفهمًا فأكمل ماندريك: "لكنني أودّ منك أن تلفت نظر رجالك لتلك الحقيقة، أعني حقيقة أنّنا نتعاون لصالح شعبينا، فبعضهم يغفل عنها ويتحدّث عن قومنا بطريقةٍ مقلقة فيها الكثيرُ من الكراهية والعنصرية". فقال اللواء مُنزعجًا: "هذا غيرُ مسموح تمامًا، وأرجو منك إذا اكتشفتَ أيّ فردٍ يقول شيئًا مخالفًا أن تبلغني فورًا وسأتّخذ ضدّه إجراء قاسيًا".

وقفَ ماندريك استعدادًا للانصراف، فوقف اللواء بدوره ليودعه، شدّ ماندريك على يديه وهو يصافحه قائلًا: "أعلم أنّنا اتفقنا مع القادة السياسيين على عدم المَساس بمواطنينا وإعطائنا مهلة بعدَ أن ننتصر كي..." قاطعه اللواء قائلًا: "إن شاء الله". فقطّب ماندريك حاجبيه مستفهمًا، فقال اللواء: "بعد أن ننتصر إن شاء الله، نحن نحبّ تقديم مشيئة الله". هزّ ماندريك كتفيه غير مكترث وأكمل قائلًا: "اتفقنا كما تعلمُ على مهلة تكفي لإعادة مواطنينا لكوكبِ أديتيا لا تقلّ عن ستة أشهر". هزّ اللواء رأسَه موافقًا فأكمل ماندريك: "أنا أعلم أنكم ستلتزمون بها، لكن الجنود على الأرض قد تغمرهم الحماسة، ويقدمون على حماقاتٍ من تلقاء أنفسهم ولذلك فإنني أعتمدُ على القادة الميدانيّين مثلك في السيطرة عليهم".

ابتسمَ اللواء عادل مطمْئنًا وقال: "وأتمنى أيضًا أن يوفّي قادة المقاومة بوعدِهم ويفعلون تلك الأداة التي تزعمون أنها لديكم، والتي ستغلق الصدع الكوني الذي يسمح بالانتقال بين كوكبينا لنتجنّب تكرار هذا الغزو مستقبلًا".

هز ماندريك رأسَه مطمْئنًا فاستطردَ اللواء: "ستفعلونها سواء سيطرتم على الحكم أم لا، أليس كذلك؟". فردّ ماندريك بحسم: "بالطبع أيها العزيز، هذا هدفٌ أصيل لثورتنا سنلتزم باتفاقنا طالما التزمتُم أنتم"، ثمّ أكمل وهو ينهض مصافحًا اللواء: "لنا لقاءٌ آخر بعد أنْ نعبر للأرض المحتلة"، ثمّ استدرك قائلًا وهو يبتسم: "إن شاء الله".

انصرفَ إلى مكانه لكنّه فكّر أولًا في المرور على رجاله لطمأنتهم والشد من أزْرهم. كانت العمليات التي خاضوها معًا من قبل قد أعطتهم خبرات كبيرة في التعامل مع المواقف الصعبة كافّة على مدار ما يقارب العشر سنوات، لكن كانت بأسلوبِ حربِ العصابات، وهو أسلوبٌ مختلف عن الحرب النظامية التي هم على وشكِ خوضها، كما أنّهم سيكونون تحت قيادة صارمة لا تسمح لهم بالارتجال المعتاد.

بقيتْ ساعة واحدة على بدْء المهمة التحضيرية لتعطيل النقاط الحصينة على الحدود (تلك العملية التي يشارك فيها باسل وميساء) والتي سيبدأ بعدها مباشرة توجّه القوات التي يشارك معها إلى المنطقة الحدودية. سيبدؤون فور وصولهم للجدار الحدودي بتفجيرِ أعدادٍ كبيرة من القنابل الموجية التي ستعطل ذلك الجدار وتسمحُ للقوات بالعبور، وتعطيهم ميزةَ المفاجأة التي ستصدم القادة الأديتيين بلا شك.

كانت كلّ المعدات التي تمّ تجهيزُها لمعركة اليوم معدات عتيقة، وقد تمّ تعديلُ الحديث منها لجعلها تعملُ ميكانيكيًّا وهيدروليكيًّا، بعيدًا عن أي تكنولوجيا تستخدم الكهرباء والإلكترونات، فتعطيهم تلك الميزة تفوقًا

كبيرًا على القوات الأديتية. كانت مهمّته التالية هو ورجاله هي تحديدَ النقاط التي سيتم فيها استخدام القنابل الموجية للمرة الثانية بعد أنْ تعبر القواتُ المدى المؤثر للدفعة الأولى من القنابل.

بعدَ أن أنهى حديثه مع رجاله وطمأنهم على الترتيبات والاتفاقيات أدرك ما سببُ ضيقه أخيرًا. كانت خطّة الهجوم مثالية وتغطي احتمالات كثيرة وتأخذ في الحسبان كلّ الخطط الدفاعية لدى الحكومة الأديتية، لكنّ المفاجآت دومًا واردة. هل يمكن أن يكونوا قد استعدّوا لهجوم كاسح من هذا النوع؟ هل هناك سلاح ما لم يكشفْ عنه وتمّ إعداده لظرفٍ كهذا، أم أنّهم مطمئنّون لاستحالة حدوث اتحاد بهذا الحجم ضدّهم؟.

على مدارِ عقود كاملة أجرى النياندرتال تجارب على سلوك البشر وراقبوهم ليجدوا الوسيلة المُثلى للسيطرة عليهم في الأراضي التي خططوا لاحتلالها مثل التّجربة التي مورسَت على عُمر وزهرة سابقًا. كانت أفكارهم وأبحاثهم تغطّي الاحتمالات كافّة، وتتغلّب على كلّ طرقِ التمرد والمقاومة عند البشر الأرضيين، وتستغلّ أسوأ خصالِهم من أنانية وحبٍّ للدَّعَة والأمان، ولو على حساب الحرية، وما يميّز بعضَ البشر من قدرة على ليّ عُنق الحقائق وتبرير الظلم وممارسات المحتلين أيًّا كانوا.

كان كلّ هذا مثاليًّا في عين قادة الحكومة في أديتيا ويضمن السيطرة طويلةَ الأجل على البَشر في المناطق المحتلة، بل ويضمنُ النفوذ الكبير لدولة أديتيا الأرضية على دول العالم في المستقبل البعيد. لكنْ ما ضرب كلّ تلك الخطط

جزئيًّا هو تعاونُ المقاومين الأديتيين مع المقاومين من الأرضيين. أدّى ذلك إلى انقلاب الموازين، وإبقاء جذْوة الثورة والمقاومة مشتعلةً في كلّ الأراضي المحتلة. المقاومون الأديتيون كانوا يوفّرون أسلحة أديتية للمقاومين الأرضيين ويكشفون لهم خططَ الأمن، ويمكّنونهم من التغلّب على الحواجز الحدودية والطائرات الدقيقة. السؤالُ الذي كان يقلقُه في تلك اللحظة هو كيف يمكن التأكدُ من أن الدولة الأديتية لم تدرسِ احْتمالية ذلك الهجوم المشترك.. وهل يمكن أن يكونوا قد أعدّوا بدورهم خطًّا دفاعيًّا أخيرًا لم يحسب أحد حسابه؟

***

٤٤

بقيَ على بدء العمليات ربعُ ساعة فقط، كان الترقبُ على كلّ الوجوه داخل الأرضِ المحتلة وخارجها. في الداخل كان (عمر) في أحد مخابئ المقاومة هو وضابطُ مخابرات مصري وأديتيّ يديرون إحدى غرفِ التحكم والمراقبة. كانت الغرفةُ مسئولة عن خمسِ مجموعات مهمّتها مهاجمةُ خمسة مبانٍ حصينة، ومجموعة سادسة احتياطية على مسافة قريبة مستعدة للتدخل في حال تعثرت مهمّة إحدى المجموعات الخمس الأساسية.

كان قلقًا على ابنته لا يقرّ له مقعد، قرّر قبلَ البدء في العملية إجراء اتصال أخيرٍ بها، ثمّ بزوجته التي أصرّت على الحضور إلى الأرض المحتلة والبقاء هي وعلاء الصّغير في "انتظار النصر" على حدّ تعبيرها، حاول كثيرًا إقناعها بالبقاء بعيدًا، فلا أحد يضمنُ سيناريو الأيام القادمة، لكنّها قالت: "نحن معًا، وما يسري عليكم سيسري عليّ".

فتحَ جهازه وضغطَ رقم (ميْساء) وانتظر لحظة فأجابته: "مجموعة رقم ١ الفرد رقم أ ٨٣ في خدمتك يا سيدي". ابتسمَ رغمًا عنه فقد حسبتْه اتصالًا رسميًّا، فقال لها: "كيف حالك يا بطلتي؟". فردّت ببهجة متفاجئة من اتصاله: "بخير يا أبي أنا سعيدة لسماع صوتك في هذا الوقت الحرج، لقد خففت من توتري" شعر بالقلق عليها وقال: "لا تتوتّري يا حبيبتي، لقد خضتِ مهامًّا أعقد من تلك، ثقتي في كفاءتك لا حدودَ لها"، ثمّ أضاف بلهجة حانية: "استعيني بالله، وضعي ثقتك في زملائك.. أينَ باسل؟". فردّ عليه باسل:

”هنا يا سيدي“. فقال: ”لن أوصيكَ عليها“. فردّ عليه باسلُ قائلًا وهو ينظرُ إليها: ”سأفتديها بروحي إن لزمَ الأمر، اطمئنّ يا ســـ...“ ثمّ صمتَ وأردف: ”اطمئنّ يا أبي“. أغلقَ معهما واتّصل بزهرة طمأنها واطمأنّ عليها، وقالَ لها إنّه لن يتمكن من التواصل معها في الساعات المقبلة.

عادَ إلى مقعده، جلس في المنتصف بين المقاوم الأديتي والضابط المصري على مقاعد مرتفعة، وأمامهم عشرُ شاشات في أزواج، واحدة تنقل صورة حية وأخرى تظهر خارطة، وتظهر رجالهم كنقاطٍ خضراء عليها، وأمام كلّ زوج من الشّاشات جلسَ تقنيّ. كانت إحدى المراحل الصّعبة في الإعداد للحرب الشاملة هي تجهيز مقارّ مثل تلك تحت سمع وبصر المحتلين وكالعادة كانت الأزقة الضيقة في الأحياء الفقيرة أو العتيقة هي ملاذَ المقاومين لتأسيس تلك الشبكة.

مالَ الضّابط المصري على (عمر) قائلًا: ”سيد عمر، أعرف أنّ قواعد عملي لا تسمحُ لي بقول ذلك، لكن أريدك أنْ تعلم أنّني شرفت بالعمل إلى جانبك في هذا اليوم المجيد“. تأمّله (عمر) وهزّ رأسه باسمًا شاكرًا وهو يؤكّد لنفسه أن الضابط يتودّد إليه مُنفذًا تعليمات رؤسائه على عكس ما يلمح له. كان الرجل في منتصف الأربعينيات برتبةِ عقيد، خمريّ اللون، حادّ الملامح، وخطَّ الشيبُ فوديه فأضاف وقارًا له. ”أنا بلدياتك من كفر الشيخ، من سيدي سالم تحديدًا؛ أي نفس المركز“ ابتسم عمرُ مرحّبًا وقال: ”شرفت بك“، ثمّ أضاف وهو يتنهّد في حنين: ”أتمنى أن نزورها معًا وقد تطهرت من الاحتلال“.

قاطعَ الأديتي حديثهما قائلًا وهو يركّز بصرَه على الشاشات: "لقد بدأت المجموعاتُ في التحرك". ركّز الرجلان بصرهما على الشاشات بدورهما وقد بدأت تومضُ نقاطٌ في جوانبها تباعًا، غير أنّ (عمر) عينُه كانت تركز على شاشة محددة وعلى نقطتين مُلتصقتين فيها خمّن أنّهما (ميْساء) وباسل اللّذان كانا يقتربان من النّقطة الحصينة في إحدى المركبات.

اقتربتْ مركبةُ باسل وميساء إلى مسافة ثلاثمائة متر تقريبًا من المبنى الحصين وهي تعطي إشاراتٍ توهمُ أنّها مركبة تابعة للأديتيين. نظرت (ميْساء) في شاشتِها لتتأكّد من نقطة هبوطهم، وعندها أشارت لقائد المركبة بالانخفاض لمستوى الإنزال ثمّ ترجّلت من المركبة مع باسل وشخص ثالث أديتي.

كانت الخطوةُ الأولى كالمُعتاد التّشويشَ على الطائرات الدقيقة ثمّ التسلل بهدوءٍ نحو المداخل التي تمّ تحديدُها للاقتحام. كان الثلاثة يقتربون من إحدى النوافذ، بدأوا بتعطيل آلية الإنذار على النافذة، ثمّ فتحها ثمّ قذفَ عبوة غاز مخدر شفّاف عديم الرائحة صنعَه الأديتيون. دخلوا للغرفة مُرتدين أقنعة للغازٍ، لم يكن هناك أحدٌ بها، فتحوا باب الغرفة إلى الممرّ وخلعوا الأقنعة، واستمرّوا في طريقهم إلى غرفة المراقبة الشرقية.

انطلقَ الثلاثة يتقدّمهم الأديتي وبيدِه جهازٌ يغيّر بثّ الكاميرات التي يراقبها الأفرادُ الموجودون بغرفة المراقبة المركزية للمبنى. كانت مهمّتهم هي الوصولَ لغرفة التحكم الشرقية التي تتحكّم في ثلاثة مدافع موجودة على السطح بنظم تحكم هيدروليكية وظيفتُها أن تظلّ قادرة على العمل بعد تعطل كلّ الأجهزة الإلكترونية في المباني الحصينة في حال إطلاق قنبلة موجية.

كان الممرّ هادئًا لا ينبئ بمخاطر تُذكَر، ويبدو أنّ الجنود والعاملين بالنقطة قدْ صاروا قليلي اليقظة والاهتمام معَ مرور السنين وعدم حدوث أي محاولات للهجوم، لكن ذلك لم يمنع الثلاثة من الانطلاق بحذر، والنظر بتوجس لكل باب أمامَهم. ظهر في النهاية بابُ الغرفة، كان مصفّحًا مصمتًا لا أثر فيه لأداة مخصصة لفتحِه. تبادل باسلُ وميساء النظر، ثمّ وقف كلّ منهم في جهة من الباب وتقدم الفني الأديتي، أخرجَ من جعبته جهازًا شبيهًا بزجاجة مياه معدنية لصقه بعناية على الباب ثمّ تراجع ووقفَ إلى يمين الباب إلى جوار (ميْساء) التي تحرّكت بدورها إلى يسار الباب إلى جوار باسل.

كانا واقفيْن في الجهة التي سينفتح عندها البابُ شاهرين أسلحتهما، وعيونُهما على الجهاز الذي يقوم ببطء بحقنِ مادّة لإذابة آلية إغلاق الباب. تنهدت (ميْساء) بنفادِ صبر وهي تنظرُ يمنةَ ويسْرة فقال باسل: "اهدئي يا حبيبتي بقي خمس دقائق كاملة". نظرتْ له بتبرّم وهي تومئ برأسها دليلَ تفهمها، فمالَ عليها وطبع قبلة على خدّها وهو يقول: "ها... هل خفّ التوتر قليلًا؟" مطّت شفتيها وهي تهز رأسها في تعجّب، ثمّ قالت: "أنا لست متعجّلة، بل مترقّبة لما سنجده خلف هذا الباب أنت تعرفُ أنّ بالداخل حارسيْن وثلاثة موظفين ونحن ثلاثة، هل سنتغلب عليهم بسهولة، ماذا لو وصلهم دعم ما!".

ابتسمَ وطبع قبلةً أخرى سريعة على شفتيها فضربت بكفّها على صدره وهي تشيرُ بوجهها نحوَ الأديتي الذي ينظر إليهما فقال: "هُم لا يهتمون بهذا...

أنا أقبلك لأنّ شفتيْك تمنحانني قوّة استثنائية كالسبانخ بالنّسبة لباباي" ضيقت عينيها كأنها تفتّش في ذاكرتها عمّن يكون باباي هذا، فقال لها إنّه بحّارٌ في أفلام كرتونية كان أبوه يجعله يشاهدُها. فجأة فتح باب قريب خلفَهم، وخرجَ منه حارسان أديتيان، نظرَا إلى ثلاثتهم بدهشةٍ شديدة، ثمّ أخرج أحدُهم سلاحه مهدّدًا وطلب منهم عدم الحركة.

اقتربَ الحارس من ثلاثتهم بهدوءٍ هو وزميله شاهرين أسلحتهما يوزعان تركيزَهما بين الثلاثة، لكنّهما لم يفطنَا إلى حقيقةٍ مهمّة وهي أنّ الثلاثة كانوا يرتدون دروعًا ومستعدّين تمامًا، بينما كان الأديتيان في يوم عملٍ عادي لا يحتاج إلى ذلك. في التوقيت نفسِه أطلق باسلُ وميساء سلاحَيْهما مستخدمين الأسلحة الأديتية الصامتة التي تقذف تلك الحرابَ الصغيرة، وردَّ الرجلان بإطلاق أسلحتهما التي لم يكن لها تأثيرٌ على درعي باسل وميساء.

قتلَ أحد الأديتيين على الفور بحربةٍ في رقبته، بينما احتمى الآخرُ خلف بروزٍ في الجدار، مضتْ ثوان قبلَ أن يبرز وجهه ثانية ويطلق سلاحه موجهًا لباسل قذيفةً كهربية عطّلت درعَه، ثمّ اختبأ ثانية وهو يستعدّ لإطلاق مقذوفه القاتل، قبل أن يظهرَ كان باسلُ قد قفز ناحيته بخفّة شاهرًا سكّينه، وصل إليه قبل أن يتمكن من إطلاقِ سلاحه مرّة أخرى ثمّ دفع السكينَ بعنف اتّجاه صدره، لكنّ الأديتي استطاع أنْ يتفاداها ثمّ لكمَه في وجهه بقوة، ثمّ هجمَ عليه مشتبكًا معه بذراعه العاري وقد أنْساه الغضبُ التفكيرَ في استعمال سلاحه، أو أنّ (باسل) معه مَن قدْ يساعده.

اقتربتْ (ميْساء) منهما لمساعدة (باسل)، لكنّهما كانا متلاحمين بطريقة جعلتْها تتردّد في إطلاق مقذوف حتّى لا تصيبه. حاولت التركيزَ أكثر، وتوترت إبهامُها على زرّ الإطلاق في سلاح قبضتها، لكنّها حسمت ترددها حين وجدت نصلَ الأديتي يقتربُ من عنق (باسل) فأطلقت مقذوفًا أسقطه على الفور. كان الباب المُستهدف على وشك أن ينفتح فهُرِعَا إليه واتّخذَا وضعيتهما سريعًا، وحانت من (ميْساء) التفاتةٌ إلى الكدمة علىَ وجْه (باسل) لكنْ قبل أن تعلّق أشار زميلهما التقني إلى أنّ القفل قد ذاب.

تقدّمت (ميْساء) أوّلًا؛ فدرعُها كان لا يزال سليمًا، وضعتْ كتفها على الباب، استجمعتْ قواها وأخذتْ نفسًا عميقًا وأخرجت مسدسيْن أرضيّين آليّين مزودين بكواتم صوت، ثمّ دفعت البابَ بكتفها مرّة واحدة وبقوة. انفتح الباب، قفزت لَلداخل وهي تطلقُ الرّصاص بدون تمييز يمنة ويسْرة بطريقة تشبه أفلامَ الأكشن وهي تشعرُ بنشوةِ استخدام الأسلحة المعتادة بتلك الطريقة، وتبعها للداخل (باسل) الذي احتمَى خلف أحدِ المكاتبَ وأطلقَ عدّة قذائف من سلاحه. كان الناتج لتلك الهجمة الأوليّة مقتلَ البعض، لكن تبقّى حارسان كانا يرتديان دروعَهما ولم تؤثر رصاصات (ميْساء) ولا قذائف باسل بهما.

اشتبكتْ (ميْساء) ومعها التقني مع أحد الحارسين، واشتبك باسلُ مع الآخر، وبعدَ عدّة دقائق انقشع غبارُ المعركة عن ثلاثة قتلى؛ الحارسيْن والتقني الأديتي المرافق لميساء وباسل. حاولتْ (ميْساء) إسعافَه بكلّ الطرق لكنّ المهمة كانت عسيرة، فقد تلقّى طعنة في رقبته أصابت شريانَه وحنجرته جعلت إنقاذ حياته شبه مستحيل.

٤٥

مضتْ دقيقتان حاولتْ فيهما (ميْساء) إنقاذَ التقني الأديتي باستماته. وضعت يدَها على رقبته تضغطُ الجرح محاولةً إيقاف النزيف وهي لا تدري ما تفعل ثانية، فلوْ أزالت يدَها من على الجرح لثوانٍ قليلة لنزفَ ما تبقى من دمه على الفور. زاد من توتّرها صوتُ صفير الهواء الخارج من جُرح حنجرته وهو يحاول التنفسَ وندّت منها نظرةٌ لباسل تلتمسُ مساعدته فوجدته جلسَ وقد سال الدم من جرح في منتصفِ بطنه. تردّدت عيناها بين المصابين، وقبل أن تزدادَ حيرتها شهق الأديتي شهقتَه الأخيرة ثمّ توقّفت أنفاسُه وكأنّه يعطيها الإذنَ أن تتركه وتسعفَ (باسل) الذي كانتْ عيناه تدوران وقد شارفَ على الإغماء.

قفزت اتّجاه (باسل) وقد نسيتِ القتيل الذي كان بين يديها وملأها إحساس بالفزع، لكنّه قال لها بصوتٍ واهن حاولَ أن يكسبه نغمة ساخرة: "ما لكِ اصفرّ وجهُك هكذا! الأمرُ بسيط". قالت وهي تفحصُ جرحه: "ليس بسيطًا لا تتذاكى عليَّ، هناك جزءٌ من أمعائك يظهر من الجرح". فضحكَ بصعوبة وهو يقول: "لا تخشي على أمعائي؛ فهي كالحديد".

تركتْه واتّجهت نحو الأديتي القتيل، وحرّكت جسده وهي تكاد تدمع من فرط التّأثر؛ لم تتخيّل يومًا أنها ستحرّك جثةَ شخص عرفته لتخرج شيئًا يلزمها، دون تفكيرٍ في حرمةِ الميت أو كيف سيشعرُ مَن يحبونه بتلك الفعلة. خلعت الحقيبة الجلديّة من ظهره ثمّ عدّلت جثته ثانية بحرص وهي تتمتمُ بالدعوات القليلة التي تحفظها.

فتحتِ الحقيبة وأخرجت منها الموادّ الأديتية الساحرة التي تعالج تلك الإصابات واستعملتْها بمهارة في علاج جروح باسل. بعد أنْ أنهت مهمتها واطمأنت عليه بدأتِ الاتصالَ بزملائها في المجموعة للاطمئنان على سير العملية على النحو المخطّط له. لم تكنِ القائدة بل الثالثة في الترتيب القيادي في المجموعة لكن قلقها كان يجبرُها على ذلك. أبلغت قائدَ مجموعتها بالسيطرة على الموقع فطلب منها القيامَ بالجزء الثاني؛ وهو فصلُ الطاقة عن الغرفة، وتشغيل الأجهزة اليدوية، كان ذلك هو الجزءَ العسير الذي يواجهها، فالتقني قد ماتَ، فأمرَها القائد بالاتصال بغرفة القيادة لإبلاغهم والاستعانة بأحدِ التّقنيين هناك لتوجيهها.

ضغطتْ جهازَ اتصالها برمز غرفة القيادة فأجابها أحدُ المراقبين قائلًا: "غرفة القيادة.. ما الوضع لديك؟". فقالت: "لقد سيطرنا على غرفة التحكم الشرقية لكنّ التقني المرافق لنا سقطَ قتيلًا، ولسنا نعرف الخطواتِ المتبعة لتشغيل الأجهزة اليدوية".

ردّ عليها المراقبُ بصوتٍ آليّ، متجاهلًا أنّ هناك مَن مات: "أولًا تأكدي من إحكام إغلاق بابِ الغرفة بالقفل الموجود في حقيبة التقني" أشارتْ إلى باسل الذي كان يستمعُ معها إلى المحادثة، ففتح الحقيبة وأخذَ يفتّش فيها حتّى أخرج قطعة معدنيّة ضعفَ حجم كفّ اليد تقريبًا ثمّ تحرّك ببطء في اتجاه باب الغرفة. جذب البابَ بصعوبة حتّى أغلقه، ثمّ وضع القطعةَ المعدنية بين الباب وإطاره، وضغط على بروزٍ فيها فخرجتْ منها زوائدُ معدنية انغرستْ بقوّة في الباب وإطاره وأحكمت غلقه.

الغرفةُ كانت فسيحة، فيها شاشاتٌ عريضة تكشف الداخل والخارج، ومقاعد عريضة مثبّت بذراعها الأيمن شاشةُ تحكّم، إضافة إلى طاولة واحدة يحتلّ مركزها شاشة تحكّم أخرى، بينما أطرافُها كانت خشبية مُعدّة كأنها طاولة عادية. قبل فصل الكهرباء عنِ الغرفة، قامت (ميْساء) بإشعالِ شموع من مادّة أديتية متوهجة تضيء المكانَ كلّه، ثمّ بعدَ ذلك تبعت تعليماتِ الفني المراقب وضغطت على لوحة التحكم الموجودة في مركزِ الطاولة فانفتحت صفحةٌ بها أيقونات، اختارت أيقونة التحكم بإمدادِ الكهرباء، ثمّ اختارت فصلها، سكتَ فحيحُ الأجهزة ومراوح التبريد أوّلًا، ثمّ انطفأتِ الشاشات، وفي النهاية انطفأتِ الأضواء وبقيَ ضوءُ الشموع الأديتية.

أمرَهما التقني المراقبُ بعد ذلك بتحريكِ ذراع تحكّم موجود على يمين الباب، انفتحت طاقةٌ في الأرض خرجتْ منها منصّة بها العديدُ من أذرع التحكم الصّغيرة، كلّ واحدٍ منها مدوّن أمامه وظيفته بالأديتية، في وسط تلك الغابة من أذرعَ التحكم منظاران شبيهانِ بمنظار المراقبة الموجود في الغواصات (البيريسكوب أو المنفاق). شرحَ لهما المراقبُ قائلًا: "هذه كلها أذرع هيدروليكية تعمل دونَ الحاجة للكهرباء، والمنظاران يعملان بنظام مرايا معقّد يتيح للموجود رؤيةَ المهاجمين والأهداف التي يمكن إصابتها خارجَ المبنى الحصين".

جلسَ كلّ واحد منهما على مقعد أمام المنصة كما طلب منهما ثمّ أكمل قائلًا: "كما تعلمون فإنّ مهمّتكما الأساسية هي استخدامُ تلك الأسلحة في قصف أي قوات حكومية تحاول استعادةَ السيطرة على المبنى" كادت (ميْساء) تصحّح وتقول: "تعني قوات أديتية؟". لكنّها تعرف أنّ الأديتيين

في المقاومة يسمّون قوات الاحتلال بالقوات الحكومية، ويصرّون أن يتجنب الجميعُ تسميتهم بالقوات الأديتية، فهُم لا يعترفونَ أنّهم يحاربون قومهم؛ بل يحاربون "طغمة حاكمة ظالمة تهتمّ بمصالحها على حساب الشعب".

أكملَ المراقب تعليماتِه لهم.. "تذكّروا أن تثبتوا على الأذرع عبوات المواد المذيبة، وذلك لكي تتمكّنوا من تخريبها إذا تمّت مهاجمة الغرفة وشعرتم أنّكم غير قادرينَ على الاستمرار في السيطرة عليها". فردّ عليه (باسل) قائلًا: "اطمئن أيها العزيز، لن نفقد السيطرةَ عليها". جاءهما ردٌّ مِن صوت آخر قائلًا: "هذه هي روحُ مقاتلينا، وفّقكم الله يا شباب".

كان المتحدثُ هو الضابطَ المصري قائد غرفة المراقبة الذي يجلس جوار (عمر)، وقال: "لقد سيطرنا على نسبة كبيرة من المباني الحصينة، والفضل لشجاعتِكم، السيد (عُمر) يريد محادثتكم". دخل (عمر) على الاتصال قائلًا: "بقيت ربعُ ساعة فقط وتتحرّك قواتنا، اثبتوا يا أولاد". فقالت ميساء: "أنا متفائلة جدًّا... أجواءُ الحماسة تلك كنت أظنّها في القصص الخيالية فقط، لكن يبدو أنها تحدث أحيانًا".

ردّ عليها (عمر) بشكل رسمي كأنّما يكبتُ مشاعره ويمنع نفسه من مخاطبتِها بلهجة الأب القلق: "الجميع على قلب رجلٍ واحد، وإنْ شاء الله لن يمرّ اليومُ قبل أن نستعيد الأرضَ المحتلة". أغلق الاتصال معها والتفت إلى الضابط قائلًا: "نريد أن نعرفَ آخرَ المستجدات على الجبهات الأخرى". فقال وهو يفتح شاشةً فراغية أمامه: "انظر... النتائجُ مُبهرة حتّى الآن، لقد سقط ما يقارب من الثّمانين بالمائة من المباني الحصينة في الحدود الجنوبية،

ونحو سبعين بالمائة من المباني في الشمال، وإجمالًا فقدْ تجاوزنا الحدَّ المطلوب لبدء الهجوم وصدرت الأوامرُ للقوات بالتحرك".

استأذن منه (عمر) لإجراء اتّصال خاص؛ كان يريد أن يلتقط أنفاسه قليلًا بعيدًا عن ذلك الرجل الذي لا يستطيع تقبّله على الرغم من الود الظاهر والحفاوة التي يمنحُها تجاهه. لم يسترحْ لقول الرجل إنّه بلدياته، بل وقعَ في ظنّه أنه يريد أن يظهرَ له مدى معرفتهم به، وأنّهم في المخابرات يعرفون عنه كلّ شيء. بالطبع كان مِن المُحتمل أن يكون مجرّدَ سوء ظنّ مُعتاد منه فهو شخصية مشهورة ومن غير المُستبعد أن يعرفَ الكثيرُ من الناس تفاصيلَ عن حياته، غيرَ أنّ أفعاله الشجاعة في مقاومة الاحتلال في السّنوات الفائتة كانت تثير إعجابَ الكثيرين من الجنود والضّباط في مصر، وإنْ كانوا يعارضون الطريقة.

جلسَ في ركنٍ مُنعزل، وفتح قناةَ اتّصال مع ماندريك ليطمئن عليه وعلى بدءِ التحرك، ردّ عليه ماندريك قائلًا: "لقد بدأنا التحركَ بالفعل"، ثمّ أضاف مازحًا: "تحتَ أمرك يا سيادة القائد". فقال عمر: "يا صديقي أنتَ القائد، لولاك أنت ورجالك لَمَا قدر لهذا اليوم أنْ يأتي مهما حاولَ المتعجرفون في حكوماتنا الأرضية تجاهل تلك الحقيقة". ردّ عليه ماندريك وجسدُه يرتجّ من اهتزازات العربة العتيقة التي يركبُها: "دعْك من هذه الأوهام، أنتَ الآن رقم مُهمّ في المعادلة، وإذا نجحت حربُ التحرير تلك فلا أستبعدُ أنْ تحكم هذا البلد ذات يوم".

أثارَ كلامه ضحكَ (عمر) وقال: "يا لك من أحمق". فقال ماندريك: "صدقني سيأتي اليوم الذي أكون أنا فيه حاكمَ أديتيا وأنت رئيس مصر،

ورغم أنّنا سنغلق إمكانية العبور بينَ كوكبينا فإننا سنتواصلُ بطريقة ما، وحين يحدث ذلك سأذكرك بنقاشنا هذا، و...“ قاطعه أحدُ الرجال الموجودين معه في العربة قائلًا: ”العزيز ماندريك، سنتوقّف الآن استعدادًا لتفجير القنابل الموجية“.

أغلقَ ماندريك الاتصالَ مع عمر في الوقت نفسه الذي ضغطَ فيه السائق مكابحَ السيارة المدرعة، فتوقّفت بخشونة دفعتْه للأمام، وجعلته يلعن المركبات الأرضيةَ ومخترعيها. عندما توقف محركُ السيارة اقتربَ منه الجندي المصري الجالسُ خلفه، كان في منتصف الثلاثينيّات، حليقَ الذقن، ذا شارب كثّ، همس في أذنِ ماندريك سائلًا: ”هل يمكن أن أسألَ سيادتك سؤالًا؟“. أومأ برأسه موافقًا، فقال الجندي: ”هل حقًّا هذه القنابل الموجية تعطّل تلك الحراب التي يطلقها المحتلون... لقدْ كنت في الخدمة وقتَ حدثَ الهجوم الأول، وشاهدت تلك الحراب المفزعة وهي تطاردُ زملائي وتقتلهم حتّى وهُم مختبئون!“. التفتَ إليه ماندريك وقال مطمئنًا: ”هي توقف تمامًا تقنية التتبع فيها، فتجعل المقذوفَ يسير في خطّ مستقيم، وهو أمرٌ يصعبُ على الجنود الحكوميّين التعاملُ معه، فهُم لم يعتادوا على التصويب بدقة“.

شكرَه الجندي واعتدلَ في مقعده، لكنّه عاد وسأله ثانية: ”وهل كمية تلك القنابل تكفي... أعني أنّ مدى الواحدة يغطي مساحة قصيرة بالنسبة لتحركاتنا؟“. ابتسمَ ماندريك وقال له: ”أنتَ لن تحتاجها إلّا في مناطق الاشتباك وهي محددة، ثمّ إننا في الفترة السابقة صنعْنا عددًا كبيرًا منها، لا تخف“. فقال الرجل دافعًا عن نفسه صفةَ الجبن: ”أنا لا أخافُ على حياتي،

أنا فقط أشعرُ أنّ تلك الحرب هي فرصتنا الأولى والأخيرة لاسترداد أرضنا، ولمّ شمْل شعبنا الممزّق". نظر ماندريك للاسم المكتوبِ على سترته، ثمّ قال بهدوءٍ حازم: "اطمئنّ يا أحمد، سننتصرُ وستسترد أرضكَ".

قالها وعاودته الهواجسُ ثانية وهو يفكّر في احتمال أن يكون هناك خطة بديلة لدى الحكومة الأديتية تفسدُ كلّ ما خطّطوا له. كان لديهم هو والمقاومون من قومِه خطّة أخرى بديلة في حال فشلتْ تلك الحرب؛ وهي أن يستغلوا انشغالَ الحكومة بالحرب هنا- والتي بلا شك ستنالُ من قوتهم كثيرًا- في العودة إلى كوكبهم الأمّ، وتفعيل ذلك الاختراع الجديد الذي توصّلوا إليه قبل عامين والذي سيمنع الانتقال بين الكوكبين.

كانت الفوضى التي ستنشأ نتيجةَ الحرب كفيلةً بإضعاف الحكومة على الكوكب الأم، كما قدّر هو وزملاؤه أنّ الحكومة سترسل عددًا كبيرًا لدعم قواتهم في قتالِها مع الأرضيين، وسيؤدّي هذا إلى سهولة سيطرة المقاومين على كوكب أديتيا. كانت خطتُهم في الحالتين استغلالَ تلك الحرب للسيطرة على كوكب أديتيا، سواء انتصرَ الأرضيون أو انهزموا. المشكلةُ الأكبر إذا انهزمَ الأرضيّون هي أنه سيضطرّ إلى خيانتهم، فسوف يقوم هو وزملاؤه بغلقِ الصّدع الكوني، وفصل الأرض عن أديتيا، وهذا يعني التخلّي عن حلفائه الأرضيّين، والتخلّي عن ملايين الأديتيين الذين يعيشون على كوكب الأرض.

لم يكن أمامَه إلّا اختيارُ تلك الخطة بل والضغط على الرافضين لها من زملائه في المقاومة الأديتية؛ لأنه يرى أن الأرضيين سينتصرون في النهاية بعد عزل الأرض عن كوكب أديتيا، وأن الأديتيين المتبقين على الأرض

سوف يندمجون مع الوقت في المجتمعات التي يعيشون بها. خطته قد تبدو في ظاهرها انتهازية تحمل الكثير من التساؤل حول أخلاقيتها لكن ناتجها النهائي سيكون مفيدًا للجميع ولو بعد حين.

كان يتمنى الانتصارَ في الحرب حتّى لا يتحمل التبعاتِ الأخلاقية لذلك القرار الذي يحاول تبريرَه الآن، لكنه يعلم أنّه سوف يقضّ مضجعه حتّى نهاية عُمره. كان سببُ ضيقه مِن أوّل اليوم هو خوفَه من ذلك الاحتمال، وكان يهرب بأفكاره لأسبابٍ أخرى لأنّه لا يريد مواجهة ذاته. كانت تلك الخطة شرًّا لا بدّ منه، وفي حال تنفيذها فإنّ اضطراره للخيانة العامّة للأرضيين ولَمن سيتركونهم خلفهم مِن الأديتيين لم تكنْ لتُحزن قلبه قدرَ ما يحزنه خيانته لعُمَر نفسه ولتلك الفتاة (ميْساء) التي تعتبره مثلًا أعلى وتعتزّ به ربما أكثر من أبيها نفسه.

نفضَ عن عقله تلك الأفكارَ في اللحظة التي تمّ فيها تفجيرُ القنابل الموجية، وانطلقتِ العربات والدباباتُ نحو الحدود. حانتْ منه التفاتة لوجوه الجنود حوله فوجدَها مليئة بالترقب، ثمّ بعد ثوانٍ ارتفعتْ أصواتهم بالتهليل حين مرّت مدرعاتُهم مِن الحدود، وانطلقت تنهبُ الأرضَ نحو أول قاعدةٍ عسكرية مهمّة بغرض السيطرة عليها.

بعدَ وقت قصير كانوا يحاصرونَ القاعدة ويمطرونها بقذائف من دباباتهم. انطلقتْ مركبات طائرة من القاعدة لمُهاجمتهم لكنّ قنبلة موجية واحدة كانت كفيلة بإسقاطها، وبدأ الاشتباكُ المباشر. قتالٌ بالأسلحة النارية، بنادق ورشاشات وقاذفات قنابل، مشهدٌ يُشبه تمامًا مشاهدَ الحروب القديمة، كان ماندريك يقاتل ويشدّ من أزرِ الجنود حوله، الأرضيّين والأديتيين، وهُم حوله لا أحد يتحرّج من معاملته كقائد حربيّ أصيل.

حين بدأ الجنودُ اقتحام القاعدة كانت الحربُ مفاجئة وخاطفة، وفي غضونِ ساعتين كان الجنودُ يرفعون العلمَ على القاعدة ويهتفون: "الله أكبر" بحماسة أنستْ ماندريك هواجسَه، وجعلته يشاركهم الهتاف.

بدأتِ الأخبارُ تتوافد عليهم مبشرة بتساقط قواعد المحتلين في البلاد واحدة تلوَ الأخرى، وإنْ كان هناك بعضُ المقاومة في بعض الجيوب، خاصّة في شمال مصر وجنوب تركيا وغرب سوريا. وصدرَ تكليفٌ لكتيبة من المشاركين معه بالتوجّه نحوَ منطقة قتال أخرى، بينما تمسّكت الكتيبة التي يشارك فيها ماندريك بالتزامِ مكانها حتّى أوامرَ أخرى.

اتّصل على (عمر) ليطمئنّ منه على الوضع بشكل أكثر تفصيلًا، فردّ عليه عمرُ متحمّسًا: "النتائج أروعُ كثيرًا ممّا كنّا نتخيل يا صديقي، إنّهم يستسلمون في مئاتِ المواقع، ولن يمرّ الغدُ حتّى نعلن انتصارنا". قال ماندريك: "هل ظهرت إمداداتٌ لهم قادمة من الكوكب؟". "ظهرتْ في موقع واحد وتعامل معهم الجنود لا تقلق صدقني" ثمّ سأله: "متى يبدأ رجالُك هناك بالانقلاب؟ ألا يحبون أن يبكروا قليلًا عنِ المخطّط؟". فردّ ماندريك: "إذا تمّ نقلُ أكثر من نصف القوات الحكومية من أديتيا إلى الأرض المحتلة فسيقومون بالهجوم بدون انتظار".

أغلقَ معه (عمر) على وعدٍ بموافاته بالتفاصيل، وأخذَ هو يتجوّل في القاعدة، ولفتَ انتباهه العددُ الكبير من الأسرى الذين كان بينهم الكثيرُ من الأرضيين، والذين كان يقوم الجنودُ بإهانتهم وضرْبهم بقسوة على حين كانوا يتعاملون مع الأسرى الأديتيين بطريقة أقلّ عنفًا، وإن كانت صارمة بالطبع. دخل إلى مبنى القاعدة وتوجّه نحوَ غُرف الاستراحة، وفتح بابَ أوّلِ غرفة قابلته وألقى بجسدِه على الفراش وهو يفكّر في الغد متفائلًا، ولكنْ بحذر.

٤٦

"وقدِ استطاعت القواتُ المصرية المشاركة في عملية الدرع المكسور، إثباتَ تفوّق منقطع النظير وكفاءةٍ قتالية عالية، واستطاعت السيطرةَ على عشرات القواعد العسكرية للمحتلّين النياندرتال، وأسْر الآلاف منهم ومِن الخونة الذين يقاتلون في صفوفِهم، ومن الجدير بالذكر أنّ أداءَ القوات المصرية هو الأعلى بين كلّ القوات المحاربة في التحالف".

كان المذيعُ المصري يهتف بحماس، وأناندار جالسٌ على مقعد وثير في أحد قصوره المنيعة في جبال هاتاي في الجزء المحتلّ من تركيا، كان قصرًا سريًّا مُختبئًا في التّضاريس الصعبة للجبل. كان يتابع النشراتِ الإخبارية في الدول المُختلفة التي تنقل أحداثَ المعارك بين الأرضيين والأديتيين، يشاهد وعلى شفتيه ابتسامةٌ واسعة، بينما كانت شاودريك كبيرةُ مساعديه واقفةً جواره يبدو عليها القلق.

"وقد استطاعت القواتُ التركية إثباتَ أنّها أفضلُ الجيوش المحاربة في عملية الدّرع المكسور على طول الجبهة ضدّ النياندرتال". كان ذلك صوتَ مذيعة تليفزيون تركي، بعدها قلّب أناندار الشاشة لعرض تليفزيون سوري، وكان المذيع يتحدّث عن صعوبة العمليات، واستبسال الجنود الأشاوس الذين أثبتوا أنّهم هم رأسُ الحربة في معركة الدّرع المكسور أيضًا. بعد ما انتهى المذيع من كلامه أطلق أناندار ضحكةً عالية، فسألته شاودريك: "هل لي أنْ أسأل ما الذي يضحكك يا سيدي؟". فقال أناندار: "أرأيتِ؟

إنّهم جميعًا يريدون نسبَ النصرِ لجماعتهم أو لعِرْقهم، هؤلاء الأرضيون مهْووسون بذلك التعصّب لأعراقهم، تمامًا كما توقعت وكما بنيتُ خطتي".

ابتسمتْ شاودريك لسيدها في إعجاب دون أن ترد، فأشار إليها أناندار أن تقلب المحطة ثانية قائلًا: "هاتي لنا محطّةً من خارج تلك الدول، دعينا نسمع رأيًا مُحايدًا". قلبت شاودريك المحطة، رأت مذيعًا يتحدّث عن الوضع في الأراضي المحتلّة، وعن الانتصارات المُتتالية التي تتحقّق على الأرض في كلّ بلد ثمّ سأل أحد مراسليه من مدينة القدس عن الوضْع لديه، فقال: "لقد أحكمت القواتُ الصينية المشاركة في عملية الدّرع المكسور سيطرتَها على مدينة القدس، كانت هذه مفاجأة للمُراقبين الذين كانوا ينتظرونَ معرفةَ جنسية القوات التي ستحرر المدينة. أكّد لي قائد القوات الصينية أنهم اضطروا للقيام بهذه المهمة نظرًا للخلافات الشديدة بين الدّول العربية وإسرائيل في تحديد جنسية القوات التي ستدخل المدينة، وهو ما جعل الصين تصرّ على أن تقوم قواتها بذلك".

قالت شاودريك معلقةً على الخبر: "كما قلت يا سيدي الخلافاتُ بينهم أعمق من أنْ تجعلهم يتفقون، وهذا يصبّ في صالح خطتك". مضت تمتدح في ذكاء سيدها وقيادته الحكيمة، وكيف أنّ منظمتَه تضمّ إلى جانب الأديتيين بشرًا من كلّ الأعراق لم يحدثْ مرّة أنِ اختلف اثنان منهم بسبب ذلك، كما أنّ أناندار يضم في رجاله الكثيرَ من المتدينين أكثرَ ممّا فعل والده؛ لذا كانت شاودريك ترى فرصةً لإعلاء حكمةِ ماجوها عن طريق تحقيق طموح أناندار.

مالتْ عليه بأدب، وقالت: "هل تريد محادثةَ قائد الأمن أولًا أم قائد المقاومين في كوكب أديتيا؟". فكّر أناندار قليلًا ثمّ سألها: "ما رأيكِ أنت؟". أشارت عليه شاودريك أن يحدّثَ قائد الأمن أولًا فهوَ الآن في وضع لا يحسد عليه؛ الأرضيّون والمقاومون الأديتيين يحقّقون انتصارات متتالية ضدّه، ولا بدّ أنه شديد الارتباك ولا يعرفُ كيف يجابهُ هجمة الأرضيين الشرسة على قواته في جميع الأراضي المحتلة.

كانت شاودريك هي الوحيدةَ المطلعة على خطة أناندار، التي تمهد له تنفيذ حلمِه في السيطرة على الأراضي المحتلة (أو أديتيا الأرض كما يسمونها). كانت الخطةُ تعتمد على وجودِ عملاء له في كلّ مكان في حكومة أديتيا في الأرض وفي الكوكب الأمّ، وعملاء بين الثوار هنا وهناك أيضًا وبين الحكومات الأرضية. كان أناندار يدير شبكةً من العملاء لا تقدرُ على إدارتها أعتى أجهزة المخابرات في العالم.

طلبَ قائد الأمن أولًا كما أشارتْ عليه مساعدته، كان منصبُ الرجل يعادل منصبي وزير الدفاع ووزير الداخلية معًا، وكان بينه وبين أناندار اتصالات وعلاقاتٌ تخصّ تسهيل عمل أناندار مقابل هدايا وعمولات، ومقابل قيام أناندار باستخدام إمكانياته لإجراء عملياتٍ قذرة لصالح الدولة عند الحاجة. كان الرجل بالفعل في حالة يُرثى لها، وردّ على أناندار بنفادِ صبر قائلًا: إن الحكومة المركزية في الكوكب تتباطأ في إرسالِ النّجدة من هناك، وإنّه يحاول القيام بهجوم مضادّ بالإمكانيات المتاحة لديه.

"العزيز قائد الأمن، لديّ خطة لمساعدتك للتغلب على الأرضيين بدل انتظار الإمدادات التي لن تصلَ إلّا بعد قتلك أو أسْرك" قال أناندار، فردّ عليه قائد الأمن بعصبية: "اسمع يا أناندار، أنا لست في حالةٍ تسمح لي بمساوماتك، لقد خرجت من اجتماعي معَ قادة رجالي لأجيبَ اتّصالك، إذا كان لديك مساعدة قدمها أولًا ثمّ نتفاوض". تكلّم أناندار بجديّة هذه المرة، وقال له إنّ خطة القوات الأرضية التالية هي السيطرةُ على مراكز الصواريخ المضادّة التي تقوم بمنع أي هجوم جوي على أديتيا الأرضية، وأنّهم سيقومون بهذا ليتمكنوا من قصفِ بقية الأماكن المهمة الخاصّة بالحكومة الأديتية وقياداته.

ردّ قائدُ الأمن وقد زادتْ عصبيّته: "كيف ذلك ومراكزُ الصواريخ تتعدى الألف، وكلّها تحت الأرض، ومنيعة، حتّى ضدّ القنابل الموجية!". فقال أناندار إنّ لدى المهاجمين خرائط دقيقة بكلّ هذه الأماكن، وإنّ هناك فرقًا مدربة على اقتحامها من أفضلِ رجال المقاومة الأرضيين والأديتيين وقوات الكوماندوز في بعض الدول، ثمّ أضاف: "سنجعل تلك المراكزَ كمينًا لهم، وسنقتل الآلاف من خيرة رجالهم في وقتٍ واحد". صمتَ الرجل قليلًا ثمّ سأله: "وكيف نحقّق ذلك؟ وما الثمن الذي تريده؟".

كان كلاهما يفهمُ الآخر تمامًا، وكان قائدُ الأمن يعرف أنّ لأناندار طموحات تتعلّق بتغيير صورته من رجلِ عصابات لرجلِ دولة. قال أناندار: "أنتم مخترقون مِن المقاومة بشكلٍ كبير، وكلّ ما أشترطه عليك هو أن نقوم بتلك العملية معًا، وأن تكونَ في سريّة لا يعلم الحاكمُ ولا قادتك شيئًا عنها".

كانت خطةُ أناندار هي أن يهمّش قائدُ الأمن دورَ حاكم أديتيا الأرض بحجّة أنه يشك في أن هناك اتصالات بينَه وبين المخربين، وبعد أن يتحقّق ذلك النصر المبدئي يتحفظ على الحاكم ويعلن أنّ لديه أدلة على تورّطه مع المخربين، ويعتلي هو منصبَ الحاكم بدلًا منه. "هل جننتَ يا أناندار! كيف أتهمه وهو مِن رموز الدولة من قبْل الغزو، وأين تلك الأدلة، ثمّ أنت لم تخبرني بعدُ بالثمن!".

بدَا ردّ أناندار منطقيًّا وهو يقول: "تلك الهزيمة المروّعة تهزّ صورة أي رمز في الدولة، واتّهام رجلٍ بحجمه يعطي مبررًا كبيرًا للهزيمة، وهو مبرّرٌ سيسعد الحكومة المركَزية في الكوكب الأمّ، وسيعطي لهم كبشَ فداء" ثمّ أضاف وهو يفتح شاشةً عرضت وثيقة تدينُ الحاكم "والأدلة موجودة- كما ترى- ومرتبة بعناية، ولن يدقّق أحد فيها، فبعد أن نستعيدَ زمامَ الأمور ونهزم الأرضيين ستكون مصداقية كلينا عالية، وسيكون من السهل إقناعُ هيئة الحكم العليا بخيانته... أمّا الثمن.." صمت لحظة، ثمّ أضاف: "أنْ تعلن للجميع دوري في التغلب على الأرضيين والخونة من قومنا، وأنّني جنّبتكم استخدامَ السلاح الشامل وتبعاته الكارثية التي تعرفها". فقال الرجلُ طالبًا منه أن يقول الثمنَ الحقيقي: "وماذا أيضًا؟". فقال أناندار بعد ضحكة قصيرة: "أنْ تعيّنني قائدًا للأمن بعد أنْ تصير أنت الحاكم".

كانت المفاجأة كبيرةً على الرجل، لكن أناندار استطاعَ بحنكة أن يقنعه بأنه لا يوجد حلّ بديل غير هذا، وأنّه إذا استطاع الأرضيون تعطيل

مراكز الصواريخ فإنّ هذا يعني السقوطَ الكامل لأديتيا في يدهم. أضافت شاودريك قائلة بعد أنْ أذن لها أناندار: "إنّ خطة سيدي أناندار لن تتوقفَ عند هذه المرحلة، بعد هذا الانتصار المؤقّت لديه خطةٌ ثانية لتدمير كلّ غرف التّحكم التي يدير بها الأرضيون معاركهم في الداخل، ثمّ مرحلة ثالثة يعزّز بها النصر ويقضي على المخرّبين تمامًا، وهكذا حتّى يتحقّق النصر الكامل، وينسب هذا النصر لك ولسيدي أناندار فقط".

سادَ صمتٌ قصير تكلم بعدَه الرجل، وطلب من أناندار أن يطلعه على الخطة التي سيقومُ بها لردْع الهجوم على مراكز الصواريخ. ترك أناندار لشاودريك الفرصةَ لتشرح تفاصيلَ الخطة وكيفية تنفيذها، ولم تنته المحادثةُ بينهم حتّى كان قائد الأمن مقتنعًا تمامًا أنّ مستقبله في التعاون مع أناندار، وأعطاه وعدًا بتنفيذ جانبه من الاتّفاق، فقال أناندار: "الوعد غيرُ كاف، بعد أن نردعَ هذا الهجوم ستقوم بحبس الحاكم، وتخبرهم في كوكب أديتيا أنّني أنا مَن ساعدك على ردع الهجوم، وأنّني مَن سيتعاون معك في المراحل التالية، أريدهم أن يعرفوا فضْلي من البداية". وافق الرجل، وأغلق معه الاتصال.

قامَ أناندار من على مقعدِه الوثير وقال لشاودريك: "سوف أترك لكِ الإشراف على هذه المهمّة، وإذا فشلتِ فاعلمي أنّ روحك هي الثمن". شدت شاودريك قامتها وكستْ ملامحها الصرامةُ والإصرار وهي تبلغه أنّها رهن أمره، وأنّها ستقوم بالمهمّة على خير وجه، ثمّ قالت: "هل أطلبُ لك قائد المقاومة في كوكب أديتيا الآن أم لاحقًا؟". فقال أناندار: "كلا، دعيه بعدَ أن نردع هذا الهجوم ليكون لنا قوة أكبر في أثناءِ التفاوض معه".

فردّت شاودريك: "أدعو ماجوها أن يرعى كلّ خططك يا سيدي".
فضحكَ أناندار وقال لها وهو يتأمّل قوامها: "أنت خسارة في التبتّل يا شاودريك، ليتك لم تهبي نفسَك لماجوها" فقالت والصّرامة لا تفارق وجهها: "خدمة ماجوها هي الغايةُ العليا، وصلواتي له كلّها ترجو النصرَ لك يا سيدي" أومأ أناندار برأسه وقال: "حسنًا، لكنّني الآن أريد يقظتَك ومهارتك أكثر من صلواتك أيتها الكاهنة البتول".

***

٤٧

على الأطراف الشّرقية للمعادي الجديدة، يقع أحدُ مراكز الصواريخ الأساسية التي أنشأها النياندرتال بعدَ الغزو مباشرة، وتقع الصواريخُ وقاعدة التحكم فيها في مخابئ تحتَ الأرض بالكامل، وكانت حوائطُها عازلة للإشعاعات من خارجها، وتمنعُ بالتالي تأثيرَ القنابل الموجيّة عليها إذا تمّ إطلاقُها في الخارج. كانت الفرقة الصّغيرة المكلفة باقتحام المركز تحتاج إلى الدخول إلى قاعدة التحكم وتدميرها من الدّاخل لتتيح للَقوات الجوية دخولَ الأراضي المحتلة، وتتيح لصواريخ قوات التحالف تدميرَ مراكز القيادة ومقار الحكام.

كانت تلك الفرقة تتكوّن من سبعة أفراد من ضمنهم (سمير) وضياء، إضافة إلى مقاتلين متنوّعي الخلفيات. كان من المفترض أن يتمّ استغلال الفوضى الحادثة بعدَ اقتحام القوات المصرية للأرض المحتلة، والسيطرة على العديد من القواعد العسكرية في تسهيل اقتحامِ تلك القاعدة. كان (سمير) يمازح (ضياء) قائلًا: "لقد أوشكْنا على النصر، وسَتعود باشا في الشرطة ثانية، وسأحتاج واسطة للحديث معك". ردّ (ضياء) وهو يعدلُ سلاحَ قبضته ويتأكّد من تفعيله: "لا تخفْ؛ سوف أتوسّط لتعيينك أمين شرطة معي".

كان ردُّه جادًّا لا أثرَ فيه للمزاح، كرسالةٍ على الهاتف خالية من ذلك الوجه الضّاحك أو حتّى المبتسم. ضايق ذلك (سمير) فانشغل هو الآخرُ بترتيب معداته وهو يقول لنفسه إنّ (ضياء) لن يتغير، سيظلّ يتعامل معه بذات

الطريقة المتكبرة رغمَ أنّ (سمير) الآن يفوقه رتبةً طبقًا لقواعد تنظيم القوات التي يعملون بها. هنا وردتْ له خاطرة ليمارس سلطتَه على (ضياء) ولو للمرة الأخيرة فقال بصوت جادّ: "سوف تكون أنتَ مع الفتاة التقنية التي تعطّل الطائرات الدقيقة، وسوف أتقدم أنا مع اثنينِ من النياندرتال من المدخل الشرقي". فقطّب (ضياء) حاجبيه وقال: "ولكنّ الخطةَ أن نكون معًا، وأن يحرس أحدُ الأديتيين زميلته التقنية"، فقال (سمير) وهو يرسمُ على وجهه قناعَ الصّرامة: "هذا أفضلُ في رأيي، نفّذ الأمر وبدّل مكانك مع الأديتي".

لم يعقّب (ضياء) وقام بالتوجّه نحو الأديتي وبدّل مكانه معه وهو يلعن (سمير) في سرّه. قال لنفسه إنّها مجرّد أيام وتنتهي تلك المرحلة، وينتهي ذلك الوضعُ المقلوب الذي جعله مرؤوسًا لطفلةٍ لا تفهم شيئًا، ثمّ لعامل ذي تعليم متوسط. تأمّل المكان مِن حوله، كانوا مختبئين في مكمنٍ على مسافة مائتي متر تقريبًا من المبنى، كامنينَ في أسفل عمارة سكنية في نهايةٍ مجمع سكنيّ قريب من المركز. أنهتِ التقنية المرافقة له الدخولَ على بيانات الطائرات الدقيقة الموجودة في المكان واستطاعتْ تعطيلها في وقتٍ قصير نسبيًّا، ثمّ أعطت الإشارة لبدء العملية.

انطلقتِ المجموعة بحذر اتجاه المبنى والطائرات الدقيقة تتحاشاهم كأنهم غير مرئيّين، ثمّ فجأة ظهر في مواجهتهم مجموعةٌ من حراس المكان. انبطح المهاجمون أرضًا، وتبادلوا إطلاقَ الأسلحة مع الحراس ثمّ توقف كلّ شيء. تبادل (سمير) النظراتِ مع المجموعة، ثمّ دار بينهم همسٌ عن الخطوة التالية وعن تفسيرهم لتوقف الحرّاس عن مهاجمتهم. أتى الجوابُ سريعًا

حين ظهرت في الهواء مجموعةٌ أخرى مِن الطائرات الدقيقة لم تكنْ ضمن المجموعة التي سيطرت عليها التقنية.

هتفَ (ضياء) بالتقنية مستحثًّا إيّاه على استعادةِ التحكم في تلك المجموعة من الطائرات. قالت التقنيةُ إنّها مجموعة جديدة ذاتُ برمجة مختلفة، ويبدو أنّها لا تنتمي للمنظومة الدّفاعية لهذا المركز. "هذه الطائراتُ برمجتها مختلفة تمامًا عن الطائرات الحكومية، أحتاجُ إلى عشر دقائق على الأقلّ لتعطيلها". قالت بتوتر وهي تنقل أصابعَها بعصبية على شاشة الجهاز معها. لم ينتظرْ (ضياء) كثيرًا قبل أن يقول: "لا بدّ أن أتدخّل لمساعدتهم، قومي أنتِ بعملك وحاولي أن تسرعي".

اقتربَ (ضياء) بحذرٍ من المجموعة مسافةً كافية، ثمّ أخرج مسدسه العادي المثبّت به كاتمُ صوت، وصوّبه على إحدى الطائرات، واستجمع تركيزه كله ثمّ أطلقَ النارَ عليها. سقطتِ الطائرة وتوجّهت على الفور طائرة أخرى نحوه في مسار متعرّج صعب عليه إسقاطها. استطاع تفادي مقذوفٍ منها، وارتطم مقذوف آخر بدرعِه، فآلمه بشدّة، لكنّه لم ييأس وحاولَ حتّى استطاع إسقاطها. التفت نحو التقنية فوجدَها تعمل بتركيز، ثمّ فوجئ بشخصٍ يقترب منها دون أن تراه. حاول تحذيرها بدون جدوى؛ فأطلق سلاحه على المهاجم، لم يصبْه لكنّه أثار انتباهَ التقنية التي رأت المهاجمَ فاشتبكت معه.

في الوقت نفسِه تكاثرت الطائراتُ على المجموعة وسقط منهم قتيلان ما اضطرّ (سمير) للتفكير في استخدام قنبلة موجيّة. قال مرافقه الأديتي

إنها فكرة خاطئة لأنّهم لن يتمكنوا من فتحِ الأبواب بأجهزةِ فكّ التشفير الموجودة معهم. قال (سمير) بصوتٍ مرتفعٍ وهو يتفادى مقذوفًا من طائرةٍ ويطلق النار عليها: "لن نتمكن من فتحِها إذا متنا، هيّا فجّرها الآن".

تردّد الأديتي قليلًا، جعلَه ذلك لا يرى الطائرة التي اقتربت منه والحربةَ التي انطلقتِ اتّجاه رأسه، لكن (سمير) قفزَ عليه وأبعده عن مسارها ثمّ أطلق النار على الطائرة دونَ أن يتمكن من إسقاطها. اعتدل الأديتي وفتح جرابَه بسرعة وأطلق قنبلته.

كان (ضياء) ساعتها مشتبكًا مع المهاجم الذي تمكّن من قتل التقنية الأديتية. انتهتِ المعركة بينهما سريعًا بعدَ أن تمكّن من قتله. عمّ هدوءٌ تامّ بعد ذلك، اختفى الحراسُ وهمدت الطائراتُ الدقيقة، وأخذ المقاومون يحاولون مداواةَ جرحاهم. فكر (ضياء) في خطوتِه التالية، هل يتقدّم لمساعدة زملائه أم ينتظر تراجعهم فمِن الواضح أنّهم فقدوا عنصرَ المفاجأة، ومِن الحكمة اعتبار أنّ تلك المهمة قد فشلت.

(سمير) كان يحاولُ عبثًا مداواةَ أحد رفاقه وهو يفكر في الخطوة التالية بدوْره. الاتصالُ بالقيادة غيرُ ممكنٍ في تلك اللحظة وهو قدْ صار قائد العملية الآن بعدَ مقتل قائدها الأديتي. بعدَ تفكيرٍ قصيرٍ ومشاورةٍ مع زملائه اتخذ القرار بالتّراجع.

في الوقت نفسه كان (عمر) والضابطُ المرافق له يشاهدان المشهد نفسه يحدُث في عشرةِ مواقع مختلفة. المقاومون في مواقع الصواريخ كلها مُنوا بهزيمةٍ، وفشلوا في تحقيق تلك المهمّة. حاول الضَابطُ أن يلقي باللائمة

عليهم، وأنّهم اعتمدوا على معلوماتٍ خاطئة أدّت إلى قتل الكثيرِ من الرجال، فقال عمر: "هناك شيء غير طبيعيّ يحدث، هذه الطائرات ليست حكومية!". كانا يتابعان المشهد من خلال كاميراتٍ تتابع الموقفَ من خلال أقمار صناعية، وكان هناك على بُعد آلاف الأميال مَن يتابع المشهد نفسه أيضًا، ولكن في فرحٍ غامر.

كانتْ شاودريك تحتفلُ بما تراه من نجاح خطّتها في ردّ ذلك الهجوم على مراكزِ الصواريخ، وحين بدأت ترى بعضَ المقاومين ينسحبون من أماكنهم بعد فشل مهمّتهم فتحتِ الاتّصال بأناندار وسألته: "سيدي، هل أبدأ الجزءَ الثاني من خطتي؟". فجاءها الردُّ بالإيجاب. غمرتها فرحةٌ طاغية وهي تعطي الأمرَ لرجالها على الأرض باصطيادِ بقيّة المقاومين. لم يساورها أدنى شكّ في أنّ قتلهم هو الحلُّ الأفضلُ بدلًا من تركهم ينسحبونَ حتّى يحدث أكبر قدرٍ من الصدمة لدى الطرف الآخر، كما أنّ القتل من أجل ماجوها شرفٌ عظيم ينبغي أن تحظى بأكبر قدْرٍ منه.

على الأرض، كان (سمير) يستعدّ للانسحاب، وأشارَ إلى (ضياء) بالانتظار في مكْمَنه حتّى يصلوا إليه. قامَ هو ومَن معه وبدأوا التحرّكَ بحذر عائدين نحو (ضياء) تمهيدًا للعودةِ إلى مقرّهم الذي انطلقوا منه. لاحظ (ضياء) نقاط ضوءٍ تتراقصُ على أجساد زملائه، صاحَ بهم بصوتٍ عالٍ "انبطحوا" وقبلَ أن يدركوا ما حدثَ انهالتْ عليهم طلقاتُ رصاص خارقة في وقتٍ كانت دروعهم قد تعطّلت بفعل القنبلة الموجية التي أطلقوها.

سقطَ اثنان، وبقي (سمير) وآخر، لم يصدّق (ضياء) نفسه، لم يكن يتخيل أنّ الغزاةَ لديهم قنّاصةٌ يعملون بتلك الطّريقة التي تنتمي بشكلٍ كامل للطرق الأرضية. حتّى هو حينَ عمل معهم شرطيًّا لم يصلْ إلى علمه أنّهم يحاولون استخدام قناصة فأسلحتُهم كانت كافية تمامًا. الغريبُ أنّ القناصة لم يبدؤوا إطلاق أسلحتهم إلّا بعد أن تعطّلت الدروعُ التي تصدّ الرصاص بمجالها الموجي بعد إطلاق القنبلة. لقد كان الأمرُ برمّته فخًّا مُحكمًا دخلوه بكامل إرادتهم، وساعدوا بأنفسهم على إطباقه عليهم بقوة.

نادى بصوتٍ عال: "سمير، ابقَ مكانك ولا تتحرك، لقد عرفت مكان القناص وسوفَ أذهب للتخلّص منه، ابقَ مختبئًا أنت ومَن معك". تحرّك بسرعة اتجاه المبنى المجاورِ للمبنى الذي كان يكمنُ أسفله وهو مسلّحٌ بمسدسين وسكين. صعد السلم قفزًا حتّى وصل إلى سطح المبنى، كان البابُ المفضي للسطح مفتوحًا كما توقع، دخل منْه بحذر، اتّجه ناحية الجدار الذي يطلّ على موقع (سمير) فوجد رجلًا بشريًّا عينُه على منظارِ بندقيته ومُنهمك تمامًا. أخرج مسدسَه وقبل أن يسدّده كان الرجل قد انتبه فالتفتَ نحوه وأطلق النارَ عليه في اللحظة نفسها التي أطلق (ضياء) النار. شعر بسيخٍ مُشتعل يخترق بطنَه، وغريمُه يقع على الأرض في ذات الوقت.

زحفَ نحوَ الرجل فوجده لا يزال يحاولُ القيام، فعاجله برصاصتين أنهى حياتَه بهما. زحفَ نحوَ السّور الذي تعتليهِ بندقية القناص وهو يشعر أنّ دماءه تتسرّب من جسده سريعًا. حاولَ أن ينادي على (سمير) لكنّ صوته

خرجٍ واهنًا فأمسكَ البندقية وأطلقَ منها في الهواء ثمّ قذفَها على الأرض. رقد منهكًا وهو يفكر أنّه سيموت من النزيف ولنْ يدركه أحد.

سمعَ صوتَ خطوات تتقدم بحذر، ثمّ رأى شابًّا وفتاة يبدوان في الخامسة عشرَ من عمرهما. حين رأياه مُضرجًا في دمائه حاول الفتى إسعافَه وهو يشكره على بطولته، ويقول إنّه كان يتمنّى لو شارك معهم فقال ضياء: "ستكون بطلًا يوم ما ولكن الآن نادِ بأعلى صوتك على زميلي (سمير) ليصعد لإنقاذي".

حينَ سمع (سمير) النداء لم يتردّد وركضَ هو ومَن يعاونه نحو المبنى الذي كان (ضياء) موجودًا في أعلاه، وقبل أن يصلا انطلقَ عليهما رصاص غزير من ناحيةِ مبنى مركز الصّواريخ، وكأنّ حراس المبنى كانوا ينتظرون القناص ليجهز عليهم، فلمّا فشل قاموا هُم بالمهمّة. جعل صوت الرصاص قلبَ (ضياء) ينخلع، وطلبَ من الفتى أن يخبرَه بما حدث، فقال الفتى بحزن: "لقد سقط زميلاك". فقال (ضياء) بسرعة: "انزلْ أنت وصاحبتك الآن، لا بدّ أن هناك من سيصعد ليجهز عليَّ". قال الفتى بإباء: "لن نتركَك" وأمسكت الفتاة بذراعه تساعده على النهوض وتبعَها الفتى. حملاه وتحاملَ معهما على نفسه حتّى نزلا السلم، وقبل أن يصل لباب شقتِهما سقطَ على الأرض، وأظلمت الدنيا أمام عينيه.

***

٤٨

كانت الأخبارُ تتوالى من كلّ مكان على (باسل) وميساء وهُمَا في موقعهما في المبنى الحصين؛ أوّلًا جاءت أخبارُ الانتصارات المتتالية والسيطرة على القواعد العسكرية الأديتية في أرجاء الأرض المحتلة، أخبار تبشّر بقرب النصر ونهاية المعاناة، ثمّ بعدَ ذلك وردَهم خبرٌ عن فشل البعض في السيطرة على مراكز الصواريخ.

في البداية، لم ينتبْ كلاهما أيّ قلق يُذكَر بخصوص ذلك الخبر، فالحرب سجالٌ كما يقولون، لكنْ حين ظهرت الأخبارُ على بعض القنوات التليفزيونية تصف حجمَ الخسارة في تلك العملية بدأ القلقُ يدبّ في نفوس الكثيرين وهما من بينهم. لم يكنْ هناك أحدٌ يدري أنّ تلك هي خطة أناندار، وأنّها كانت تسير على قدم وساق، وأنّ قتل جميع مَن شاركوا في تلك الاقتحامات الفاشلة كان جزءًا رئيسيًّا في تلك الخطّة. انتشرت بعضُ الفيديوهات تمّ تناقلُها للمقاومين وهُم يتساقطون كالعصافير مصحوبةً بتعليقٍ حماسي من واحد مِن النياندرتال يدّعي أنّه جندي يشارك في اصطيادهم.

طلبتْ (ميْساء) أباها لتطمئنّ على سير العمليات، فقال لها إنّ ما حدث- على فداحتِه- لا يغيّر كثيرًا من مسار المعارك، وإنّ تساقط القواعد الأديتية لا يزال مستمرًّا رغم ذلك. لم تطمئنّ رغم محاولات عمر لتبسيط الوضع؛ قامت بالاتصال على ماندريك الذي ردّ قائلًا: "الوضعُ مُربك لي أنا أكثر من أيّ أحد يا ميساء". سألتْه عن السبب فقال: "هناك أكثرُ من اتصال من تقنيّين

أديتيين قبل سقوطهم، قالوا إنّ هناك طائرات دقيقة ظهرتْ في ساحات القتال ذات برمجة مختلفة لم يستطيعوا السيطرةَ عليها، والغريب أنّها لم تقتل الكثيرين لكنها اضطرتهم لإلقاء قنابل موجية عطّلت دروعهم، فاستطاع قنّاصٌ ما قتلهم بسهولة، كان فخًّا محكمًا بشدة ومكررًا في كلّ المواقع، ومقصودًا منه قتل أكبر عددٍ من المقاومين والجنود الأرضيين".

قال (باسل) بعد أنْ أنصت باهتمام: "وكأنّ مَن نصبَ الفخ كان جاهزًا أيضًا لتصويره لإحداث أكبرِ قدرٍ من الدعاية". فأمّن ماندريك على كلامه فقال باسل: "ألا يشيرُ هذا لأناندار..؟ شخصٌ يجيد التلاعب والخطط البديلة، ويعشق الظهور، ولديه طموحاتٌ أكبر منه" استنكرت (ميْساء) الفكرةَ، هي تنتظر ردّ ماندريك الذي صمت طويلًا قبل أن يقول: "لا أستبعدُ أن يكون له دور، لكنْ كيف استطاع أن يقنع الحكومة الأديتية، هذا ما لا أفهمه". انتهتِ المحادثة، ودارَ جدالٌ قصير بينهما انتهى بدون نتيجة قبلَ أن يصمتا ويكتفيَا بمراقبة الشاشات التي عادت للعمل بعد زوال تأثيرِ القنابل الموجية.

بعدَ قليل، صدرتِ الأوامر من قيادة التحالف بأنْ تظلّ القوات في مواقعها لحينِ إعادة تقييم الموقف قبلَ التقدم نحو أهدافهم القادمة. كان المبرر الظاهر لتلكَ الأوامر أنّ القوات صارت محرومةً من الدعم الجوي، لكنْ هناك سبب إضافي وهو وجودُ استعداداتٍ مختلفة عند الغزاة لم تكن في الحسبان.

في قصره كان أناندار في قمّة زهوه يحتفي بمساعدته التي أدارت العملية بمهارة. للمرّة الأولى، أجلسَها على كرسي مجاورٍ له، وناولها كأسًا من

الشراب نفسِه الذي يرتشف منه. كان في تلك اللحظة لديه شعورُ لاعب العرائس الذي يحرك الدّمى بخيوطه وهو يعلمُ الخطوة التالية في مصائرهم التي يجهلون كلّ شيء عنها.

كانت خطتُه هي أنْ يترك المقاومين يحقّقون انتصارًا مبدئيًّا على حكومة أديتيا، ثمّ يتحالف مع قائد الأمن ويقلبُ الآية لكنْ بدرجة تطيل أمدَ المعارك وترهق الفريقيْن المتحاربين. الخطوة التالية كانت أن يجبرَ المقاومين على فصل كوكب أديتيا عن كوكب الأرض باستخدام وسيلتِهم الجديدة في غلق الصدع الكوني الذي يربطُ الكوكبين، وعندها تكون أديتيا الأرض جاهزةً لخطوته التالية وهي إطلاق السّلاح الذي سيضمن له السيطرة عليها.

أمرَ شاودريك أنْ تطلب ميردار قائدَ المقاومين في كوكب أديتيا، كان الاتّصالُ مفاجئًا لميردار الذي أغلق لتوّه اتصالًا مع قادة المقاومين في الكوكبين تناقش معهم أسبابَ الانتكاسة التي حدثت. "كيف حالك يا ابنَ العمّ؟ ما رأيك في ما فعلته برجالكم؟". بهتَ ميردار من مفاجأته، وقبل أن يردّ قال أناندار: "قبل أن نكمل حديثنا أريد أن نكونَ على انفراد، عندي عرضٌ لا يمكن رفضه". ردّ عليه غاضبًا: "ليسَ هناك أسرار بيننا يمكن أن أخبئها عن رجالي، يمكنك أن تقول ما تريد". افترّ ثغرُ أناندار عن ابتسامة عريضة. فقد كان ذلك ما أراده بالضّبط فهو يعلم أن ميردار عنيد، ويعلم أنّ الرجلين الموجودين معه سيقتنعان بعرضِه في سهولة، وسيساعدان على إقناعه.

”أنتَ رأيت ما فعلتُه في عمليّتكم الأخيرة، ولا بدّ أن تعلم أنّني على وعي تام بكلّ خططكم القادمة“. تغيّر وجهُ الرجل وزادَ تقطيب جبينه وقال: ”ماذا تريد يا أناندار الصّغير؟ هل تريد عفوًا شاملًا بعد أن ننتصر؟“. ضحك أناندار ساخر ثمّ قال: ”اسمعْ، لا وقت لديّ للمزاح، ولن أعلّقَ على نعتك لي بالصغير، أنا أعرف خططك أنتَ وماندريك في حال فشل الحرب هنا أنْ تفصلا كوكب إديتيا عن كوكب الأرض“.

لم يردّ ميردار، رغم أنّ القلق ظهر على وجهه وهو يفكر في مصدر تلك المعلومة، واحتمال وجود اختراقٍ بين المقاومين في أعلى المستويات، ترك أناندار يكملُ قائلًا: ”بعدَ ساعاتٍ سترسل الحكومة آلافَ الجنود لدعم القتال هنا وهي فرصتُكم للسيطرة على أديتيا عندك، هذه خطتُكم الأساسية استغلال الفوضى في كوكب أديتيا للسيطرة على الحكم، ثمّ غلق الصدع الكوني الذي يسمح بالانتقال بين الكوكبين“.

قال ميردار وقد سئمَ من طريقتِه المتباهية: ”قل ما تريد لا وقت لدي للاستماع إليك“. فابتسمَ أناندار ساخرًا وهو يقول: ”بل لديك كلّ الوقت وتشعر بما أنا على وشكِ قوله“. زفرَ الرجل في نفاد صبر، فأكمل أناندار قائلًا: ”أغلق الصدع بعد أنْ ترسل الحكومة مقاتليها مباشرة، ولا تنتظر عودةَ ماندريك وبقية زملائك“. فقال ميردار: ”وما الذي يجعلني أفعل ذلك؟“. فقال: ”لأنّك إن لم تفعل فسوف أقتلهم جميعًا هنا، وسوف أطلبُ من الحكومة إعادة قواتها للكوكب عندك، وترك مهمة التخلّص من المقاومين في أديتيا الأرض لي أنا، فتخسرون هنا على الأرض وعندك في أديتيا“.

صمتَ ميردار وتبادلَ النظرَ مع رجليه، وقبل أن يتكلم أسقط عليهم أناندار مفاجأته، أخبرهم عن سلاحٍ يستعدّ قائد الأمن لإطلاقه حال إحساسه بالهزيمة، وهذا السلاحُ سيكفل تحييدَ الأرضيين تمامًا، وسيؤدّي إلى خسارة المقاومين الأديتيين للمعركة في كلا الكوكبيْن. كانت تلك الورقة هي ما يراهنُ عليه لجعل ميردار قابلًا للتّفاوض معه، وإقناعه بترك أديتيا الأرض ومَن عليها من أديتيين وأرضيين لأناندار ورجاله.

دارَ النقاشُ بين ميردار ورجاله وهُم يحاولون إقناعَه بأن تلك الخطة لا بديل لها، وفي المقابل كان يحاول إقناعَهم بخبث أناندار وفساد نيّته. قاطعهم أناندار قائلًا: "ما الذي تخشاه، أنا سأبقى مُحتجزًا هنا على الأرض لن أمسّك ولا رجالك بسوء، ولكَ عهدي أنّني سأعطي المقاومين هنا فرصةً ثمينة للتفاوض، أقسم برأس أناندار الأكبر، وكلّ أجدادي أنني لن أغدرَ بهم". انتهى الاتصالُ وقد اتفق معه أناندار على كلّ شيء، وعلى ألّا يخبر أحدًا من المقاومين في كوكب الأرض بما تمّ الاتفاق عليه.

أغلقَ ميردار الاتصالَ وقد استطاع مساعداه إقناعَه بأن ذلك المأزق الأخلاقي الذي هُم بصددِه لا حلّ له إلّا الامتثال لخطة أناندار. إنهم سيضحون (مضطرّين) بزملائهم على كوكب الأرض مقابلَ تحرير أديتيا من حكم الطغاة، وجعلها تعودُ لحكم الشعب مرة ثانية. مضطرّون لتلك التضحية ليس فقط من أجل قضيّتهم؛ بل من أجل إنقاذِ زملائهم لأنّ أناندار لو كشف تلك الخطط وترك الحكومة تفعل سلاحها السري؛ فسيؤدّي ذلك

لهلاكهم جميعًا على يد القوات الحكومية الموجودة في أديتيا الأرض. ماندريك نفسه كان موافقًا على فعل الشيء نفسه مع رفقاءِ السّلاح الأرضيين، ومع الشعب الأديتي المتبقي على الأرض، فلماذا يرفض أنْ تطبّق خطة مثيلة في حقّه. كانت حجتُهم في الموافقة على ما طرحه أناندار هي إنقاذَ ما يمكن إنقاذُه، والحفاظ على زملائهم في الأرض، باختصار كما قالها أحدُ مساعديه: "سنخونهم من أجلِ إنقاذ حياتهم".

***

٤٩

اندلعتِ المعارك ثانية على مختلف الجبهات داخل الأرض المحتلة. امتصت قواتُ حكومة النياندرتال (الأديتية) الضربة، ولم تتمكّن القوات الأرضية من تطوير هجومِها نظرًا لعدم تمكّنهم من تحييد قواعد الصواريخ وعدم قدرتهم على شنّ ضرباتٍ جوية أو صاروخية داخلَ أديتيا الأرض. في بعض القواعد التي سيطرت عليها قواتُ التحالف، بدأ الهجومُ العكسي من النياندرتال باستخدام طائرات دقيقة كثيفةِ العدد، وبعض الأفراد، ما أدّى إلى ارتباك في القوات الأرضية التي فوجئت بالهجوم، واستطاع عددٌ من الأسرى النياندرتال تحريرَ أنفسهم والهجوم من الداخل حتّى استعادوا السيطرةَ على تلك القواعد.

في أماكن أخرى، تمّ صدّ الهجوم، وبدأ هجومٌ مضادّ، وهكذا استمرّ الحال عدّة أيام، والإمدادات تأتي للطرفين من خارج الأرض المحتلة. القوات الأرضية والمقاومون يأتيهم دعمٌ من أكثر من دولة مشاركة في التحالف، والنياندرتال تتدفق عليهم قواتٌ عسكرية إضافية من كوكب أديتيا عبر الأجهزة الناقلة. بعد أسبوع من القتال الذي ظلّ فيه الوضع على الأرض ثابتًا، تفتّق ذهنُ أحد قادة التحالف عن فكرة تسيير المئات من الطائرات بدون طيار والصواريخ الموجهة لإرهاق دفاعات النياندرتال واستنزاف ما لديهم من صواريخ دفاعية.

كانت النتائجُ كارثية تمامًا، كان النياندرتال يردون على كلّ هجمة بصاروخ يسقطُ الطائرة أو المقذوف المهاجم، وصاروخ آخر يضرب القاعدة التي انطلق منها بمنتهى الدقة.

في نفس الوقت، ظلّ أناندار يحادث ميردار قائدَ المقاومة بشكل متكرّر ويطلب منه أن يغلقَ الصدع، ويفصلَ الكوكبين تمامًا، لكنّ الرجل كان مترددًا حتّى جاءَ يوم أرسل له رسالةً مسجّلة دون أن يفاوضه، مبيّنًا بذلك أنه ملَّ التفاوض.

كان نصُّ الرسالة؛ "العزيز ميردار، لقد وصلَ تعدادث القوات الحكومية عندك إلى رقم منخفض جدًّا، هذه فرصتُكم الوحيدة للسيطرة على الدولة في كوكبنا الأَمّ، وترك أديتيا الأرضية لنا، سوف يقوم قائدُ الأمن هنا بعد أربع وعشرين ساعة أرضية بتفجير قنابل بيولوجية في جميع أنحاء أديتيا، سوف تطلق فيروسًا قاتلًا يقضي على كلّ أرضيّ غريب داخل أديتيا؛ أعني هؤلاء الجنود الأرضيين الذين دخلوا أديتيا في الهجوم الحالي. لقد كانت الحكومةُ منذ بدء الغزو تعطي الأرضيين المقيمين داخل أديتيا تطعيمًا ضدّ هذا الفيروس وهو لا يؤثّر على الأديتيين بأي حال.

إطلاقُ هذا الفيروس لم يعدْ خيارًا الآن؛ الأرضيون استجمعوا كلّ قواهم واتّحدت أكثرُ من عشرين دولة ضدّنا فيها أقوى الدول عتادًا، ولو استمرّ الوضع هكذا فقد تستمرّ الحربُ أعوامًا، ولذلك سيفجّر فيرنام هذا السلاح. سوف يقتل كلّ الجنودِ الأرضيين داخل أديتيا الأرض، وسيجعل الدول الأرضية تعزل أديتيا خشية انتشارِ الفيروس خارجها،

وسيتيح هذا للحكومة القضاء على كلّ رجالكم هنا، ثمّ العودة إلى أديتيا والقضاء عليكم هناك. ملاذُك الوحيد هو أن تقطع الصلةَ بين كوكبنا الأمّ وكوكب الأرض. أعدُك أنّنا هنا حين نكون دولة معزولة سنصل إلى حلّ وسط يضمنُ الحفاظ على أرواح الجميع.. صحبتك نعمات ماجوها".

كانت رسالة أناندار- وما تلاها من تواصل بين شاودريك وميردار- السببَ في اتّخاذ قرار نهائي بتفجير القنبلة وغلق الصدع الذي يسمح بالانتقال بين الكوكبين؛ ذلك الصدعُ الذي تعتمدُ عليه كلّ أجهزة الانتقال في آلية عملها. صار النياندرتال الموجودون على كوكب الأرض مُقيمين فيها بشكل دائم ولن يتمكنو أبدًا من العودة إلى كوكب أديتيا؛ كوكبهم الأمّ.

كان رأي ميردار- قبلَ غلق الصدع- هو إبلاغَ رفاقهم في كوكب الأرض، ومحاولةَ إعادة أكبر قدرٍ منهم، لكنّ ذلك الرأي لم يلقَ قبولًا لأن جميعهم الآن منخرطون في معارك متفرقة، وإبلاغهم بذلك سيُحدث اضطرابًا شديدًا قد يؤدي إلى مقتلِ الكثيرين منهم، إضافة إلى أنّ أجهزة الانتقال لدى الثوار لا تسمح بنقل أعداد كبيرة في ذلك الوقت القصير.

قبلَ أن يتمّ تفجيرُ القنبلة مباشرة، أرسل ميردار رسالة مطولة لماندريك شخصيًّا يُطلعه فيها على الأسباب التي جعلتْه يعجل بقراره، وعن اعتذاره هو وبقية الثّوار في أديتيا عنْ ترك زملائهم في الأرض. كانت الرسالة مسجّلة صوتًا وصورة تحدّث فيها أكثرُ من عضو في المقاومة. كانت التعليماتُ أن لا يطلع عليها أحدٌ إلا ماندريك، وهو مَن سيقرّر الطريقة التي يخبر بها زملاءه، ويقرّر خطوته القادمة.

قبلَ أن تصل الرسالة لماندريك مباشرة كان موجودًا بواحدةٍ من غرف القيادة بصحبةِ عُمر. كانوا يتابعون سيرَ المعارك في المناطق المختلفة ويحاولون تنسيق القوات بين الجبهات المختلفة. الغريبُ أنّه أظهر ارتياحًا لذلك التطور في سير المعركة، وحين سأله عُمر عن سبب ارتياحه كانت إجابتُه: "المجهول دومًا يرعبني، لم أتوقّع يومًا ما أن تنتصرَ بتلك السهولة التي رأيناها أوّل يوم، والآن عرفت ما نواجهُه بالضبط، وأيقنت أنّ أناندار يعاونهم ضدّنا أيضًا.. الآن كلّ الأوراق على الطاولة كما تقولون هنا في الأرض".

حينَ وصلته رسالة ميردار، انتحى جانبًا في إحدى الغرفِ المخصصة للنوم وقامَ بتشغيلها، ظلّ بعدها صامتًا لا يعرف فيمَ يفكر. أخذ يتحرك في الغرفة جيئة وذهابًا بقدْر ما كانت تسمح له مساحتُها الضيقة. لا يحقّ له أن يغضب من زملائه فهوَ لو كان في موقعهم لاتّخذ القرارَ نفسه. كان في الرسالة تفاصيل أيضًا عن السّلاح البيولوجي الذي ستستخدمه حكومة أديتيا الأرض في القضاء على الجنود الأرضيين. كان يعلم أنّ وجود ذلك السلاح قد يكون خدعة من أناندار، وأنّه إذا أخبرَ قيادات التحالف عنه فإنّه سيحدث بلبلة لا داعي لها.

استدعَى (عمر) للحديث معه، كان انصرافُ (عمر) من غرفة التحكم للحديثِ معه على انفراد مثيرًا للريبة، لكنّهما لم يعبئا بتساؤلات الضباط الموجودين معهم. عرضَ الرسالة كاملة على (عمر) ثمّ انتظر رأيه، سأله عمر: "هل فجّروا تلك القنبلة التي تغلق الصدعَ بين الكوكبين، أم لا يزالون في مرحلة التحضير؟". قال ماندريك: "أجل، لقد تأكّد أحدُ رجالي من هذا".

كانت المفاجأة كبيرةً على (عمر)، يصعب استيعابُها مرة واحدة، أطرق مفكّرًا دون أن يرد، اختلطتْ في عقله الأفكار وتضاربت مشاعره. ابتهج عمر للحظةٍ فقد كان يعني ذلك انتهاءَ الحرب حتّى لو سبّب ذلك إحباطًا لماندريك وزملائه، لكن حينَ تمّ ذكر موضوع السلاح البيولوجي تجهم وجهه وملأته الحيرة. لا يعرف هل يتصرفُ على أساس وجود ذلك الخطر، أم أنّ أناندار كاذب ينطبق عليه صفة {إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا..}. لم يكن يقلقه أنْ يؤثر السلاح عليه أو على عائلته، فقد تلقوا حقنَ التطعيم تلك أكثرَ من مرّة .

"لقد تأكّدت- أيضًا- أنّ هناك صفقة تجري بين أناندار وقائد الأمن، وأن الحاكمَ محبوس بزعم أنّه يتعاون مع المقاومة" قال ماندريك بصوت محبط ثمّ تساءل في تردّد: "هل نخبرُ حلفاءنا أم ننتظر للمزيد من الحقائق؟" ردّ عليه (عمر) بحسم: "لا مجالَ للانتظار، لا بدّ أن نطلع قادة التحالف على تلك التطورات". لم يعترض ماندريك فقد كان مصدومًا من فكرةِ أنّه لن يعود لوطنه ثانية، ذلك الوطن الذي ناضلَ من أجله نصفَ عمره تقريبًا، النضال الذي دفع خلاله ثمنًا باهظًا حين تخلى عن عائلته ومستقبلِه المرموق، واختار طريقَ المقاومة من أجل المهمشين من شعبه.

كان- أيضًا- خائفًا من كلّ الاحتمالات الممكنة، صار المستقبل في لحظة واحدةٍ مُرعبًا أمام عينيه. لو انتصرتْ حكومة أديتيا باستخدام ذلك السلاح المزعوم سيكون الحكمُ للأقوى، لأناندار وحليفه قائد الأمن، وهمَا من أسوأ مَن عرف من الرّجال، ولو انتصر الأرضيون فسوف يصيرُ هو وكل الأديتيين

المهاجرين إلى الأرض أقلية مُضطهدة يعانون من التمييز والاحتقار، وهو شيء عرف به البشر دومًا، خاصّة في تلك المنطقة من العالم. لن يرحمَ الأرضيون أحدًا منهم؛ إن كراهية المُختلف تجري في دمائهم حسبَ رأيه، ويزيد عليها أنّ لهم ثأرًا مع ذلك المختلف.

طلبَ من (عمر) أن يترك له فرصةً ليخبر زملاءه أولًا قبل التشاور مع القادة الأرضيين. بعدَ ثلاث ساعات من اجتماعه هو و(عمر) كان هناك اجتماع آخر أكبر حجمًا. كان في الاجتماع قادةُ التحالف من عدّة دول وثلاثة من قادة المقاومة الأديتيين، وعدد من قادة المقاومة المستقلة مثل عُمَر. كان الرأي الذي طرح أولًا هو الهجومَ الكاسح طالما أنّ الأديتيين صاروا بلا إمدادات والإسراع لإنهاء تلك الحرب، لكنّ الأغلب اعترضَ لأنّ احتمال وجود سلاح بيولوجي هو احتمال مرعب للغاية.

وقفَ أحدُ الجنرالات الأرضيين، وقال بحزم: "سنستنزفُهم أيّها السادة، دعونا نطلقُ عليهم صواريخَ وقذائف بلا عددٍ حتّى نستهلكَ كلّ دفاعاتهم". فقال عمر: "سيادة الجنرال، أنتَ تُخاطر بتدميرِ مدن وإسقاط ضحايا كثيرين". ردّ آخر قائلًا: "إنّ ردّ الأديتيين قد يكون موجعًا حتّى لو كان قصير الأمد". فقال الجنرال: "لن نعطيَهم فرصة، سنهاجم بآلافِ الطّائرات والصواريخ مرّةً واحدة". تدخل ماندريك وقال: "تريد أن تفعلَ بالأرض المحتلّة كما فعل الحلفاءُ بمدينة دريسدن الألمانية منذ مائة عام". انتاب الجنرال غضبٌ شديد وهو يقول: "كيف تجرؤ؟ ثمّ ما أدراك أنت بتاريخِ الحرب العالمية الثانية وملابساتها؟"

زادَ اللّغط، اختلطتِ الرّؤى وتعدّدت الآراء، اقترح البعض انسحابَ قوات التّحالف، وترك المقاومين الذين عملوا في الداخل نظرًا لأنّهم محصنون ضدّ فيروساتِ النياندرتال، والاكتفاء بإمدادهم بالأسلحة والمعدات، وفرض حصار على الأرض المحتلة ككُل. رفضَ آخرون ذلك الاقتراحَ بحجّة أنّ الأمر كله قد يكون خُدعة، لكنْ قبل انتهاء الاجتماع وصلَ للجميع خبرٌ أنّ هناك انقلابًا بين الأديتيين، وأنّ بيانًا سوف يصدرُ من قادة هذا الانقلاب خلالَ ساعة، فتمّ إيقافُ الاجتماع لحين معرفة ما يجري بين قيادات الأديتيين.

***

٥٠

قضى (ضياء) يومينْ بعدَ إصابته العنيفة في أحدِ مقارّ المقاومة بعد أن تمكن بعضُ سكّان المبنى الذي كان فيه مِن تهريبه بعد أن استطاعوا إسعافه أوّلًا. تأكد بعد ذلك أنّ كلّ مَن كانوا معه في المهمّة قد قتلوا، وأنّه يجب عليه أن يذهب إلى أسرة (سمير) بعدَ انتهاء القتال ليُعطيهم رسالته الأخيرة التي كانت شريحةً ذكية مسجلًا عليها فيديو وداع قصير.

في أوّل ليلة بعدَ إصابته تذكّر (سمير) كثيرًا، لم يكونَا مقرّبين بل على العكس؛ كان (ضياء) دومًا يكرَه وجودَه لأنّه يرى فيه مظهرًا للظلم الذي يتعرض له، ويرى دومًا أنّ (سمير) ليس جديرًا بالعمل مجنّدًا تحت إمرته، فما بالك بالعكس. تغيّر كلّ ذلك في قلبه بعدَ مقتل (سمير) وتذكّرَ له لحظات جيدة، وخصالًا حميدة، والأهمّ أنه تذكّر أنّ هذا الرجل كان يُقاتل وهو محرومٌ من أسرته، وأولاده محرومون منه.

بعدَ تماثله الشّفاء، عرفَ منهم أنّ جثامين (سمير) وبقية القتلى قد تمّ إجلاؤهم مِن المكان مقابلَ تسلّم الحكومة الأديتية لجثث قتلاها. استراحَ يومين آخرين ثمّ عاد للقتال مجدّدًا في أحدِ المواقع، واستطاع معَ زملائه السيطرة على قاعدة مهمة على أطرافِ مدينة السّادس من أكتوبر بالقرب من الحدود الغربية للأرض المحتلة.

لم تتعرّضِ القاعدة لهجوم عكسي من قوّات النياندرتال الحكومية بعدها، ولذلك مضتْ خمسة أيام في هدوءٍ نسبي، وسرتْ شائعات أنّ النياندرتال قد

توقفوا عنِ القيام بهجوم عكسي في القواعدِ الأخرى. حوتِ القاعدة خليطًا من المقاومين المصريين والأديتيين لكنّ القدرَ الأكبر كان جنودًا نظاميّين من الجيش المصري وقوّةً صغيرة من الجيش السوداني المشارك في التحالف.

أبلغَ (ميْساء) بوفاةِ سمير، تردّد كثيرًا قبلَ إبلاغها لكنّه كان يعلم أن أباها قد يمنعُ عنها خبرًا كهذا. شعرَ أنّه مِن واجبه ومِن حقّ (سمير) عليه أن يبلغ المرأةَ التي أحبّها بأنّه قد استشهد. لم يجدْ لديها ردُّ فعلٍ قوي، فقط ترحّمت عليه وقالت إنه كانَ إنسانًا طيبًا وتمنّت لضياء السلامة في بقية العمليات.

لم يدركْ لماذا شعرَ ساعتها بكلّ هذا الضيق من ميساء، وصفَها في حديث له مع أحدِ الجنود الذين تعرّف عليهم في القاعدة بأنها امرأة مدللة قليلة الأصل لا خير فيها. قال له الجندي يومَها إنّ النساء هكذا سريعاتُ الحبّ، سريعات النسيان، فقال ضياء: "لا أتحدّث عن الحب؛ أتحدّث عن رفقة السلاح، إن الوفاء لرفيق السلاح أقوى من الوفاء للحبيب، لقد قاتلَ إلى جوارها لسنوات". فقال زميله: "إنّ كلّ عواطف النّساء سريعة التقلب، بغضّ النظر عن نوعية تلك العواطف".

ما لم يعرفْه (ضياء) أنّ (ميْساء) حزنت كثيرًا لمقتل (سمير)، وأنّها كانت تعرفُ هذا من قبْل أن يطلبها هو. كان سببُ ردّها البارد هو وجودَ (باسل) معها حينَ طلبها (ضياء) وهي قدْ أظهرت له من قبْلُ أنّ موت (سمير) مرّ عليها كحدث عابر كي لا تثير ضيقَه أو غيرته. أوحتْ لباسل أنّ الحدثَ مُحزن حقًّا، لكنّه عابر، ولذلك خافتْ أن يرى (باسل) شعورها الحقيقي تجاهَ موت (سمير) حين ردّت على (ضياء) بتلك الطّريقة الجافة.

في اليوم الذي اجتمعتْ فيه القيادات لمُناقشة ما أبلغهم به عُمر وماندريك من فصلِ الكوكبين، وذلك التهديد الوشيك بإطلاقِ فيروس قاتل، وصلت الأخبار للجنود أنّ هناك شيئًا خطيرًا يجري، وأنّهم سيسمعون أخبارًا مهمّة بعد قليل. جلس (ضياء) يشاهدُ الأخبار ومعَه مجموعةٌ من الجنود النظاميين وهُم الجنودُ الذين لازمهم منذ انضمامِه للقاعدة مبتعدًا عن المقاومين.

بعدَ قليل، ظهرَ على الشاشة قائد الأمن في دولة أديتيا الأرض. تحدث الرجل للمواطنين الأديتيين مِن جميع الأعراق (يقصد ُالأرضيين والنياندرتال) مخبرًا إياهم أنّ قوات دولة أديتيا تردّ المعتدين، وأنّ المسألة لن تطولَ حتّى تنتهي بالنصر. تكلم عن اكتشاف وجودِ خونة في صفوف القيادات، وإنّه يقوم الآنَ هو والرجال المُخلصون بتطهير الحكومةِ والجيوش منهم، وأنّ على رأسهم حاكم أديتيا الأرض الذي تمّ القبضُ عليه، وسجنُه لحين محاكمته.

كان يتكلم بلهجة حماسية زادت نبرتها حين بدأ يختم خطابه قائلًا: "إنني قد قبلتُ بتكليفٍ من زملائي أنْ أقود المرحلة الحالية حتّى نستطيع التغلب على أعداء أديتيا العظيمة". كان يتحدّث كديكتاتور عتيدٍ من جنرالات أمريكا اللاتينية في القرن العشرين وهو يضيف: "لقد قمتُ ومعي قادتنا الكبار باتّخاذ قرار بمنع الانتقال بين كوكبِ أديتيا وكوكب الأرض مؤقتًا لحينِ انْتهاء المعارك، وأؤكّد لمواطنينا العظام ولجنودِ أديتيا أنّنا سننهي تلك الحربَ بحلول الغد، دامت عظمة أديتيا والويل لأعدائها".

انتهى الخطابُ وضياء يضحكُ قائلًا لزملائه: "هذا الرجلُ مجنون، لقد قام بانقلابٍ عسكري وهو يحاولُ إكساب شرعيّة لنفسه عن طريق هذا الخطاب الفارغ"، ثمّ قامَ ونظر لزملائه الجالسين وهو ينفخُ صدره بطريقة هازئة وقال: "أبشّركم أيّها الزملاء أنّنا سنمحو النياندرتال مِن على وجه الأرض خلال يوم واحد".

انفجرَ زملاؤه ضاحكين، وشرعوا في مزاح قطعَه مجيء أحد الضباط. وقفوا جميعًا مُنتصبين في احترام، وتبعَهم (ضياء)، وعندها نهرهم الضابطُ بشدّة عنْ حديثهم عن محْو النياندرتال مُستفسرًا عمّن قال هذا الكلام فرفع (ضياء) يده، فقال الضابط: "اسمعْ يا سيد (ضياء)، أنت هنا تعتبر مجنّدًا تمتثل للأوامر العسكرية والانضباط، وعليك الالتزام بتعليمات القيادة بعدم استخدام ذلك المصطلح عند التحدّث عن الأديتيين". فقال (ضياء) وهو ينظرُ له شذرًا: "حسنًا يا سيدي". فقال الضّابط موجّهًا كلامه للجميع: "نحن هنا جميعًا في خندق واحد، ولولا زملاؤنا الأديتيّون لما استطعْنا الوصولَ إلى هذه المرحلة، دعونا نكملُ تحرير أرضنا ونعيدهم إلى كوكبهم بسلام".

في ذلك الوقت، كان الاجتماع بينَ القيادات محتدمًا. طلب قادة المقاومة الأديتيّين من القادة الأرضيين طمأنتهم جديًّا على مصير شعبهم الموجود حاليًا في الأرض، والذي لم يعدْ له سبيلٌ للعودة إلى كوكبه. تغيّرت المعادلة بالنسبة لماندريك وزملائه، وظهرت أصواتٌ بينهم تطالبُ بالتوقف عن مساعدة الأرضيين والتواصل معَ الحكومة الأديتية للاتفاق معهم، ومحاولة تشكيل حكومة مختلطة تحكم أديتيا الأرض بدلًا من الخضوع للأرضيّين

وعنصريتهم. كانوا بين شقي الرحى؛ وضع أنفسهم تحت رحمة الأرضيين وحكوماتهم ذاتِ الوعود المتقلبة أو الاتفاق مع أعداء الأمس. جعلَ هذا ماندريك يطلب ضمانات جديّة من الحكومات الأرضية بخصوص مصيرِ شعبهم قبلَ المُضي قدمًا في الحرب أو مناقشة أيّ خطوات تالية.

وقفَ (عمر) في صفّ ماندريك بعد أن أقنعَ بقية زملائه بالاستمرار في الحربِ في صفّ الأرضيين بعدَ إعطائهم الضمانات المطلوبة. كان المطلوب قرارًا من مجلس الأمن يتمّ إصدارُه خلال ساعات يحدّد وضعَ الأديتيين ويقنّن وجودهم في الدّول التي يعيشون فيها كمواطنين مثلَ بقية مواطنيها. بعدَ شدّ وجذب ومشاورات بينَ القادة العسكريين وحكوماتهم انعقدَ مجلس الأمن، وطلب من القيادات العسكرية الاستمرارَ في النقاش بالتوازي لوضْع خطّة حربية لإنهاء الوضع الحالي.

كانت النقطةُ الأكثر إثارة للجدل بعدَ ذلك هي موضوع الفيروس الذي يزعم أناندار وجودَه لدى قائد الأمن. لم يقتنع غالبُ القادة الأرضيين المجتمعين بقصة الفيروس تلك، وقالوا إنّها لو كانت حقيقية لكانوا أعلنوها. قال ماندريك ردًّا على ذلك: "إنّ قائدَ الأمن يطمح في الحكم، وأنا أعرفه منذ زمن طويل؛ هو شخص انتهازيّ وغيرُ سويّ نفسيًّا، وأعتقد أنّ أناندار طلب منه أن يذكر ذلك التهديد لكنه رفض". فردَ عليه أحدُ القادة: "ما سببُ رفضه؟". فقال: "لأنه يريد أن يثبتَ لأناندار أنّه لا يأتمر بأمره كما يفضّل أن يكون انتصارُه مدوّيًا، وهذا سوف يحدث فقط إذا كان النصرُ مصحوبًا بأكبر عددٍ من جثث القتلى، وهو يعلم أنّكم لن تقتنعوا بكلام أناندار، وستتركون جنودَكم فريسة لفيروسه".

سرتْ همهماتٌ ونقاشات جانبية مطوّلة أنهاها القائدُ العام لقوات التحالف بسؤالِ ماندريك: "أنت متأكّد من وجود الفيروس وقدرتهم على إطلاقه بنسبة كم بالمائة؟". فقال ماندريك بعدَ تفكير قصير: "ثمانين بالمائة". فقال القائد: "ولو طلبنا منكَ تحديد موقع قائد الأمن، هل يستطيع رجالُك تحديد موقعه؟". فردّ أحد قادة المقاومة: "هذا معروفٌ للجميع، ويمكن أن نحدّد لك موقعه بمنتهى الدقة". فقال القائد: "إذن، نهاجم موقعَه هذا بأكبر عددٍ من القوات حتّى نوقعَ به سريعًا". فقال عُمر: "أو نرسل مجموعة صغيرة لاغتياله".

سرتْ همهمات أخرى قطعَها القائدُ بقوله: "أنت رأيت ما حدث للمجموعات الصّغيرة وفشلها الذريع، نحن سنهاجم خلالَ ساعات بأكبر قدر من القوات"، فقال سامرُ قائدُ المقاومين في لبنان: "ولو قامَ ذلك الرجل ساعتها بإطلاق الفيروس!". فقال القائد: "ليس لدينا خيارٌ إلّا المخاطرة، فالبديل هو أن ننسحب، وأن نترك أرضنا محتلّة للأبد لأنّنا خائفون من فيروس مزعوم، سوف نقوم بهذا الهجوم خلال ساعات، وأريد من الجميعِ المساهمة في وضْع خطّته بطريقةٍ تضمن نجاحه". ووافق جميعُ القادة الأرضَيين تقريبًا على الفكرة، لكنّ ماندريك وزميليه تحفظا عليها. في النّهاية قال ماندريك: "لو كان الفيروسُ حقيقيًّا، فهو سيقتل رجالكم لا رجالنا، فالاختيارُ لكم، ولن نحاول إقناعَكم بالعدول عنه أكثر من ذلك، لكنّنا لن نبدأ هذا الهجومَ قبلَ صدور قرار من مجلس الأمن يحمي شعبنا".

***

٥١

التقطتْ (ميْساء) أنفاسَها بصعوبة وهي تجلس في غرفتها في انتظار باسل الذي جاءَ لتوديعها قبلَ اشتراكه في الهجوم المكثف الذي سيحدث خلال ساعات. كانت تتمنّى لو يتوقف كلّ هذا ولو لدقائق، تريد هدنةً قصيرة وسط هذا الجنون، تريدُ أن تلقي سلاحَها وتخلع الدروع، وتجلس على أريكة عريضة مرتدية عباءة قطنيّة مزركشة، تضعُ على شعرها قليلًا من الزيت، وتترك أمّها تمشطه لها برفق وهي تسندُ ظهرها على مسندِ الأريكة، وعلى المقعدين المقابلين لها يجلس أبوها وزوجُها يتحدّثان عن أيّ أمور فارغة، وطفلان يتشاكسان فيما تبقّى من فراغ الغرفة التي يطلّ زجاجُها على حديقة بسيطة في الخارج.

تريدُ أن يختفي من رأسها ذلك الطنينُ الذي يخصّ الحرب ومَن فيها، وتنتهي مشكلاتٌ مثلَ متى نهجم.. وكيف نتغلب.. ومتى ننسحب؟ وتبدأ مشكلات مثل متى سنتناول الغداء.. ومَن سندعوه لحفل عيد ميلاد.. وأين سنذهب في العطلة الصيفية.. هل هذا كثيرٌ عليها؟ هل سيأتي يومٌ تكون أزمتُها الكبرى أنّ أحد أبنائها حصل على درجاتٍ منخفضة في امتحانٍ ما، أم ستبقى تلك الحرب إلى الأبد!

دخلَ (باسل) الغرفة متعجّلًا، حيّاها بقُبلة سريعة على خدّها، ثمّ قام بتشغيل شاشة تعرض إحدى القنواتِ الإخبارية. كان أناندار واقفًا يتحدث: "أنا رجلٌ يؤمن بحقّ الناس في المعرفة". تبادل هو وهي نظراتٍ

ساخرة وأناندار يكمل: "الحكومة الأديتية والحكوماتُ الأرضية يخفونَ عليكم حقيقة الأمر، لقد قام بعض المخربين في كوكبِ أديتيا بتفجير قنبلةٍ كَمِّية أدت إلى غلقِ الصدع الكوني الذي يسمح بالانتقالِ بينَ الكوكبين، ولم يعد هناك مجالٌ لعودة أكثرَ من سبعين مليون أديتي إلى كوكبهم". أصيبَ كلاهما بالذهول عندَ سماع تلك الحقيقة فلم تكن تلك الأخبار ظهرت للعلن بعدُ، ولا حتّى للمقاتلين ولم يحدثهما عمر بالخبر.

زادَ القلق عندما تكلّم أناندار عن السلاح البيولوجي، وأكّد أنّ قائد الأمن سيقوم بتفجيره في كلّ الأحوال. لم يتكلّم أحدهما، واختفتِ النّظرات الساخرة من عينيْهما حتّى أنهى أناندار خطابَه بقوله: "أنا لستُ داعية حرب، أنا محبّ للناس وللسلام، وأقول هذا لأنقذَ أرواح عشرات الآلاف من الجنود الأرضيين، وأحمّل حكوماتهم المسئولية الكاملة عن ما سيحدث، وأخاطب صديقي قائدَ الأمن بلهجة النّاصح، وأطلب منه أن يتراجعَ عن إطلاق هذا السلاح ويفتح المجال للتفاوض مع القادةِ الأرضيين لينسحبوا من أديتيا، ويتركونا نعيشُ فيها في سلام نحن والأرضيين مواطني أديتيا، أرضيين وأديتيين في دولة واحدة تحترم الجًميع".

ما إنِ انتهى الخطاب، وانتابت (باسل) نوبةُ غضب عارمة، صبّ لعناته على جميعِ مَن سمحوا لأناندار بالتضخّم حتّى وصلَ لهذه الدرجة، ولم ينسَ أن يلعنَ نفسه لأنّه لم يقمْ بقتله حين اقتربَ منه ذات يوم. حاولت (ميْساء) تهدئته رغم توترها الشّديد، وشعورها أنّ كلّ شيء قد وصل إلى نهايته، وأنّها لا بدّ أن تحزم أمرها وتعودَ إلى الفيوم وسحقًا للحرب والنضال.

بينما كانت تهدّئه وجدتْ نفسها تردّد كلمات هدأتها هي نفسها، وكلما تكلمت وخفّت حدّة غضبه، كلّما خفّت حدّة جزعها حتّى هدأ كلاهما. جلسا صامتين دقيقة قبلَ أن تقول ميساء: "ماذا سنفعل الآن؟". فقال لها: "وماذا بيدِنا، نحن مجرد بيادق يحرّكها قادتنا". قامتْ وصبّت لنفسها كوبًا من الماء، لكنّها ناولته إيّاه دون أن تدري وهي تقول: "أفكّر في الاتصال بأبي، و...." قبلَ أن تكمل جملتها رنّت نغمةُ اتصال قادم لباسل فأجابه واستمعَ للتعليمات، ثمّ أغلق الاتصال قائلًا لها: "لا بدّ أن أتوجهً الآنَ للقاعدة الموجودة في السادس من أكتوبر... إنّهم يعجلون موعدَ التحرك نحو مقرّ قيادة النياندرتال".

ودّعها على عجل وداعًا حارًّا، وانطلق في طريقه، اتّصلت هي بقائدها وهي تغالبُ دمعة أرادتِ النزول. أخبرها قائدُها أنّ الأوامر صدرت بتحريك بعض المجموعات، وأنّ بقية القوات مطلوبٌ منها الحفاظ على مواقعها لحين ورود أخبار جديدة. حاولتِ الوصولَ لأبيها عدّة مراتٍ بلا فائدة، وفي النهاية جاءها اتصال منه أخبرَها أنّهم يجهزون للهجوم على القيادة الأديتية بالفعل، وأنّهم أرسلوا رسائل للحكومة الأديتية تطلبُ التفاوض في ذات الوقت، وكأنّ أيّ نوع من الخداع صار مباحًا الآن حتّى في عُرف عمر عوض الله.

سألته عن الفيروس فطمأنَها قائلًا.. إنّه لن يؤثر عليهم لأنّهم قد تلقوا تحصينًا ضدّه من قبلْ، ثمّ أضاف محاولًا طمأنتها رغمَ توتره الواضح: "هناك فِرَق من القواتِ الخاصّة التركية والأمريكية ومجموعة من المقاومين الأديتيين يحاولون اقتحامَ قصر أناندار في جبال تركيا، فقد استطاعوا تأكيدَ أنّه كان

يلقي كلمته من هناك". فقالت: "أرجو أن يقتلوه لنرتاحَ من شرّه". فقال: "كلّا، نريد انتزاع معلومات منه تساعدنا في التفاوض مع حاكمهم الجديد، لكنّ الأوامر الصادرة لهم هي الإمساك به حيًّا أو ميتًا".

أخبرَها أنّهم استطاعوا الحصولَ على قرار من مجلس الأمن، لم يتم الإعلان عنْه بعد، يتضمّن الحفاظ على حقوق الأديتيين الموجودين في الأرض المحتلة، وأنّهم سوفَ يتفاوضون مع الحكومة الأديتية على الاستسلام مقابل العفو عن كلّ ما سبق، واعتبارهم جميعًا مواطنين في الدول التي يعيشون فيها حتّى العسكريين منهم.

"إذًا، لماذا تستعدّون لاقتحام قيادتهم؟". سألته، فقال: "تحسبًا لفشل المُفاوضات"، ثمّ أنهى حديثَه معها مؤكّدًا على سرية كلّ كلمة فيه، وأنه حتّى رؤساؤها المباشرون لا يعرفون شيئًا عن تلك التفاصيل. حاولت اغتصاب ابتسامة وقالت "هذه ميزةٌ أنْ أكون ابنة عمر عوض الله". دوّى صوتُ نفير فخرجت من غرفتِها لحضور الطّابور المسائي للقاعدة، وهي تدعو أنْ تمرّ الأيامُ القادمة على خير.

انضمّ (باسل) للقاعدة التي تضمّ (ضياء) الذي ما إنْ رآه حتّى رحّب به وعرّفه على أصدقائه من المجندين. تعاملَا معًا من قبل في عمليتين للمقاومة في الفترة التي تلت اشتراكَ (باسل) في محاولة قتل أناندار. كانت ظروفهما المتقاربة تخلقُ نوعًا من الحميميّة التلقائية بينهما؛ كلاهما عمل مع النياندرتال ضابطًا بعد الغزْو، ثمّ انشق وانضمّ للمقاومة بعدَ ذلك، وكلاهما يعمل مرؤوسًا لآخرين يراهم أصغرَ منه سنًّا وأقلّ كفاءة. الغريب أنّهما قبل الغزو

كانا بعيدين اجتماعيًّا وفكريًّا عنْ بعضهما تمامًا، (باسل) ابنُ اليساري السجين الذي يكره نظامَ الحكم، و(ضياء) ضابطُ الشرطة ابنُ عائلةٍ تعتبر من المؤيدين تمامًا لأنظمة الحكم المتعاقبة، لكن الاحتلال صهرَ كليْهما حتّى صارَا أقرب ما يكون لبعضهما.

سريعًا اندمج (باسل) مع المجموعة، وصارت بينهما نقاشات ومزاح حتّى دعاهما النفيرُ إلى طابور مجمّع لكلّ القوات بعد ساعات قليلة من وصول باسل. كانت الشمسُ قد غربت للتّو، وكان هذا هو الموعدَ المحدد مسبقًا لتحركهم نحو قيادة الأديتيين، والذي تمّ تأجيله لحين صدور أوامر أخرى.

وقفَ القائدُ الذي كان ضابطًا مصريًّا برتبة عميد وأطلعهم على المستجدات. قال لهم إنّ الأوامرَ صدرت بأنْ يكون الجميع على أهْبَة الاستعداد للتحرك في أيّ وقت، وأنّ هناك مفاوضات قد بدأتْ بالفعل قد تؤدّي إلى انفراج الأزمة واستسلام الأديتيين (لم يقل نياندرتال بالطّبع احترامًا للمقاومين منهم) وقال: "لا تصدقوا كلام ذلك الكاذب الذي تحدّث عن وجود سلاح بيولوجي، اعلموا أنّنا جميعًا في خندق واحد، نحن مستعدّونَ للشّهادة فداءً للوطن، لكنّ الوطن أيضًا لا يتخلى عن أبنائه، واعلموا أنّ هناك شحناتٍ ضخمة من الأقنعة الواقية في طريقها إلينا لحمايتنا في حالِ وجود مثل هذا التهديد، والذي أعلم يقينًا أنّه نوع من الحرب الدعائية لا غير".

تهلّلت أساريرُ الكثير من الجنود لذلك الخبر، وتهامس البعض منهم في فرح جعلَ الضابط الواقفَ جوار القائد يصرخ بعنفٍ آمرًا: "انتباه" فاعتدل الجميع وعاد القائدُ يكمل كلمته، ثمّ ترك الكلمةَ للضابط الأصغر ليقول لهم بعضَ التعليمات. كان (باسل) واقفًا في تبرّمٍ وسط مجموعةٍ انتقلت معه من

القاعدة التي كان فيها، وحين بدَا له أنّ الضابط على وشك صرفِهم لاحظَ أنّ الجندي المجاور له بدأ في السعال. دبّ القلقُ في نفسه فسألَ الجندي عن ما به، ورفعَ يدَه مخاطبًا الضابط لكنّ الضابطَ انخرطَ في السعال بدوره.

انتشرتْ عدوى السّعال بين الجميع، تناول القائدُ دفّة الحديث من الضابط الذي جعله السعالُ عاجزًا حتّى عن أخذ أنفاسِه على راحته، أمرهم القائد جميعًا بالانصراف وعدمِ القلق والراحةِ في غرفهم وهوَ يسعلُ هو الآخر. ذهب باسل إلى حيثُ يقفَ (ضياء) فوجدَه يسند مجنّدًا كان جالسًا معهم قبل الطابور وهو يقول: "لا تقلق، يبدو أنّها عدوى أنفلونزا". فابتسم الجندي وقال وهو يسعل: "وانتشرتْ بهذه السّرعة! أنا طبيبٌ بالمناسبة، وهذه ليست مجرّد أنفلونزا".

صحبَه حتّى غرفته التي جلس فيها مجنّدان آخران في إعياء مصحوب بسعالٍ أقلّ حدّة ممّا حدث في البداية. جاء أحدُ المقاومين الأديتيين، رجل يعرفه باسل، وأبلغه أنّ هذه الأعراض لا تبشّر بخير لأنّها لم تطلْ ولا واحد من الأديتيين أو مَن كانوا في الأرض المحتلة، فسأله باسل: "وما الخطيرُ في هذا؟". فقال: "هذا يطابقُ ما وصل إلينا من شائعاتٍ أنّ الفيروس لا يؤثر إلّا على الجنود القادمين من الخارج".

ذهبَ (باسل) إلى صالة الطعام ليحاول التفكيرَ بعيدًا عن أصوات السعال. وجدَ بعضَ الرجال جالسين هناك يحاولون معرفةَ الأخبار وقد انشغل عنهم الضباط والقادةُ بالسّعال والإعياء الذي نالَ منهم جميعًا. خطر بباله أنّ هذا الفيروس قد يكون مُمرضًا لا قاتلًا، وأنّ المقصود منه إضعافُ

المقاتلين حتّى يمكن السيطرة عليهم. بدأتِ الأخبار تتوارد من مختلفِ البقاع عن سقوط الجنود من كلّ الجنسيات أسرى لنوباتِ سعالٍ وإعياء وارتفاع طفيف في درجة الحرارة. قيل إنّ الحكومة الأديتية أكّدت أنّها لا تزال على استعدادٍ للتفاوض، وأنّها لم تطلق أي أسلحة.

بعدَ ساعة تقريبًا جاءه اتصالٌ من ميساء: "باسل، كيف حال الجنود عندك؟". فقال: "جميعهم بخير، عدا الإعياءُ البسيط، لا أعتقدُ أنّ هذا فيروس فتاك". فقالت: "عرفتُ منذ قليل أنّه كانت هناك محاولة للقبض على أناندار وقد باءت بالفشل، وانفجر القصر الذي كانوا يعتقدون أنّه فيه وقتل كلّ الجنود الذين شاركوا في العملية". فقال لها: "كما كنت أتوقّع". فقالت: "إنّه حرّ طليق الآن، ويقال إنّه هو مَن أطلق الفيروس".

ظهرَ أناندار على الشاشة وهو يخاطب الشعبَ الأديتي بلهجة المدافع عن وطنه، ويصبّ لعناته على القادة الأرضيين الذين حاولوا اغتياله، وأنّه عرف الآن أنّ قائدَ الأمن قد تمّ سجنُه لأنّه خان أديتيا، وكان يريد تسليمها للأرضيين، وقد عاد الحاكمُ الأصلي لأديتيا العزيز بلادريك إلى موقعه. قال إنّ نوايا الحكومات الأرضية خبيثة، وإنّ هذا قد جعل القادة الأديتيين يأخذونَ قرارًا بإطلاق سلاحهم الفيروسي، وإنّ الساعات القادمة ستشهد حسمَ المعركة.

قبلَ أن يعلق أحدٌ على كلمة أناندار دخلَ (ضياء) وصرخ قائلًا: "باسل، حاول أن تساعدني". هُرِع (باسل) إليه وتوجّهَا عدْوًا نحو الغرفة التي تركه فيها. كان الجندي صديقُه يسعل بقوّة دمًا صافيًا، وقد سال الدم أيضًا من أنفه، احتقنت عيناه بشدّة.

وقفَ (باسل) حائرًا لا يدري ماذا يفعل، يبدّل عينه بين (ضياء) اليائس وبين الجندي مصطفى الذي غطتِ الدماءُ نصفَ وجهه وصدره. سمع صرخةً من الجندي الآخر على الفراش المقابل، ورأى الأعراضَ نفسها قد بدأت تظهر عليه. جرى خارجًا من الغرفة غيرَ عابئ بنداء ضياء، رأى في الممرّ جنديّيْن يسعلان وينزفان، رأى في الغرفِ آخرين، خرج إلى الساحة فوجدَ أحدهم ملقى على الأرض ينتفض وقد شربتِ الأرض دماءه. كانت مجزرة تحدثُ أمامه بدون رصاص ولا قنابل، جنود ينزفون حتّى الموت بدون جرح واحد، وقادة راقدون على الأرض يحتضرون وهم يعتذرونَ لجنودهم أنّهم لا يستطيعون إنقاذهم.

عادَ إلى قاعة الطعام، كانت الشاشة تنقل صورًا بشعة لجنود ينزفون؛ مصريّين، أتراك، عرب، يهود، أكراد، صينيّين، روس، أمريكيّين، وغيرهم. كلّ الجنودِ الذين شاركوا في التحالف لتحرير أرضهم أو لنصرة البشرية، كانوا يتساقطون على الأرض يسعلون دمًا، وينزفون، أو ينتفضون انتفاضة احتضار أخيرة. عرف ساعتَها أنّ عملية الدّرع المكسور تستحقّ اسمَها تمامًا، لكن ما انكسر لم يكنِ الدّرع الذي قصدَه مَن خطّطوا للعملية أصلًا.

***

القسمُ السّابع

ثمنُ النّجاة

"يجبُ أن نتعلّم كيف نعيش معًا كشركاءَ في وطنٍ واحد، أو نهلك معًا، ونُهلك أهلنا وكأنّنا مجموعة من الحَمقى"

عمر عوض الله،
نقلًا- بتصرّف- عن
مارتين لوثر كينج

٥٢

صرختْ (ميْساء) بقوّة صرخةً لم تخرج منها حينَ أصيبت في أي قتال من قبْل. صرخةٌ مصحوبة بدموع قليلة، وتوسّل كثير، ودعاء من القلب بأنْ تمرّ تلك اللّحظاتُ بسرعة. أخذت عشرين أو ثلاثين نفسًا متلاحقًا قصيرًا، ثمّ أتبعتها بنفسٍ واحدٍ عميق كتمتْه داخلها ثمّ صرخة مكتومة وهي تدفع بقوّة عضلات بطْنها وحوضها، ثمّ تتوقف في إجهاد، وتقول لأمّها التي كانت جالسة على مقعد: "أعطيني شيئًا يوقفُ هذا الألم أرجوك، ألستُ ابنتك؟" فتبتسمُ أمّها وتقول: "الأمومة ليست بالسّاهل، هيّا ادفعي بقوّة أكثر، لقد أوشكَ على الخروج".

كانت عينا زهرة تدمعان وهي تولّد ابنتها بنفسها، ربّما لأنه لا يوجد أحد غيرها يقوم بتلك المهمّة، وربّما لأنها لم تكن تتمنّى أن يولَد لها حفيدة في هذا الزمن البَغيض الذي صارت الحياةُ فيه أسوأ من الحياة تحت الاحتلال. ابنتُها تلد ولا أحد يقفُ جوارهما؛ فباسل وعُمر منخرطان في معاركَ لا أحد يعلم جدواها، أو متى تنتهي. كانتا تقيمانِ في بيتٍ صفيحيّ ضمنَ مخيّم في الإسكندرية على حدود الأرض المحتلة من الداخل.

مرّت تسعةُ أشهر على السّبت الأسود الذي انطلق فيه فيروس مرعب من مكمنِه حاصدًا أرواحَ ما يقارب المائة ألف جندي من عشرين دولة تقريبًا، والذي بسببِه قامت دولُ العالم بعملِ حجرٍ صحي كامل على جميع مناطق الأرض المحتَلة في مصر وسوريا وتركياَ ولبنانً وفلسطين التاريخية. لا أحد يخرج أو يدخل، والحدودُ مراقَبة بالكامل من خارجها بالطائرات والجنود والدوريات.

حينَ تمّ تفعيل الفيروس، أيقن الجميعُ أنّ النياندرتال سيسحقون كلّ من تبقى مِن المقاومين، وقد يفنون مَن تبقى مِن الأرضيين جميعًا داخل أديتيا، لكن لحُسن الحظّ لم يحدث ذلك. اتّضح في اليوم التالي أنّ هناك ضباطًا في الحكومة يعملون لصالح أناندار وهُم مَن قاموا بتفعيل السلاح. انشقّ هؤلاء الضباط وانخرطوا في قتَالٍ ضدّ القوات الحكومية مدعومين برجال أناندار.

قال الحاكمُ الأديتي بعدَ ذلك في خطاب له.. إنّ استخدام الفيروس على هذا النّطاق الواسع جريمةٌ شنْعاء، وإنّه كان معدًّا فقط للاستخدام في مكان واحد أو أماكنَ معدودة حتّى تعلم الدولُ المهاجمة قوّةَ مَن يحاربون، فيقومون بسحب قواتهم. قال أيضًا إنّ الأديتيين متحضّرون يقدّسون الحياة، وإنّ مَن قاموا بتلك الجريمة سيتم عقابُهم.

عرفَ الجميع بعدَها أنّ أناندار هو صاحبُ التوقيع الوحيد على تلك الجريمة، برّر أفعاله وقال إنّه قتلَ مائة ألف جندي مُحارب يحمل السلاح، ولم يسقط شخصًا أعزلَ واحدًا. قال إنّ قادة القوات الأرضية كانوا يخطّطون لقصف طويل الأمد لمناطق أديتيا الأرض المختلفة غيرَ عابئين بعدد الأبرياء الذين سيموتون نتيجة ذلك. قال يومَها: "أنا أنقذتُ الملايين على حساب مائة ألف من غزاة مدجّجين بالسلاح، أنا أستحقّ جائزةَ نوبل للسّلام التي تعطونها في الأرض". الغريب أنّ تابعيه ازداد عددُهم، خاصّة من النياندرتال المتديّنين نتيجة خطابه وخطابات شاودريك مساعدته المتعصّبة.

انتهزَ الثوارُ قتالَ أناندار ضدّ قوات الحكومة، وحاولوا الاستيلاء على مناطق واسعة، والبدءَ بإقامة مناطق مستقلّة تحت إدارتهم. تحولت الحربُ الواحدة بين قوّتين إلى عدّةِ حروب، قوات أناندار ضدّ القوات الحكومية،

والثوار ضدّ هؤلاء وهؤلاء. انقسمت الأرض المحتلة إلى مناطق نفوذٍ تتداخل فيها الحدود القديمة فتجد قوةً تسيطر على أرضٍ تمتدّ من العريش لتل أبيب مرورًا بغزة، وقوة تسيطر على دمشق وبيروت وما بينهما، وأخرى على أجزاء متداخلة من تركيا وسوريا.

لم تتوقفِ الأمورُ عندَ هذا الحد، وإنّما اتّسع نطاق الحرب وزادت أنواع العداوات. حين قتل كلّ الجنود الصينيّين الموجودين في القدس، سارعت قوات أناندار للسيطرة عليها، ثمّ استطاعت قواتٌ مشتركة للثوار أخذها ثانية ثمّ اندلع القتالُ بين العرب واليهود في تلك القوات، وامتدّ إلى أجزاء واسعة من فلسطين، ثمّ قامتْ حروب بينَ أكراد وأتراك، وحروب أيديولوجية ودينية شملت حتّى النياندرتال الذين ظهرَ بينهم فصيلٌ دينيّ مسلّح اسمه "أبناء ماجوها" يرون أن شاودريك زنديقة تساندُ سفّاحًا، وتتظاهر بالتديّن، وأنّ الحكومة غير شرعية. كثرت التحزبات والفصائل، وكثرت تقسيماتُ المناطق، وشحّ الغذاء والدواء، في الوقت الذي زاد فيه تدفّق السلاح.

اتّساعُ نطاق المعركة أدّى لظهور مخيمات لاجئين جديدة، ابتكرت دول العالم آليةً لإدخال المساعدات عنْ طريق شاحنات ذاتية القيادة تدخل المساعدات الغذائية والطبية، ثمّ يتمّ تعقيمُها على الحدود وإعادة ملئها ثانية. كانت تلك الشاحنات أيضًا وسيلةً فعّالة لتهريب الأسلحة للداخل، إمّا مقابل كتل من معدن الطاقة الذي استخرجَه النياندرتال، وإمّا لمجرد دعمِ فصيلٍ على حساب آخر.

بعدَ تسعة أشهر من القتال، كانت هناك ثلاثُ عواصم رئيسية للفصائل الأكبر حجمًا في هذا الصراع؛ عاصمة الثوار في الإسكندرية، عاصمة حكومة

الأديتيين في القاهرة، وعاصمة أناندار في أنطاليا بتركيا، إلى جانب مقرّات أخرى صغيرة للفصائلِ الأصغر، وكان القصف المتبادل والطائرات المسيرة تغير على كلّ العواصم من أعداء حكامها.

(عمر) وعائلتُه كانوا في الإسكندرية، وقد فضّلت زهرة كعادتها أن تقيم بين اللاجئين وتعالجهم ومعها (ميْساء) التي طلب الجميعُ منها معًا الابتعاد عن القتال حتّى تضعَ حملها، واستجابت لهم على مَضض. كانت الإقامة في المخيمات أيضًا لها فائدةٌ أخرى وهي أنّها لم تكن معرّضةً لقصف أو تفخيخ أو وجود عمليات عسكرية داخلها أو بالقرب منها.

خرجتْ زهرة من عند (ميْساء) وبيدِها طفلة منيرة الوجهِ لفّتها في قماط ورديّ اللون مُزركش، تطغى بهجتُه على الجوّ المحيط. فوجئت بعمر وباسل واقفين في انتظارها، وعلى وجهيْهما آياتُ القلق، فأعطت الطفلةَ لباسل ليقبّلها أولًا ثمّ ناولها لجدّها فقبّلها وأعادها للزهرة التي صارت جدّةً الآن. استأذن باسل ليدخل على (ميْساء) تاركًا (عمر) وزهرة، ومعهما المولودةُ وعلاء الصغير الذي بلغ عامه الثّاني. قال (عمر) هامسًا وهو يقترب من أذنها: "أوحشتني يا ستّي زهرة" فضربته على كفّه، وقال: "اسمها تيتة يا ابنَ كفر الشيخ" فأطلق ضحكته مجلجلة وهو يميل على الوليدة يقبّلها ثانية.

ابتسمتْ (ميْساء) في إجهادٍ حين رأت (باسل) وقالت وهي تضمّه: "ما هذه المفاجأة الجميلة، متى جئت؟". فقال مبتسمًا: "لقد استدعاني القائد عُمر عوض الله". تمتمتْ بكلمات تقدير لحبّ أبيها وهي تسأله عن حالِ القتال ومستجداته، فطلب منها مازحًا أن تتعافَى بسرعة لتعاونه في القتال. كان أبوها على باب الغرفة حين سمع هذا الحديث، فقال ضاحكًا: "على

أيامنا كانت المرأةُ تساعد زوجها في غيطه أو دكّانه، أمّا اليوم فتقاتل جواره".

كان (عمر) في تلك الأيام عضوًا في مجلس الحكم الذي شكله الثوار لإدارة المناطق التي يسيطرونَ عليها. لم تكن الأمورُ استقرّت في تلك المناطق تمامًا، وحتى تشكيل ذلك المجلس لم يكنْ قد استقرّ بعد، لكنّهم كانوا يعتبرونه نقطة البدء. كانت مناطقُ سيطرة الثوار متفرقة، تشمل الإسكندرية وشمال ووسط دلتا مصر حتّى دمياط، ثمّ منطقة في الشام تشمل بيروت ودمشق، ومنطقة في تركيا تشمل إزمير وما حولها. كانت المناطقُ متباعدة والمشاوراتُ لا تزال قائمة لتشكيل حكومة مركزية، وحكومات محلية، تكون خليطًا من البشر (بأعراقهم المختلفة والمتناحرة) والأديتيين الثوار لإعطاء مثالٍ على إمكانية قيام دولة مشتركة.

أصرّ (عمر)- رغم المحاذير- على عملِ سبوع لحفيدته التي أسموها كاميليا، وهوَ الاسم الذي اختارته (ميْساء) ليكون قريبًا من اسم كميردا وفاءً لذكراها. استقرّوا على إقامة السبوع في مسقط رأسه في كفر الشيخ. كان هناك مقرّ مخبأ جيدًا تحتَ الأرض في منطقة تسمى القنطرة البيضاء من فترة ما قبل الحرب الكبرى، كان مقرًّا للمقاومة تديرُه كتائبُ النصر. أصرّ (عمر) على دعوة اثنين من أبناءِ عمومته، وجاء ماندريك وآخرُ من المقاومة، وضياء الذي صارَ صديق (باسل) المقرّب.

أقبلَ (ضياء) ومعه فتاةٌ أديتية مليحة الوجه، على غير العادة، وهنأ (باسل) وميْساء بمولودتها. كان (ضياء) الآن يعمل مع المقاومة الداخلية، فبعدَ حصار أديتيا نتيجةَ الفيروس صارَ هو وميساء وكلّ زملائهما الذين كانوا يتبعون المخابرات المصرية سابقًا؛ يعملون مع المقاومة التي يقودها عمر

وماندريك. كان اللقاءُ ودودًا، لكنّهما أنهياه سريعًا لكي لا يعطّلَا (ميْساء) وباسل عن تلقي بقية التهاني.

همستْ (ميْساء) في أذن باسل قائلة: "مَن تلك الأديتية المعلقة في ذراع ضياء؟". فابتسمَ قائلًا: "إنّها زوجته، فتاة هجينة، أبوها أرضي، كان مُختطفًا في كوكبِ أديتيا قبل خمسة وعشرين عامًا تقريبًا". فنظرت مدهوشة وقالت: "ضياء الَذي كان لا يطيق رؤيةَ الأديتيين يتزوج فتاة هجينة، وهو الذي كان يعتبر الهجناء كائناتٍ ملعونة!". ابتسم (باسل) وقال لها: "لقد تعرّف عليها في الفصيل المقاوم الذي انضمّ إليه، وقاتلا جنبًا لجنبٍ في عدة معاركٍ، ونمت بينهما قصّةُ حبٍّ تكللت بالزّواج". فقالت وهي تلوّي فمها: "وهل هذا وقتُ زواج!".

انفجرَ (باسل) ضاحكًا وهو يقول إنّ هذا لم يكنْ رأيها ليلة أن حملت في كاميليا، قبلَ بدْء حرب شاملة بساعات. احمرّ وجهُها خجلًا وقالت محاولة تغيير الحديث: "هذا الفيروس الذي كان كارثةً من جهة؛ نجحَ في توحيدنا من جهة أخرى". فقال: "عندك حقّ، لقد وحّدنا هذا الفيروس؛ الناس داخل حدود الأرض المحتلة لم يعودوا يفرّقون بين أرضي وأديتي، المشكلة الآن خلافٌ في الأيديولوجيات وليس خلافًا عرقيًّا".

مرّتِ الشهور بعدَ مولد كاميليا، واستقرّت العائلة على أن تبقى (ميْساء) في المخيّمات تساعد أمَّها في تطبيب المرضى، وترعى الطفلين مؤقتًا حتّى تفطم كاميليا ثمّ تعودُ لتولي مهامّها في إطار الإسكندرية فقط. كانت المعاركُ بين جذب وشدّ على أكثرَ من جبهة، وفي أكثرَ من مكان، ولا توجد قوّة تتقدّم في أرضٍ قوة أخرى دون أنْ تتراجع بعدَ ذلك. باتَ الأمرُ أقربَ إلى تقسيم

على وشك الحدوث، ودول جديدة على وشكِ أن تنشأ. كان الوضعُ بالنسبة للناس يزداد سوءًا، فقد كانت المساعدات تقلّ أحيانًا، وكان القتال حين يشتدّ في إحدى المناطق يجبر السكانَ على الرحيل إلى مكان آخر.

الحربُ لم يكن لها أيّ حلٍّ في الأفق، كان تعدّدُ المعارك وأطرافها المختلفة يعقّد الأمورَ أكثر، ويزيد الأحقادَ يومًا بعد يوم. بعد مضي عامين على عزل الأرض المحتلّة عن بقية العالم حاولتْ بعثةٌ من منظمة الصحة العالمية مكوّنة من علماء في الأمراض المعدية استكشافَ مدى توطّن الفيروس في الداخل، وأخذ عيناتٍ منه لمحاولة إنتاج لقاح ضدّه. لم يكن السببُ إنسانيًّا فقط، ولكن رغبة دولَ العالم في الاستفادة منٍ مصدر الطّاقة الجديد، وطرق استخراجه كانت هي الدافع الأساسي.

كانت البعثةُ تعمل في المناطق التي يسيطر عليها الثوار، وبعدَ عدّة أشهر تبيّن لأعضاء البعثة أنّ الفيروس متوطنٌ بشدّة، وأنّه مصمّم بطريقة لا يمكن التغلب عليها بأيّ تقنيةٍ موجودة على كوكب الأرض، وليس من الممكن إنتاجُ لقاح ضدّه. اكتشفوا أيضًا أنّ كلّ مَن يقيم على الأرض المحتلة صار حاملًا للفيروس، ويمكنه نقلُ العدوى بسهولة لأيّ إنسان آخر. كان ملخّصُ شهور من الدراسات أن الطبّ الموجودَ حاليًا- على كوكب الأرض- لا يمكنه حلُّ تلك المشكلة، وأنّ الأرض المحتلّة (أو أديتيا الأرض) لا بدّ أن تبقى معزولةً على الأقلّ لخمسين عامًا أخرى.

***

٥٣

دخلتْ شاودريك على أناندار، وجهُها مُمتقع، وهي متردّدةٌ فيما تريد قوله، كانتْ للتّو عائدةً من جبهة قتالية بينَ قوات أناندار والقوات الحكومية الأديتية في إحدى القرى التركية التي تقع على الحدّ الفاصل بين مناطق نفوذ القوتين. قالت في اضطراب: "سيدي، لقد احترقت القريةُ بالكامل كما أمرت، لم يبقَ فيها أحدٌ على قيد الحياة، لا من جنودهم ولا من رجالنا ولا من القرويين. قمْنا بتفجير أبراج القرية بمَن فيها، وحرق كلّ المزارع، لكنّ قائدَ الحكوميين استطاع القضاء على رجالنا بتلغيمِ طريق عودتِهم قبل أن يُقتل".

قطّب أناندار حاجبيه ثمّ قال: "لا يهم، سوف نشتري رجالًا غيرهم". فقالت شاودريك وهي تلتقطُ أنفاسها: "سيدي، إنّ المقاومين يفاوضون الحكوميين الآن، عمر عوض الله مصمّمٌ على التفاوض، ويفعل المستحيل مع رجاله لإنجاحِ تلك الخطوة". فقال أناندار: "دعيهم يجلسون، وسوف أرسل بعدَها رجالًا يشعلون الموقفَ بينهم على أكثر من جبهة".

استجمعتْ شاودريك ما تبقّى من شجاعتها، وقالت: "ثمّ ماذا يا سيدي، هذه حربٌ لن يكسبها أحدٌ ولو بعدَ مائة عام". هبّ أناندار واقفًا وهتف فيها بغضب: "نحنُ نختلف عنهم، نحن نسعى لإقامة دولةٍ عظمى ينحني العالمُ أمامها". فقالت شاودريك وقد امتلأ قلبُها برعب غير محدود: "نعم يا سيدي، ولكن أديتيا كلها على شفا المجاعة، الحربُ تأكل كلّ شيء، والمساعداتُ شحّت عن ذي قبل".

صمتَ أناندار وتأملها طويلًا ثمّ وضع يده ضاغطًا على كتفها وهو يتفحص وجهها قائلًا: "هل كفرتِ برسالتنا يا شاودريك؟". فردّت بتلعثم: "مستحيل يا سيدي إنّما أقترح أن نتفاوضَ، ثمّ نلعب سياسةً كما يفعل الأرضيون، سيكون هناك أحزاب وانتخاباتٌ على طريقتهم، وفي تلك الحالة سنستطيع بأموالنا ورجالنا أن نكسبها ونسيطرَ على أديتيا في ظروف أفضل".

لم يرتحْ أناندار للفكرة، ولَمح لشاودريك أنّها دليلٌ على نقص ولائها، لم يكن يرى أنّه يجب عليه التنازلُ حتّى لو طال أمدُ الحرب، فهو يرى أنّ ذكاءه وبُعد نظره سيجعلُه الرّابحَ في النهاية. قالت شاودريك في يأس: "تتنازل الآن قليلًا يا سيدي لنربحَ في النهاية، التنازل هو ثمنُ النّجاة". فردّ عليها أناندار في غضب قائلًا: "هل جننتِ أيّتها اللعينة، تكرّرين كلام العجوز المخرّف عمر عوض الله على مسامعي". أخذتْ شاودريك تكرّر اعتذاراتها، وتؤكّد أنّها لم تكن تقصد، وأنّ الجملة ربما علقت في ذهنِها بشكلٍ عفوي، والحقيقةُ أنّ (عمر) قال: "إنّ التعايش هو ثمن النجاة، وإنّ التّعايشَ يستلزم مِن الجميع بعضَ التّنازلات عن أفكار أو مكتسبات حتّى ننجو جميعًا".

بعدَ فاصلٍ من التملق والاعتذار، قال أناندار في حسم: "اسمعي يا شاودريك، سوفَ أغفر لك تلك الزلّة لأنّك أكفأ مَن عاونني، لكنّني لن أتردد في قتلك إذا فعلتِها ثانية". شكرتْه شاودريك وألهج لسانَها بالشّكر له والدعاء لماجوها أن ينصرَه على الجميع دومًا، ويحقّق آماله. لوّح أناندار بيدِه غيرَ مُكترث بدعاء مساعدته فهو لم يكنْ متديّنًا على الإطلاق، ولكنّه كان يحترم تدينَها كما كانت شقيقته تحترم تدينَ مساعدتها، وكان مثلها يرى أنّ المساعد المتدين أكثرُ

تفانيًا في خدمة رئيسه تطبيقًا لحكمة ماجوها.. "قدّس معلّمك وقائدك كما تقدّسُ ربك، حتّى وإن لم يكن متديّنًا".

انصرفتْ شاودريك من عنده ورأسُها يموج بالأفكار. دخلت إلى غرفتها وانتحتْ جانبًا للصلاةِ والدعاء، وطلبِ المشورة من ماجوها مباشرة؛ فقد كانت متعمّقةً في الدين، وفي مرتبة كاهنٍ، لدرجة أنّ رجالهم المتديّنين يصلون بين يديها حينَ يكونون بعيدًا عن المعابدٍ، وكان ذلك الركن الصغير في غرفتها بألوانه الحمراء المميزة يعتبر معبدًا صغيرًا في حد ذاته.

استغرقتْ شاودريك سنينَ في التبرير لكلّ الفظائع التي يرتكبها أناندار بحجة أنّه رجلٌ ذو رؤية، وأنّه يسعى للأفضل، وأنّ أرض ماجوها الموعودة ستصير جنة على يديه. بررت لنفسها قتلَ عشرات الآلاف من الجنود الأرضيين في ساعات معدودةٍ لأنّ ضرورةَ الحرب اقتضت ذلك، رغم أنّ قلبها لم يطمئن لتلك الفعلة بشكل كامل. ما لم تستطعْ تبريرَه هذه الأيام هو إزالة قرًى بأكملها، ومحْوها بسكانها بدعوى ضرورة الحرب أيضًا.

إنّ الأرضيين، وإن كانوا في عقيدتها أقلّ شأنًا من الأديتيين، إلا أنهم مخلوقاتٌ أيضًا كبقيّة المخلوقات، يجب الترفّقُ بهم، وعدم قتلهم إلّا في الضرورة. كانت المرة الأخيرة تلك أشدّ وقعًا على نفسها من قبْل، فقد رأت جثثًا ممزقة لنساء وأطفال، وشعرت عميقًا أنّ هناك خطأ يجب تصويبه. من ناحية أخرى رأت أنّ محاولاتِ (عمر) للتفاوض مع الحكومة تشكّل خطرًا شديدًا عليهم وقد تنجح، وعندها سيصيرون محاصرين، وسيصير أناندار وجيشُه ورجاله في مهبّ الريح.

ضميرُها وشعورُ الذنب الذي كان يؤرّقها أحيانًا نتيجة تلك المذابح التي يرتكبونها كان أضعفَ كثيرًا من شعور الخوف الذي تملّكها حينما فكرت في الاحتمالاتِ الواردة إذا نجحَ تحالفُ الحكوميين والمقاومين. حركها شعور الخوف ذلك للتّحدث مع أناندار، وتعمّد استخدام جُملة يكرّرها (عمر) ليجعل الموضوع يؤرّقه، لكنْ يبدو أنّ النتيجة كانت عكسية، وأنّ أناندار قد يقتلها، أو على الأقلّ يشكّك في ولائها.

في لحظةٍ نبتتْ في رأسه الفكرةُ لدرجة أنها ظنّتها وحيًا إلهيًّا من ماجوها أو أمرًا مقدّسًا. لا بدّ من قتل أناندار، إنها لن تكون مرتكبةً لذلك الذنب الفظيع وهو خيانة سيّدها، بل ستكون مُنقذةً للناس من سيدٍ ضلّ طريقه، وهي سابقة حدثت في تاريخِ أديتيا من قبْل، ومرتكبها كان رجلًا متديّنًا صالحًا. تسارعت ضربات قلبها وبدأتْ تشعر بحرارة جلدها، وتورّد وجهها، وهي تفكّر في تلك الخاطرة، وتسأل نفسَها إن كانت حقًّا إلهامًا من ربّها، أم طمعًا من نفسها.

امتدّت بها الأفكارُ وهي تعدّد الرجال الموجودين في القصر الآن الذين يدينونَ لها بالولاء أكثرَ من أناندار. أكثر من نصفهم تقريبًا متدينون ينظرون إليها ككاهنةٍ وقائدة في الوقت نفسه، ولو طلبت منهم إلقاءَ أنفسهم في النار لفعلوا. يمكنها الآنَ أن تدخلَ إلى أناندار وتنفردَ به، ثمّ تقتله سريعًا بدون تردّد، ثمّ تستدعي رجالها المقرّبين أولًا، وتستولي على حكم إمبراطورية أناندار.

كان أناندار بلا أولاد، وكان يرفض أن يضعَ سيناريوهات لكيفية التصرف في حالِ ما إذا تمّ قتله. كان يمنع التكوينَ الهرمي المعتاد بين رجاله لكنه كان دومًا يتّخذ مساعدًا يقوم له بكلّ المهام، ويتعمد هو إهانتَه وتحقيرَه أمام الرجال في كلّ المناسبات حتّى يعطي انطباعًا أنّ ذلك المساعد خاتمٌ في أصبعه.

كان ذلك في صالح شاودريك، فالرجالُ الذين يدينون لها بالولاء سيكونون على قلب رجلٍ واحد في الولاء لها، أمّا الآخرون فهم مرتزقة سينتهي ولاؤهم لأَناندار بمجرّد موته، وسيسهل التحكمُ بهم لذلك. أنهت صلواتها وقد وصلت لقرار أنّه لا بدّ أن تنقلب على أناندار، ولكنها لم تقرّر بعدُ متى، وهل يجب أن تتواصل مع المُتفاوضين لتخبرهم بخطّتها، أم عليها أن تقتله أولًا ثمّ تتواصل معهم.

ربّما لو انتظرت على تنفيذ خطتها لوجدتْ أناندار قد تغيّر عليها، خاصّة وأن كلامَه معها في الجلسة الأخيرة لم يكن يوحي بأيّ خير. قد ترى منه تحفزًا في الأيام القادمة، ومراقبة لصيقة لها، وقد يدسّ أحدَ الرجال ليبلغ عن كلّ دقيقة من دقائقها، وقدْ يلجأ إلى قتلها. مادامت قد اتخذت قرارًا فلماذا التأجيل! هناك خطورة في التنفيذ حالًا، وخطورة في التنفيذ آجلًا، والخطورة الأكبر في بقاء الوضع هكذا لأنّها ترى أنّ المستقبل بالتأكيد ليس لأناندار إذا ظلّ تفكيره كما هو.

قامتْ من جلستها وخرجتْ من الغرفة وهي تنتظر علامةً من ماجوها تنبئها بما يجبُ أن تفعل. كانت تهبط السلمَ متعجّلةً وهي تتجاوز أحدَ رجالها

الذي كان يهبطُ في تؤدة، وفجأة انزلقت قدمُها وكادت تتدحرجُ على السلم لولا أن رجُلَها أمسكَها بيدِه بقوة وأنقذها. على الفور فسّرت ذلك الحادث البسيط على أنّه علامة من ماجوها على وجوبِ تنفيذ قرارها، وقتل أناندار فورًا. الغريب أنها بنَتْ قرارها المبدئي بالتخلّص من أناندار بالأساس على فكرة أنّ أناندار سوف يتربص بها مستقبلًا- والحقيقة أنّ أناندار تناسى الموقف برمّته- ثمّ بنتْ فكرةً أخرى وفسّرت حادثًا عاديًّا على أنّه علامة تحثّها على الإسراع في تنفيذ خطتها.

كانت تفسّر الموقفَ أنّ انزلاقها على السلم دليلٌ على أنّها تنزلق مع أناندار إلى هاوية، وأنّ إنقاذ رجلها لها دليلٌ على أنّ رجالها سينقذونها بعد أن تقتله. الحقيقة الواضحةُ أنّ الموقف يمكن تفسيرُه عكسَ ذلك تمامًا، فهي متعجلة لقتل أناندار وتعجّلها هو السبب في انزلاقها، وهذه علامةٌ على أنها يجب أنْ تتروى، لكنّها فسّرت الحدث بما يتسقُ وأفكارها وتلك الشهوة التي ركبت رأسها، شهوة السلطة والتخلّص من سيد لا يعاملها إلّا باحتقار.

عادتْ شاودريك إلى غرفتها، وفتحت خزانةً سريّة أسفل فراشها ثمّ أخرج منها غشاء شفّافًا ثبّتته على شفتيها وإبهامها بحذر، ثمّ توجّهت إلى غرفة أناندار. كان ذلك الغشاء الرقيق يحوي سمًّا في الجهة الخارجية منه، سمًّا يتكون من دقائق ميكروسكوبية يمكنها اختراقُ المسافات بين خلايا الجلد والوصول إلى مجرى الدم في ثوان.

كان أناندار جالسًا وحدَه يتابع الأخبار باهتمام، فاستأذنت منه بأن تحدثه فسمحَ لها. ركعت على ركبتها واستحضرت دموعها وأخذت تبكي متظاهرةً

بالندم وطالبةً العفوَ من أناندار الذي ابتسمَ برضا، وقال لها إنّه سامحها بالفعل. لم تصدقه بالطّبع، واستمرّت في خطتها، زحفت على ركبتيها ثمّ أمسكت يدَ أناندار وقبّلتها. نقل السّم لجلد أناندار عنْ طريق الغشاء المثبّت على شفتيها وعلى إبهامها، تحركت الجزيئات الميكروسكوبية مخترقةً طريقها لقتلِ مَن ظنّ نفسه خالدًا لا يُقهَر.

انتظرتْ شاودريك قليلًا حتّى بدأتِ الأعراض في الظهور على أناندار وهي تشاهدُه في جمود كامل. كان أناندار يفقد الإحساسَ بأطرافه تدريجيًّا، يعتري قلبه خفقان، ويعتصر صدرَه ألمٌ رهيب، فهِمَ أنّ شاودريك قد قامت بتسميمه، كان وجهه مذهولًا متسائلًا، كأنّه يبحث عن تبرير لخيانة مساعدته، أو لضعف جسده عن مقاومة سمّ كهذا. ظلّ يتألمُ بأنّاتٍ مكتومة حتّى انقطعت أنفاسه، وهمدَ تمامًا، وبقيت على وجهه تلك التعبيراتُ مرسومة تنبئ بطريقة موته.

طلبتْ شاودريك اثنيْن من الرجال الموالين لها، فحضرَا على الفور. "اسمعاني، لقد قتلت أناندار"، قالتها بحسم، وقد اختارت أن تصارحَ رجليها المقربين بتلك النقطة، فمِن المرجّح أنّ الكثيرين سيستنتجون أنّ الوفاة غير طبيعية. نزل الخبرُ على الرجلين كالصاعقة، لكنّها تداركتهما سريعًا وهي تشرح أسبابَ قرارها ودوافعَه الإنسانية والسياسية والدينية. ظلّت بهما حتّى اقتنعا تمامًا ثمّ أبلغتهما بخطّتها للسيطرة على القصر، ثمّ السيطرة على مملكة أناندار بالكامل.

***

٥٤

كان (عمر) وماندريك في الاجتماع التحضيري الأخير قبل الذهاب إلى المفاوضاتِ المباشرة التي سيجتمعُ فيها مع قادةِ الحكومة الأديتية وشاودريك- التي ورثتْ إمبراطورية أناندار- ومساعدها الأوّل، وممثلين عن بقية الفصائل الصغرى المتناحرة في بعض المناطق.

مضى ستةُ أشهر على مصرع أناندار، وقد خرجت شاودريك بعدها بفترة قصيرةٍ مؤكّدةً أنّها ورجالها قد انقلبوا على أناندار من أجل الصالح العام، وأنّهم على استعدادٍ للتفاوض. استطاعت شاودريك السيطرةَ على كلّ ما كان أناندار يمتلكه، فقد كانت تعرف كلّ خباياه، كما أنّ نسبة غيرُ قليلة من الرجال كانوا يحترمون خلفيتها الدّينية التي تمثل لهم قيمةً كبرى.

بدأتِ المفاوضات التحضيرية قبلَ عدّة أشهر، وكانت تُجرَى عن طريق اتّصالات مرئية تنخرطُ فيها أطرافٌ دولية أيضًا. أبدتْ كلّ الأطراف الدولية استعدادَها للقبول بدولةٍ جديدة مكان أديتيا أيًّا كان الاسمُ الذي سيطلقها عليها المتفاوضون، وأنّه في حال وصول الأطراف المتنازعة إلى صيغةٍ توافقية فإن هذه الدّول ستساعد الدولة الناشئة وتقيم معها علاقات طبيعية.

في البداية عارضتِ الدّول التي تضمّ الأرض المحتلة مثل مصر وتركيا وسوريا وغيرها فكرةَ اتّحاد أجزاء من بلادهم في كيانٍ جديد، لكنّهم في النهاية غلّبوا مصلحةَ الشّعب المحاصر داخلَ تلك الأرض، والذي يعيش تحتَ حجرٍ

صحي دولي، ويحتاج أن يتّحدَ مكوّنًا دولة تستطيع رعايةَ مصالح الموجودين فيها.

كان الاتّفاقُ الذي ارتضته تلك الدولُ هو الموافقةَ على قيام الدولة الجديدة واستمرارها طالما ظلّ الخطرُ الصّحي موجودًا. اشترطت تلك الدولُ أنه في حال زوالِ سببِ ذلك الحجر الصحي- ولو بعدَ مائة عام- أن يتمّ إجراءُ استفتاء. يعطي ذلكَ الاستفتاء حقَّ تقرير المصير للشعب في كلّ منطقة من مناطق أديتيا، والاختيار بين العودة للدولة الأصلية والاستمرار في أديتيا.

في الاجتماع، كان (عمر) يؤكّد لجميع رفاقه أنّ الحلّ لن يتمّ إلّا بنسيان الماضي، وذلك بالتغافل عمّا جرى خلال أربعة أعوام من القتال الداخلي، وأحد عشرَ عامًا من الاحتلال وممارساته. كان لبعض الرجال رأيٌ في استبعاد كلّ من شاركَ في ممارساتٍ قمعية من الانخراط في الحكم، واستبعاد شاودريك كذلك، وأن يكونَ تنازلها هي ورجالها مقابلَ العفو عنهم، والقبول بهم كمواطنين عاديين. قال ماندريك: "لو بدأنا باستبعادِ هذا وذاك فلنْ تنتهي القوائم، سنضع أسماء نستبعدها ويضعونَ هم أسماء ولن ننتهي".

ظلّ (عمر) صامتًا محاولًا إعطاءَ ماندريك فرصة أكبر فقد كان أغلب المُعترضين من الأديتيين، بينما كان غالب الأرضيين موافقين. كان السبب كما قال سامرُ اللبناني: "إنّ مشكلتنا الأكبر كانت في تقبل وجود الأديتيين بيننا والحياة معهم جنبًا إلى جنب- مع احترامي لأصدقائنا من المقاومة بالطبع- مادمنا قبلنا بالعيش المُشترك مع جنسٍ أتى إلينا من الفضاء؛ فلا بدّ أن نقبل

بالتعايش مع من أخطأ والتّجاوز عن ماضيه". ردّت عليه إحدى الأديتيين قائلة: "لكن هناك جرائم لا تُغتَفر". فقال سامرُ بحدّة: "جميعنا ارتكبَ جرائمَ في وقت من الأوقات، وكلنا أطلق رصاصًا، أو فجّر قذائف أصابتْ مدنيين في إحدى المرّات، لا بدّ من التغافل لإنهاء هذا الكابوس، لصالح الناس يا سيدتي".

التقطَ خيطَ الحديث رجلٌ فلسطينيّ يُدعى عمّار قائلًا: "دعوني أتحدّث فأنا من بلدٍ لها تاريخٌ عريق مع مسألة كتلك. أنتم بالتأكيد تعرفون تاريخنا مع الاحتلال والاستيطان الذي سطا على بلادنا، والموقف اليوم ليس بعيدًا عن موقفنا مع الإسرائيليين، لكنّنا ابتلينا جميعًا بفيروس جعلنا مُجبرين على العيش في مساحة من الأرض مُغلقة علينا بإحكام، يجب أن نتّحد وننسى ما مضى لأنّ هذا هو السبيل الوحيد. أبي وجدّي ماتا وهمَا يقاومان الاحتلال، لكنّني أجزم أنّهم لو وجدوا فرصة يعيشون فيها بسلام ويسمح بعودة أهاليهم من الشّتات، ويكون لهم نفسُ الحقوق؛ فلن يمانعوا، لقد عرضنا على أعدائنا ذلك في وقتها، قلنا أعطونا أرضَنا وقدسنا وأعيدوا لاجئينا، وسنعيش بسلام، لكنّهم كانوا عدوًّا بغيضًا؛ السلام الذي يعرضونه لا يتضمّن أيّ حقوق لنا، ولا حتّى في المياه التي نريد بها ريّ زروعنا، بل إنّهم كانوا يدّعون أنّهم يعرضون السلام وفي نفس الوقت يهدمون قرانَا، ويبنون بدلًا منها مستعمراتٍ لهم. اليوم هناك فرصةٌ للسلام حقيقة لا مجازًا أو شعارًا بين أعراق كثيرة سيكون للجميع نفسُ الحقوق والواجبات، سيكون الأديتي والعربي والتركي وغيرهم متساوين، ماذا نريد غير ذلك؟!".

نظرَ إليه (عمر) بابتسامة واسعة يشوبها بعضُ الفخر، خاصّة حين رأى الجميعَ قد صمتَ واستجاب لكلمة الرجل التي كانت خطابية بعض الشيء، لكن حماسها كان صادقًا آسرًا.

انتهى الاجتماع، وتوجّه (عمر) إلى المخيّم ليبيت ليلته قبلَ الذهاب إلى مقرّ الاجتماع في بورسعيد. وصلَ واستقبلته (ميْساء) وعلى كتفها طفلتها التي تلقفها جدّها بحنان بالغ ولهفة شديدة. نبّهته (ميْساء) ألّا ينسى (علاء) في غمرة احتفائه بكاميليا، فعلاء معتادٌ على تدليله، وقد يؤثر الإهمالُ على نفسيته وقالت هامسة: "يكفي أنّه يعيش في مخيم". فضحك (عمر) وهو يناولها كاميليا ويلتقط (علاء) مداعبًا إيّاه، ثمّ قال لها: "يا لك من زوجة أب حنون، وأنا مَن كان يخشى على علاء مِن زوجة الأب الشّريرة". نظرت له معاتبة، فقال لها ضاحكًا: "أمزح معك، أين أمّك؟". فقالت: "لا تزال تراجع مرضاها".

كانت (ميْساء) قد انخرطتْ في أعمال داخلية بعيدة عن القتال. أمضت عامًا في إجازةٍ للعناية بكاميليا، ثمّ عادت لتعمل رئيسة لدائرة حفظ الأمن في غرب الإسكندرية. وصل (باسل) بعد (عمر) بقليل، وجلس يناقش معه أشياء تخصّ التفاوض، فسألته ميساء: "هل ستذهب مع أبي إلى هناك؟". فسألها عمر: "ألم يخبرْك باسل، لقد عيّنته مساعدًا لي". نظرتْ لباسل معاتبة، فأقسم أنّه لم يعرف بالخبر إلّا اليوم، وأنّه كان سيخبرها لولا أنه انشغلَ في نقاش بعض الأمور مع أبيها.

عادتْ زهرة وتلقّاها (عمر) بعبارات غزليّة احمرّ لها وجهها، وقالت: "ألن تعقل أبدًا، أوشكتَ على السبعين". فقال لها: "نعم، والعجوز السبعيني مثلي

عادة ما يفقدُ صوابه حين يرى صبيّة حسناء غيداء هيفاء مثلك". ضحكوا جميعًا وقالت (ميْساء) لباسل: "هل تستطيع أن تقولَ مثل هذا الكلام، يا لقلّة حظي".

في اللقاء التفاوضي، كانت الأجواءُ تدعو للتفاؤل. حين دخلت شاودريك للقاعةِ قبلَ بدء الاجتماع توجّهت مباشرة إلى عمر. حيّته بشدة، وسلّمت عليه بحرارة، ثمّ قالت: "أتعرفُ أيها العزيز عمر أنّك مَن عجّل بقتل أناندار!". فسألها عمرُ مدهوشًا: "وما دخلي أنا؟!". فقالت: "قلتُ له جُملتك الأثيرة عن ثمن النجاة غير أنّني أخطأت وقلت إنّ التنازل هو ثمنُ النّجاة بدلًا من التّعايش". فقال عمر بلهجة شابتْها السخرية: "وغضبَ منك فقمت بقتله!". فأجابته دون أن تفهمَ السخرية: "كلّا بالطّبع، لكنه كشفَ عن نواياه بالمضيّ إلى أقصى حدّ من أجل طموحاته حتّى لو قتلَ كلّ الشعب أو أماته جوعًا". فقال عمر: "على العموم، أنت لم تخطئي كثيرًا فالتّعايشُ هو نوع من التنازل على أي حال".

دارتْ جولات طويلة من المفاوضات العصيبة وكان أكثرها تعقيدًا هي المشكلاتِ الأزلية بين الأعراق البشرية. كانوا يتسامحون مع النياندرتال ولا يتسامحونَ معًا في نقاط اختلافهم، في النهاية طرحَ ماندريك فكرة أن كلّ المناطق المُتنازع عليها بين الأرضيين يقوم بحكمِها أديتيون، تكون قوات الشرطة فيها من الأديتيين حصرًا، والقيادات العليا في دواوين الحكومة والبلدية كذلك. كانت القدس المثالَ الأوضح لذلك، والأصعبَ في الوقت ذاته، وحين وافق الجميع على تلك الخطّة في مدينة القدس صارت بقيةُ المشكلات في أماكن أخرى سريعة الحل.

أخذَ المتفاوضون عدةَ أيام حتّى اتفقوا على الاسم الرسمي للدولة، واتفقوا في النّهاية على تسميتها "جمهورية شرق المتوسط". شَكّلوا مجلس حكم انتقالي أدار البلادَ طوال فترة انتقالية مدّتها عام، ثمّ تمّ التحضير لانتخابات عامة. أصرّ الأرضيون على نظام ديموقراطي، وأعطوا للأديتيين عدة اختيارات لأنظمة حكم مُعتادة علىً كوكب الأرض، واختار الأديتيون نظامَ حكمٍ مختلط يكون للرئيس فيه بعضُ الصلاحيات، وللوزارة صلاحيات أخرى.

ترشّح (عمر) للانتخابات الرئاسية تحتَ إلحاح من الكثيرين حتّى شاودريك أرسلتْ إليه رسالة تطلب منه الترشّح. كانت شاودريك تحاول الابتعادَ عن المناصب العليا في المرحلة الأولى بعد أنِ اتّفقت في المفاوضات على أن ينضمّ مقاتلوها للجيش الرسمي مقابلَ أن تحتفظ ببعض أعمالها وممتلكاتها التي ورثتها عن أناندار. كانت تخطّط لإنشاء حزبٍ سياسي، ولكنْ في مرحلة لاحقة بعد أن تستقرّ الأمور وينسى الناسُ ماضيها مع أناندار.

فازَ (عمر) بالانتخابات وصارَ عمر عوض الله أول رئيس منتخب لجمهورية شرق المتوسط. كان خبرًا أسعدَ الجميع أرضيين وأديتيين، فقد كان عمر يحظَى باحترام وحبِّ غالبية مَن يعيشون داخل الدولة الجديدة. كان مقرّ الرئاسة ومقرّ إقامته وأسرته في القاهرة مكانَ أحدِ القصور التي شيّدها النياندرتال أوّلَ ما وصلوا للأرض، وجعلوه مقرًّا لحاكمهم.

قبلَ أن يقوم بإلقاء خطابِ تولّيه الحكم جلس (باسل) معه يراجع بعض النقاط لكنّ (عمر) قاطعه متبرّمًا وهو يقول: "دعك من هذا، سوف أتحدّث من قلبي، فأنا لا أجيدُ الرّسميات". وضع (باسل) الأوراق على فخذه،

ونظر له مبتسمًا، فسأله "ماذا هناك؟". فقال باسل: "نحن في لحظةٍ تاريخية كبيرة جدًّا، لا أتخيّل حقًّا أنني أعيشها أشعرُ أنّك مثل ياسر عرفات حين عادَ إلى فلسطين أوّل مرة، أو مثل نيلسون مانديلا حينَ صار يحكم البلدَ الذي كان يعيش فيه مضطهَدًا".

ضحك (عمر) وقال مازحًا: "الأمر مختلفٌ يا باسل، أنت زوج ابنتي وأكثر مِن ابن لي، ولا تحتاج أن تتملّقني". هزّ (باسل) رأسه نافيًا بشدّة تلك التهمة رغم أنّها مزحة، فقال عمر: "ياسر عرفات كان عائدًا ليحكم أهله فقط في سلام غير مكتملٍ أدّى بعد ذلك لانتفاضة ثانية كما تعرف، لكنّنا في مرحلة مختلفة، نحن في دولةٍ صرنا نحن فيها مَن يحكم المحتلين، تخيّل معي لو كان أبا عمار عائدًا إلى القدس ليحكم فلسطين التاريخية كلّها عربًا ويهودًا، هذا هو حالنا الآن، وهو أقرب إلى مانديلا إنْ أردت رأيي". رفع (باسل) حاجبيه مندهشًا من الرّد، لكن قبل أن يتكلّم قال عمرُ مقاطعًا: "لا أقصد أنْ أمدحَ نفسي يا بني، أنا أبسطُ كثيرًا من هذين الرّجلين، إنّما أردت أن أوضّح لك أنّنا في موقف مختلف، ولولا ذلك الفيروسُ الذي أطلقه أناندار لَمَا كنّا وصلنا لتلك النقطة، أنا لستُ زعيمًا يا (باسل)، أنا رجل عادي وضعتني الظروفُ في هذا الموقف". فقال باسل بنبرة فخر: "كلّ الزعماء العظام الحقيقيّين كانوا يروْن أنفسهم بشرًا عاديّين بسطاء، وربما كان هذا سرّ عظمتكم".

توجّه (عمر) للمكان الذي سيلقي منه خطابه، وأخذ زهرة في يده ثمّ أوقفها جوارَه على يمين المنصّة، وبدأ خطابه قائلًا: "قبل أن أحدّثكم عن الغد، دعوني أقصّ عليكم قصّة من الماضي. لقد بدأت رحلتي هذه بتحدّ

وضعني فيه بعض الأشخاص أنا وامرأةٌ جميلة تقفُ جانبي الآن، كان الخيارُ صعبًا بين الحرية العسيرة والعبودية المريحة، واخترنا الحرية، وساعدنا عليها رجالٌ شرفاء من الأديتيين أخرجونا من تلك المحنة بسلام. أنا وأنتم جميعًا خضْنا أيامًا عسيرة، تعاونا وتقاتلنا، اتفقنا واختلفنا، مرّت علينا سنين نكافحُ احتلالًا، وسنين أخرى نتقاتل فيما بيننا، لكننا في النّهاية وصلنا لحكمةٍ واحدة؛ أنّ التعايش وقبولَ بعضنا البعض هو ثمن النجاة. أن احترامَ عرق الآخر وأفكارِه ودينِه هو أمرٌ لا غنى عنه من أجل العيش المشترك وهو البديل الوحيدَ للفناء، أنّ تقديس حقّ الحياة أكثر أمرٌ تتّفق عليه كلّ الأديان أرضية وأديتية، وينبغي أن يكون ماثلًا أمام عيوننا، دعونا نبني غدًا أفضل في دولتنا الوليدة، دعونا نستثمرُ مصادر طاقتنا وعلومنا جميعًا، نزرع أرضنا معًا ونصنع مستقبلنا معًا بدون كراهية، دعونا نستثمرُ الحبّ ليكون وقودَ أيامنا القادمة".

[تمّت بحمْد الله]